

علي حسن غلوم

ميثولوجيا الخضر



دار النسخة البيضاء





علي حسن غلوم

ميتولوجيا الخضر





الطبعة الثانية

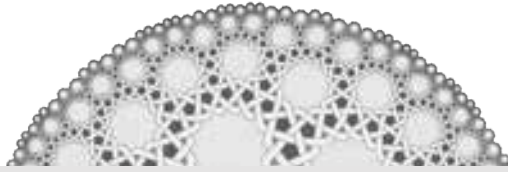
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١

alwalaa66@yahoo.com

www.alwalaa.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



محتويات الكتاب



١٣	 مقدمة الطبعة الأولى
١٧	 مقدمة الطبعة الثانية
	الفصل الأول: بحوث تمهيدية
٢٢	 البحث التمهيدي الأول: أهداف القصص القرآني
٢٣	 قصة هابيل وقايل
٢٥	 هارون وعبادة العجل
٣٠	 ادخلوا الأرض المقدسة
٣٥	 الأنبياء العرب
٣٧	 أصحاب الكهف والرقيم
٤٣	 البحث التمهيدي الثاني: القصص ودورهم التخريبي
٤٦	 الآثار السلبية
٥٠	 الموقف من القصص
٥٥	 البحث التمهيدي الثالث: الإسرائيليات والمسيحيات
٥٦	 مفهوم الإسرائيليات
٥٨	 الدوافع والآثار السلبية
٦٢	 الأساليب الماكرة
٦٧	 كعب الأحبار
٧١	 إسرائيلييات القصص القرآني
٧٥	 مرويات النصارى
٧٦	 البداية
٧٧	 العرب النصارى
٨٧	 طوائف النصارى
٨٨	 قصص قرآنية
٩٦	 وفود النصارى
٩٩	 عهود ومصالحات
١٠١	 الداري وحديث الجساسة

١٠٥	ابن جريج الرومي الأموي
١٠٩	وهب بن منبه
	البحث التمهيدي الرابع: المعاجز وخرق القوانين الكونية
١١٦	خلاصة حول المعاجز والكرامات
	الفصل الثاني: فرضيات مختلفة
١٣٠	قصة موسى والعبد الصالح
١٣٨	الأحاديث وسبب التخطيط للقاء
١٤٣	آراء العلماء والمفسرين
١٤٦	رأي شخصي
١٤٩	الهدف من سرد القصة
١٥١	إشكاليات وتساؤلات
١٥٢	موسى في القصة
١٥٥	العبد الصالح في القصة
١٦٢	أسئلة متفرقة
١٦٧	مع العلامة الطباطبائي
١٧١	أعلمية العبد الصالح
١٧٨	ختام الفصل
	الفصل الثالث: إيليا أم مار جرجس
١٨٣	الاحتمال الأول
١٨٤	من هو النبي إيليا؟
١٧٨	إيليا في التراث المسيحي
١٩٣	إيليا في القرآن الكريم
١٩٦	إيليا في التراث الإسلامي
٢٠٥	إيليا في كلمات العلماء
٢٠٩	من هو النبي أليشع؟
٢٠٩	أحداث قصة الرحلة

٢١٧	تطابق الشخصيتين
٢١٩	مقولة اليهود باتحاد الشخصيتين
٢٢٣	رأي الطائفة الدرزية
٢٢٥	الاحتمال الثاني
٢٢٧	أسطورة جرجس والتنين
٢٢٨	مقتل القديس جرجس
٢٢٩	جرجس الشفيع
٢٣٦	رأي الطائفة النصيرية العلوية
٢٣٦	زاوية الخضر وإلياس
٢٣٨	مقام الخضر في جامع الكوفة
٢٤١	مقام الخضر جنوب دمشق
٢٤٢	مقام الخضر في فيلكا
٢٤٩	مسجد الخضر في تاروت
٢٥٣	مقام خضر إلياس ببغداد
٢٥٥	جرجس والعبد الصالح

الفصل الرابع: الخضر في التراث الإسلامي

٢٥٩	مقدمة
٢٦٠	اسم الخضر ونسبه
٢٦٢	سبب تلقيبه بالخضر
٢٦٤	هل كان نبياً ؟
٢٦٦	سبب عمره الطويل
٢٦٧	أسطورة جلجامش
٢٧٣	القرآن والخلود
٢٧٥	الأحاديث والخلود
٢٨٦	علمه الواسع
٢٨٨	أخباره في الأمم السالفة

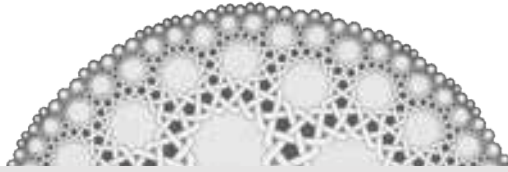
٣٠٥	 من شؤونه وأحواله
٣١٤	 لقاءاته بالنبي والأئمة
٣٤١	 قولٌ فصل

الفصل الخامس: الخضر عند الصوفية

٣٤٥	 تعريف التصوف
٣٥٦	 الصوفية والقَصّ
٣٦٧	 الخضر في الفكر الصوفي
٣٦٨	 الخضر عند الشيخ الأكبر
٣٧٠	 مراتب الخضر
٣٧٦	 الخضر عند الأتراك
٣٧٩	 قراءة في الرؤية الصوفية
٣٨١	 ماء الحياة والكأس المقدسة

الفصل السادس: نتائج مستخلصة

٣٩٢	 المسار التاريخي
٣٩٩	 ملحق الصور
٤٢٧	 مصادر الكتاب



مقدمة الكتاب



مقدمة الطبعة الأولى

حفل القرآن الكريم بالعديد من قصص الأنبياء والأمم الغابرة، إلا أنه لم يلف الغموض في حقيقة الشخصيات والزمن التي وقعت فيها الأحداث ما دار حول قصة النبي موسى والعبد الصالح (عليهما السلام)، وقصة ذي القرنين، وهاروت وماروت.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم في استعراضه للقصص والشخصيات والأحداث إنما كان يهدف للتركيز على الجوانب القيّمية فيها وأخذ العبرة منها، ولذا فهو يهمل الكثير من التفاصيل، ويركّز على ما يخدم الرسالة لاسيما بلحاظ نزول القرآن نجوماً على مدى ثلاث وعشرين سنة تقريباً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^(١).

وقد أكدت آيات القرآن المجيد على الحقيقة السابقة إذ قال (عز وجل): ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

١. القرآن الكريم: سورة الفرقان: ٣٢.

٢. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

وقال «عز وجل»: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال «عز وجل»: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقد مال بعض المفسرين إلى عدم الخوض في تحقيق الشخصيات والأزمنة والأحداث المتعلقة بتلك القصص، وإرجاع علمها إلى الله «عز وجل»، إلا أن انتشار الكثير من الأساطير حولها، وانعكاساتها الطقوسية أحياناً لدى بعض المسلمين والتي ترتقي بمرور الزمان لتكون في مصاف الحقائق والمعارف الدينية لدى عامة الناس، بل وحتى عند الخاصة أحياناً، علاوة على الشوق المعرفي الذي يملك الإنسان وهو يتفكر في القصص القرآني وتقييم الأحاديث الكثيرة المبنوثة حول تفاصيل تلك القصص، دفعني للبحث في محاولة للتحقق من هوية «الخضر» في التراث الإسلامي، هذه الشخصية التي يلفها الكثير من الغموض وترتبط بها - حسب بعض التصورات - معاجز وأحداث تاريخية مضت، بل وأحداث مستقبلية حاسمة.

وإنما يكون للخضر ارتباط بالقصص القرآني انطلاقاً من كونه العبد الصالح في القصة القرآنية التي جمعته مع النبي موسى «عليه السلام» وفق التصور المشهور، وبناء على كثير من الأحاديث والأقوال الخاصة بتفسير وتفصيل ما أجملته الآيات القرآنية في سورة الكهف، وهو ما سأناقشه ضمن بحوث هذا الكتاب.

وإذ كان حَسَم اتحاد شخصية العبد الصالح الواردة في القرآن بالخضر أو رفض ذلك موكل إلى ما ستؤول إليه نتائج البحث والدراسة في هذا الكتاب، لذا فإنني سألتزم في العرض والمقارنة بالمصطلح القرآني فقط، أي العبد الصالح، وهو المراد في كل ما يرد في هذا الكتاب تحت هذا العنوان.

١. القرآن الكريم: سورة يوسف: ١١١.

٢. القرآن الكريم: سورة هود: ١٢٠.

هذا، وإنني قد عملت على تقديم بحوث تمهيدية قبل الخوض في أصل الموضوع، وذلك لأهميتها في جلاء الصورة وتهيئة القارئ لما سيرد في البحث الخاص بالكشف عن هوية العبد الصالح وعلاقة هذه الشخصية بالخضر.

❖ البحث التمهيدي الأول: يختص ببيان أهداف القصص القرآني.

❖ البحث التمهيدي الثاني: يختص بالدور السلبي للقصّاصين في الموروث المعرفي الإسلامي.

❖ البحث التمهيدي الثالث: يختص بالدور السلبي للأحاديث الإسرائيلية والمسيحية في الموروث المعرفي الإسلامي.

❖ البحث التمهيدي الرابع: شرائط خرق القوانين والإتيان بالمعاجز من قبل الأنبياء والأولياء.

وقد جاءت هذه البحوث ضمن الفصل الأول من الكتاب تحت عنوان: «فصول تمهيدية».

كما وينقسم الكتاب إلى خمسة فصول أخرى وفق الترتيب التالي:

❖ الفصل الثاني: طرح الفرضيات المختلفة حول قصة النبي موسى والعبد الصالح كما جاءت في القرآن الكريم

❖ الفصل الثالث: الخضر.. هل هو النبي إيليا أم القديس مار جرجس؟

❖ الفصل الرابع: الخضر في التراث الإسلامي

❖ الفصل الخامس: الخضر عند الصوفية

❖ الفصل السادس: نتائج مستخلصة

وتشتمل هذه الدراسة أيضاً على تقييم لأسانيد الروايات التي ذكرتها في الكتاب بصورة مقتضبة، فإذا وجدت - غالباً - راوياً مجهولاً أو مضعفاً أو انقطاعاً في السند أو إرسالاً «أي عدم ذكر سند للرواية» أو عدم ثبوت نسبة الكتاب - المصدر

. لمؤلفه، ضعفت الرواية ولم أسترسل في دراسة بقية السند.

هذا بالنسبة إلى ما ورد في كتب أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) من المسلمين الشيعة الإثني عشرية، أما بالنسبة إلى مصادر إخواننا أهل السنة فإنني تجنبت التعرض لتضعيف أو تصحيح الأسانيد . إلا ما نقلته من مصنفات محققي وشارحي المصادر ككتاب فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر على سبيل المثال . مع إيكال الأمر لأصحاب الاختصاص لحسم مسألة تصحيح كل ما ورد في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الصحاح، إذ أن بعضاً من النصوص التي سنتعرض لها جاءت في تلك الكتب، وهو ما قد يُضفي عليها . وفق الآخذين بكل ما جاء فيها . اعتباراً علمياً غير قابل بالمساس مهما بدا مضمون الخبر غريباً أو متعارضاً مع نص أو ظاهر القرآن الكريم.

وختاماً، فقد جاء اسم الكتاب «ميثولوجيا الخضر» تماشياً مع الكم الهائل للأساطير التي أحاطت بهذه الشخصية في أصل وجودها، وفي تفاصيل سيرتها، حيث تعني الميثولوجيا «علم الأساطير».

علي حسن غلوم علي / الكويت

مقدمة الطبعة الثانية

كان للطبعة الأولى من الكتاب - وبحمد الله ومنه - انطباع جيد في أوساط عديدة، وهو ما جعلني أعيد قراءة المضمون بصورة إجمالية باحثاً عن بعض النقاط التي تحتاج إلى شيء من التدعيم والتفصيل.

وكانت سلسلة المحاضرات التي ألقيتها في إحدى المواسم الرمضانية حول غزوة مؤتة والبحث حول العرب النصارى، ومن ثمَّ السلسلة اللاحقة من المحاضرات والتي تناولت فيها حروب الردة، وبعض الحوارات التي دارت بيني وبين بعض الباحثين قد فتحت لي باباً لتغيير تصوُّري حول سعة تواجد النصارى في منطقة شبه الجزيرة العربية بما في ذلك اليمن وعمان وحضرموت ومهرة، وفي العراق والشام وسيناء، وبالتالي مدى تأثير خلفياتهم العقديّة والثقافية، ومراكزهم العبادية من أديرة وكنائس على الواقع الثقافى الإسلامى بعد رحيل النبي الأكرم ..

فمع تكثيف قراءاتي حول الموضوع، تبين لي أن التصور الشائع في أذهان الكثيرين حول مواطن التواجد النصراني في الجزيرة العربية على سبيل المثال ومحدوديتها في نجران وبعض المواطن القريبة من الحدود الشمالية المشتركة مع بلاد الشام، علاوة على أفراد تفرقوا في مكة والطائف، تصور خاطيء تماماً، وأن في شمال الجزيرة وجنوبها وشرقها بامتداد ساحل الخليج العربي - أي إقليم

البحرين - بما في ذلك هَجَر والقطيف - وفي عُمان - وكانت تشمل عُمان الحالية والإمارات العربية المتحدة - واليمامة، تواجد نصراني عربي كثيف، علاوة على تواجد كبير وملحوظ في نجد.

وإذا أضفنا إلى ما سبق أرض الجزيرة - أي الموصل - وتكريت نزولاً إلى وسط العراق وجنوبه إلى البصرة، ثم بادية السماوة وبادية الشام، وبلاد الشام امتداداً إلى جنوب تركيا، ثم سيناء كما ذكرنا مسبقاً، فسنعرف سعة امتداد تواجد النصارى العرب، وأن غالبية العرب حينذاك لم يكونوا من المشركين، بل كانوا من النصارى وإن اختلفت مذاهبهم بين النسطورية والمكانية والموحدين وغيرهم.

هذا التصور الجديد يبيّن سبب الحديث المتكرر في القرآن الكريم عن عقيدة التثليث والحديث عن السيد المسيح وأمه «عليهما السلام»، وعن النصارى بما يتجاوز حدّ المباهلة مع نصارى نجران ويسبقه تأريخاً، بل بعضه يعود إلى العهد المكي.

كما ويبيّن أن الآيات التي عنونت خطابها لـ «أهل الكتاب» لا تعني بالضرورة اليهود الذين كانوا يشاركون المسلمين الحياة في المدينة المنورة، بل هي تشمل النصارى الذين كانوا يعيشون في المجتمعات العربية المختلفة، المدنية منها والبدوية، والمحيط بالمدينة المنورة ومكة المكرمة من كل الجهات.

ومن هنا سندرك كيف تيسّر تحقق التداخل بين شخصية العبد الصالح في قصة لقائه بالنبي موسى «عليه السلام»، مع شخصية «جورج أو جرجس» المقدسة عند النصارى، بل وتداخلت المواقع التاريخية من أديرة ومقامات مسماة باسمه أو منسوبة إليه مع مقامات اعتنى بها المسلمون ونسبوها إلى العبد الصالح الذي افترضوه باسم «الخضر»، علماً بأن جرجس أو جورج يعني الخضر أيضاً!

وإذا أضفنا إلى ذلك الدور الذي قام به أرباب التصوف الإسلامي - بلحاظ كونهم ورثة الأديرة النصرانية وثقافتها ورهبانها - كوسطاء في نقل جوانب من التراث والقصص والفكر النصراني إلى الثقافة الإسلامية وتراثها، فسيوضح

لنا كيف سارت الأمور في الاتجاه الذي سنتوصل من خلاله إلى أن شخصية العبد الصالح في القصة القرآنية وتلبّسها بشخصية الخضر أو القديس جرجس وتداخلها معه قد تمت في سياق تأثر الحضارة الإسلامية بالخلفية الثقافية والدينية للمنطقة العربية بذاتها، وليس بسبب الروم أو أهل الحبشة أو غيرهم من نصارى الأمم الأخرى.

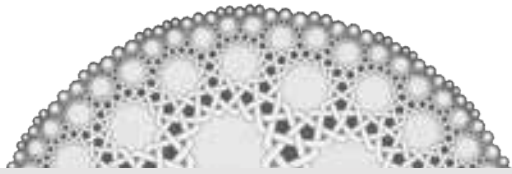
ولذا، فقد توسّعت قليلاً في الطبعة الثانية من الكتاب في الحديث عن النصارى العرب وتأثيرهم الثقافي، وتعرّضت إلى ملحمة «جلجامش» السومرية لتأثيرها على بعض المرويات الدخيلة على التراث الإسلامي حول قصة الخضر.

كما وأضفت بعض الملاحظات في الفصل المخصص للحديث عن المواقع الأثرية ذات العلاقة بشخصية الخضر بما يخدم البحث، ولاسيما فيما يخصّ مقام الخضر في جزيرة فيلكا في دولة الكويت، وقد أعانني في ذلك الأستاذ الباحث محمد السعيد من خلال توفير بعض المعلومات والمؤلّفات، فله الشكر.

أمل أن تكون هذه الإضافات مُثرية للكتاب وفي تجلي صورة الحقيقة الغائبة أكثر فأكثر. علماً بأنني قد عمدت في هذه الطبعة الثانية إلى تغيير «الفونت» المستعمل في الطباعة أيضاً، وهو ما قلّص من حجم الكتاب على الرغم من التوسع قليلاً في مضمونه.

علي حسن غلوم علي / الكويت





الفصل الأول



بحوث تمهيدية

❖ البحث التمهيدي الأول، أهداف القصص القرآني:

بالإضافة إلى الوظيفة الرسالية للقصص القرآني، تأتي بعض قصص الأنبياء - لاسيما أنبياء بني إسرائيل - والأمم الماضية في القرآن لتصحيح ما يطرحه أهل الكتاب - وخصوصاً اليهود - في كتبهم السماوية التي امتدت إليها يد التحريف والوضع، أو في كتبهم التي دونها أحبارهم ورهبانهم عبر القرون كشروح وتفسير أو إضافات وهوامش. وفي ما يلي أمثلة على ذلك:

❖ قصة هابيل وقابيل:

في العهد القديم من الكتاب المقدس: (وعرف آدم حواء امرأته^(١) فحبلت وولدت قايين^(٢)) وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب. وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه. فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. إن أحسنت

١. أي عاشرها معاشرة الأزواج

٢. وهو قابيل وفق النصوص الإسلامية.

أفلا رفع؟^(١) وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها. وكلم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم. أحارس أنا لأخي؟ فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلى من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهاً لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض. فقال قايين للرب: ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض. فيكون كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب: لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن. وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك..^(٢) إلخ القصة.

أما في القرآن الكريم فقد جاءت القصة كالتالي: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمَكَ فَتَكُونَ مِنَ الصَّاحِبِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾^(٣). وبمقارنة سريعة بين النصين

١. أي أفلا يرتفع وجهك، إن أحسنت التصرف .

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٤.

٣. القرآن الكريم: سورة المائدة: ٢٧-٣٢.

سنلاحظ أنهما متقاربان في صورتها العامة، إلا أنه يمكن تسجيل النقاط التالية:

١. الحوار بين الله وبين قاييل غائب في النص القرآني.
٢. في قوله: (ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض) دلالة على محدودية الله في وجوده وإحاطته وعلمه (عز وجل).
٣. بعض التفاصيل في بداية القصة التوراتية ونهايتها، كقضية الولادة ومستقر قاييل بعد ارتكابه لجريمته، وزواجه في أرض نود، وما يتعلق بنسله.. كل هذه التفاصيل لم يتعرض لها القرآن.
٤. ذكر القرآن دور الغراب في بيان جهل وعجز قاييل في التعامل مع جثمان أخيه، وهو ما لم تذكره القصة التوراتية.
٥. عبارة (لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه) بعد ارتكاب قايين «قاييل» للجريمة، وقد فسرها القس أنطونيوس فكري في شرحه للكتاب المقدس بقوله: (ربما أن قايين قتل دون أن يسمع من الله أن القتل ممنوع، لكن الآن فالله يسنّ تشريعاً بمنع القتل ومن يقتل - حتى للانتقام - سينتقم منه الله انتقاماً كاملاً: سبعة أضعاف)^(١). وهذه العبارة يقابلها في القرآن قوله (عز وجل): ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

❖ هارون وعبادة العجل:

في العهد القديم من الكتاب المقدس: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك

من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه. ونادى هارون وقال: غداً عيد للرب. فبكّروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة. وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب. فقال الرب لموسى: اذهب انزل. لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. وقال الرب لموسى: رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأقضيهم. فأصيرك شعباً عظيماً. فتضرّع موسى أمام الرب إلهه. وقال: لماذا يا رب يحمي غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجتهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض؟ ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك. اذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد. فقدم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده. لوحان مكتوبان على جانبيهما. من هنا ومن هنا كانا مكتوبين. واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين. وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه. فقال لموسى: صوت قتال في المحلة. فقال: ليس صوت صياح النصر ولا صوت صياح الكسرة. بل صوت غناء أنا سامع. وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص. فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل. وقال موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة؟ فقال هارون: لا يحم غضب سيدي. أنت تعرف الشعب أنه في شر. فقالوا لي اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأن هذا موسى الرجل

الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقلت لهم: مَنْ له ذهب فلينزعه ويعطني. فطرحته في النار فخرج هذا العجل. ولما رأى موسى الشعب أنه معرى. لأن هارون كان قد عراه للهزء بين مقاوميه^(١) وقف موسى في باب المحلة. وقال مَنْ للرب فألي. فاجتمع إليه جميع بني لاوي. فقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذيه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. وقال موسى املاؤا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه وبأخيه. فيعطيكم اليوم بركة^(٢). وكان في الغد أن موسى قال للشعب انتم قد أخطأتم خطية عظيمة فاصعد الآن إلى الرب لعلّي أكفر خطيتكم. فرجع موسى إلى الرب وقال آه قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب. والآن أن غفرت خطيتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت. فقال الرب لموسى من أخطأ إليّ أمحوه من كتابي. والآن اذهب اهد الشعب إلى حيث كلمتك هوذا ملاكي يسير أمامك ولكن في يوم افتقادي افتقد فيهم خطيتهم. فضرب الرب الشعب لأنهم صنعوا العجل الذي صنعه هرون^(٣).

أما في القرآن الكريم فقد جاءت القصة في أكثر من سورة:

١. قال «عز وجل»: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتَمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ، وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعْمًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنْ

١. هم العمالق الذين شاهدوهم في هذا الرقص العاري فهزأوا بهم بحسب تفسير القس فكري.

٢. تعني التكريس وخدمة الكهنوت. والمعنى هنا أن موسى يريد أن يقول لهم تكرسوا لله وقدموا له خدمة وأزيلوا هذا الشر حتى يصفح الله عنا.. بحسب تفسير القس فكري.

٣. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الإصحاح ٣٢.

الشَّاكِرِينَ، وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمُ بِأَحْسَنِهَا سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ، سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ، وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ، وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلِ وَإِيَّيَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ، وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكِنُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ^(١).

٢. وقال (عز وجل): ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ، فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفَطَالَ

عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي، قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِي، أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي، قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ، قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي، قَالَ يَا ابْنَ أُمٍّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي، قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا، إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا، كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا^(١).

٣. وقال (عز وجل): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(٢)﴾.

وبمقارنة النصوص سنجد فروقات عديدة، من بينها:

١. التوراة تؤكد أن هارون بن عمران هو الذي أشير عليه بعمل الأصنام، وأنه استجاب لقومه، بينما يبرئ القرآن النبي هارون وينسب العمل للسامري الذي لم يرد ذكره نهائياً في القصة التوراتية. كما أن القرآن يبين سبب الموقف السلبي لهارون والمبرر المقبول الذي قدمه لسكوته تجاه ذلك الانحراف، بينما يكون هارون في القصة التوراتية هو الفاعل لذلك الانحراف.

١. القرآن الكريم: سورة طه: ٨٣-٩٩.

٢. القرآن الكريم: سورة البقرة: ٥٤.

٢. التوراة تنسب لهارون تسويله لبني إسرائيل بأن يتعرّوا أثناء طقوسهم الشريكية، مما جعلهم عرضةً للسخرية من قبل قبيلة العماليق العربية، ولا أثر لذلك في القصة القرآنية.

٣. التوراة تنسب طلب النبي موسى من الله أن يندم على غضبه ووعيده، وأن الله يندم بعد ذلك فعلاً!! جلا وعلا ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

٤. القصة التوراتية تجعل من يشوع مرافقاً لموسى في ذهابه إلى الميقات الإلهي، بينما لا تتعرض القصة القرآنية لذلك في أية سورة من السور.

٥. التوراة تذكر أن ما نزل على موسى في الميقات الإلهي عبارة عن لوحين، وأنهما (صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين.. فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل) بينما جاء التعبير القرآني بصيغة الجمع ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ... وَالْقَى الْأَلْوَاحَ... وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

وهناك ملاحظات عديدة أخرى عند المقارنة ترتبط بترتيب الأحداث وحول الألواح «أو اللوحين»، ولكن أكتفي بهذا المقدار طلباً للإيجاز. هذا، ومن الجدير بالذكر أن ما سبق لا يعني وقوع الاختلاف دائماً بين القصص في المصدرين، فقد تلتقي القصة القرآنية مع ما في التوراة لتأكيد مضمونها، وفيما يلي نماذج من ذلك:

❖ ادخلوا الأرض المقدسة:

في العهد القديم من الكتاب المقدس: (ثم كلم الرب موسى قائلاً: أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل. رجلاً واحداً لكل سبط من آبائهم ترسلون. كل واحد رئيس فيهم. فأرسلهم موسى من بركة فاران حسب قول الرب. كلهم رجال هم رؤساء بني إسرائيل وهذه أسماءهم).

وبعد ذكر أسمائهم: (هذه أسماء الرجال الذين أرسلهم موسى ليتجسسوا الأرض. ودعا موسى هوشع بن نون يشوع. فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل. انظروا الأرض ما هي؟ والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف؟ قليل أم كثير؟ وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها أجيدة أم ردية؟ وما هي المدن التي هو ساكن فيها أمخيمات أم محصون؟ وكيف هي الأرض أسمية أم هزيلة. أفياها شجر أم لا. وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض. وأما الأيام فكانت أيام باكورات العنب. فصعدوا وتجسسوا الأرض من برية صين إلى رحوب في مدخل حماة. صعدوا إلى الجنوب وأتوا إلى حبرون. وكان هناك أخيمان وشيشاي وتلماي بنو عناق. وأما حبرون فبنيت قبل صوعن مصر بسبع سنين. وأتوا إلى وادي أشكول وقطعوا من هناك زرجونة بعنقود واحد من العنب وحملوه بالدقارنة بين اثنين مع شئ من الرمان والتين. فدعي ذلك الموضع وادي أشكول بسبب العنقود الذي قطعه بنو إسرائيل من هناك. ثم رجعوا من تجسس الأرض بعد أربعين يوماً فساروا حتى أتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة بني إسرائيل إلى برية فاران إلى قادش وردوا إليهما خبراً وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض. وأخبروه وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جداً. وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن. لكن كالب أنصت الشعب إلى موسى^(١) وقال إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرين عليها. وأما الرجال الذين صعدوا معه^(٢) فقالوا لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا. فأشاعوا مذمة الأرض التي تجسسوها في بني إسرائيل قائلين الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها هي أرض تأكل سكانها.

١. أي أمرهم كالب أن ينصتوا إلى موسى .

٢. الجواسيس الذين أرسلهم موسى.

وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة. فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم. فرفضت كل الجماعة صوتهما وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف؟! تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر؟ فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر. فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني إسرائيل. ويشوع بن نون وكالب بن يفنة من الذين تجسسوا الأرض مزقاً ثيابهما وكلما كل جماعة بني إسرائيل قائلين. الأرض التي مررنا فيها لتجسسها الأرض جيدة جداً. إن سُرَّ بنا الرب يدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها أرضاً تفيض لبناً وعسلاً. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا. قد زال عنهم ظلمهم والرب معنا. لا تخافوهم. ولكن قال كل الجماعة أن يُرجموا بالحجارة! ثم ظهر مجد الرب في خيمة الاجتماع لكل بني إسرائيل. وقال الرب لموسى حتى متى يهينني هذا الشعب؟ وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟ إني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم. فقال موسى للرب فيسمع المصريون الذين أصعدت بقوتك هذا الشعب من وسطهم ويقولون لسكان هذه الأرض الذين قد سمعوا أنك يا رب في وسط هذا الشعب الذين أنت يا رب قد ظهرت لهم عيناً لعين وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً وعمود نار ليلاً. فإن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التي حلف لهم قتلهم في القفر. فالآن لتعظم قدرة سيدي كما تكلمت قائلاً الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع. اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى هنا. فقال الرب

قد صفحت حسب قولك. ولكن حي أنا فتملاً كل الأرض من مجد الرب. إن جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية وجربوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولي لن يروا الأرض التي حلفت لأبائهم. وجميع الذين أهانوني لا يرونها. وأما عبدي كالب فمن أجل أنه كانت معه روح أخرى وقد اتبعني تماماً أدخله إلى الأرض التي ذهب إليها وزرعه يرثها. وإذ العمالقة والكنعانيون ساكنون في الوادي فانصرفوا غداً وارتحلوا إلى القفر في طريق بحر «سوف»^(١) وكلم الرب موسى وهارون قائلاً حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتدمرة علي؟ قد سمعت تدمر بني إسرائيل الذي يتدمرونه علي. قل لهم حي أنا يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني. في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعداً الذين تدمروا علي. لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكنكم فيها ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون. وأما أطفالكم الذين قلتهم يكونون غنيمة فإني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها. فجتثكم أنتم تسقط في هذا القفر وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر. كعدد الأيام التي تجسستم فيها الأرض أربعين يوماً للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي. أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة علي. في هذا القفر يفنون وفيه يموتون. أما الرجال الذين أرسلهم موسى ليتجسسوا الأرض ورجعوا وتجسسوا عليه كل الجماعة بإشاعة المذمة على الأرض. فمات الرجال الذين أشاعوا المذمة الرديئة على الأرض بالوبا أمام الرب. وأما يشوع بن نون وكالب بن يفنة من أولئك الرجال الذين ذهبوا ليتجسسوا الأرض فعاشا^(٢).

وفي القرآن الكريم قال «عز وجل»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ،

١. البحر الأحمر .

٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الإصحاح ١٣.

يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ^(١).

والملاحظ فيما سبق أن الآيات أكدت على وجود رجلين من بينهما قالوا الحق وثبتنا مع موسى (عليه السلام) تماماً كما في سفر العدد مع الاختصار في التفاصيل الواردة في القصة القرآنية. ومما ينبغي تسجيله هنا، أن القصة القرآنية على خلاف موارد كثيرة من قصص التوراة:

١. لا تفصل الأحداث عن الإرادة الإلهية، بل تؤكد على القدرة والإحاطة الإلهية التي لا تفصل عن إرادة الإنسان وأفعاله.

٢. مفعمة بالتصريح والتلويح بالعبر المستقاة منها.

٣. تمزج بين القيم وبين القصة في بيان وأسلوب مميز.

٤. تهمل التفاصيل غير الضرورية بحسب الغاية من ذكر القصة، في الوقت الذي تستغرق فيه القصة التوراتية أحياناً في التفاصيل إلى حد غير متناسب مع كتاب يُفترض به أن يكون كتاب هداية، وذلك من قبيل النص المتعلق بولادة النبي داود (عليه السلام): (حدث في أيام حكم القضاة أنه صار جوع في الأرض، فذهب رجل من بيت لحم يهوذا ليتغرب في بلاد موآب هو وامراته وابناه. واسم الرجل أليمالك، واسم امرأته نعمي، واسما ابنيه محلون وكليون، أفراطيون من بيت لحم

١. القرآن الكريم: سورة المائدة: ٢٠-٢٦.

يهوداً. فأتوا إلى بلاد موآب وكانوا هناك. ومات أليمالك رجل نعمي، وبقيت هي وابناها. فأخذاً لهما امرأتين موآبيتين، اسم إحداهما عرفة واسم الأخرى راعوث. وأقاما هناك نحو عشر سنين. ثم ماتا كلاهما محلون وكليون، فتركت المرأة من ابنيها ومن رجلها. فقامت هي وكنتاهما ورجعت من بلاد موآب، لأنها سمعت في بلاد موآب أن الرب قد افتقد شعبه ليعطيهم خبزاً. وخرجت من المكان الذي كانت فيه وكنتاهما معها، وسرن في الطريق للرجوع إلى أرض يهوذا. فقالت نعمي لكنيتها: «اذهبا ارجعا كل واحدة إلى بيت أمها. وليصنع الرب معكما إحساناً كما صنعتما بالموتى وبى. وليعطكما الرب أن تجدا راحة كل واحدة في بيت رجلها». فقبلتهما، ورفعن أصواتهن وبكين... فأخذ بوعز راعوث امرأة ودخل عليها، فأعطاهما الرب حبلاً فولدت ابناً. فقالت النساء لنعمي: «مبارك الرب الذي لم يعدمك ولما اليوم لكي يدعى اسمه في إسرائيل. ويكون لك لإرجاع نفس وإعالة شيبتك. لأن كنتك التي أحبتك قد ولدته، وهي خير لك من سبعة بنين. فأخذت نعمي الولد ووضعتة في حضنها وصارت له مربية. وسمته الجارات اسماً قائلاً: قد ولد ابن لنعمي. ودعون اسمه عوبيد. هو أبو يسى أبي داود. وهذه مواليد فارص: فارص ولد حصرون، وحصرون ولد رام، ورام ولد عميناداب، وعميناداب ولد نحشون، ونحشون ولد سلمون، وسلمون ولد بوعز، وبوعز ولد عوبيد»^(١).

❖ الأنبياء العرب:

من الملاحظ أيضاً عند مقارنة قصص القرآن الكريم بقصص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، أننا لا نجد لبعض الأنبياء المذكورين في القرآن أي ذكر في كتب اليهود والنصارى، كما هو الحال بالنسبة إلى النبي صالح والنبي هود (عليهما السلام) والذين بُعثا إلى العرب، وقد يعود ذلك لأحد أو بعض الأسباب التالية:

١. تعصب اليهود لقوميتهم بشكل استثنائي، والله عز وجل لا يريد إثارتهم من

١. الكتاب المقدس: سفر راعوث، ١-٤.

خلال رسالته إليهم، بل هدايتهم، ولذا راعى هذا الأمر في مضمون الكتب التي نزلت على أنبيائهم لاسيما التوراة.

ولكن لربما يُقال أن العرب. أيضاً. عُرفوا بتعصبهم لقوميتهم، ولم يتمتع القرآن عن ذكر أنبياء بني إسرائيل، لاسيما النبي موسى (عليه السلام)، فقد ملأت قصصه سور القرآن.. ولكننا لو دققنا في الأمر أكثر فسنذكر أن تعصب اليهود مختلف تماماً عن أي تعصب آخر، وله عناوينه الدينية باعتبار إيمانهم بأنهم شعب الله المختار، وبالتالي فإن تعصبهم ذا الصبغة الدينية المتشددة يمتد ليشمل ما يخص الأنبياء (عليهم السلام) والرسالات السماوية.

٢. لأن العرب كانوا أعداء اليهود في زمن نزول النصوص على أنبياء بني إسرائيل، فلا مصلحة لذكر أنبياء العرب في خضم ذلك الصراع المحتدم. وهنا أيضاً قد يسجل البعض ملاحظته على هذا التعليل بأن يقال أن المسلمين أيضاً كانوا في صراع مع اليهود بدءاً من العام الثاني للهجرة، ومع هذا استمرت سور القرآن النازلة في المدينة المنورة بعد ذلك في ذكر أنبياء بني إسرائيل.. إلا أنه يمكن الرد على هذه الملاحظة بأن المسلمين لم يعيشوا عقدة الهوية العربية لدى الأنبياء والرسالات السماوية كما عاشها اليهود، بل ركز القرآن الكريم كثيراً على تنوع النبوات وتعددتها وضرورة الإيمان بها جميعاً، وأن إنكار أيٍّ منها هو إنكار للرسالة الإلهية النازلة على النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله)، باعتبار أنها الحلقة النهائية والأكمل في سلسلة الرسالات والشرائع السماوية. وفي الأحاديث ما يدل على أن النبي كان يتحدث عن النبي موسى (عليه السلام). - على سبيل المثال - بعنوان «أخي موسى». إضافةً إلى أن اليهود كانوا جزءاً من المجتمع المدني، وكانوا معنيين بالهداية أيضاً، شأنهم شأن المشركين في ذلك، ولذا كان في ذكر أنبياء بني إسرائيل ما يفترض به أن يستميلهم إلى الإسلام.

٣. لأن البيئة العربية ليست بيئتهم، وبالتالي لا يذكرهم الله في تلك الكتب

النازلة على أنبياء بني إسرائيل، كما لم يذكر القرآن الكريم أنبياء لا يعني أمرهم للعرب شيئاً.

ولكن يبدو أن هذا التبرير غير دقيق، لأن البيئة العربية كانت بيئتهم لاسيما بعد خروجهم من مصر وانتقالهم إلى بلاد الشام، فإن مواجهاتهم كانت في الأعم الأغلب - إن لم يكن جميعها - مع العرب القاطنين في تلك المناطق، كالعمالق واليبوسيين والكنعانيين غيرهم.

٤. أن أنبياء العرب ذُكروا في تلك الكتب إلا أن يد التحريف امتدت إليها - تعصّباً - ومحتها، وهو ما لا نستطيع إثباته بوجه، ويبقى مجرد احتمال وتخمين.. ولربما يكون العاملان الأول والثاني هما الأقرب للقبول.

❖ أصحاب الكهف والرقيم:

وهكذا لا نجد في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد أي ذكر لأصحاب الكهف والرقيم، بينما تحدث القرآن الكريم عنهم، ونزلت في شأنهم آيات، وسميت السورة بما جاء فيها: سورة الكهف، والسبب في ذلك أن الحادثة وقعت بعد عهد رسالة المسيح (عليه السلام) ونزول الإنجيل، وبالتالي لم يكن هناك كتاب سماوي لاحق ليذكر القصة سوى القرآن الكريم، ولذا اختص القرآن بها.

أما المصادر المسيحية لعهد ما بعد نزول الإنجيل فقد ذكرت القصة، ففي الموسوعة الكاثوليكية جاءت تحت عنوان The Seven Sleepers of Ephesus معتبرة أن دخولهم الكهف كان على عهد «دسيوس» Desius الذي حكم في الفترة ما بين ٢٤٩-٢٥١م، بينما كان ظهور أمرهم على عهد ثيودوسيوس^(١) الأول Theodosius الذي حكم بين ٣٧٩-٣٩٥م، أو ثيودوسيوس الثاني الذي حكم بين ٤٠٨-٤٥٠م، والذي أثّرت أبان حكمه قضية إحياء الموتى في يوم القيامة كمشكلة فكرية كبيرة انقسم على إثرها الناس يومذاك، ولم ينتصر أصحاب الرأي القائل

١. ومعنى اسمه بالعربية: عطا الله.

بحقيقة البعث الجسماني بعد الموت إلا حين أزاح أحد أهل المدينة الحجارة التي تغلق مدخل الكهف، فتفاجأ بوجود أولئك الفتية «السبعة» الذين ما لبثوا أن استيقظوا من ذلك السبات الذي طال قروناً من الزمان، ثم توالى الأحداث حتى كُشف أمرهم، وماتوا، وقرر الملك على أثر ذلك نقل جثامينهم وبناء أضرحة ذهبية عليها تخليداً لذكراهم، إلا أنهم تراءوا له في المنام طالبين منه الإبقاء عليهم في الكهف، فأغلق الكهف، وبُنيت عليه كنيسة. وقد اعتاد النصارى بعد ذلك على إحياء ذكراهم في الرابع من أغسطس وفي الثاني والعشرين من أكتوبر من كل عام^(١).

وللعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره الميزان، بحث حول هذه النقطة تحت عنوان «كلام حول قصة أصحاب الكهف»، وقسم بحثه إلى فصول، أشار في بعضها إلى نقاط مهمة تخدم بحثنا حول الخضر، وذلك بالتنبيه إلى أن كثيراً من التفاصيل حول القصة تدخل بمرور الزمان من خلال عوامل عديدة يغلب عليها الوضع والدس والتحريف والاعتماد على المصادر المجهولة أو غير الموثوقة، ولكنها في نهاية المطاف ترتسخ في الأذهان وكأنها جزء حقيقي لا ينفك عن القصة القرآنية، حيث ذكر أن قصة الكهف وردت مفصلة كاملة في عدة روايات عن الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، كرواية القمي ورواية ابن عباس ورواية عكرمة، ورواية مجاهد وقد أوردها في الدر المنثور، ورواية ابن إسحاق في العرائس وقد أوردها في البرهان، ورواية وهب بن منبه وقد أوردها في الدر المنثور، وفي الكامل من غير نسبة، ورواية النعمان بن بشير في أصحاب الرقيم وقد أوردها في الدر المنثور.

ثم أضاف أن الاختلافات كبيرة في متون هذه الروايات بحيث لا تكاد تتفق في جهة بارزة من جهات القصة، وأما الروايات الواردة في بعض جهات القصة كالمعرضة لزمان قيامهم والملك الذي قاموا في عهده ونسبهم وسمتهم وأسمائهم ووجه تسميتهم بأصحاب الرقيم إلى غير ذلك من جزئيات القصة فالاختلاف

1. www.newadvent.org/cathen/05496a.htm

فيها أشد والحصول فيها على ما تطمئن إليه النفس أصعب. والسبب العمدة في اختلاف هذه الأحاديث مضافاً إلى ما تطرق إلى أمثال هذه الروايات من الوضع والدس أمران: أحدهما: أن القصة مما اعتنت به أهل الكتاب كما يستفاد من رواياتها أن قريشاً تلقته عنهم وسألوا النبي (صلى الله عليه وآله) عنها، بل يستفاد من التماثيل وقد ذكرها أهل التاريخ عن النصارى ومن الصور الموجودة في كهوف شتى في بقاع الأرض المختلفة من آسيا وأوروبا وأفريقيا أن القصة اكتسبت بعد شهرة عالمية، ومن شأن القصص التي كذلك أن تتجلى لكل قوم في صورة تلائم ما عندهم من الآراء والعقائد وتختلف رواياتها.

واعتبر العلامة أن المسلمين قد بالغوا في أخذ الرواية وضبطها وتوسعوا فيه وأخذوا ما عند غيرهم كما أخذوا ما عند أنفسهم وخاصة وقد اختلط بهم قوم من علماء أهل الكتاب دخلوا في الإسلام كوهب بن منبه وكعب الأحبار وأخذ عنهم الصحابة والتابعون كثيراً من أخبار السابقين ثم أخذ الخلف عن السلف وعاملوا مع رواياتهم معاملة الأخبار الموقوفة عن النبي (صلى الله عليه وآله) فكانت بلوى. وثانيهما: أن دأب كلامه «تعالى» فيما يورده من القصص أن يقتصر على مختارات من نكاتها المهمة المؤثرة في إيفاء الغرض من غير أن يبسط القول بذكر متنها بالاستيفاء والتعرض لجميع جهاتها والأوضاع والأحوال المقارنة لها، فما كتاب الله بكتاب تاريخ وإنما هو كتاب هدى. وهذا من أوضح ما يعثر عليه المتدبر في القصص المذكورة في كلامه «تعالى» كالذي ورد فيه من قصة أصحاب الكهف والرقيم، فقد أورد أولاً شطراً من محاورتهم يشير إلى معنى قيامهم لله وثباتهم على كلمة الحق واعتزالهم الناس إثر ذلك ودخولهم الكهف ورقودهم فيه وكلبهم معهم دهرًا طويلاً ثم يذكر بعثهم من الرقدة ومحاوره ثانية لهم هي المؤدية إلى انكشاف حالهم وظهور أمرهم للناس. ثم يذكر إثار الناس عليهم بما يشير إلى توفيقهم ثانياً بعد حصول الغرض الإلهي، وما صُنِعَ بعد ذلك من اتخاذ مسجد عليهم هذا هو الذي جرى عليه كلامه «عز وجل». وقد أضرب عن ذكر أسمائهم

وأنسابهم وموالدهم وكيفية نشأتهم وما اتخذوه لأنفسهم من المشاغل وموقعهم من مجتمعهم وزمان قيامهم واعتزالهم واسم الملك الذي هربوا منه والمدينة التي خرجوا منها والقوم الذين كانوا فيهم واسم الكلب الذي لازمهم، وهل كان كلب صيد لهم أو كلب غنم للرعي؟ وما لونه؟ وقد أمعن فيه الروايات. إلى غير ذلك من الأمور التي لا يتوقف غرض الهداية على العلم بشئ منها كما يتوقف عليه غرض البحث التاريخي.

قال العلامة بعد ذلك أن المفسرين من السلف لما أخذوا في البحث عن آيات القصص راموا بيان اتصال الآيات بضم المتروك من أطراف القصص إلى المختار المأخوذ منها لتصاغ بذلك قصة كاملة الأجزاء مستوفاة الأطراف، فأدى اختلاف أنظارهم إلى اختلاف يشابه اختلاف النقل، فالأمر إلى ما نشاهده^(١).

وذكر العلامة الطباطبائي أيضاً في الفصل الثالث من تفسيره حول تأثير اختلاف مصادر غير المسلمين في تفاصيل القصة على القصة القرآنية أن القصة عند غير المسلمين: معظم أهل الرواية والتاريخ على أن القصة وقعت في الفترة بين النبي (صلى الله عليه وآله) وبين المسيح (عليه السلام)، ولذلك لم يرد ذكرها في كتب العهدين ولم يعتوره اليهود، وإن اشتملت عدة من الروايات على أن قريشاً تلقت القصة من اليهود، وإنما اهتم بها النصارى واعتوروها قديماً وحديثاً، وما نقل عنهم في القصة قريب مما أورده ابن إسحاق في العرائس عن ابن عباس، غير أن رواياتهم تختلف عن روايات المسلمين في أمور:

أحدها: أن المصادر السريانية تذكر عدد أصحاب الكهف ثمانية في حين يذكره المسلمون وكذا المصادر اليونانية والغربية سبعة.

ثانيها: أن قصتهم خالية من ذكر كلب أصحاب الكهف.

ثالثها: أنهم ذكروا أن مدة لبث أصحاب الكهف فيه مائتا سنة أو أقل، والمسلمون

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٢٩٠-٢٩٤.

يذكر معظمهم أنه ثلاثمائة وتسع سنين على ما هو ظاهر القرآن الكريم، والسبب في تحديدهم ذلك أنهم ذكروا أن الطاغية الذي كان يجبر الناس على عبادة الأصنام وقد هرب منه الفتية هو دقيوس الملك ٢٤٩ - ٢٥١ وقد استيقظ أهل الكهف على ما ذكروا سنة ٤٢٥ م أو سنة ٤٢٧ م أو سنة ٤٣٩ م، فلا يبقى للبثهم في الكهف إلا مائتا سنة أو أقل، وأول من ذكره من مؤرخيهم على ما يذكر هو «جيمس» الساروغي السرياني الذي ولد سنة ٤٥١ م ومات سنة ٥٢١ م، ثم أخذ عنه الآخرون^(١).

وجاء في هامش الفصل الرابع عند الحديث عن تحديد موقع الكهف أن الآثاري «رفيق وفا الدجاني» ألف كتاباً سماه «اكتشاف كهف أهل الكهف» نشره سنة ١٩٦٤ م تناول فيه تفاصيل الاكتشاف الذي تم لكهف أهل الكهف سنة ١٩٦٣ م، وأنه فصل القول فيه حول ما عاناه في البحث والتنقيب، والآثار التي اكتشفت مما يؤيد كون هذا الكهف هو كهف أصحاب الكهف الذي ورد ذكره في الكتاب العزيز، وأن الأمارات المذكورة فيه وسائر العلائم التي وجدت هناك تؤيد كونه هذا الكهف دون كهف أفسوس^(٢) والذي في دمشق أو البتراء أو اسكاندنافية.

وذكر العلامة أن الباحث الدجاني استقرب في كتابه أن الطاغية الذي هرب منه أصحاب الكهف فدخلوا الكهف هو «طراجان الملك ٩٨ - ١١٧ م» لا «دقيوس الملك ٢٤٩ - ٢٥١ م» الذي ذكره المسيحيون وبعض المسلمين، ولا «دقيانوس الملك ٢٨٥ - ٣٠٥» الذي ذكره بعض آخر من المسلمين في رواياتهم. واستدل عليه بأن الملك الصالح الذي بعث الله أصحاب الكهف في زمانه هو ثئودوسيوس الملك ٤٠٨ - ٤٥٠ بإجماع مؤرخي المسيحيين والمسلمين، وإذا طرحنا زمان الفترة الذي ذكره القرآن لنوم أهل الكهف وهي ٣٠٩ سنين من متوسط حكم هذا الملك الصالح وهو ٤٢١ بقي ١١٢ سنة، وصادف زمان حكم طراجان الملك، وقد أصدر طراجان في هذه السنة

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٢٩٥-٢٩٧.

٢. المصادر النصرانية - والقصة تتعلق بتاريخهم وهي معروفة وثبتة عندهم - حدّدت اسم المدينة التي جرت فيها الحادثة وهي أفسوس، وأطلقت على أصحاب الكهف عنوان القديسين السبعة النائمين في كهف أفسوس، ولذا أرى أن الأقرب والأوفق تاريخياً أن نلتزم بذلك.

مرسوماً يقضي أن كل عيسوي يرفض عبادة الآلهة يحاكم كخائن للدولة ويعرّض للموت. وأضاف الباحث الدجاني أنه بهذا الوجه يندفع اعتراض بعض مؤرخي المسيحيين كجيبون في كتاب «انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومية» على زمان لبث الفتية ٣٠٩ سنين المذكورة في القرآن بأنه لا يوافق ما ضبطه وأثبتته التاريخ أنهم بُعثوا في زمن حكم الملك الصالح ثئودوسيوس ٤٠٨ - ٤٥١ م، وقد دخلوا الكهف في زمن حكم دقيوس ٢٤٩ - ٢٥١ م، والفصل بين الحكمين مائتا سنة أو أقل.

وعلق العلامة على الكلام السابق معتبراً أن هذا التوجيه من الدجاني استدلال وجيه بيد أنه يتوجه عليه أمور:

منها: طرحه ٣٠٩ سنين المذكورة في القرآن وهي سنون قمرية على الظاهر، وكان ينبغي أن يعتبرها ٣٠٠ سنة لتكون شمسية فيطرحها من ٤٣٠ متوسط سني حكم الملك الصالح.

ومنها: أنه ذكر إجماع المؤرخين من المسلمين والمسيحيين على ظهور أمر الفتية في زمن حكم ثئودوسيوس، ولا إجماع هناك مع سكوت أكثر رواياتهم عن تسمية هذا الملك الصالح، ولم يذكره باسمه إلا قليل منهم، ولعلمهم أخذوا ذلك من مؤرخي المسيحيين، ولعل ذلك حدس منهم عما ينسب إلى جيمس الساروغي ٤٥٢ - ٥٢١ م أنه ذكر القصة في كتاب له ألفه سنة ٤٧٤ فطبقوا الملك على ثئودوسيوس، على أن مثل هذا الإجماع إجماعهم المركب على أن طاغيتهم إما دقيوس أو دقيانوس، فإنه ينفي على أي حال كونه هو «طراجان».

ومنها: أنه ذكر أن الصومعة التي على الكهف تدل البيانات الأثرية على كونها مبنية في زمن جستينوس الأول ٥١٨ - ٥٢٧ م، ولازم ذلك أن يكون بناؤها بعد مائة سنة تقريباً من ظهور أمر الفتية، وظاهر الكتاب العزيز أن بناءها مقارن لزمان إعتار الناس عليهم، وعلى هذا ينبغي أن يعتقد أن بناءها مجدد ما هو بالبناء الأولي عند ظهور أمرهم.

وأخيراً ختم العلامة بقوله: بعد هذا كله فالمشخصات التي وردت في القرآن الكريم للكهف أوضح انطباقاً على كهف الرجب من غيره^(١).

❖ البحث التمهيدي الثاني، القصاص ودورهم التخريبي:

القِصَّة: في اللغة هي الخبر، وأصلها من تتبّع الأثر. والقِصَص: الخبر المقصوص. والقِصَص: جمع القِصَّة التي تُكتب. والقِصَّة: الأمر والحديث. والقاص: الذي يأتي بالقِصَّة على وجهها كأنه يتتبّع معانيها وألفاظها.

وفي الاصطلاح عُرِفَت القصة بأنها: (فنّ حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود). والقاصّ بحسب تعريف ابن الجوزي: (هو الذي يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها وذلك القصص، وهذا في الغالب عبارة عمّن يروي أخبار الماضين)^(٢).

عرف العربُ القصاصَ قبل العهد الإسلامي، وكانوا يتجولون ويُحدثون بالقصاص من قبيل حروب العرب وأخبار العشاق، وبالأساطير التي يبتدعونها أو يأخذون أصولها من أحداث حقيقية من تاريخ العرب والرومان والفرس والقبط والسريان والبابليين، ومن الهند واليونان والصين، ومن اليهود والمسيحيين والصابئة، ومن ثم يقومون بإضافة الكثير من الأكاذيب والتخيلات إليها، فتمتزج الحقيقة بحكايات السحر والجن والكهانة والآلهة وأمثال ذلك. وكان هذا - بصورة عامة - مصدر رزق بالنسبة إليهم، أو وسيلة من وسائل الترفيه عن الآخرين. إلا أن القص في العهد الإسلامي أخذ بُدأً آخر حين أُعطي مضمونه صبغةً دينية من خلال نسبة القصة - زوراً - إلى النبي (صلى الله عليه وآله)، أو الإمام (عليه السلام)، أو الصحابي أو إلى كتاب سماوي أو أحد الأنبياء (عليهم السلام) الحقيقيين أو المزعومين في الأزمنة الغابرة.

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٢٩٧-٢٩٩.

٢. ابن الجوزي: القصاص والمذكّرين، ص ٦٦.

جاء في الموسوعة العربية تحت عنوان: «الأدب العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي»: (وثمة ضَرْب من هذه الخُطْب تختلط فيه المعاني السياسية بالمعاني الدينية، هو القصص. فكان القُصَّاص يرافقون الجيوش الغازية ويشيرون الحمية في النفوس عن طريق التمثل بالآيات القرآنية التي تحث على الجهاد وتذكير المجاهدين بما ينتظرهم عند الله من الثواب العظيم وربما استعانوا بأخبار فرسان العرب القدامى لتحقيق هذه الغاية... وإلى جانب القُصَّاص الذين كانوا يرافقون الحملات الغازية لحث الجند على الاستبسال في القتال وجدت جماعة أخرى من القصاص تلازم المساجد وتقوم بسرد القصص الديني وتفسير القرآن الكريم تفسيراً ممزوجاً بقصص الأنبياء وأخبار الأمم القديمة، وكان بعضهم يجنح إلى المبالغة والتزديد كي يستميلوا الناس إلى قصصهم)^(١).

وكان لبعض علماء أهل الكتاب ممن تظاهروا بالدخول في الإسلام، ثم من خلال من تتلمذ على أيديهم، ومن خلال من تبعهم لاحقاً، الدور في انتشار تلك القصص الأسطورية بين المسلمين وبصبغتها الدينية المقدسة، لتتحول بعد ذلك عندهم إلى مصدر من مصادر المعرفة.. بل والعقيدة أيضاً.

وقد تحدث هاشم معروف الحسني في كتابه «الموضوعات في الآثار والأخبار» عن دور ما أسماها بـ «العناصر الأجنبية المعادية للإسلام في وضع الحديث» معتبراً أن القصص والأحاديث قد أدخلت على الحديث وعلى تاريخ المسلمين الكثير من أساطير الأمم التي سبقت ظهور الإسلام، وأنها كانت ولا تزال وستبقى سلاحاً يعتمد عليها دعاة الهدم والتخريب ما دامت في بطون كتب الحديث والتاريخ إلى جانب الصحيح السليم فيها هنا وهناك.

ووجه أصابع الاتهام إلى جماعة ممن كانوا يعتنقون المسيحية واليهودية ونجحوا في الدس بين تعاليم الإسلام بعض الأساطير بقصد التشويش والتخريب،

وظهرت نتف منها في عصر الرسول صلى الله عليه وآله، ولكنه بحرصه على رسالته ورعايته استطاع أن يكشفهم، ويحبط دسائسهم. وكان من هؤلاء تميم الداري من نصارى اليمن الذين دخلوا الإسلام في السنة التاسعة من هجرة الرسول، وهو بطل أسطورة الجساسة والدجال^(١)، ووهب بن منبه المعروف بين المؤرخين والمحدثين بقصصه وأخباره عن الأمم والأديان، وكعب الأحبار الذي يعد أحد أعمدة وضع دس القصص الإسرائيلية والأساطير في التراث الإسلامي. وظلت حركة القصاصين تتسع مع الزمن حتى استغلهم الحكام لأغراضهم السياسية. وظل القصاص يتطور وينتشر حتى أصبح مورداً للمرتزقة ووسيلة من وسائل الاستجداء، فكان القصاص يحدث بعد الصلاة بالغرائب التي تلفت الأنظار إليه وتثير عواطف العامة، وينسب حديثه إلى الرسول صلى الله عليه وآله، والإمام «عليه السلام» ولا يرى في ذلك إثماً وزوراً، فإذا فرغ من حديثه بسط رداءه، فيدفع له كل إنسان حسب مقدرته، ولا يبالى بما تقوله الخاصة ما دام يجد من العامة من يسمع له، ويتطلع إلى هذا النوع من الحديث الذي يدر عليه العطاء ويمنحه احترام العامة وتقديرهم^(٢).

وأضاف محمود أبورية في كتابه «أضواء على السنة المحمدية» فئتان أخريتان بالإضافة إلى القصاص وعلماء أهل الكتاب كان لهم الدور في انتشار القصص الخرافية والمحرفة، قال: (ثم ظهر القصاص والزنادقة، وأهل الأخبار المتقدمة مما يشبه أحاديث خرافة، فوقع الشوب والفساد في الحديث من كل هذه الوجوه في عصور مختلفة، أما القصاص فإنهم كانوا يميلون وجوه القوم إليهم ويستدرّون ما عندهم بالمناكير والغرائب والأكاذيب من الأحاديث، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن قطر المعقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ويستغزر العيون، وللقوم في هذه الفنون الأكاذيب العريضة والأخبار المستفيضة. وأما الزنادقة فقد جعلوا يحتالون للإسلام ويهجنونه بدس الأحاديث المستشعة

١. انظر صحيح مسلم، ح ٢٩٤٢.

٢. الحسني: الموضوعات في الآثار والأخبار، ص ٢٠٧-٢١٠.

والمستحيلة مما يشبه خرافات اليونان والرومان وأساطير الهنود والفرس ليستنوعوا بذلك على أهل السنة في روايتهم ما لا يصح في العقول ولا يستقيم على النظر. وأما أهل الأخبار المتقدمة فقد قصدوا من ذلك إلى إثبات الخرافات الجاهلية وجعلها بسبيل من الصحة للاستعانة بها على التفسير وما إليه، وأمثلة ذلك كله فاشية^(١).

واعتنى الأمويون بالقص كوسيلة لدعم حكمهم من خلال بث القصص التي تسيء إلى معارضيهم، لاسيما آل علي والتي ترفع من شأن آل أمية وحلفائهم، بالإضافة إلى ترسيخ روح القومية العربية بأزاء القوميات الأخرى التي دخلت في الإسلام أو اندمجت في المجتمع الإسلامي مما دأب الأمويون على تشجيعه في مقابل التعاليم الإسلامية التي ساوت بين الناس ورفضت التمييز بالقومية أو بسواها.

عن غضيف بن الحرث قال: (بعث إلي عبد الملك بن مروان فقال: يا أبا سليمان إنا قد جمعنا الناس على أمرين فقال: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر)^(٢).

❖ الآثار السلبية:

وقد أفسدت هذه القصص الأسطورية معالم كثير من القصص القرآني ومفاهيمها الإيمانية من خلال التفاصيل الوهمية التي استغرقت فيها، لتُشبع فضول بعض المسلمين، أو لتُفسد عليهم دينهم، كما أضاعت معالم سنة النبي صلى الله عليه وآله من خلال وضع الحديث على لسانه دون أدنى تورّع.

قال ابن الجوزي وهو يتحدث عن أغراض الوضع في الحديث: (القصص ومعظم البلاء منهم يجرى، لأنهم يزيدون أحاديث تتقف^(٣) وترقق والصحاح يقل

١. أبورية: أضواء على السنة المحمدية، ص ٩٧.

٢. الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١، ح ٨٩٢.

٣. أي تُصلح السلوك وتؤدّب.

فيها هذا. ثم إن الحفظ يشق عليهم، ويتفق عدم الدين، ومن يحضرهم جهال، فيقولون. ولقد حكى لي فقيهان ثقتان عن بعض قصاص زماننا، وكان يُظهر النسك والتخشع أنه حكى لهما قال: قلت يوم عاشوراء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فعل اليوم كذا فله كذا، ومن فعل كذا فله كذا إلى آخر المجلس. فقالا له: ومن أين حفظت هذه الأحاديث؟ فقال: والله ما حفظتها، ولا أعرفها بل في وقتي قلتها! قال المصنّف: ولا جرم، ذلك القصاص شديد النعير ساقط الجاه لا يلتفت الناس إليه ولا له دنيا ولا آخرة»^(١).

وفي هذا الإطار اعتبر الباحث أحمد بن مبارك النوفلي في كتابه «أقانيم اللامعقول» أن الله «عز وجل» أنزل القرآن ليرسم من الإنسان إنساناً، ومن الروح روحاً، ومن القلب قلباً، ومن العقل عقلاً، ومن النفس نفساً، ومن الجسد جسداً، فلا يرفض الحقائق، إنه يقص علينا أحسن القصص، فلا آدم ولا نوح ولا إبراهيم ولا إسماعيل ولا إسحاق ولا يعقوب ولا يوسف ولا يونس ولا موسى ولا عيسى ولا محمد ولا جميع الأنبياء والرسل شخصيات أسطورية أو آلهة، بل هم بشر، لم يعيشوا في الزمن المقدس كما تعتبره الميثولوجيات، إنما عاشوا على هذه الأرض، فعليها مشوا، ومنها أكلوا، ومعها ومع من يعيش عليها تعاملوا، ومنا خلقوا، وفيها أعيدوا، ومنها يخرجون تارة أخرى، ورسموا تاريخاً عظيماً للبشرية، فحكى القرآن كل ذلك ثم قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢).

ومن المخاطرة إقحام الأساطير في سياق تعاطي النص القرآني بقصد أو بدون قصد، وكأن النص القرآني فيلم سينمائي فقدت بعض حلقاته، فجاء من جاء ليكمل من عالم الظنون والأوهام والأساطير ما ظنّه مفقوداً في فضاء النص القرآني. إن التعامل مع القصص القرآني بهذه اللغة الوهمية عمّق الفجوة بين

١. ابن الجوزي: الموضوعات الكبرى، ج ١، ص ٤٤.

٢. القرآن الكريم: سورة يوسف: ٣.

العقل البشري والنص القرآني، وحمل العقل ما لا يحتمل، وقبّل القرآن على العقل، والعقل على القرآن، فأحدث صراعاً محضوفاً بالمغامرة الخطرة، من اليقين إلى الشك، فكم من قصة خرافية وأسطورية أقحمت بين القصص القرآني بحجة أن فلاناً من الثقات رواها، وهل هناك ثقة أعظم من القرآن؟ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(١).

وأضاف النوفلي أنه لا وجود لفراغ في القرآن، ولا نقص فيه ولا خلل، فالنص القرآني نطق وحركة، وديناميكية مستمرة، فهو مساحة واسعة متسعة، لا ليسرح فيها المتخيّل الوهمي، ولا لتسدّ بأساطير «جلجامش أو «برغوشا»^(٢)، ينأى القرآن بنفسه وبمن يتدبره أن يهوي به في مكان سحيق، وإنما يحمله إلى عالم التدبر والتفكر والاستيعاب، فمساحة السكوت عنه حيّة لتحّي الكون، متحركة بحركة الفلك، متجددة بتجدد الأفهام والأفكار، حسب مقتضى حال الأزمنة والأمكنة.

حينما سيطر أقتوم الأسطورة على تفسير القصص القرآني أبعد الحكمة من منطوق القصة القرآنية، فحوّلها عن مقاصدها، وأحدثت مؤلفات القصص الروائي مغالطة في فهم الكتاب العزيز، فقراءة القصص القرآني لا للتسلية والمتعة، وإنما تذكير بالموعظة ودرس بالعبرة وأخذ للحكمة لتشد العلاقة بين الخالق والمخلوق، وبين الإنسان والكون، وبين المخلوقات بعضها لبعض، ولذا فمعانيه لا تنتهي، وكلماته تفيض على الدوام بالمفاهيم الديناميكية، فاستفاد منه السابق حسب فهمه لأزمانه، ويستوعبه اللاحق حسب معطيات عصره، فالكلي يرتوي منه ليشرح صدره بالإيمان، وينير عقله بالفهم، ويحركّ عالمه بالتجديد والفاعلية والتأثير. والنبى محمد صلى الله عليه وآله، لم يكن يعلم قصص الأنبياء السابقين، لكونه لا

١. القرآن الكريم: سورة النساء: ٨٧.

٢. جلجامش بطل أسطوري ورد اسمه في أسماء ملوك سومر كملك لمدينة أور، من الأسرة التي حكمت بعد الطوفان وسنتحدث عنه لاحقاً. وبرغوشا كاهن بابلي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ووضع العديد من المؤلفات باللغة اليونانية، وعرف باسمه اليوناني بيروسوس، ومن أهم مؤلفاته كتاب ضخّم عن تاريخ بابل وحضارتها، بيد أن الكتاب ضاع، وبقيت منه شذرات في بعض مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين.

يعلم الغيب، وحينما أوحى إليه القرآن الكريم قصص عليه أحداث الأمم السابقة، ومما قصّ عليه في سورة هود قصص الأنبياء السابقين كنوح وغيره، ثم قال الله له: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وحكى الله لنا قصة مريم وزكريا وعيسى (عليهم السلام)، في سورة آل عمران ثم قال بعدها لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله): ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٢). والمرويات الإسرائيلية أدخلت في كتب التفاسير وأبعدت الأفهام عن إدراك الحكمة والمقاصد القرآنية من ذكر القصص القرآني^(٣).

كما كان للقصص دور في تدمير أخلاق المسلمين ودفعهم نحو الشهوات المحرمة، فلقد أخذت مواد القصص الغرامية تتكاثر وتزايد بإطراد في أواخر العصر الأموي، حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية تعتمد على أغاني الغزل المشهورة من ناحية، كما تشبك بمختلف البواعث النابعة من آداب الأمم عامة من ناحية أخرى، ورواها العرب دون تحرّي مصادرها وإن سمّوا بعض الأشخاص من أبطال الغرام والعشق الذين لم يكونوا إلا من أبناء الخيال، وهذا الباب ترتب عليه ثقافة، وهذه الثقافة فتحت الطريق لأبواب أخرى تجد على أبوابها دعاة الصوفية والانعزالية.

وتجد الذين يستدرون عطف الحكام، وتجد الذين يطبخون علوم الكلام لتري على الموائد أصنافاً عديدة من أقوال مرجئة إلى أقوال قدرية إلى علوم يونانية، وكل هذا أملاه الواقع الجديد الذي بناه القصص^(٤).

١. القرآن الكريم: سورة هود: ٤٩.

٢. القرآن الكريم: سورة آل عمران: ٤٤.

٣. النوفلي: أقانيم اللامعقول، ج ١، ص ١٩٥-١٩٨.

٤. سعيد أيوب: معالم الفن، ج ١، ص ٣٤٠.

❖ الموقف من القصص:

اختلف موقف المسلمين من القصص بين مستعين بهم كعدد من الخلفاء والحكام الذين رأوا فيهم وسيلة من الوسائل الإعلامية التي يمكن توجيهها لصالح الحكم، وقد قدمت الحديث عن موقف الأمويين منهم كنموذج على ذلك، أو باعتبارها وسيلة من وسائل المعرفة التي تحتاج إليها أية حضارة تريد أن تنهض بمجتمعاتها ثقافياً.. وبين معارض لهذه الشريحة التي لا تتورع عن الكذب والافتراء وتشويه التاريخ وتحريف القصص القرآني والتلاعب في المعتقدات والشرعية والأخلاق.

قال ابن الجوزي: (وإنما كره بعض السلف القصص لأحد ستة أشياء، أحدها أن القوم كانوا على الاقتداء والاتباع، فكانوا إذا رأوا ما لم يكن على عهد رسول الله أنكره حتى أن أبا بكر وعمر لما أرادا جمع القرآن قال زيد: أتفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله؟ والثاني أن القصص لأخبار المتقدمين تنذر صحتهم، خصوصاً ما يُنقل عن بني إسرائيل، وفي شرعنا غنية^(١). وقد جاء عمر بن الخطاب بكلمات من التوراة إلى رسول الله، فقال له: أمطها^(٢) عنك يا عمر. خصوصاً إذ قد علم ما في الإسرائيليات من المحال، كما يذكرون أن داود بعث أوريا حتى قتل وتزوج امرأته، وأن يوسف حل سراويله عند زليخا. ومثل هذا محال تنتزه الأنبياء عنه، فإذا سمعه الجاهل هانت عنده المعاصي وقال: ليست معصيتي بعجب^(٣). والثالث أن التشاغل بذلك يشغل عن المهم من قراءة القرآن، ورواية الحديث، والتفقه في الدين. والرابع أن في القرآن من القصص وفي السنة من العظة ما يكفي عن غيره مما لا تتيقن صحتهم. والخامس أن أقواماً ممن يدخل في الدين ما ليس منه قصوا. فأدخلوا في قصصهم ما يفسد قلوب العوام. والسادس أن عموم القصص لا يتحررون الصواب ولا يحترزون من الخطأ لقلّة علمهم وتقواهم. فلهذا كره القصص من كرهه)^(٤).

١. أي كفاية وغنى.

٢. أي نحها وأبعدها.

٣. أي إذا كان النبي يفعل مثل هذا، فلن تكون معصيتي بأمر منك.

٤. ابن الجوزي: القصص والمذكرين، ص ١٥٩.

وبينما روى الفضل بن زياد قائلًا: (سمعت أحمد بن حنبل يقول: أكذب الناس السُّؤال والقصص)^(١) نجد المقدسي في كتابه «الآداب الشرعية» يعقد فصلاً في وعظ القصص ونفعهم وضررهم وكذبهم جاء فيه: (قال المروزي سمعت أبا عبد الله^(٢) يقول: يعجبني القصص! لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر. قلت لأبي عبد الله: فترى الذهاب إليهم؟ فقال: أي لعمرى إذا كان صدوقاً، لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر. قلت له: كنت تحضر مجالسهم أو تأتيهم؟ قال: لا. قال: وشكا رجل إلى أبي عبد الله الوسوسة فقال عليك بالقصص، ما أنفع مجالسهم... وروى الخلال عنه أنه صلى في مسجد فقام سائل فسأل فقال أبو عبد الله: أخرجوه من المسجد، هذا يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال مهنا: إن أبا عبد الله سألوه عن القصص فرخص فيه، فقلت له حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أنه كان يخرج من المسجد يقول: ما أخرجني إلا القصص، ولولا هم ما خرجت^(٣)! فقال لي: يعجبني القصص اليوم لأنهم يذكرون عذاب القبر ويخوفون الناس، فقلت له حدثنا ضمرة قال: جاءنا سفيان^(٤) ههنا فقلنا: نستقبل القصص بوجوهنا؟ فقال: ولوا البدع ظهوركم. فقال أحمد: نعم هذا مذهب الثوري^(٥)).

وقد دفعت هذه المواجهة بين القصص ومؤيديهم من جهة، وبين المعارضين من جهة أخرى إلى وضع نصوص على لسان النبي والآل والأصحاب مدحاً وذمّاً، تماماً كما جرى في العديد من الخصومات السياسية والعقدية والاجتماعية، حيث تم توظيف الحديث الموضوع أو المحرّف لنصرة هذا الطرف أو ذاك. وللهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» باب للأحاديث المروية عن القصص والقصص،

١. ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٩٩.

٢. أي أحمد بن حنبل.

٣. أي أنه كان ينزعج من كذبهم فيخرج.

٤. سفيان الثوري من علماء ومؤسس إحدى المذاهب الإسلامية التي اندثرت.

٥. المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج ٢، ص ١٥٩-١٦٠.

وانقسمت إلى ذمّة ومشروطة ومادحة، وما كان من الصنف الأول فمنها الأحاديث التالية:

١. عن خباب عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (إن بني إسرائيل لما هلكوا قصّوا). رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون، واختُلف في الأجلح الكندي والأكثر على توثيقه.

٢. عن الحارث بن معاوية أنه ركب إلى عمر بن الخطاب يسأله عن ثلاث خلال قال: فقدم المدينة فسأله عمر: (ما أقدمك؟ قال: لأسألك عن ثلاث خلال...) وكانت إحداها عن حكم القصص فأجابه الخليفة قائلاً: (ما شئت. كأنّه كره أن يمنعه. قال: إنما أردت أن أنتهي إلى قولك^(١)). قال: أخشى عليك أن تقص فترتفع في نفسك، ثم تقص فترتفع في نفسك، حتى يُخيّل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك). رواه أحمد والحارث بن معاوية الكندي وثّقه ابن حبان وروى عنه غير واحد وبقيّة رجاله من رجال الصحيح.

٣. عن أبي صالح سعيد بن عبد الرحمن بن عنز التجيبي أنه كان يقص على الناس وهو قائم، فقال له صلة بن الحارث الغفاري وهو من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله): (والله ما تركنا عهد نبينا ولا قطعنا أرحامنا حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا). رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن.

٤. عن عمرو بن زرارة قال: (وقف عليّ عبد الله - يعني ابن مسعود - وأنا أقص، فقال: يا عمرو، لقد ابتدعت بدعة ضلالة أو إنك لأهدى من محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه؟) وبهذه الكلمات تفرّق الناس من حوله، قال: (ولقد رأيتهم تفرّقوا عني حتى رأيت مكاني ما فيه أحد). رواه الطبراني في الكبير وله إسنadan أحدهما رجاله رجال الصحيح.

٥. عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله

١. أي أردت أن أعرف رأيك.

بن عمرو، قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (القاص ينتظر المقت، والمستمع ينتظر الرحمة، والتاجر ينتظر الرزق، والمحتكر ينتظر اللعنة، والنائحة ومن حولها من امرأة عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين). رواه الطبراني في الكبير وفيه بشر بن عبد الرحمن الأنصاري عن عبد الله بن مجاهد بن جبر ولم أر من ذكرهما.

٦. عن يحيى البكاء قال: (رأى ابن عمر قاصاً في المسجد الحرام ومعه ابن له فقال له ابنه: أي شيء يقول هذا؟ قال: هذا يقول اعرفوني اعرفوني^(١)). رواه الطبراني في الكبير ويحيى البكاء متروك.

٧. عن عمرو بن دينار أن تميم الداري استأذن عمر في القصص فأبى أن يأذن له، ثم استأذنه فأبى أن يأذن له، ثم استأذنه فقال: (إن شئت، وأشار بيده، يعني الذبح). رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح إلا أن ابن دينار لم يسمع من عمر.

وأما الصنف الثاني مما جاء في الباب، وهي النصوص التي تبيح القص ولكن بشرط أو بشروط، فمن نماذجها:

١. عن عبد الجبار الخولاني قال: (دخل رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، المسجد فإذا كعب يقص قال: من هذا؟ قالوا: كعب يقص. قال: سمعت رسول الله يقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختار. قال: فبلغ ذلك كعباً فما روى بعد يقص). رواه أحمد وإسناده حسن.

٢. عن السائب أنه: (لم يكن يقص على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أبي بكر. كان أول من قص تميم الداري، استأذن عمر بن الخطاب أن يقص على الناس قائماً فأذن له). رواه الطبراني في الكبير وفيه بقية بن الوليد وهو ثقة مدلس^(٢).

١. أي أنه باحث عن الشهرة لا غير.

٢. مضمون الخبر يتعارض مع الخبر السابع. وأما تدليس الإسناد فأن يروي عن لقيه ما لم يسمع منه، موهماً أنه سمعه منه، أو عن عاصره ولم يلقه موهماً أنه قد لقيه، ثم قد يكون بينهما واحد وقد يكون أكثر، أو أن يروي عن شيخ حديثاً سمعه منه، فيسميه أو يكتنيه، أو ينسبه، أو يصفه بما لا يعرف به، كي لا يُعرف.

٣. عن عوف بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا يقص إلا أمير أو مأمور أو متكلف). رواه أبو داود غير قوله أو متكلف. رواه الطبراني في الأوسط وفيه زيرك أبو العباس الرازي ولم أر من ترجمه.

٤. عن الشعبي قال: (قالت عائشة لابن أبي السائب قاص أهل المدينة: ثلاثاً لتتابعني عليهن أو لأناجزنك. قال: وما هن؟ بل أتابعك أنا يا أم المؤمنين. قالت: اجتنب السجع في الدعاء، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يفعلون ذلك. وقص على الناس في كل جمعة مرة، فإن أبيت فثنتين، فإن أبيت فثلاث، ولا تمكّن الناس هذا الكتاب، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديثهم فتقطع عليهم حديثهم، ولكن أتركهم، فإذا حدوك عليه وأمروك به فحدثهم). رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو يعلى بنحوه.

وأما ما كان من الصنف الثالث، وهو المادح، فمن نصوصه:

١. عن أبي أمامة قال: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قاص يقص فأمسك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب من أن أعتق أربع رقاب، وبعد العصر حتى تغرب أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب). رواه أحمد والطبراني في الكبير، إلا أن لفظ الطبراني: (أقص، فلأن أقعد هذا المقعد من حين تصلي الغداة إلى أن تشرق الشمس)، فذكر الحديث. ورجاله موثوقون إلا أن فيه أبا الجعد عن أبي أمامة، فإن كان هو الغطفاني فهو من رجال الصحيح، وإن كان غيره فلم أعرفه.

٢. عن رجل من أهل بدر أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول: (لأن أقعد في مثل هذا المجلس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب. قال شعبة: فقلت: أي مجلس يعني؟ قال: كان قاصاً). رواه أحمد وفيه كردوس بن قيس وثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح^(١).

١. الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١، ص ١١٤-١١٦.

وهكذا نجد في بحار الأنوار باب تحت عنوان «استماع اللغو والكذب والباطل والقصة» جاءت فيه الأحاديث ذامة للقصاصين، ومن بينها النصوص التالية:

١. عن الشيخ الصدوق في كتابه «عقائد الإمامية»: (ذكر القصاصون عند الصادق عليه السلام، فقال: لعنهم الله، إنهم يشيعون علينا).

٢. سئل الإمام الصادق عليه السلام عن القصاص: (أيحل الاستماع لهم؟ فقال: لا).

٣. سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(١) قال: (هم القصاص).

٤. قال النبي صلى الله عليه وآله: (مَن أتى ذا بدعة فوفره فقد سعى في هدم الإسلام). ثم علّق المجلسي رافضاً دلالة هذا الخبر على المطلب قائلاً: (ويلوح من سوق كلام الصدوق في كتاب عقائده المشار إليه أنه قد حمل الخبر الأخير على معنى يشمل حكاية حال القصاصين أيضاً، ولكن لا دلالة في هذا الخبر عليه، فتأمل).

والروايات السابقة رواها الصدوق في كتابه مرسلة، ولذا ليس من سبيل للتحقق من صحة أسانيدها.

٥. عن الكليني في الكافي عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام ابن سالم عن أبي عبد الله^(٢) عليه السلام، قال: (قال: إن أمير المؤمنين عليه السلام رأى قاصاً في المسجد فضربه بالدرة وطرده)^(٣). والرواية معتبرة السند إن قبلنا توثيق «الأب» وهو إبراهيم بن هاشم القمي.

❖ البحث التمهيدي الثالث، الإسرائيليات والمسيحيات:

لا ينفك الحديث عن الإسرائيليات والمسيحيات عن الحديث حول القصص

١. القرآن الكريم: سورة الشعراء: ٢٢٤.

٢. أي الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٩، الباب ١١٦، ص ٢٦٤-٢٦٥.

والقصاص، إذ أن العلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص من وجه، فالقصاصون لم يكتفوا بما في كتب اليهود والنصارى، إذ توسّعوا ليشملوا في قصصهم ما عند الأمم الأخرى كاليونان والفرس والهنود، بالإضافة إلى مخترعاتهم وأساطيرهم. وهكذا فإن دور أخبار اليهود والنصارى ممن تظاهروا بالدخول في الإسلام لم يقتصر على القصص، بل بثّوا أخباراً في التفسير والعقيدة والأحكام الشرعية وشرح السنة النبوية وسواها من القضايا ذات العلاقة بالإسلام. وهذا ما دفعني إلى إفراد هذا التمهيد الثالث في بحث بعنوان منفصل عن القصص والقصاصين.

❖ مفهوم الإسرائيليات:

الإسرائيليات بحسب علم الحديث هي المرويات التي يرجع أصلها إلى رواية يهود، سواء أكان الراوي للخبر مباشرة يهودي الأصل، ككعب الأخبار الذي سنتناوله بشيء من البحث لاحقاً، أم متأثراً بالراوي اليهودي، من قبيل مرويات بعض الصحابة الذين تتلمذوا على يد كعب الأخبار وتأثروا بأفكاره ومروياته وانعكست على مروياتهم. وقد قسّم بعض الباحثين الروايات الإسرائيلية إلى أصناف ثلاثة:

١- فمنها ما يتوافق مع القرآن الكريم، أو مع السنة النبوية القطعية، وحينئذ لا مبرر لطرحها مادام مضمونها متوافقاً وموجوداً في الكتاب أو السنة القطعية. ومثال ذلك ما نقله ابن جرير الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاص، والذي عُرف بأنه من رواية الإسرائيليات، والنص كالتالي: (وقال ابن جرير: حدثنا المثني، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم) في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله

إلا الله ويفتح به قلوباً غلفاً، وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً». قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته^(١)، قال: «قلوباً غلوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً». وقد رواه البخاري في صحيحه، عن محمد بن سنان، عن فليح، عن هلال بن علي، فذكر بإسناده نحوه وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»^(٢). وبرأيي أن المبرر للشك في هذه الروايات يبقى موجوداً، لأن مجرد وجود التوافق بين الخبر الإسرائيلي وبين ما في القرآن أو السنة القطعية لا يكفي لقبوله، فلعل الراوي للخبر الإسرائيلي إنما يرويه بهدف التشكيك أو الطعن في الإسلام بطريق غير مباشر.

فنحن عندما نعود إلى التوراة لا نجد فيها ذكراً لهذا الكلام المنقول عن ابن عمرو في صفة النبي صلى الله عليه وآله الأمر الذي يشكك في مصداقية ما يتمسك به المسلمون في صحة نبوة النبي والبشارات النازلة بشأنه في الكتب السماوية. ولعل هذا السبب هو الذي دفع ابن كثير إلى أن يحاول التخلص من هذا الإشكال بتوجيه غير دقيق حيث قال: (ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم)^(٣) لأنه مطلع على أن مثل هذه العبارة غير موجودة في التوراة أصلاً.

٢. ومنها ما تكون مخالفتها للموازين العقلية أو الموازين الدينية واضحة ولا تحتاج إلى بحث ودراسة، فترفض، من قبيل الموقف الذي اتخذه عبدالله بن عباس حين روى له ما قاله كعب الأحبار حول مصير الشمس والقمر. ففي «تاريخ الطبري» عن: (محمد بن أبي منصور قال: حدثنا خلف بن واصل قال: حدثنا أبو نعيم عن مقاتل بن حيان عن عكرمة قال: بينا ابن عباس ذات يوم جالس إذ جاءه

١. لعله يقصد لهجته الحميرية.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ج ٢، ص ٢٦٣-٢٦٤.

٣. ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ج ١، ص ٢٥٣.

رجل فقال: يا بن عباس، سمعتُ العجب من كعب الحبر يذكر في الشمس والقمر! قال: وكان متكئاً فاحتفز ثم قال: وما ذاك؟ قال: زعم أنه يُجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيُقذّان في جهنم! قال عكرمة: فطارت من ابن عباس شهقة ووقعت أخرى غضباً ثم قال: كذب كعب، كذب كعب، كذب كعب! ثلاث مرات. بل هذه يهودية يريد إدخالها في الإسلام. الله أجل وأكرم من أن يعذب على طاعته. ألم تسمع لقول الله «عز وجل»: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾^(١). إنما يعني دؤوبهما في الطاعة، فكيف يعذب عبيد يُثني عليهما أنهما دائبان في طاعته؟! قاتل الله هذا الحبر وقبح خبريته! ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذين العبيد المطيعين لله! قال: ثم استرجع مراراً...^(٢).

٣. ومنها ما تحتاج إلى تمعن ودراسة وعرض على الموازين من حيث دراسة السند والمتن، والمقارنة مع مرويات أخرى غير إسرائيلية قد تتفق معها في المضمون والدلالة، أو من خلال توافقها مع المعطيات العلمية وغير ذلك.

وبرأيي أن هذا القسم في حقيقته منضم إلى الصنف الأول، لأنني ذكرت في تعليقي على ذلك الصنف أن مجرد التوافق مع القرآن والسنة القطعية ليس كافياً لقبول الخبر الإسرائيلي، وبالتالي فهو سيحتاج إلى البحث والتدقيق، فنخلص بالتالي إلى أن الروايات الإسرائيلية إنما تنقسم إلى صنفين فقط.

❖ الدوافع والآثار السلبية:

تحدث عدة من الباحثين في شأن الروايات الإسرائيلية. ومنهم الأستاذ محمود أبو رية في كتابه «أضواء على السنة المحمدية». عن دوافع الدس اليهودي في التراث الإسلامي وآثار ذلك، معتبرين أنه لما قويت شوكة الدعوة المحمدية واشتد ساعدها، وتحطمت أمامها كل قوة تتازعها، لم ير من كانوا يقفون أمامها ويصدون

١. القرآن الكريم: سورة إبراهيم: ٣٣.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ٤٧.

عن سبيلها، إلا أن يكيدوا لها من طريق الحيلة والخداع، بعد أن عجزوا عن النيل منها بعدد القوة والنزاع.

ولما كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود، لأنهم بزعمهم شعب الله المختار، فلا يعترفون لأحد غيرهم بفضل، ولا يقرُّون لنبي بعد موسى برسالة، فإن رهبانهم وأخبارهم لم يجدوا بُدًّا من أن يستعينوا بالمكر، ويتوسَّلوا بالدهاء، لكي يصلوا إلى ما يبتغون، فهداهم المكر اليهودي إلى أن يتظاهروا بالإسلام ويطوِّروا نفوسهم على دينهم، حتى يخفى كيدهم، ويجوز على المسلمين مكرهم. ولما وجدوا أن حيلهم قد راجت بما أظهره من كاذب الورع والتقوى، وأن المسلمين قد سكنوا إليهم، واغترَّوا بهم، جعلوا أول همهم أن يضربوا المسلمين في صميم دينهم، وذلك بأن يدسُّوا إلى أصوله التي قام عليها ما يريدون من أساطير وخرافات، وأوهام وترهات لكي تهين هذه الأصول وتضعف.

ولما عجزوا عن أن ينالوا من القرآن الكريم لأنه قد حُفظ بالتدوين، واستظهره آلاف من المسلمين، وأنه قد أصبح بذلك في منعة من أن يزد فيه كلمة أو يتدسس إليه حرف، اتجهوا إلى التحدث عن النبي، فافتروا - ما شاءوا أن يفتروا - عليه أحاديث لم تصدر عنه، وأعانهم على ذلك أن ما تحدث به النبي في حياته لم يكن محدود المعالم، ولا محفوظ الأصول، لأنه لم يكتب في عهده (صلى الله عليه وآله) كما كتب القرآن، ولا كتبه صحابته من بعده، وأن في استطاعة كل ذي هوى أو دخلة سيئة، أن يتدسس إليه بالافتراء، ويسطو عليه بالكذب، ويسر لهم كيدهم أن وجدوا الصحابة يرجعون إليهم في معرفة ما لا يعلمون من أمور العالم الماضية، واليهود بما لهم من كتاب وما فيهم من علماء كانوا يعتبرون أساتذة العرب فيما يجهلون من أمور الأديان السابقة، إن كانوا مخلصين صادقين^(١).

وتحدث ابن خلدون عن التأثير الطبيعي للعرب باليهود والنصارى الذين

١. أبورية: أضواء على السنة المحمدية، ص ١٤٤-١٤٥.

كانوا يتعايشون معهم في بيئة واحدة، ويرون لهم الامتياز بحيازة تفاصيل وأخبار حول قضايا كثيرة كانوا يشتقون معرفتها، فوجدوا ضالتهم فيهم. وبالتالي صار التفسير - بحسب ابن خلدون - على صنفين، أولهما التفسير النقلي المستند إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يُعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. فإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى.

وأضاف ابن خلدون أن أهل التوراة الذين بين العرب يومئذ من أهل البادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم، مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتلات التفاسير من المنقولات عندهم، في أمثال هذه الأغراض، أخباراً موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلناه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ^(١).

هذه النتيجة أكد عليها أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» حيث اعتبر أن اتصال بعض الصحابة بوهب بن منبه وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام، واتصال

١. ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٢٥٢.

بعض التابعين بآبن جريج، فتحت الباب لدخول المرويات الإسرائيلية بنقل المعلومات التي يروونها عن التوراة والإنجيل وشروحها وحواشيها، فلم ير المسلمون بأساً من أن يقصّوها بجانب آيات القرآن^(١).

كما وتحدث ابن تيمية عن الإسرائيليات التي قيلت في بيت المقدس وغيره من بقاع الشام وأن طائفة من الناس صنّفت مصنفات من فضائل بيت المقدس، وغيره من البقاع التي بالشام، وذكروا فيها من الآثار المنقولة عن أهل الكتاب، وعمن أخذ عنهم ما لا يحل للمسلمين أن يبنوا عليه دينهم.

وأشار ابن تيمية إلى أسماء بعض من ينقل عنه تلك الإسرائيليات وأوضح مثال منهم: كعب الأحبار الذي كان الشاميون قد أخذوا عنه كثيراً من الإسرائيليات، وقد قال معاوية: «ما رأينا من هؤلاء المحدثين عن أهل الكتاب أمثل من كعب، وإن كنا لنبلو عليه الكذب أحياناً».

وقال ابن تيمية أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه).

وأضاف ابن تيمية أنه: (من العجب أن هذه الشريعة المحفوظة المحروسة مع هذه الأمة المعصومة التي لا تجتمع على ضلالة: إذا حدث بعض أعيان التابعين عن النبي (صلى الله عليه وآله) بحديث، كعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وأبي العالية، ونحوهم؛ وهم من خيار علماء المسلمين، وأكابر أئمة الدين، توقف أهل العلم في مراسيلهم، فمنهم من يرد المراسيل مطلقاً، ومنهم من يتقبلها بشروط، ومنهم من يميز بين من عاداته لا يرسل إلا عن ثقة، كسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، ومحمد بن سيرين، وبين من عرف عنه أنه قد يرسل عن غير ثقة: كأبي العالية، والحسن، وهؤلاء ليس بين أحدهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله) إلا رجل أو

١. أمين: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ١٣٩.

رجلان، أو ثلاثة مثلاً. وأما ما يوجد في كتب المسلمين في هذه الأوقات من الأحاديث التي يذكرها صاحب الكتاب مرسله؛ فلا يجوز الحكم بصحتها باتفاق أهل العلم، إلا أن يعرف أن ذلك من نقل أهل العلم بالحديث، الذين لا يحدثون إلا بما صح كالبخاري في المعلقات التي يجزم فيها بأنها صحيحة عنده، وما وقفه كقوله: وقد ذكر عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، ونحو ذلك، فإنه حسن عنده. هذا، وليس تحت أديم السماء بعد القرآن كتاب أصح من البخاري. فكيف بما ينقله كعب الأخبار وأمثاله عن الأنبياء؟ وبين كعب، وبين النبي الذي ينقل عنه ألف سنة، وأكثر وأقل، وهو لم يسند ذلك عن ثقة بعد ثقة، بل غايته أن ينقل عن بعض الكتب التي كتبها شيوخ اليهود، وقد أخبر الله عن تبديلهم وتحريفهم، فكيف يحل للمسلم أن يصدق شيئاً من ذلك، بمجرد هذا النقل؟ بل الواجب أن لا يصدق ذلك، ولا يكذبه أيضاً إلا بدليل يدل على كذبه، وهكذا أمرنا النبي^١. وفي هذه الإسرائيليات مما هو كذب على الأنبياء، أو ما هو منسوخ في شريعتنا، ما لا يعلمه إلا الله^(١).

وقال ابن كثير في تفسير سورة النمل، بعد أن ذكر ما جاء في قصة ملكة سبأ مع النبي سليمان والهدهد من الروايات الإسرائيلية: (والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب - سامحهما الله عز وجل - فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد^(٢) والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ. وقد أغنانا الله عز وجل عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، والله الحمد والمنة^(٣)).

❖ الأساليب الماكرة:

ويبدو أن هؤلاء الأخبار كانوا بحاجة من حين لآخر إلى الاستحواذ على عقول

١. ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ج ٢، ص ٣٤٩-٣٥١.

٢. أي النواذر.

٣. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ١٩٧.

المسلمين بدهائهم وأساليبهم الماكرة، لأن تاريخ الصراع الفكري والسياسي والعسكري الذي عاشه المسلمون في المدينة على حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، مع اليهود ضيق دائرة الثقة بهم، خاصة وأن آيات القرآن الكريم ما زالت ماثلة أمام المسلمين يتلوننها ليل نهار، وهي تتحدث عن أساليب اليهود الماكرة ومواقفهم المذمومة وتاريخهم الأسود! فكيف للمسلمين بعد ذلك أن يثقوا بسهولة بأخبار اليهود وإن ادّعوا الدخول في الإسلام؟ هذا الأمر استدعى منهم القيام أولاً بإحياء حالة الثقة أو ترميمها في نفوس المسلمين، لينطلقوا بعد ذلك في مشروعهم التخريبي. من هنا ركّزوا على الثناء على نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، وشرعية نبوته من خلال أحاديث عديدة بثّوها منسوبة إلى مصادرهم يدّعون من خلالها ذكر النبي عندهم باسمه وصفته وأحواله، وكثير منها مجرد ادعاءات لا تتوافق مع الواقع.

ومن أمثلة ما رَوَاهُ ما عن ابن عباس أنه: (سأل كعب الأحمري كيف تجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم) في التوراة؟ فقال كعب: نجده مُحَمَّدٌ بن عبد الله يُولد بمكة ويهاجر إلى طابة، ويكون ملكه بالشَّام، وليس بفحاش ولا بصحاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسَّيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر. أمته الحمّادون، يحمدون الله في كل سرّاء، ويكبرون الله على كل نجد. يوضئون أطرافهم، ويأتزون في أوساطهم، ويصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم. دويهم في مساجدهم كدوي النحل، يُسمع مناديتهم في جو السماء^(١). ولكن ليس في التوراة شيء من هذا القبيل.

وأضاف السيوطي: (أخرج الدارمي في مسنده وابن عساكر عن كعب قال: في السطر الأول مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَبْدِي الْمُخْتَارِ لَا فَظَ وَلَا غَلِيظَ وَلَا صَحَابَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيئةِ السَّيئةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ. مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشَّام! وفي السطر الثاني مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أمته الحمّادون يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ....)^(٢).

١. السيوطي: الخصائص الكبرى، ج ١، ص ٢٠.

٢. السيوطي: الخصائص الكبرى، ج ١، ص ١٩.

ولكننا نجد أن السطر الأول من التوراة هكذا: (في البدء خلق الله السموات و الأرض) والسطر الثاني: (و كانت الارض خربة و خالية و على وجه الغمر ظلمة و روح الله يرف على وجه المياه) ثم تسترسل في بيان كيفية خلق السماوات والأرض والماء والكائنات الحية إلى أن تصل إلى خلق آدم.

وامتدت هذه الخرافة إلى عبد الله بن عمرو بن العاص المتلمذ على يد كعب الأحبار. فقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال: (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في التوراة. قال: أجل. والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن. «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين. أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً»^(١)).

وفي «البداية والنهاية» لابن كثير تنمة للخبر: (قال عطاء بن يسار: ثم لقيت كعباً الحبر فسألته فما اختلف في حرف، إلا أن كعباً قال: أعيناً عموياً، وآذاناً صموياً، وقلوباً غلوفاً)^(٢).

وفي خبر آخر عن وهب بن منبه أنه قال: (قرأت في واحد وسبعين كتاباً، فوجدت في جميعها: أن محمداً صلى الله عليه وسلم، أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً)^(٣).

وفي رواية أخرى أنه قال: (قرأت في واحد وسبعين كتاباً، فوجدت في جميعها: «أن الله عز وجل، لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم، إلا حبة رمل من بين جميع رمال الدنيا، وأن

١. البخاري: الجامع الصحيح، ح ٢٠١٨.

٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٦، ص ٦٨.

٣. الدينوري: المجالسة وجواهر العلم، ح ١٦٧٣.

محمدًا أرجح الناس عقلاً». رواه الحكيم الترمذي وأبو نعيم، وابن عساكر^(١).

وفي بيان مدى تأثير أصحاب هذه الإسرائيليات على مرويات الصحابة والتابعين قال العلامة الشيخ محمد رشيد رضا: (ولا يهولنه انخداع بعض الصحابة والتابعين بما بثاه هما وغيرهما من هذه الأخبار، فإنّ تصديق الكاذب لا يسلم منه أحد من البشر ولا المعصومين من الرسل، فإن العصمة إنما تتعلق بتبليغ الرسالة والعمل بها، فالرسل معصومون من الكذب، ومن الخطأ في التبليغ ومن العمل بما ينال في ما جاءوا به من التشريع؛ لأن هذا ينال في القدوة ويخل بإقامة الحجة، ولكن الرسول إذا صدق الكاذب في أمر يتعلق به وبعمله أو بمصلحة الأمة فإن الله عز وجل يبين له ذلك ومنه ما كان من بعض أزواجه الذي نزل فيه أول سورة التحريم وعلم من قوله عز وجل فيها: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٢) أنه لم يعلم المكيدة بملكة العصمة بل بوحى الله عز وجل بعد وقوعها. ومنه قوله عز وجل، فيما كان كذب عليه بعض المنافقين الذين اعتذروا عن الخروج معه صلى الله عليه وسلم، إلى تبوك: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ آذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٣). وأما ما نقله عن الزرقاني من رأيه أن ما روي عن الصحابي مما لا مجال للرأي فيه موقوفًا عليه؛ فإن له حكم المرفوع. وإن احتمل أخذ الصحابي له عن أهل الكتاب تحسینًا للظن به. فهو رأي باطل مردود عليه لا نتخذه قاعدة وأصلًا في ديننا، وما علله به ظاهر البطلان إذ لا محل هنا لتحسين الظن ولا لمقابله فمن المعتاد المعهود من طباع البشر أن يصدقوا كل خبر لا يظهر لهم دليل على تهمة قائله فيه ولا على بطلانه في نفسه فإذا صدق بعض الصحابة كعب الأخبار في بعض مفترياته التي كان يوهمهم أنه أخذها من التوراة أو غيرها من كتب أنبياء بني إسرائيل وهو من أحبارهم أو في غير ذلك فلا

١. الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج ٧، ص ٣.

٢. القرآن الكريم: سورة التحريم: ٣.

٣. القرآن الكريم: سورة التوبة: ٤٣.

يستلزم هذا إساءة الظن فيهم وإذا كانت هذه الخرافات الإسرائيلية مما يصدر عن الإسلام ويجري الألسنة والأقلام بالطعن فيه مع العلم بأنها مروية عن لا تعد أقوالهم ولا آراؤهم نصوصاً دينية ولا أدلة شرعية وإن كانوا من أفراد علماء السلف كما هو واقع بالفعل فكيف يكون موقفنا مع هؤلاء الطاعنين فيه من الملاحدة ودعاة الأديان المعادين للإسلام والمسلمين من زنادقة المسلمين أيضاً؛ إذا قلنا: إن كل تلك الترهات والخرافات الإسرائيلية إذا كان بعض رواتها من الصحابة فإنها تنظم في سلك الأحاديث المرفوعة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ويجب الإيمان بها؛ إلا أن هذا باب واسع في الطعن في الإسلام والصد عنه لو فتحه علينا من هو أكبر من الزرقاني من مقلدة القرون الوسطى المظلمة لأغلقناه في وجهه، وقلنا له: إن علماء الأصول قد اتفقوا على أن طروء الاحتمال في المرفوع من وقائع الأحوال يكسوها ثوب الإجمال فيسقط بها الاستدلال وهذا الاحتمال أولى من ذاك أن يمنع عند الموقوف مرفوعاً وجعله دليلاً شرعياً. والصواب في هذا المقام قلب الموضوع وهو أن الأثر الموقوف وكذا بعض المرفوع الذي لم يصرح الصحابي فيه بالسمع وهو ممن كان يروي عن كعب الأخبار وأمثاله هذه الإسرائيلية معلولين باحتمال كونهما من الإسرائيليات إذا كانا من موضوعها ومتنهما مخالفاً لبعض النصوص الثابتة كآيات القرآن في نفي سلطان الشيطان على عباد الله (عز وجل) أو معارضا لغير ذلك من أصول الشرع أو فروعه الثابتة أو لسنن الله في خلقه أو لغير ذلك من الأدلة القطعية)^(١).

وعلى كل حال، فقد استطاع بعض هؤلاء الأخبار من النفوذ بقوة في الوسط الإسلامي، قال ابن كثير: (لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر «رضي الله عنه» عن كتبه، فربما استمع له عمر «رضي الله عنه» فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد

مما عنده^(١). ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب تكشّفت له حقيقة الرجل لاحقاً فنهاه وهدده، وهو ما سيتبين لنا من خلال الإطلالة التالية على سيرة كعب الأحبار وفق ما جاء في كتب التراجم والتاريخ والتحقيق.

❖ كعب الأحبار:

أبرز أعلام من أدخلوا الروايات الإسرائيلية في التراث الإسلامي هو كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الحبر أو كعب الأحبار أو كعب أحبار اليهود. قال عنه العلامة الشيخ محمد رشيد رضا: (كعب الأحبار الذي أدخل على المسلمين شيئاً كثيراً من الإسرائيليات الباطلة، والمخرعة، وخفي على كثير من المحدثين؛ كذبه، ودجله لتعبه)^(٢). وأضاف في موضع آخر: (ثم ليُعلم أن شر رواة هذه الإسرائيليات، أو أشدهم تلبساً وخداعاً للمسلمين؛ هذان الرجلان: كعب الأحبار، ووهب بن منبه)^(٣).

وقد اعتبر سعيد أيوب في كتابه «معالم الفتن» أن نقطة التحول في الساحة الثقافية الإسلامية وتأثرها بدور القصاصين ورواة الأخبار الإسرائيلية جاءت بدخول كعب الأحبار ساحة القص والرواية، حيث ظهر على إثره طابور طويل لم يكن قصدهم الدين بل تسلية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم، وتشويه القصص الدينية ووضعها في مربع الخرافات. وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم ومروياتهم، وقد عملوا على نشرها، وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم، لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم^(٤).

وكعب هذا وُلد في بيت يهودي من يهود اليمن وهو حميري بالحلف، واسمه

١. ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ج ٧، ص ٣٢-٣٢.

٢. رضا: تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٩٩-٤٠٠.

٣. رضا: مجلة المنار، ع ٢٧، ص ٧٨٢.

٤. سعيد أيوب: معالم الفتن، ج ١، ص ٣٣٣-٣٣٤.

عبري محرّف إلى العربية. فكعب اسم منتشر بين يهود شبه الجزيرة العربية وهو تحريف للاسم العبري «عقيبا»^(١).

أسلم كعب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وقدم المدينة من اليمن في أيامه. قال الذهبي: (فجالس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويحفظ عجائب ويأخذ السنن عن الصحابة.. حدّث عن: عمر، وصهيب، وغير واحد. حدّث عنه: أبو هريرة، ومعاوية^(٢)، وابن عباس، وذلك من قبيل رواية الصحابي عن التابعي، وهو نادر عزيز. وحدّث عنه: أيضاً: أسلم مولى عمر، وتبيع الحميري ابن امرأة كعب، وأبو سلام الأسود. وروى عنه عدة من التابعين؛ كعطاء بن يسار، وغيره مرسلًا. وكان خبيراً بكتب اليهود، له ذوق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة. وقع له رواية في سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي)^(٣).

علاوة على الوسيلة التي لجأ إليها أحبار اليهود عموماً لنيل ثقة المسلمين بهم من خلال رواية أخبار كاذبة عن كتبهم في الثناء على نبي الإسلام، فإن كعب الأحبار استطاع بأساليب أخرى أن يجد لنفسه نفوذاً ثقافياً في قلب عاصمة الإسلام وموطن الصحابة.. في المدينة المنورة قبل أن ينتقل منها إلى الشام. فكان تارة يتزلف إلى الخليفة عمر فيقول: (يا أمير المؤمنين، هل ترى في منامك شيئاً؟ قال: فانتهره. فقال: إنا نجد رجلاً يرى أمر الأمة في منامه)^(٤).

وعن شداد بن أوس عن كعب، قال: (كان في بني إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر، وإذا ذكرنا عمر ذكرناه، وكان إلى جنبه نبي يوحى إليه.... فلما طعن عمر، قال كعب: لئن سأل عمر ربّه ليبقيه الله، فأخبر بذلك عمر، فقال عمر:

١. تلتقي هذه الكلمة العبرية بكلمة «عقب» العربية، وتقرب من معنى كلمة «كعب».

٢. عمل كعب الأحبار مستشاراً لمعاوية وهو أمير على الشام.

٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٣.

٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ح ٤٦٥١٠.

اللهم اقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم^(١).

ونجده تارة أخرى يستغل شغف الخليفة عمر بن الخطاب في معرفة ما عند أهل الكتاب، سواء فيما كان يخصه شخصياً، كالمروي عن عبد الله بن شقيق العقيلي عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب قال: (بعثني عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له عمر: وهل تجدني في الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدني؟ قال: أجدك قرناً. فرفع عليه الدرة فقال: قرن مه؟ فقال: قرن حديد أمين شديد)^(٢)، أو في ما له علاقة بالمعارف العامة، كالمروي عن جابر أن: (عمر أتى النبي صلى الله عليه وسلم، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضب وقال: لقد جئكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)^(٣).

ولذا نجد الخليفة تارة يقول له: (أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل مولده)^(٤)، وأخرى: (أن عمر قال لكعب: ما عدن؟ قال: هو قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل)^(٥)، وثالثة أن الخليفة قال له: (ألا تسمع يا كعب ما يحدثنا به ابن أم عبد عن أدنى أهل الجنة ماله، فكيف بأعلاهم؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، إن الله كان فوق العرش والماء، فخلق لنفسه داراً بيده، فزينها بما شاء، وجعل فيها ما شاء من الثمرات والشراب، ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه منذ خلقها، جبريل ولا غيره من الملائكة، ثم قرأ كعب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٦) وخلق دون ذلك جنتين فزينهما بما شاء، وجعل فيهما ما ذكر من الحرير

١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ح ٣٩٧٤.

٢. أبوداود: السنن، ح ٤٦٥٦.

٣. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، حاشية ح ٦٩٢٨.

٤. المتقي الهندي: كنز العمال، ح ٣٥٣٦٩.

٥. السيوطي: الدر المنثور، ج ٤، ص ٥٧.

٦. القرآن الكريم: سورة السجدة: ١٧.

والسندس والاستبرق، وأراهما من شاء من خلقه من الملائكة، فمن كان كتابه في عليين نزل تلك الدار، فإذا ركب الرجل من أهل عليين في ملكه لم يبق خيمة من خيام الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه حتى أنهم ليستششقون ريحه ويقولون: واهاً لهذه الريح الطيبة. فقال عمر: ويحك يا كعب، إن هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها، فقال كعب: يا أمير المؤمنين، إن لجهنم زفرة، ما من ملك مقرب ولا نبي، إلا يخر لركبتيه، حتى يقول إبراهيم خليل الله: رب، نفسي نفسي، وحتى لو كان لك عمل سبعين نبياً إلى عملك، لظننت أن لا تتجو منها^(١).

وقد عبّر الشيخ محمد رشيد رضا في مقال له بعنوان «كعب الأحبار ووهب بن منبه» عن دهاء كعب في تمرير إسرائيلياته بقوله إن علم كعب كان جلّه عندهم ما يرويه عن التوراة وغيرها من كتب قومه وينسبه إليها ليقبل ولا شك في أنه كان من أذكي علماء اليهود قبل إسلامه، وأقدرهم على غش المسلمين بروايته بعده^(٢).

ولعل انشغال الصحابة بالفتوحات وابتعادهم عن عاصمتهم فسح المجال أكثر لكي يبدأ كعب الأحبار بممارسة دوره هذا، إلا أنهم متى ما واجهوه في موقف افتراء سارعوا إلى الطعن فيه وتكذيبه، ولهذا شواهد عديدة، من بينها ما رواه العسقلاني عن عوف بن مالك أنه: (دخل المسجد يتوكأ على ذي الكلاع، وكعب يقص على الناس، فقال عوف لذي الكلاع: ألا تنهى ابن أخيك هذا عما يفعل؟)^(٣). وخبر العسقلاني عن ابن أبي خيثمة: (بسند حسن عن قتادة قال: بلغ حذيفة أن كعباً يقول: إن السماء تدور على قطب كالرحى! فقال: كذب كعب، إن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾^(٤))^(٥).

١. النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، ح ٨٨١٢.

٢. رضا: مجلة المنار، ع ٢٧، ص ٥٣٩.

٣. ابن حجر: الإصابة في معرفة الصحابة، ج ٣، ص ١٧.

٤. القرآن الكريم: سورة فاطر: ٤١.

٥. ابن حجر: الإصابة في معرفة الصحابة، ج ٣، ص ١٨.

وخبر السائب بن يزيد قال: (سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة: لتترك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) أو لألحقنك بأرض دوس، وقال لكعب: لتترك الحديث، أو لألحقنك بأرض القردة)^(١).

❖ إسرائيليات القصص القرآني:

وفيما يلي نماذج من الإسرائيليات مما لها علاقة بقصص القرآن الكريم، لتتعرّف على الأثر التخريبي الذي أحدثته تلك المرويات في القصة القرآنية.

١- في تفسير ابن كثير عن سعيد بن أبي هلال: (أن معاوية بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرثرا؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن الله عز وجل قال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾). ثم علق ابن كثير قائلاً: (وهذا الذي أنكره معاوية رضي الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب، والحق مع معاوية في الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو عليه الكذب» يعني: فيما ينقله، لا أنه كان يعتمد نقل ما ليس في صحيفته، ولكن الشأن في صحيفته أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدّل مصحّف محرّف مختلق، ولا حاجة لنا مع خبر الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شيء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض. وتأويل كعب قول الله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثرثرا غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقى في أسباب السماوات، وقد قال الله في حق بلقيس ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ «النمل: ٢٣» أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسّر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببا، والله أعلم)^(٢).

١. ابن عساكر: تاريخ دمشق: ح ٧٢٧٩٣.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ج ٥، ص ١٩٠.

٢. في تفسير الرازي عن عبد الله بن قلابة أنه: (خرج في طلب إبل له فوصل إلى جنة شدد فحمل ما قدر عليه مما كان هناك وبلغ خبره معاوية فاستحضره وقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله هو ذلك الرجل^(١)).

٣. وفي «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» عن مكحول عن كعب الأحبار قال: (أربعة من الأنبياء أحياء أمان لأهل الأرض: اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى^(٢)).

٤. وفي تفسير ابن كثير: (وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب «رضي الله عنه»: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رباط^(٣)، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحائرها ياقوت، وترابها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فبينما هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجباً مزمومة بسلاسل من ذهب^(٤)، وجوهها كالمصاييح حسناً، ووبرها كخز المرعزي من لينه^(٥)، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينixonها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه. قال: فيركبونها، فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجياً من غير مهنة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا برك راحلة برك الأخرى، حتى إن شجرة لتنتحى عن طريقهم، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر

١. الرازي: التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»، ج ٧، ص ١٧.

٢. العسقلاني: فتح الباري، حاشية ح ٣٢٢١.

٣. أي كأنها نسيج واحد.

٤. النجب: من أنواع الإبل الثمينة.

٥. المرعزي: الرغب الذي تحت شعر العنز.

لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه! فإذا رأوه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحقُّ لك الجلال والإكرام. قال: فيقول «عز وجل»، عند ذلك: أنا السلام ومني السلام، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي، مرحباً بعبادي الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمري. قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا في السجود قدامك. قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار مُلك ونعيم، وإنني قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته. فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: رب، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فأتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله «عز وجل»: لقد قصرت بك أمنيته، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني، وسأتحفك بمنزلتي لأنه ليس في عطائي نكد ولا تصريح^(١). قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيتهم، ولم يخطر لهم على بال. قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيتهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة^(٢)، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة، في كل قبة منها فرش من فرش الجنة متظاهرة، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيبة إلا قد عبقنا به، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما، كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتقانه به ويقولان له: واللّه ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفّاً في الجنة، حتى ينتهي بكل رجل منهم إلى منزلته التي أُعدّت له. وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده، عن وهب بن

١. أي عطاء أقل من الحاجة.

٢. براذين: جمع برذون، ويُطلق على غير العربي من الخيل والبغال. مقرنة: مشدودة إلى بعضها البعض من جهة الرأس بالخشبة.

منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم، فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراسها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مسخر، إذا لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض، فهو مفروش بالحريير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزه بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجواهر، وشرفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قربت لهم برادين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البرادين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء، منظومة بالدر والياقوت، سروجها سرر مرضونة، مفروشة بالسندس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البرادين تزف بهم ببطن رياض الجنة. فلما انتهوا إلى منازلهم، وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور، ينتظرونهم ليزورهم ويصافحهم ويهنئوهم كرامة ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تناول به عليهم وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان، جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحوار مقصورات في الخيام، فلما تبينوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم حقاً قالوا: نعم، وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عنا. قال: برضاي عنكم حللتكم داري، ونظرتم إلى وجهي، وصافحتكم ملائكتي، فهنيئاً هنيئاً لكم، ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾^(١) ليس فيه تنغيص

١. القرآن الكريم: سورة هود: ١٠٨.

ولا تصريح. فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأدخلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور. وهذا سياق غريب، وأثر عجيب ولبعضه شواهد، ففي الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولاً الجنة: «تمنّ»، فيتمنى حتى إذا انتهت به الأماني يقول الله «عز وجل»: «تمن من كذا وتمن من كذا»، يذكره، ثم يقول: «ذلك لك، وعشرة أمثاله». وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الله «عز وجل»: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل في البحر» الحديث بطوله. وقال خالد بن معدان: «إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع، كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سَقَطَ المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة»^(١).

❖ مرويات النصارى:

المسيحيات أو مرويات النصارى تعتبر الرافد الثاني لاقتحام مرويات أهل الكتاب وخرافاتهم وقصصهم في التراث الإسلامي وفي تفسير القرآن والسنة النبوية وأحاديث الصحابة، وقد تتداخل مع المرويات الإسرائيلية بلحاظ أن التراث اليهودي يشكل جزء رئيساً من التراث المسيحي، إلا أن هذا لا يمنع من أفراد قراءة خاصة لمرويات رهبان النصارى وقساوستهم ومن عامتهم ممن دخلوا في الإسلام. وإذا كان وجود وتأثير اليهود في البيئات المسلمة معروفاً، وصورته في الأذهان حاضرة من خلال الحضور اليهودي في المدينة المنورة والحروب الثلاثة التي خاضها المسلمون معهم، ثم فتح خيبر، والآيات القرآنية التي تناولت الصراع الفكري معهم بالإضافة إلى الصراع العسكري، وبقياء هؤلاء اليهود في المدينة وخارجها وتأثير

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٥٧-٤٥٩.

أحبارهم المتأسلمين في التراث الإسلامي، إلا أن مدى امتداد الحضور النصراني المسيحي في المجتمعات العربية الجاهلية ثم الإسلامية يبدو غائباً عن الأذهان إلى حد كبير، الأمر الذي يدفعنا للحديث قليلاً عن العرب النصارى من حيث المنشأ والامتداد والتأثير.

❖ البداية:

لم يعرف العرب لفظة مسيحي أو مسيحية، بل كانوا يطلقون كلمتي «نصراني» أو «نصرانية» بدلاً منهما نسبة إلى مدينة «الناصرة» بفلسطين حيث مولد السيد المسيح (عليه السلام)، وقد وردت الكلمة في أشعارهم قبل الإسلام.

وكان العرب متداخلين أو مجاورين للمجتمع الذي شهد ما يجري في فلسطين في عهد الدعوة النصرانية، فقد جاء في العهد الجديد ما نصه: (كريتيون وعرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله)^(١).

وذكر «رزق الله شيخو» في كتابه «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» أن القديس «لوقا» في «سفر الأعمال» أثناء حديثه عن اليوم العاشر لصعود السيد المسيح بحسب التعاليم النصرانية والمعروف بعيد «العنصرة» قال: (العرب كانوا في جملة الذين عاينوا آيات ذلك اليوم الشريف وسمعوا الحواريين يتكلمون بلغتهم العربية. فلا جرم أن بعضاً منهم كانوا في عداد الثلاثة الآلاف المصطبغين)^(٢) ذلك اليوم... فلما عادوا إلى بلادهم نضروا بين مواطنيهم ما رأوا وسمعوا من أمر المسيح وتلاميذه)^(٣). والقصة وإن كانت. باعتقادنا. غير حقيقية إلا أن ذكر العرب في النص يدل على وجودهم وتفاعلهم مع أحداث قصة السيد المسيح.. ثم بلغ الأمر مداه حيث انتشرت النصرانية بينهم قبل الإسلام انتشاراً كبيراً.

١. الكتاب المقدس: سفر أعمال الرسل، ١١: ٢.

٢. مصطبغ: مغتسل. والاصطباغ هو التعميد الذي يكون بمثابة إعلان الدخول في النصرانية.

٣. شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ٢.

❖ العرب النصارى:

وأسجّل هنا عدة ملاحظات ذات علاقة بهذا الأمر:

(١) تحوّلت بعض القبائل بكاملها إلى النصرانية، وجاء هذا نتيجة تنصّر رئيس القبيلة لسبب إيماني أو سياسي أو اقتصادي أو قومي أو شخصي؛ ومثال ذلك تنصّر زعيم «الضجاعة» في الشام بعد أن دعا أحد الرهبان أن يرزقه الله الولد، فتحقق ذلك. وتنصّر النعمان ملك الحيرة في العراق بعد أن شفي من مرض عصبي على يد أسقف نصراني. وبينما ذكرت بعض المصادر أنه قد تنصّر عرب في اليمن بسبب تأثير البحارة البيزنطيين.

(٢) تفاوت تنصّر العرب بين منطقة وأخرى، فقد كان تنصّرهم كثيفاً نسبياً في نجران والحيرة والشام، بينما كان فردياً تقريباً في الحجاز.

(٣) كان تنصّر أفراد القبائل العربية بسيطاً دون تعمق في اللاهوت، على خلاف قادتها وشخصياتها المبرّزة التي كانت ترتبط بالأساقفة والرهبان.

(٤) غالباً ما أقلتت القبائل العربية النصرانية وطبعتها بطابعها، وتأثّرت بتراتها الثقافي وتقاليدها، ومن هنا استمرّ التصارع القبلي والتنافس السياسي بين تلك القبائل، ولم يوحدّها الانتماء الديني.

(٥) تمّ توظيف الخلافات المذهبية بين النصارى في هذه الصراعات القبلية، حيث كانت في ظاهرها صراعات دينية، وفي واقعها قبلية أو سياسية محضة، كما غدّت بعض الدول الإقليمية^(١) هذه الصراعات بما يخدمها. فتجد أن الغساسنة النصارى أتباع المذهب اليعقوبي والمتحالفين مع البيزنطيين في خصومة شديدة وقتال مستمر مع اللخمين النصارى أتباع المذهب النسطوري، ومن أشهر المعارك بينهما تلك التي وقعت جنوب «تدمر» سنة ٥٣٠م تقريباً، وقرب «قتسرين» سنة ٥٥٤م. قال الله (عز وجل) متحدثاً عن النزاع المذهبي العنيف بين النصارى: ﴿وَمِنْ

١. البيزنطيون والساسانيون.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ^(١).

٦) كان لبناء الأديرة دور مهم في نشر النصرانية بين العرب، سواء في المناطق التي كانت تحت سيطرتهم، أم على طريق التجارة بين الحجاز والشام.

وقد ذكر ياقوت الحموي - وهو يتحدث عن الأديرة - أن الدير بيت يتعبد فيه الرهبان، ولا يكاد يكون في المصر الأعظم، إنما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال، فإن كان في المصر كانت كنيسة أو بيعة، وأن أصل الكلمة من كلمة الدار، والجمع أديار، والديراني أو الديار هو صاحب الدير^(٢).

إلا أن بعض الباحثين يشيرون إلى أن الكلمة ذات أصل آرامي، حيث تعني كلمة «مزرعة» أو «بيت الفلاح» نسبة إلى طريقة معيشة النساك والرهبان الأوائل من النصارى. وكنموذج لبيان مدى انتشار الأديرة في بلاد العرب نذكر الوضع القائم بالقرب من مدينة الحيرة في العراق والتي كانت وما حولها تحت نفوذ المناذرة الذين قد تنصروا. فقد ذكر الدكتور حسن الحكيم في كتابه «المفصل في تاريخ النجف الأشرف» أن منطقة النجف^(٣) وظهر الحيرة ضمت عدداً من الأديرة والبيع وأماكن العبادة في عصر ما قبل الإسلام، وأن ارتفاع المنطقة وإشرافها على بحر النجف لربما جعلها منطقة محببة للنصارى والرهبان لبناء الأديرة، وأن العبادة اختاروا أرض النجف مكاناً للعبادة والتوجه إلى الله، وأنهم كانوا من قبائل شتى اجتمعوا، وانفردوا عن الناس في قصور ابتنووها لأنفسهم في ظاهر الحيرة وتدينوا بدين النصرانية. وأصبحت هذه الديارات في هذه المنطقة ماثلة هنا وهناك، وقد نظمت حولها الحداثق ونُسقت جوانبها بالرياض وزُيّنت بالشقائق والرياحين

١. سورة المائدة: ١٤.

٢. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩٥.

٣. تقع النجف بالقرب من مدينة الحيرة التاريخية التي كان يحكمها المناذرة الذين تنصروا، وكانت تعتبر ذات موقع مميز إذ اعتبرت أرضاً مناسبة لتعليل المرضى بلحاظ هوائها العليل.

ليساعد جمال المكان على صفاء النفس ورقة الحس وسمو الخيال. وكان النساطرة من النصارى العرب المتحضرين قد سكنوا هذه الأديرة، وعند ظهور الإسلام بقيت قائمة في ظهري الحيرة والكوفة، واستخدمت صوامع للعبادة^(١).

وجعل الرهبان هذه الأديرة محطات استراحة للقوافل، وقدّموا فيها الطعام والخمر، وجعلوا منها مراكز لنشر الدعوة النصرانية بين رجال القوافل.

وقال الأب «ألبير أبونا»: (ونجد الكم الهائل من الأديار التي شُيّدت في الحيرة ومحيطها، فقد تجاوزت الخمسين حسب ما ورد ذكرهم لدى المؤرخين، ويلف غيرها الكثير من الغموض. ومن هذه الأديار نذكر: ١. ديارات الأساقف. ٢. دير اسكول أو «الاسكون». ٣. دير الأعور. ٤. دير أبلح. ٥. دير ابن براق. ٦. دير أدرمنج. ٧. دير ابن وضاح. ٨. دير الحريق. ٩. دير قبة الشتيق. ١٠. دير ابن مزعوق. ١١. دير أبي موسى. ١٢. دير عبد الرحمن. ١٣. دير بني صرينارة. ١٤. دير بونا. ١٥. دير مار توما. ١٦. دير الجرعة. ١٧. دير الجماجم. ١٨. دير حنة الكبير. ١٩. دير حنة الصغير. ٢٠. دير حنظلة. ٢١. دير داديشوع. ٢٢. دير دندا أو دودي. ٢٣. دير الخصيب. ٢٤. دير زرارة. ٢٥. دير الزرنوق. ٢٦. دير الشاء. ٢٧. دير سرريس وباكوس. ٢٨. دير سلسلة. ٢٩. دير السوا أو العدل. ٣٠. دير مار عبد يشوع. ٣١. دير العذارى. ٣٢. دير علقمة. ٣٣. دير قرة. ٣٤. دير كعب. ٣٥. دير اللج. ٣٦. دير مار آبا الكبير. ٣٧. دير المسالح. ٣٨. دير مار باباي الكاتب أو المعري. ٣٩. دير مار بشيون. ٤٠. دير مارت مريم. ٤١. دير يزدفنة. ٤٢. دير هند الكبرى. ٤٣. دير هند الصغرى. ٤٤. دير نجران. ٤٥. دير خوداهوي. ٤٦. دير بيت حالي. ٤٧. دير كمري. ٤٨. دير الصوامع. ٤٩. دير شمعون بن جابر. ٥٠. دير القصير أو الأقيصر. ٥١. دير البردويل)^(٢).

وبقيت هذه الأديرة في العهد الإسلامي ببقاء النصارى والرهبان وسكان

١. الحكيم: المفصل في تاريخ النجف الأشرف، ج ١، ص ١٧٣.

٢. ألبير أبونا: ديارات العراق، ص ٤٠٩ - ٤٨٢.

الأديرة في تلك المناطق، وأصبح لأديرة النجف وأماكن العبادة في الشعر العربي موقع كبير، إذ قصد هذه المؤسسات الدينية عدد من الشعراء وتغنّوا بها كأبي نؤاس والثرواني الكوفي والحماني العلوي وغيرهم، فقد ذكروا الصليب في بعض قصائدهم بعد أن رأوا النصارى يرسمونه على أديرتهم ويبيعهم ودورهم، ويعلقونه على صدورهم ويحملون أعلامه في مواكب ملوكهم، كما في إشارة الشاعر:

فالدير فالنجف الأشم جبال أرباب الصليب

وكانت الأديرة في منطقة النجف كثيرة ومتفاوتة في الأهمية^(١).

(٧) أرسلت الكنيسة عشرات الأساقفة إلى المجتمعات العربية المختلفة، وعرفوا باسم «أساقفة الخيام» أو «أساقفة أهل الوبر»، وقامت الكنيسة البيزنطية بتمويل هذه الحملات التبشيرية حتى في الموارد التي اختلفت فيها مذهبياً مع القائمين عليها، وذلك لأغراض سياسية.

وقد تحدث الدكتور «سهيل قاشا» عن جانب من هذا النشاط التبشيري ضمن حديثه عن عرب البادية معتبراً أن بداية عهد المسيحية في البادية غير معلوم، ولعل أخبار التنصّر في البادية رواية نقلها «القديس إيرونيموس»، وهي تبين احترام عشائر البدو في منطقة غزة لشخص «إيلازيون الناسك ٢٩١-٣٧١م» وتعلقهم به وتنصّرهم على يده... ويقول «سوزمينس المؤرخ»: إن راهباً من الرهبان تضرع إلى الله أن يرزق زاقوماً - شيخ إحدى العشائر الضاربة في البادية - ابناً ذكراً، وإن الله استجاب طلبه هذا الراهب، فتنصّر الشيخ زاقوم وجميع أتباعه، وإن زاقوماً وقومه أصبحوا أخلص القبائل العربية لرومة، في نزاعها مع الفرس. وفي أخبار «كيرلس البيسانى» Cyrille de Scythopolis أن جماعة من البدو دخلوا على النساك في منطقة أريحا في أواخر عام ٤٢٠م، وأن النساك فزعوا وتوجسوا خوفاً، فطلب شيخهم أصيبية «ربما زيبية» مقابلة رئيس النساك «أفتميموس» الكبير. وكان له

١. الحكيم: المفصل في تاريخ النجف الأشرف، ج ١، ص ١٢١.

ولد مقعد لم تنجح فيه حيل الأطباء، ولا رُقَى الراقين المشعوذين، فبارك أفثيموس الولد الكسيح فقام يمشي. فتنصّر أصيبية مع عشيرته، بل أضحى رسولاً عربياً بدوياً يبشر باسم المسيح، وكلّل الله عمله بالنجاح فسامه «يوبيناليوس» Jovinal أسقف أورشليم أسقفاً على المضارب ٤٢٨م. وكان قد اتخذ من بطرس الرسول شفيعاً له، فسمي الأسقف بطرس. ومثّل نصارى فلسطين في مجمع «أفسس» ووقع هكذا: بطرس أسقف المضارب، وأصبح الكسيح «طربون» شيخاً على العشيرة وخلفه أولاده وأحفاده... ولا يخفى أن القديس «إلياس» بطريك أورشليم كان هو أيضاً بدوياً عربياً، وهدى «تتوس» أسقف بعلبك في هذا القرن نفسه ثلاثين ألف بدوي^(١).

كما ذكرت بعض المصادر خبر الأسقف العربي لجزيرة «تيران»^(٢) الواقعة عند مدخل خليج العقبة، وهي التي قد اشتهرت في القرون الميلادية الأولى بسلطتها على التجارة البحرية عبر البحر الأحمر والتنازع عليها من قبل الفرس والروم.

٨) هاجرت مجموعات نصرانية كانت عقائدها مزيجاً من اليهودية والنصرانية، ووجدت سبيلها إلى الجزيرة العربية، مثل الأبيونيين الذين يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون، وينكرون قول بولس الرسول في السيد المسيح، ويحافظون على حرمة يوم السبت، وأن المسيح إنسان وأنه لم يُصلب، وأن المصلوب شبيه المسيح، وقد شُبّه على مَنْ صلبه، ومثل الناصريين المعتقدين بألوهية السيد المسيح وقد حافظوا على شريعة النبي موسى، ومثل الكسائيين الذين حافظوا على الختان وحرمة يوم السبت، واتجهوا في صلاتهم نحو بيت المقدس وآمنوا بوجود إله واحد.

٩) وهكذا تنصّر - مثلاً - بنو كلب القاطنون غرب الفرات والسماءة ووصلت

١. قاشا: تاريخ نصارى العراق، ص ١٤-١٥.

٢. يتداول هذه الأيام اسم هذه الجزيرة وجزيرة أخرى بالقرب منها تسمى صنافير وذلك بعد أن قامت مصر بالتنازل عنها إلى المملكة العربية السعودية على أنها من أراضيها، ثم تقدمت بعض الأطراف بتقديم شكاوى إلى المحاكم المصرية رافضة هذا التنازل المصري.

ديارهم إلى تدمر وحمص والبقاع؛ وبنو تميم في حرّان؛ وإياد الساكنون في السواد والجزيرة؛ وقبائل تنوخ في قنسرين وحلب والأنبار؛ والتغليبيون من تكريت والموصل إلى حلب. وقد ذكر ابن قتيبة أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض بني قضاة، وأكد اليعقوبي ذلك حيث قال بتتصر كل من تميم وربيعة وبني تغلب وطي ومذحج وبهراء وسليح. وأضاف الجاحظ إلى القائمة بعض الأسماء حيث قال أن النصرانية قد أوجدت سبيلها بين تغلب وشيبان وعبد القيس وغسان وقضاة وسليح^(١) والعباد وتنوخ ولخم وعاملة وجذام وكثير بن بلحارث بن كعب^(٢).

وكان للمسيحية في اليمامة الواقعة في الجنوب الشرقي من نجد والحجاز أتباع في قبيلة بني حنيفة، كل هذا فضلاً عن اللخمين في الحيرة^(٣)؛ وعبد القيس على الساحل الشرقي للجزيرة العربية، والضجاعة^(٤) والغساسنة^(٥) في أنحاء من بلاد

١. في وادي القرى شمال غرب الجزيرة العربية بالقرب من مدائن صالح.

٢. الجاحظ: الحيوان، ج ٧، ص ٢١٦.

٣. آل لخم وآل النعمان وآل عدي والمناذرة أسماء يراد منها حكام الحيرة وما حولها من وسط وجنوب العراق خلال عهد البعثة النبوية وقبلها. وكان أول من حكم الحيرة من بني تنوخ، وهي قبائل من عرب الجنوب أخذت تغير على حدود الدولة الفارسية في فترة الضعف التي مرت بين سقوط البارثيين وقيام الساسانيين، ونزلت هذه القبائل أول الأمر في إقليم البحرين ومن ثم أخذت تتطلع إلى العراق، ووافقت الفرصة في الفترة التي قامت فيها الحرب الأهلية في فارس أواخر عصر الدولة البارثية، فهاجرت إلى منطقة الحيرة والأنبار. وقد امتد نفوذ سلطان مملكة المناذرة من العراق ومشارف الشام شمالاً حتى عمان جنوباً متضمنة البحرين وهجر وساحل الخليج العربي. استمرت مملكتهم في الحيرة من «٢٦٨م-٦٣٣م». احتل الفرس تلك المملكة فأصبحت شبه مستقلة وتابعة للفرس مع ذلك أكملت الحيرة ازدهارها وقوتها.

٤. الضجاعة قبائل عربية قضاعية يمانية قحطانية، هاجرت إلى الشام وانتصرت على التنوخيين الذين تعود أصولهم إلى اليمن أيضاً وكانوا يحكمون قبلهم عرب الشام.. ولأهم الروم ملك العرب هناك.

٥. الغساسنة أو آل غسان أو آل جفنة، قبيلة عربية أسست إمارة قوية متحالفة مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة ببيزنطة أو الروم في سورية، يعود أصلها إلى الأزد، أي أن أصولهم تعود إلى اليمن. وروي أن هجرات الغساسنة من جنوب الجزيرة العربية بدأت بعد انهيار سد مأرب في اليمن وبعد السيل العرم، في أواخر الألف الأول قبل الميلاد وكانوا في أول نزوحهم إلى الشام قد تغلبوا على قبائل الضجاعة - التي كانت تنزل هناك، واعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية المشرقية المعروفة في سورية آنذاك باليعقوبية، بعد أن كانوا يدينون بالوثنية. كان استقرار قبائل الغساسنة في جنوبي سورية في بُصرى، ثم أصبحت عاصمتهم «الجابية» إلى الشرق من الجولان، وامتد سلطانهم على قسم كبير من بلاد الشام. اتخذ الرومان من الغساسنة حلفاء في الصراع ضد الفرس الساسانيين، فسمحوا لهم بتكوين دولة حدودية ضمن نطاق الدولة الرومانية، وكان الهدف من ذلك أن تصبح الدولة الغسانية حاجزاً بين الإمبراطوريتين وخط الدفاع الأول. وقد حكم الغساسنة من عام ٢٣٠. ٦٣٨ م، أي أربع مائة وثمانين عشرة سنة.

الشام، وطيء في شمال نجد.

(١٠) نقل لنا التاريخ أسماء بعض الشخصيات النصرانية المشهورة في الجزيرة العربية والتي كان لها دور في الحياة العامة قبل وبعد بعثة نبينا الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله).

ففي قریش على وجه التحديد نجد مثلاً: عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب^(١)؛ وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وكلاهما من أبناء عمومة السيدة خديجة بنت خويلد.

وفي الطائف نجد أمية بن أبي الصلت الثقفي^(٢)، والحارث بن كلدة الثقفي، طبيب العرب في وقته. وفي المدينة المنورة عبد عمرو بن صيفي الأوسي^(٣)، بينما عدي بن حاتم الطائي شمال نجد.

(١١) عرفت مكة قبل الإسلام حضوراً لنصارى وافدين عليها. وكان بين سكان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين إليها، لأسباب، منها: الرق، والاتجار، والتبشير، والحرفة^(٤).

١. روي أنه وفد على قيصر الروم، فتتصر، وحسنت منزلته عنده، ومنحه لقب بطريق، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، ولكن قومه أبوا عليه ذلك، فلم يتم له مراده.

٢. أمية بن أبي الصلت شاعر جاهلي ومن رؤساء ثقيف، اختلف في أمره، هل كان من الحنيفية أم نصرانياً، وقد يلتقيان وفق تفسير الحنيفية بكونها من مذاهب النصرانية، أو أنه كان نصرانياً موحداً واشتبه أمره على المؤرخين. دعا إلى التوحيد ونبذ الأصنام. كان كثير الأسفار، وصار يتردد على القسيسين والأخبار، كما كان كثير الاطلاع على كتب الأديان والكتب القديمة، وكان مهتماً بيوم البعث والحساب والجنة والنار فكان يكثر من ذكرها في أشعار. روي أنه التقى النبي ولكنه امتنع عن الدخول في الإسلام، ومات سنة ٥ هـ.

٣. وهو أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة، عُرف في الجاهلية باسم أبي عامر الراهب لأنه تنصّر وترهب وكان من سادات الأوسيين قبل هجرة النبي، ومع دخول أهل المدينة في الإسلام، اتخذ أبو عامر موقف المناصب للعداء والحرب لرسول الله حسداً ونقمة، لأنه سلب الموقع المتقدم الذي كان عليه عند الأوسيين على المستوى الروحي والقيادي، وصار النبي بالنسبة إليهم هو القائد الروحي والسياسي، وبذا غدا أبو عامر من أعوان المشركين والمنافقين والروم ضد الإسلام فأطلق عليه النبي لقب الفاسق، وبه عُرف بعد ذلك.

٤. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج ٣، ص ٢٠٤.

ونصَّ أبو الوليد الأزرقى «ت ٢٥٠هـ» على وجود مقبرة مخصصة لهم في مكة، قال: (مقبرة النصارى: دُبر المقلع على طريق بئر عنبسة بذي طوى)^(١).

(١٢) كما سُكنت المدينة المنورة من قبل نفر منهم. واستشهد د. جواد علي على ذلك بيت شعر لحسان بن ثابت في قصيدة رثى بها النبي حيث قال:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح المُلحد

معتبراً أن يثرب ضُمَّت نفراً من النصارى كما كان بها قوم من يهود، وأن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له: سوق النبط. محتملاً أن هذه السوق هي الموضع الذي كان ينزل فيه نبط الشام الذين كانوا يقصدون المدينة للتجارة في الحبوب، فصارت موضعاً لسكنى هؤلاء النصارى، ونُسب إليهم. وقد ورد أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زييد الشاعر النصراني على صدقات قومه، وأن أبا زييد هذا كان مقرباً من الخليفة عثمان بن عفان من بعده^(٢).

(١٣) شُيِّدت الكنائس في الجزيرة العربية، منها كنيسة في عكاظ، وأخرى في طيء، وفي كندة المتواجدين بنجد، وفي ديار غطفان. قال الدكتور جواد علي: (كان للنصرانية أثر آخر في نصارى عرب الجاهلية، هو أثرها فيهم من ناحية الفن، إذ أدخلت النصرانية بين العرب فناً جديداً في البناء، هو بناء الكنائس والأديرة والمذابح والمحاريب والزخرفة، كما أدخلت النحت والتصوير المتأثرين بالنزعة النصرانية. ولدخول أكثر هذه الأشياء لأول مرة بين الجاهليين، استعملت مسمياتها الأصلية اليونانية أو الآرامية في اللغة العربية، بعد أن صُقلت وهُذِّبت، حتى اكتسبت ثوباً يلائم الذوق العربي في النطق. وستكشف الحفريات في المستقبل عن مدى تأثر النصارى العرب الجاهليين بالفن النصراني المقتبس عن الروم أو بني أرام والأحباش)^(٣).

١. الأزرقى: تاريخ مكة، ص ٥٠.

٢. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج ٣، ص ٢٠٤.

٣. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج ١، ص ٦٩٠.

١٤) انتمى العرب النصارى إلى مذاهب نصرانية متعددة، فقد كانت الانقسامات لدى كنائس الشرق عديدة في القرون المسيحية الأولى، وكان الجدل بشأن الاختلافات بين تلك المذاهب على أشده، يلج فيه عامة الناس، ولم تقتصر تلك الانقسامات على الأسباب الدينية بل شملت العرقية والثقافية والسياسية.

وفي الأساس كانت رسالة المسيح «عليه السلام» تدعو إلى وحدانية الله «عز وجل» ونبوة عيسى بن مريم، وأن خلقه كان بإرادة من الله، وكانت هذه هي عقيدة أتباعه، إلى أن أعلن «شاؤول بن كيسي» المشهور بـ «بولس» أو «الرسول بولس» إيمانه بالسيد المسيح. وكان شاؤول «ت ٦٤ أو ٦٨ م» يهودياً متعصباً وخصماً عنيداً ومؤذياً لأتباع المسيح، فلما رأى أن التكتيل لا يجدي معهم؛ عمد إلى محاولة هدم تعاليم المسيح من الداخل، حيث أعلن فجأة تحوله إلى النصرانية، وأن المسيح تراءى له وهو في الطريق إلى دمشق، وأمره. بعد أن تاب عليه - بنشر دعوته.

ولنشاطه الكبير ورحلاته الواسعة والمتكررة واستغلاله حب النصارى للسيد المسيح ومعاناتهم من اضطهاد اليهود، والتركيز على الجوانب الروحية، استطاع بولس خداعهم إذ دعاهم إلى الإيمان بأن:

- المسيح ابن الله، وقد استقى الفكرة من عقيدة المصريين حول «حورس وأوزيريس وإيزيس» وعقيدة التثليث^(١).

- صلبه كان تكفيراً لخطايا الناس.

- قام المسيح من الأموات بعد صلبه وأنه صعد وجلس عن يمين الله.

- جميع أحكام التوراة باتت منسوخة، لأنها كانت لعنة خلصهم منها السيد

المسيح «عليه السلام».

١. اعتقد قداماء المصريين أن أوزيريس هو إله البعث والحساب، وهو رئيس محكمة الموتى، وأن أخاه «ست» الشرير قتله وقطع جسده ورمى الأوصال في النيل، فعمدت أخته التي هي في نفس الوقت زوجته «إيزيس» إلى البحث عن الأوصال وجمعها ثم مضاجعة «أوزيريس» لتنجب منه «حورس». فشبه بولس: أوزيريس بالإله الأب، وإيزيس بمريم، وحورس بالمسيح.

• ولنعرف مدى تأثيره يمكننا الاطلاع على العهد الجديد - الشامل للإنجيل وأعمال الرسل - لنكتشف أن نصفه قد تمت كتابته بيد بولس، إذ أن ١٣ من ٢٧ سفرًا تُنسب إليه مباشرة، ويبد أشخاص تأثروا بفكره.

وهكذا انقسم النصارى بين أتباع للحواريين يؤمنون بما جاء به المسيح عيسى بن مريم (عليهما السلام) دون تحريف، وأتباع لبولس يؤمنون بأن عيسى ابن الله... إلخ البدع البولسية والوثنية.

قال «هيم ماكبي» في كتابه «بولس وتحريف المسيحية»: (بولس، لا عيسى هو مؤسس هذه المسيحية، إن الأسطورة الأساسية في هذا الدين الجديد تقول بموت كائن إلهي للتكفير عن خطايا البشر، وإن الخلاص الوحيد هو الإيمان بهذه التضحية والتوحد الديني بها، ولقد استقى بولس بعض ذلك من المصادر الهيلينية^(١) وافترى هذا الدين، كما خلط ذلك بما استوحاه من الغنوصية^(٢) والأديان الباطنية^(٣)).

وقد اقتبس بولس من الوثنيات كذلك أعياد رأس السنة، وعيد القيامة، وعيد الغطاس، وأطلق عليها مسميات جديدة، فعيد الربيع مثلاً عندهم Ostara أصبح عيداً لخروج عيسى من القبر Easter.

وهكذا انقسم النصارى إلى فرقتين رئيسيتين، فرقة تتبع بولس، وفرقة تتبع الحواريين الأمناء على رسالة السيد المسيح، ودار صراع عنيف بين الطرفين،

١. تمثل الحضارة الهيلينية فترة متأخرة من الحضارة اليونانية وكانت ذات طبيعة صوفية فلسفية باطنية.
٢. يمكن تعريف الغنوصية أو العرفانية بأنه العلم بأسرار الحقائق الدينية والخصائص الإلهية والنتاج عن صفاء الروح وانكشاف الحقائق بذاتها لا بالتعلم ولا بالوحي ولا بالتحليل العقلي، ويعتبره القائلون به أرقى مصدراً ومحتوى من سائر العلم المتحقق بالبحث والتفكير. والعرفاني هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية بل يغوص في باطنها لمعرفة أسرارها، وهي معرفة تقوم على تعميق الحياة الروحية. فالمعرفة هنا لا تعني العلم، أي اكتساب معارف، بل بذل مجهود متواصل بقصد التطهير والتخلص من الأدران والتوصل للصيغة الغنوصية اللازمة لرحلة العودة للاندماج من جديد في العالم الإلهي. والغنوصية ترى أن ثمة جوهرًا واحدًا يجمع بين كل الديانات، ولذا لا تقدم نفسها كديانة جديدة، بل كباطن للشرعية القائمة، ومهمة الغنوص الكشف عن المغزى العميق للعقيدة التي ينتمي إليها الغنوصي.

٣. هيم ماكبي: بولس وتحريف المسيحية، ص ٢٩-٣٠.

وامتد بعد ذلك لقرون، ووجدت فيه السلطة الرومانية الوثنية النموذج الأفضل من المسيحية التي يمكن قبولها كصورة قريبة من العقائد الوثنية آنذاك. وعُقد المجمع الكنسي في «نيقية» سنة ٣٢٥م، بأمر من «قسطنطين الأول»، وجمع بين «آريوس» وأتباعه الممثلين لكنيسة الإسكندرية وكانوا موحدّين، و«الكسندروس الأول» بابا الإسكندرية وكانوا من المعتقدين بالتثليث، وصدر القرار باعتماد التثليث ورفض التوحيد، وحُرقت كتب الموحدين، واختفى الإنجيل الحقيقي، واضطهد أتباع هذا المذهب، وتبنّى قسطنطين الأول النصرانية بصورتها التثليثية.

❖ طوائف النصارى:

لم يكن الانقسام الذي أحدثه بولس هو الوحيد الذي ظهر بين النصارى في الشرق والغرب، بل ظهرت انقسامات حادة وعنيفة على مدى قرون متوالية، أدت إلى ظهور عشرات المذاهب التي ما زلنا نشهد مجموعة منها كالكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستنتية. ولنا جولة مع أهم تلك المذاهب لا سيما بما يخص العرب النصارى قبل الإسلام.. فمن أهم فرق النصرانية قبل الإسلام:

(١) الآريوسية: تنسب إلى الكاهن «آريوس»، المصري الأصل، الليبي المولد «ولد ٢٥٦م». اعتقد آريوس أن الله واحد لم يولد، سرمدى، ليست له بداية ولا نهاية، ولا يشاركه شيء في ذاته وكل ما كان خارجاً عن الله الأحد هو مخلوق من لا شيء بإرادة الله ومشيتته، وأن عيسى (عليه السلام) مولود مخلوق له بداية، غير أزلي ولا قديم، وهو وسط بين الله والعالم، ليس بمعصوم ذاتاً، ولكن استقامته حفظته من كل زلل وخطأ.

(٢) النساطرة: ويُعرفون بأصحاب الطبيعتين، وهم أتباع الراهب «نسطوريوس = نسطور»، اختير بطريكاً لكرسي القسطنطينية عام ٤٢٨م. اعتقد نسطور بوجود طبيعتين في المسيح، فقبل التجسد كانت طبيعته إلهية، وبعد التجسد صارت طبيعته بشرية أيضاً، وأن عذاب الصليب لم ينل من الطبيعة الإلهية بل انتصر على الطبيعة

البشرية فحسب، وعاد المسيح إلى الطبيعة الإلهية فقط بعد الصلب. وأنه لا يحق للسيدة مريم أن تُدعى والدة الإله، بل أم يسوع فقط. حكمت الكنيسة الرسمية على نسطور بالهرطقة «الابتداء» وتم حرمانه وعزله عن رتبته البطريركية، عام ٤٣١م. وفي عام ٤٥١م عقد اجتماع كنسي في «خليدون» تبعاً لارتدادات انتشار النسطورية، وانقسم فيه الحضور إلى قسمين شكلاً مذهبيين:

(٣) اليعاقبة: ويعرفون باسم أصحاب الطبيعة الواحدة. أبرز مؤسسيهم مار يعقوب البرادعي «ت ٥٧٨م» وهو من الإسكندرية. اعتقد اليعاقبة بأن ليس للسيد المسيح سوى طبيعة واحدة، يتحد فيها الجوهر الإلهي والجوهر البشري للسيد المسيح بدون امتزاج ولا اختلاط. ويُعدّ الأقباط الأورثوذكس اليوم من اليعاقبة.

(٤) الملكانية: القائلين بوجود طبيعتين للسيد المسيح متحدتين في شخصه ودون فصل بينهما. وعُرفوا بهذا الاسم لأنهم أتباع الملك في القسطنطينية. ويُعتبر الكاثوليك اليوم من الكنيسة الملكانية.

لما لجأ أتباع نسطور - بعد عزله واضطهاد أتباعه - إلى الأراضي الواقعة تحت سلطان الدولة الفارسية الساسانية استقبلوهم وساعدوهم، وأسسوا مدرستين دينيتين رئيسيتين، وقوي نفوذهم وانتشر مذهبهم في العراق في إمارة الحيرة، وأنحاء من الشام، وبين القبائل العربية في اليمن والحجاز وسائر أنحاء الجزيرة العربية. وفي المقابل فقد انتشر المذهب اليعقوبي بين الغساسنة، وفي بادية الشام، ولدى بعض القبائل العربية، وأنحاء من اليمن والحجاز.

كانت الكنيسة النسطورية واليعقوبية وانقساماتهما ذات الطبيعة الإثنية «سريان - أقباط - عرب ...» على عدااء دائم مع الكنيسة الرسمية الملكانية.

❖ قصص قرآنية:

تحدث القرآن في قصصه عن النصارى المؤمنين في عهد الفترة وفي العهد

النبيوي، ومن ذلك قصة أصحاب الكهف والرقيم، وقد تناولناها في هذا الكتاب. وأما القصة الثانية فهي قصة أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وتدل بعض النصوص على أن أحداثها جرت بالقرب من نجران، وبالتحديد في مدينة «الأخدود» التي كانت تسمى «رقمات»، وهي مدينة قديمة جداً حيث عُثر فيها على نقوش ورسوم تعود إلى ٧,٠٠٠ سنة^(١)!

عرفت نجران النصرانية منذ زمن بعيد، إلا أن الباحثين اختلفوا في تحديد الزمن الدقيق لذلك والأفراد الذين استطاعوا التأثير على المجتمع النجراني وتحويله إلى النصرانية. ويمكن تلخيص الآراء كالتالي:

١. في القرن الأول الميلادي على يد «برثلماوس الرسول» والذي ترك لأهله نسخة من إنجيل متى، وقد وجدها عندهم لاحقاً العلامة «بنتينوس» مدير مدرسة الإسكندرية اللاهوتية حينما زار تلك البلاد في القرن الثاني^(٢).

٢. في منتصف القرن الرابع الميلادي عن طريق راهب هندي يدعى «ثيوفيلوس» أرسله «قسطنطين الثاني» إلى سيلان ثم إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ليبشر بالنصرانية هناك، وأنه قد تمكن من إنشاء كنيسة في عدن، وأخرى في ظفار، وثالثة في هرمز، ومنها انتشرت النصرانية في جنوب شبه الجزيرة ومنها نجران.

٣. في القرن الرابع الميلادي عن طريق المبشرين الذين فرغوا أنفسهم لتلك المهمة بتكليف من قسطنطين الثاني، وأنهم حينما وفدوا إلى المنطقة عام ٣٥٦م،

١. كانت نجران منذ القدم من أهم وأشهر بقاع الجزيرة العربية ومن أكثرها ذكراً في السجلات التاريخية ومراجع الجغرافيا التي تحدثت عن بلاد العرب. قال د. جواد علي: (وقد ذكرها سترابون في جغرافيته، وسماها Negrana=Negrani في معرض كلامه على حملة أوليوس غالوس على العربية، كما ذكرها المؤرخ بلينيوس في جملة المدن التي أصابها يد التخريب في هذه الحملة. كما ذكرها (بظلموس)، فسماها Nagera Mytropolis=Negra Metropolis. وفي ذكر بظلموس لها على أنها مدينة دلالة على أنها كانت معروفة أيضاً بعد الميلاد. وأن صيتها بلغ مسامع اليونان).

قاموا بتأسيس أسقفية رئيسية جعلت مقرها في ظفار لتكون المرجع المباشر لشئون النصرانية في كل من عدن وسقطرى ونجران والحيرة وهرمز.

٤. في القرنين الخامس والسادس الميلاديين عن طريق التجار، الذين كانوا يقدون إلى نجران ويقيمون فيها بعض الوقت أثناء عبور قوافلهم إلى محطاتهم النهائية.

٥. في القرن الخامس الميلادي عن طريق شخص يدعى «أزكير»، قتل لاحقاً على يد الملك الحميري شرحبيل.

٦. في أوائل القرن الخامس الميلادي عن طريق تاجر نجراني اسمه حيان، كان وثنياً، فلما وصل الحيرة تنصّر وتعمّد، ولما عاد إلى نجران أوقف قومه على بطلان الشرك، ونشر بينهم النصرانية،

٧. في القرن السادس الميلادي عن طريق بعض المضطهدين اليعاقبة الذين كانوا يقيمون في الحيرة في عهد البطريق «سيلاس» فأجلاهم عنها النساطرة، فلجأ قسم منهم إلى نجران وأقاموا فيها ونشروا عقيدتهم بين السكان^(١).

عند انتشار النصرانية في نجران، أقيمت المعابد والصوامع التي تقام فيها الطقوس الدينية، مما جعلها مركزاً دينياً وحضارياً متميزاً، ولم يقتصر دور تلك المعابد على العبادة، بل كانت تستخدم أيضاً في إنذار السكان من خطر الأعداء عن طريق دق النواقيس وإشعال النيران، فيجتمع أهل الوادي من عاليه وأسفله حول منطقة الخطر التي خرجت منها دقات النواقيس مع النيران لمواجهة الخطر.

وأهم المراكز الدينية في نجران وأشهرها تاريخياً وأكصرها وروداً في المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ نجران القديم هو كنيسة نجران التي بناها «بنو عبد المدان» من بني الحارث بن كعب من مذحج، وسموها كعبة نجران مضاهاة بالكعبة الشريفة! قال «الأعشى ميمون» بشأن «يزيد بن عبد المدان» و«عبد المسيح

١. أبو ساق: نجران، ص ٣٣-٣٥.

بن دارس» و «قيس بن الحصين» وهم من رجالات هذه الكنيسة:

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً، هموا خير أربابها

وذكر الرحالة البريطاني «جون فيليبي» أنه اكتشف آثار هذه الكنيسة المسماة كعبة نجران عند منطقة جبل «تصالل» وحدد الطريق المؤدية إليها والمواصفات الأثرية الباقية لها، وذلك ضمن رحلته التي قام بها إلى نجران عام ١٩٣٦^(١).

وعلى كل حال، فقد اشتهرت المدينة بجريمة الإحراق التي وقعت في عهد الفترة في أوائل القرن السادس الميلادي، حين هاجم مدينتهم الملك الحميري اليهودي ذو نواس، وخيّرهم بين الرجوع عن إيمانهم وبين الإبادة حرقاً، فأصروا على إيمانهم، فحضر لهم أخصدوداً وقتلهم حرقاً.. وقيل أنهم كانوا عشرين ألفاً، قال الله «عز وجل» في الإشارة إلى قصتهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^(٢).

وقد تحدثت بعض المصادر المسيحية عن هذه الجريمة وذكرتها أحياناً بعنوان «الشهداء الحميريون العرب» كما جاء في كتاب «الاستشهاد في المسيحية» للأنبا «يوانس» حيث أرجعها إلى سنة ٥٢٣ م على وجه التحديد، مشيراً إلى أن الجريمة قد ذكرت مفصلة في المخطوطات السريانية.

فبحسب هذه المخطوطات - كما نقل عنها الأنبا يوانس - أرسل الملك حملتين لمحاربة أهل نجران المسيحيين، فبارزهم النجرانيون وطردوهم، ثم قاد الملك بنفسه جيشاً قوامه ١٢٠,٠٠٠ من الجند وحاصر المدينة أياماً عديدة، ولما عجز

١. فيليبي: مرتفعات الجزيرة العربية، ج ١، ص ٤١٦.

٢. سورة البروج: ٤ - ١٠.

عن فتحها بالحرب، أوفد إلى أهلها كهنة اليهود الذين من طبرية، حاملين توراة موسى وكتاباً مختوماً بخاتم الملك اليهودي، فحلفوا لهم بالتوراة ولَوَحَي موسى وتابوت العهد وإله إبراهيم وإسحق وإسرائيل، بأنه لن ينالهم أذى إذا سلّموا المدينة طوعاً وخرجوا إليه. فوثق النجرايون بهذه الوعود وخرج إليه ثلاثمائة شخص من الأشراف، فرحب بهم وتودّد وأكد أنه سينفّذ وعده ولن يضطهد أحداً بسبب مسيحيته، ثم طلب منهم أن يُخرجوا إليه في اليوم التالي ألف شخص، فلما فعلوا فرّقهم على قوّاده خمسين وخمسين وأمر كلاً منهم بالاحتفاظ بمن يصل إليهم، حتى إذا انتهوا من طعامهم أوثقهم من أيديهم وأرجلهم وجردّهم من سلاحهم.

وإذ اطمأن لتنفيذ خطته، أرسل جنوده للقبض على أهل نجران ليريهم عظام الـ ١٢٠٠ الذين نكّل بهم في المدن اليمنية الأخرى، ومن بينها عظام «مار بولس» أول أسقف لمدينة نجران الذي استشهد على أيدي يهود طبرية رجماً بالحجارة في ظفار.

أدخل الجنود تلك العظام في الكنيسة وكوّموها في الوسط، ثم أدخلوا القسوس والشمامسة والنذراء والنذيرات^(١) والشبان والشابات وملأوا الكنيسة عن آخرها حتى بلغ عدد المجموعين فيها ألفي شخص، ثم جاءوا بالحطب ووضعوه حول الكنيسة وأضرموا فيه النار، فأحرقت الكنيسة ومن فيها.

أما نساء نجران مع الإماء، فلما علّمن بالخبر وشاهدن الكنيسة تحترق بمن فيها، فقد سارعن إلى الكنيسة وكن يلقين بأنفسهن وسط النيران، ومن بينهن شماسة تدعى «اليشبع» وكانت شقيقة «مار بولس» الأنف الذكر، فمتلّوا بها شر تمثيل، وبعد أن قيدوها سكبوا زيتاً مغلياً على رأسها، وعذبوها بعذابات كثيرة حتى استشهدت. وبعد إحراق الكنيسة، أحضر الملك الأعيان والأشراف الذين وقفوا أمامه مكبّلين فأهان السيد المسيح (عليه السلام) ثم أمر بنزع ثياب «الحارث بن كعب»

١. قسوس: جمع قس. وشمامسة: جمع شماس؛ وهو معاون القس.

رئيس قبائل نجران، وأوقفه عرياناً، وطلب منه أن يكفر بدينه وإلا أماته أشر ميتة. ولما رفض الحارث ومن معه، ورأى الملك أن لا سبيل له عليهم، أمر أن يُساقوا إلى الوادي حيث تُقطع رؤوسهم وتلقى أشلاؤهم، فتم ذلك.

يضيف الأنبا يوانس أن تعداد ضحايا هذا الاضطهاد . بحسب الطبري نقلاً عن ابن اسحق . من أهل حمير وقبائل اليمن المسيحيين يقرب من عشرين ألفاً، ولكن الوثائق السريانية التي سجلت هذا الاضطهاد، تقول أن عدد الشهداء بلغ أربعة آلاف نفس من رجال الدين وغيرهم، (وهؤلاء الشهداء هم الذين عناهم القرآن بأنهم أصحاب الأخدود وجاء ذكرهم في سورة البروج وقد سمّاهم مؤمنين)^(١).

أما المخطوطة التي أطلق عليها عنوان «الرواية العربية لاستشهاد القديس حارث بن كعب» والتي حققها وقدم لها «الأب حارث إبراهيم» راعي كنيسة «سيدة البشارة» بدولة الكويت فقد جاء فيها: (وكانت الدنيا كلها ممتلية من عبادة المسيح والإيمان به: الله الحق مع أبوه وروحهما القدس، ما خلا بلدة سبأ وحدها، فإنها كانت كافرة، وكانوا فيما يزعمون أنهم باليهودية متمسكين ولله عابدين، وبالحقيقة كانوا للأوثان يكرمون.. وكان مما يلي سبأ مدينة يقال لها نجران، فهذه المدينة من السما^(٢) استنارت وصارت على الأمانة المستوية المستقيمة المقدسة المثلثة الأقاليم الموحدة بالطبيعة، وهو الإله الواحد بالكمال حقّه وصواب قُدسه)^(٣).

ثم تحدثت الرواية عن مواجهة عسكرية تمت بين الملك اليهودي الحاكم لمدينة سبأ واسمه «دنحاس» وبين جيش الحبشة المسير من قبل ملكهم «الأسباس»، حتى إذا استقرت الأمور لصالح الملك الحبشي، عاد الملك السبائي من جديد وأخذ يقتل كل من آمن بالمسيح سواء في سبأ أو غيرها كنجران. تقول المخطوطة: (لم يدع بأرض سبأ ممن كان من النصارى أحد إلا قتله، مع جميع من كان خلفه ملك

١. يوانس: الاستشهاد في المسيحية، ص ٤٨.

٢. هكذا في المصدر، ويقصد السماء.

٣. إبراهيم: الرواية العربية لاستشهاد القديس حارث بن كعب، ص ٨٣.

الحبشة بأرض سبأ. فلما فعل ذلك حرّك جيوشه للمسير إلى نجران، أهل مدينة الصلاح ومحبي المسيح، أراد أن يببدهم... فاتفق أنه في زمان شتاً^(١)، فلم يقدر ملك الحبشة أن يخرج إليه وهو محاصر نجران، المدينة العفيفة الكريمة الممدوحة، التي تأويل اسمها بالعبرانية مدينة رعد، وأيضاً: عالية لا تستطاع، فلما جاء اليهودي الرجز^(٢) إلى ناحية تلك المدينة نجران القديسة، نظر إلى علامة صليب ربنا ومخلصنا يسوع المسيح قايم على عمود محيط بالمدينة مع جند مقاتلة^(٣). تكمل المخطوطة روايتها بأن الملك استخدم كل الوسائل مدة الحصار التي استمرت لستة أشهر لتستسلم المدينة دون جدوى، ثم لجأ إلى الحيلة كما جاء في الرواية التي نقلناها مسبقاً لينجح في السيطرة على المدينة، إلى أن تنتهي الأحداث بقتل أهلها بشكل مروع.

وقد جاء في تقرير لصحيفة «عكاظ» الصادرة في المملكة العربية السعودية حول مدينة الأخدود: (..... فرغم مرور مئات السنين إلا أن العظام الهشة السوداء والرماد الكثيف والفحم والحجارة المتناثرة على أطراف المباني شاهدة على الحريق الهائل الذي أصاب أهالي مدينة الأخدود في عام ٥٢٥ من الميلاد.. ويتحدث المدير التنفيذي لفرع الهيئة العامة للسياحة والآثار بمنطقة نجران «صالح بن محمد آل مريح»: «..... هناك عدة أخاديد حفرت في الموقع وما زال رماد وآثار الحريق موجودة حتى الآن.. لقد أجرينا منذ فترة مجسات اختبارية أوضحت لنا أن الأخدود ممتد إلى الألف الأول قبل الميلاد واستمر إلى الألف الأول الميلادي، وبعدها حدث الحريق وحادثة الأخدود»^(٤).

والقصة الثالثة تتعلق بمؤمنين من النصارى على عهد النبي صلى الله عليه وآله،

١. هكذا في المصدر، والمراد الشتاء.

٢. هكذا في المصدر، والمراد الرجز.

٣. إبراهيم: الرواية العربية لاستشهاد القديس حارث بن كعب، ص ٨٣.

٤. صحيفة عكاظ السعودية. النسخة الإلكترونية الصادرة بتاريخ ٩/أبريل/٢٠١٢.

ففي سورة المائدة التي لعلها آخر سورة أنزلت على النبي حديثٌ عن نصارى عَرَفُوا الحق في رسول الله.. ولكن هل أعلنوا عن إيمانهم جهاراً أم أنهم التزموا الصمت وأمنوا في السر تقيّة؟ ومن هم بالتحديد؟ وممن اتّقوا؟ الآيات لا تتحدث عن هذا كله وتكتفي بوصف مختصر كالتالي: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ، فَأَتَانَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١). وقد روي عن عبد الله بن الزبير أنه قال: (نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه)^(٢). أي أن الآية نازلة بخصوص ما جرى في الحبشة حين سمع النجاشي القرآن. واستشكل على ذلك بالفترة الزمنية الطويلة ما بين الحدث في العهد المكي، ونزول الآيات في أواخر العهد المدني. وقيل أن الآيات تتحدث عن ثمانية من نصارى الشام كانوا في بلاد الحبشة وأتوا المدينة مع اثنين وستين راهباً من الحبشة مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم بالحبشة وسمعوا القرآن وأسلموا سنة ٧هـ بعد فتح خيبر، ولذا جاء الحديث عن اليهود في البداية باعتبارهم طرف معاند ومحارب في خيبر في مقابل هؤلاء النصاري المؤمنين.

واستشكل ابن عاشور في تفسيره قائلاً: (ولم يُعرف قوم معينون من النصارى أسلموا في زمن الرسول. ولعلّ الله أعلم رسوله بفريق من النصارى آمنوا بمحمد في قلوبهم ولم يتمكنوا من لقائه ولا من إظهار إيمانهم ولم يبلغهم من الشريعة إلا شيء قليل تمسكوا به، ولم يعلموا اشتراط إظهار الإيمان المسمى بالإسلام، وهؤلاء

١. سورة المائدة: ٨٢-٨٥.

٢. المزيّني: المحرر في أسباب نزول القرآن، ج ١، ص ٤٩٥.

يشبه حال مَنْ لم تبلغه الدعوة، لأنَّ بلوغ الدعوة متفاوت المراتب. ولعلَّ هؤلاء كان منهم من هو بأرض الحبشة أو باليمن. ولا شكَّ أنَّ النجاشي «أصحمة» منهم. وقد كان بهذه الحالة، أخبر عنه بذلك النَّبي. والمقصود أنَّ الأُمَّة التي فيها أمثال هؤلاء تكون قريبة من مودة المسلمين^(١).

❖ وفود النصارى:

وتنقل كتب التاريخ بعض أخبار نصارى العرب الذين وفدوا على رسول الله بعد فتح مكة وقبله، وعلنوا قبولهم برسالة النبي والتصديق بنبوته، أو دخولهم في معاهدة أمنية سياسية تحت عنوان العهد أو الصلح أو الذمة.

ويمكننا أن نشير بدايةً إلى إسلام عدي بن حاتم الطائي وأخته وقومه في العام الهجري السابع، حيث كانت هذه القبيلة في حالة عداء عسكري مع المسلمين، الأمر الذي دفع النبي إلى إرسال قوة عسكرية بقيادة الإمام علي لغزوها.

وفي الخبر المروي عن عدي بن حاتم أنه قال: (جاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذوا أختي وناساً فأتوا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت أختي: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك. فقال: ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الذي فر من الله ورسوله؟ فمنَّ عليها، وإلى جانبه رجل قائم وهو علي بن أبي طالب، قال: سليه حملاناً. فسألتها فأمر لها به وكساها وأعطاهما نفقة. قال عدي: وكنت ملك طيء أخذ منهم المربع وأنا نصراني، فلما قدَّمت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، هربت إلى الشام من الإسلام، وقلت: أكون عند أهل ديني. فبينما أنا بالشام إذ جاءت أختي وأخذت تلومني على تركها وهربي بأهلي دونها، ثم قالت لي: أرى أن تلحق بمحمد سريعاً، فإن كان نبياً كان للسابق فضله، وإن كان ملكاً كنت في عزٍّ وأنت أنت. قال: فقدِّمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلمت عليه وعرفته نفسي، فانطلق بي إلى بيته،

١. ابن عساور: التحرير والتوير: ج ٧، ص ٩-٥.

فَلَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ فَاسْتَوْقَفَتْهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلًا تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا، فَقُلْتُ: مَا هَذَا بِمَلِكٍ، ثُمَّ دَخَلْتُ بَيْتَهُ فَأَجْلَسَنِي عَلَى وَسَادَةٍ وَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا هَذَا مَلِكٌ. فَقَالَ لِي: يَا عَدِي إِنَّكَ تَأْخُذُ الْمَرْبَاعَ وَهُوَ لَا يَحِلُّ فِي دِينِكَ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا تَرَى مِنْ حَاجَتِنَا وَكَثْرَةِ عَدُونَا، وَاللَّهُ لِيَفِضُنَ الْمَالَ فِيهِمْ حَتَّى لَا يَوْجَدَ مِنْ يَأْخُذِهِ، وَوَاللَّهُ لَتَسْمَعَنَّ بِالْمَرْأَةِ تَسِيرُ مِنَ الْقَادِسِيَّةِ عَلَى بَعِيرِهَا حَتَّى تَزُورَ هَذَا الْبَيْتَ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَوَاللَّهُ لَتَسْمَعَنَّ بِالْقُصُورِ الْبَيْضِ مِنْ بَابِلَ وَقَدْ فُتِحَتْ. قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، فَقَدْ رَأَيْتِ الْقُصُورَ الْبَيْضَ وَقَدْ فَتَحْتَ، وَرَأَيْتِ الْمَرْأَةَ تَخْرُجُ إِلَى الْبَيْتِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَوَاللَّهُ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ لِيَفِضُنَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ^(١).

وأما خبر الوفود بعد فتح مكة فمن قبيل خبر الجارود بشر بن عمرو بن حنش بن معلى، ويكنى بأبي المنذر وقيل أبي غياث. كان من رجال الشرف والمكانة في بني عبد القيس بالبصرة وما يُعرف آنذاك بالبحرين وتشمل المنطقة الساحلية الغربية للخليج العربي ابتداءً من الكويت إلى حدود الإمارات العربية المتحدة جنوباً، والقطيف والإحساء غرباً.

وقد على النبي (صلى الله عليه وآله) في العام الهجري التاسع - المشهور باسم عام الوفود لكثرة من وفد على المدينة للدخول في الإسلام أو لعقد الصلح - على رأس جماعة من قومه، ودخلوا في الإسلام وتركوا النصرانية التي كانوا عليها.

وروي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أكرم الجارود ومن معه حين وفدوا إليه، وطلب من الأنصار أن يكرمهم ويعتوا بهم وقال: (قوموا إلى إخوانكم وأشبه الناس بكم)^(٢). قال ذلك لأنهم أصحاب نخل كما أن الأوس والخزرج أصحاب نخل. وقد ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي أنه كان يقال: (أطوع الناس في قومه الجارود بن بشر بن المعلى) أي كانوا ينقادون إليه بشكل كبير، وذكر أن من

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣٤٤.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٥٦.

شواهد ذلك أنه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، فارتدت العرب، خطب قومه فقال: (أيها الناس، إن كان محمدٌ قد مات، فإن الله حي لا يموت. فاستمسكوا بدينكم. ومن ذهب له في هذه الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة، فعليّ مثله)^(١). فما خالفه من عبد القيس أحد. واستشهد الجارود عام ٢١ هـ في إحدى فتوحات المسلمين.

كما وتأتي قصة نصارى نجران كواحدة من الشواهد على هذا الأمر، ففي تفسير القمي، عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان سيدهم الأهمم والعاقب والسيد، وحضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس وصلوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا في مسجدك؟ فقال دعوهم. فلما فرغوا دنوا من رسول الله فقالوا: إلى ما تدعو؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث، قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث^(٢)؟ وينكح؟ فسألهم النبي، فقالوا: نعم. قال: فمن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣)، وقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٤). فقال رسول الله: فباهلوني، فإن كنت صادقاً أنزلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذباً أنزلت علي. فقالوا: أنصفت. فتواعدوا للمباهلة، فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤسائهم السيد والعاقب والأهمم: إن باهلنا بقومه باهلناه، فإنه ليس نبياً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة لم نباهله، فإنه لا يقدم إلى أهل بيته إلا وهو

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٥٧.

٢. يُحَدِّث: يَتَوَلَّى وَيَتَوَقَّطُ.

٣. القرآن الكريم: سورة آل عمران: ٥٩.

٤. القرآن الكريم: سورة آل عمران: ٦١.

صادق. فلما أصبحوا جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، و معه أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فقال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيه وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة، وهذا ابنه الحسن والحسين. ففرقوا^(١)، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: نُعطيك الرضا فاعفنا من المباهلة. فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على الجزية و انصرفوا^(٢).

❖ عهود ومصالحات:

وعلاوة على وفود النصارى التي قدمت المدينة للدخول في الإسلام أو الصلح وتوقيع معاهدات الأمان مع النبي صلى الله عليه وآله، فإن بعض المجتمعات العربية النصرانية وقعت عهود الصلح خلال سفر النبي باتجاه تبوك في الغزوة التي حملت هذا الاسم، وذلك في العام التاسع للهجرة. فقد أراد النبي أن يؤمن الحدود الشمالية من الجزيرة العربية، فأرسل من تبوك خالد بن الوليد إلى دومة الجندل^(٣)، حيث تشير بعض الروايات إلى أن نوايا الشر كانت بادية من حاكمها.

قال الواقدي في المغازي: (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد من تبوك في أربعمئة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً، فقال خالد: يا رسول الله، كيف

١. فرق: خاف.

٢. القمي: تفسير القرآن، ج ١، ص ٩٦.

٣. تعد دومة الجندل إحدى أهم المدن القديمة في شمال الجزيرة العربية. يعود تاريخها المدون إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أما الأدلة الأثرية فتشير إلى مرحلة مبكرة من عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة. ورد ذكر دومة الجندل في إحدى النصوص المسمارية في حوليات الملك الآشوري سنحريب ٧٠٥-٦٨١ ق.م ضمن إشارة لحملة قام بها هذا الملك ضد مملكة دومة الجندل. وفي العصر الجاهلي أصبحت دومة الجندل من أهم مدن شمال الجزيرة العربية ومركزاً للقبائل العربية الشمالية، وكانت سوقها التجارية والأدبية من الأسواق المهمة في الجزيرة العربية. وفي فترة السيطرة البيزنطية على بلاد الشام أصبح حكامها وشعبها خاضعين في ولائهم للإمبراطورية البيزنطية حتى الفتح الإسلامي. من أهم معالمها التاريخية الأثرية قلعة مارد. وقد حاولت ملكة تدمر الزباء «زنوبيا أو زينب» ٢٦٧-٢٧٢م احتلال قلعة مارد بدومة الجندل وحصن الأبلق بتيماء ولكنها فشلت في تحقيق ذلك وقالت قولتها المشهورة: (تمرد مارد وعزّ الأبلق). دومة الجندل حالياً إحدى محافظات منطقة الجوف الواقعة شمال السعودية.

لي به وسط بلاد كَلْب^(١)، وإنما أنا في أناس يسير؟^(٢)، ويستمر الراوي في سرد تفاصيل الأحداث فيما لا حاجة لعرضها، إلى أن يصل في حديثه إلى إلقاء القبض على الملك وتقديمه للنبي (صلى الله عليه وآله) حيث صالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلقى سبيلهما. وكتب رسول الله (صلى الله عليه وآله) كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم.

ولما عرف ملك أيلة^(٣) «يحنة بن روبة» بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قد بلغ تبوك وأنه أرسل سرية إلى دومة الجندل، مع ما بلغه من القوة المتعاضمة للمسلمين وإقبال العرب على الإسلام بشكل مطرد، أقبل ومعه وفود من مدن أخرى، فصالح ملك أيلة على أن يعطي الجزية وقدرها ٣٠٠ دينار، وكتب له كتاباً: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة، لسفنتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر).

كما كتب لأهل «جرباء» و«أذرح» و«مقنا»^(٤) هذا الكتاب: (من محمد النبي رسول الله لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار

١. أي أن هذه القبيلة واسعة الانتشار في تلك المنطقة وهي صاحبة قوة وعدد، وأهلها نصارى.

٢. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٤١٣.

٣. تقع أيلة «العقبة» في رأس خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر في الركن الشمالي الشرقي. وقد قال بعض المفسرين أن الآية القرآنية: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} تخص أيلة هذه. كانت ملتقى للحاج من مصر والمغرب والشام إلى الأراضي المقدسة في الحجاز. أما اسم العقبة فبرز في العصر المملوكي، حيث كانت المدينة تعرف باسم أيلة أو عقبة أيلة حتى غلب اسم العقبة عليها في ذلك العصر. أسس الصهاينة عام ١٩٥١ ميناء إيلات على أرض فلسطين المحتلة بالقرب من العقبة الأردنية.

٤. أذرح قرية أردنية ضمن قضاء أذرح، في محافظة معان جنوب عمان. وتقع مقنا في السعودية منتصف خليج العقبة. ويقع في وسطها عين جارية تنبع من الأرض ويفور الماء العذب من خلال التربة طوال العام تسمى: عين موسى.

في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم ... وكتب لأهل مَقنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم^(١).

كل ما سبق، وغيره مما لم نأتِ على ذكره، يؤكد على حقيقة الامتداد الواسع جداً للنصرانية في المجتمعات العربية المعاصرة لبعثة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، في الجزيرة العربية وفي شمالها حيث العراق وبلاد الشام، بما يفوق التصور المعهود عندنا بمراتب.

وللقارئ أن يتصور حجم التأثير الثقافى لهذه المجتمعات الداخلة في الإسلام^(٢) أو المتصالحة مع الدولة الإسلامية.

❖ الداري وحديث الجساسة:

بعد هذه المداخلة لبيان مدى امتداد النصرانية في بلاد العرب في عصر البعثة النبوية الشريفة، نعود لنكمل الحديث حول تغلغل الروايات المسيحية في تراث المسلمين. ولعل تميم بن أوس الداري، وهو من نصارى اليمن الذين سكنوا الشام، أول من قام بهذا الدور، وقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله بعد غزوة تبوك التي وقعت في السنة التاسعة للهجرة.

قال الدكتور جواد علي في موسوعته «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»: (وورد اسم رجل أدخل للمسلمين القصص الديني، هو تميم بن أوس بن خارجة الداري، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة، وأنه كان نصرانياً، وأنه لقي النبي، فقص عليه قصة الجساسة والدجال. وذكر أنه كان يترهب ويسلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه، وأنه استأذن الخليفة عمر أو الخليفة عثمان في أن يذكر الناس في يوم الجمعة، فأذن له، فكان يقص في مسجد الرسول. وكان بذلك أول من قص في الإسلام. وروي أنه أول من أسرج السراج في المسجد. وكان قد

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٤١٥.

٢. على عهد النبي أو من بعده من خلال الفتوحات.

قدم مع أخيه نعيم الداري في وفد الداريين على الرسول منصرفه من تبوك. وكان مقامه في الشام، وربما وضع القصص على اسمه. وهذا النوع من التذكير والوعظ والإرشاد، القائم على الترغيب والترهيب، بذكر أساطير الأولين والقصص والحكايات والغرائب والعجائب، والقصص المتعلقة بالحيوانات أو المدون على ألسنتها، هو نوع من الوعظ الذي كان يقوم به رجال الدين اليهود والنصارى في تهذيب أبناء دينهم وفي إرشادهم إلى سواء السبيل، على نحو ما كانوا يتخلون به ويتصورونه. ومن مدرستهم في الوعظ، تعلم صاحبنا تميم علمه هذا على ما يظهر. ويمكن الوقوف على طبيعة قصص تميم ونوعيته وعلى درجة ثقافته ومقدار عقليته بالرجوع إلى ما نسب إليه من قصص، وما ورد على لسانه من وعظ. ولكننا لا نجد في الكتب مادة من قصصه تكفي للحكم بموجبها على نوعيته، ولكننا لا نستبعد أن يكون قد خلط بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية. فقد كان نصرانياً، يسمع أقوال وعاظ الكنائس، فتعلم منهم، وطبق ما تعلمه في الإسلام^(١).

وقد اعتبر بعض الباحثين أن حديث الجساسة يعد من نماذج القصص التي كان يقصّها الرجل على المسلمين وتغلّغت في تراثهم، فقد روى عامر ابن شراحيل الشعبي أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحّاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأولى فقال: (حدثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تسنديه إلى أحد غيره. فقالت: لئن شئت لأفعلن. فقال لها: أجل حدثيني. فقالت: نكحتُ ابنَ المغيرة وهو من خيار شباب قريش يومئذ فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما تأيمت خطبني عبد الرحمن بن عوف في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم، على مولاة أسامة بن زيد، وكنت قد حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: من أحبني فليحب أسامة. فلما كلمني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت أمري بيدك فأنكحني من شئت. فقال: انتقلي إلى أم شريك. وأم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة

١. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١٦، ص ١٢-١٣.

النفقة في سبيل الله ينزل عليها الضيفان. فقلت: سأفعل. فقال: لا تفعلي، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان، فإني أكره أن يسقط عنك خمارك أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهين، ولكن انتقلي إلى ابن عمك عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم، وهو رجل من بني فهر، فهر قريش، وهو من البطن الذي هي منه. فانتقلت إليه فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينادي الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت في صف النساء التي تلي ظهور القوم فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه. ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال. حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلك كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سممت لنا رجلاً فرقنا منها^(١) أن تكون شيطانة! قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشدّه وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلك! ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري فأخبروني ما أنتم. قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلك كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقلنا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في

١. أي أنهم خافوا منها.

الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبروني عن نخل بيسان. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر. قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني. إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها. وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وطعن بمخصرته في المنبر: هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة، يعني المدينة. ألا هل كنت حدثتكم ذلك. فقال الناس: نعم. فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو. وأوماً بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ^(١).

ولكن الإنصاف أن الرواية ما دامت منقولة بهذه الصورة فهي تعني أننا لا نملك دليلاً على أن الرجل قد روى هكذا قصة، لأن من نقل الخبر - بحسب الرواية - هو النبي (صلى الله عليه وآله) عن تميم، فهل يُعقل أن يكون النبي قد صدّقه فرواها عنه؟ كما أن سند الحديث لا يشتمل على تميم الداري، ولذا فالخبر منسوب إليه

برواية رسول الله صلى الله عليه وآله، عنه، وهو ما يدفعنا إلى الشك في صدور القصة عن تميم، ولا نملك دليلاً أن عامراً الشعبي أو فاطمة بنت قيس قد سمع أحدهما الرواية عن تميم وأقحما اسم النبي صلى الله عليه وآله في البين لتمرير الخبر.

❖ ابن جريج الرومي الأموي:

وبالإضافة إلى تميم الداري تبرز أمامنا شخصية عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي الأموي مولا هم المكي الفقيه المعروف باسم ابن جريج الرومي.

قال العلامة محمد بن أحمد الذهبي «٧٤٨هـ» بشأنه: (صاحب التصانيف أحد الأعلام: حدث عن أبيه ومجاهد يسيراً وعطاء بن أبي رباح فأكثر وميمون بن مهران وعمرو بن شعيب ونافع والزهري وخلق كثير، ولد سنة نيف وسبعين وأدرك صفار الصحابة لكن لم يحفظ عنهم. روى عنه السفينان ومسلم بن خالد وابن علية وحجاج بن محمد وأبو عاصم وروح ووكيع وعبد الرزاق وأمم سواهم. قال أحمد بن حنبل: كان من أوعية العلم. وهو وابن أبي عروبة أول من صنف الكتب. وقال عبد الرزاق: ما رأيت أحداً أحسن صلاة من ابن جريج، كنت إذا رأيته علمت أنه يخشى الله. ويقال: إن عطاء قيل له: من نسأل بعدك؟ قال: هذا الفتى إن عاش، يعني ابن جريج. قلت: كان ابن جريج ثباً لكنه يدلس! قال أحمد: لم يسمع من عمرو بن شعيب زكاة مال اليتيم ولا من أبي الزناد. وقال يحيى القطان: لم يكن ابن جريج عندي بدون مالك في نافع. وقال جرير كان ابن جريج يرى المتعة؛ تزوج ستين امرأة... قال الواقدي: مات ابن جريج في أول ذي الحجة سنة خمسين ومائة... قال بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: استمتع ابن جريج بتسعين امرأة حتى إنه كان يحتقن في الليلة بأوقية شيرج طلباً للجماع! وعن عبد الرزاق قال: كان ابن جريج يخضب بالسواد ويتغلى بالغالية وكان من ملوك القراء^(١).

واختلف أهل الاختصاص في علم الحديث في تعريف التدليس إلى أقوال وهي

١. الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٢٨.

مقاربة في المعنى وقد لا يستطيع غير المختص التمييز بينها:

١. رواية الراوي عن سمع منه ما لم يسمع منه. كأن يسمع المتعلم من شيخه أحاديث ورواها هذا الطالب عنه، ثم روى أحاديث أخرى لم يسمعها عن شيخه بل أخذها بواسطة، ثم رواها عنه بدون الوسطة.

٢. رواية الراوي عن عاصره ولقيه ما لم يسمعه منه، ولكنه يرويه بصيغة توهم السماع. مثلاً: الأعمش عاصر أنس بن مالك ولم يسمع منه، فيقول الأعمش: قال أنس بن مالك سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول....

٣. رواية الراوي عن رجل لم يسمع منه، ولكنه يرويه بصيغة توهم السماع.

٤. أن يروي عن أي راو فوق طبقتة، بصيغة توهم السماع.

وهكذا وجدنا الذهبي يتحدث عن تدليس ابن جريج، ولكنه لا يشير لا من قريب ولا بعيد إلى تأثير نشأته وموروثاته النصرانية في أقواله وآرائه وفي ما رواه للمسلمين. إلا أن الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» يذكر ابن جريج على أنه أحد الذين أقحموا الإسرائيليات^(١) في تفسير القرآن الكريم، قال: (أصله رومي نصراني. كان من علماء مكة ومحدثيهم، وهو من أول مَنْ صَنَّفَ الكتب بالحجاز، وهو قطب الإسرائيليات في عهد التابعين، ولو أننا رجعنا إلى تفسير ابن جرير الطبري، وتعبنا الآيات التي وردت في النصاري، لوجدنا كثيراً مما يرويه ابن جرير في تفسير هذه الآيات يدور على عبد الملك، الذي يُعَبَّرُ عنه دائماً بابن جريج. وقد رُوِيَ عن ابن جريج أجزاء كثيرة في التفسير عن ابن عباس، منها الصحيح، ومنها ما ليس بصحيح، وذلك لأنه لم يقصد الصحة فيما جمع، بل روى ما ذُكِرَ في كل آية من الصحيح والسقيم. أما منزلته من ناحية العدالة، فإنه لم يظفر بإجماع العلماء على توثيقه وتبته

١. يتحدث بعض الباحثين عن المسيحيات تحت عنوان (الإسرائيليات) أيضاً. كما أن من المسيحيين من ينقل النصوص والمعتقدات اليهودية باعتبارها جزء من معتقداته وثقافته.

فيما يرويه، وإنما اختلفت أنظارهم فيه، فمنهم مَنْ وثَّقه، ومنهم مَنْ ضَعَّفَه. قال فيه العجلي: مكى ثقة. وقال سليمان بن النضر بن مخلد بن يزيد: ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج... وقال الدراقطني: «تَجَنَّبَ تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس، لا يُدَلِّسُ إلا فيما سمعه من مجروح». وذكره ابن حبان في الثقات وقال: «كان من فقهاء أهل الحجاز وقرأتهم ومتقنيهم وكان يُدَلِّسُ». وقال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال: «أحد الأعلام الثقات يُدَلِّسُ، وهو في نفسه مُجَمِّعٌ على ثقته مع كونه قد تزوج نحواً من تسعين امرأة نكاح متعة، وكان يرى الرخصة في ذلك، وكان فقيه أهل مكة في زمانه». قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «قال أبي: بعض هذه الأحاديث التي كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة، كان ابن جريج لا يبالى من أين يأخذها، يعنى قوله: أَخْبَرْتُ وَحْدَتِ عَنْ فلان». وذكر الخزرجي في «خلاصته» أنه مُجَمِّعٌ عليه من أصحاب الكتب الستة. ولكن نرى الأستاذ أحمد أمين ينقل في «ضحى الإسلام»: أن البخاري لم يوثقه وقال: «إنه لا يُتَابَعُ في حديثه». ولسنا ندري من أين استقى صاحب «ضحى الإسلام» هذا الكلام الذي عزاه إلى البخاري «رحمه الله». هذه هي نظرة العلماء إليه وحكمهم عليه، ونرى أن كثيراً منهم يحكم عليه بالتدليس وعدم الثقة ببعض مروياته، ومع هذا فقد قال فيه الإمام أحمد: إنه من أوعية العلم، ونحن معه في ذلك، ولكنه وعاء لعلم امتزج صحيحه بعليله، ولا نظن إلا أن الإمام أحمد يعنى ذلك، بدليل ما تقدم عنه من قوله: «بعض هذه الأحاديث التي كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة، وكان ابن جريج لا يبالى من أين أخذها». وكان الإمام مالك «رحمه الله» يرى فيه أنه لا يبالى من أين يأخذ، فقد روى عنه أنه قال: كان ابن جريج حاطب ليل. وأخيراً فعلى المفسر أن يكون على حذر فيما رَوَى عن ابن جريج في التفسير حتى لا يروى ضعيفاً، أو يعتمد على سقيم. وبعد، فهؤلاء هم أقطاب الإسرائيليات، وعليهم يدور كثير مما هو مبثوث في كتب التفسير، وسواء أكان كل ما يُنسب إليهم صحَّ عنهم أم وُضِعَ عليهم،

فقد علمت قيمة كل واحد منهم، وعلمت قيمة ما يُروى من هذه الإسرائيليات وما يجوز روايته وما لا يجوز^(١).

وذكر أبو رية عن ابن جريج أنه ممن كان يثبت في الدين الإسلامي مما يخفيه قلبه: (وكان البخاري لا يوثقه وهو على حق في ذلك. قال الذهبي في تذكرة الحفاظ إنه من أصل رومي فهو نصراني الأصل. ويقول عنه بعض العلماء إنه كان يضع الحديث، وإنه تزوج بتسعين امرأة زواج متعة. ومن المسيحيات التي تدست إلى الإسلام ما ذكروه من إقعاد النبي صلى الله عليه وآله على العرش! ذلك أنهم لما رأوا أن من عقائد المسيحيين أن عيسى عليه السلام يقعد بجوار الله على العرش^(٢) عزَّ عليهم ألا يقعد محمد صلى الله عليه وآله هو الآخر على العرش، فرووا هذا الخبر الذي ننقله لك بنصه عن كتاب بدائع الفوائد لابن القيم ص ٣٩ و ٤٠ ج ٤. قال القاضي: صنف المروزي كتاباً في فضيلة النبي صلى الله عليه وآله، وذكر فيه «إقعاده على العرش». قال القاضي: وهو قول أبي داود وأبي جعفر الدمشقي وإسحاق بن راهويه وإبراهيم الحربي وعبد الله بن الإمام أحمد، والمروزي، وبشر الحاف، ثم ذكر أسماء أكثر من خمسة عشر عالماً يقولون بذلك. قلت «أي ابن القيم»: وهو قول ابن جرير الطبري، وإمام هؤلاء كلهم مجاهد إمام التفسير، وهو قول أبي الحسن الدار قطني ومن شعره فيه:

١. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، ج ١، ص ١٤٣-١٤٤.

٢. جاء في هامش هذه العبارة التعليق التالي: (يعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام قد ارتفع بجسمه بعد صلبه وأنه يجلس هناك مع أبيه. وعند الكاثوليكية الرومانية عقيدة جوهرية تقضي بأن أمه مريم العذراء قد ارتفعت هي الأخرى بجسدها إلى السماء وأنها لم تمت. ومنذ سبع عشرة سنة انعقد مجمع ديني مقدس برئاسة البابا بيوس الثاني عشر بميدان القديس بطرس اشترك فيه ٣٥ كردينالاً ونحو ٥٠٠ بطريرك من جميع أنحاء العالم واحتشد له مليون مسيحي وقرر هذا المجمع هذه العقيدة الدينية، وقال إنها لا تقبل الجدل أو المناقشة ومن يناقشها أو يشك فيها يعتبر من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ملحدًا أو كافرًا (يراجع جريدة الوفد المصري في ٣١ / ١٠، و ١ و ٢ و ٣ / ١١ / ١٩٥٠) والأقباط المصريون جميعاً يؤمنون بهذه العقيدة وتحتفل كل طوائفهم في يوم ١٦ مسرى من كل سنة بعيد انتقال السيدة مريم بجسدها إلى السماء، ويطلقون على هذا الاحتفال اسم «عيد العذراء الكبير»، وليس لأحد أن يعترض على هذه العقيدة أو يمارى فيها إذ ما دام المسيح عليه السلام قد ارتفع إلى السماء وجلس بجوار أبيه فإنه لا مانع من أن تصعد إليه أمه من بعده لتقيم وإياه مع الله في السماء ويحيون جميعاً حياة طيبة في هناء وصفاء).

حديث الشفاعة عن أحمد إلى أحمد المصطفى مسنده
وجاء «حديث بإقعاده على العرش» أيضاً فلا تجرده
أمروا الحديث على ووجهه ولا تدخلوا فيه ما يفسده
ولا تنكروا «أنه قاعد» ولا تنكروا أنه يقعه

وإليك هذه الكلمة الصغيرة ننقلها من كتاب العقيدة والشرعية للمستشرق الكبير جولدتسيهر ص ٤٢ و٤٣: «وهناك جُمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد، وأقوال للربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود، كل ذلك أخذ في الإسلام عن طريق الحديث، حتى لفظ - أبونا - لم يعدم مكانه في الحديث المعترف به، وبهذا أصبحت ملكاً خالصاً للإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر! وقد تسرب إلى الإسلام كنز كبير من القصص الدينية حتى إذا ما نظرنا إلى المواد المكدودة في الحديث ونظرنا إلى الأدب الديني اليهودي فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الديني الإسلامي من هذه المصادر اليهودية. ولا نستقصي كل ما دخل الإسلام من المسيحيات. ومن شاء أن يستزيد من معرفة الاسرائيليات والمسيحيات وغيرها في الدين الإسلامي، فليرجع إلى كتب التفسير والحديث والتاريخ وإلى كتب المستشرقين أمثال جولدتسيهر، وفون كريمر وغيرهما، فقد نقلت فيهما من هذه الاسرائيليات والمسيحيات أشياء كثيرة»^(١).

❖ وهب بن منبه:

حقيقة وهب بن منبه الصنعاني تحتاج إلى وقفة أيضاً، إذ يظهر اسمه واسم أخيه «همام» في بعض ما روي حول الخضر، الأمر الذي يستدعي أن نقرأ شيئاً مما كُتب عن هذه الشخصية ودورها في إقحام الروايات والخرافات الاسرائيلية في التراث الإسلامي. جاء في كتاب «تاريخ الإسلام» للذهبي عن نسبه: (وهب بن

١. أبو رية: أضواء علي السنة المحمدية، ص ١٨٩-١٩١.

منبه بن كامل بن سيح بن الأسوار الأبنائي أبو عبد الله الصنعاني). وعن قوميته قال: (قال العجلي: «وهب تابعي ثقة كان على قضاء صنعاء» وقال غيره: «كان أبوه منبه من أهل هراة»^(١)) فأرسل إلى اليمن زمن كسرى فأسلم في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وحسن إسلامه». وعن علمه قال: (وكان صدوقاً عالماً قد قرأ في كتب الأولين وعرف قصص الأنبياء عليهم السلام) وكان يشبه بكعب الأحبار في زمانه، وكلاهما تابعي لكن مات قبله بنحو من ثمانين سنة. فمولد وهب قريب من وفاة كعب، وفي الصحيحين حديث عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أخيه همام عن أبي هريرة.. وعن وهب قال: «كانوا يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكان كعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمعهما؟» يعني نفسه).

وأما عبادته وأخلاقه وروحانيته فقال عنها: (وقال مثنى بن الصباح: «لبث وهب أربعين سنة لم يسب شيئاً فيه روح، ولبت عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً!!» ثم قال وهب: «قرأت ثلاثين كتاباً نزلت على ثلاثين نبياً». وقال عبد الصمد بن مغفل: «صحبت عمي وهباً أشهراً يصلي الغداة بوضوء العشاء». وقيل: «لبث أربعين سنة لم يرقد على فراش»! روى عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه قال: «كان وهب يحفظ كلامه، فإن سلم يومه أفطر، وإلا طوى». وروى عبد الصمد عن الجعد بن درهم قال: «ما كلمت عالماً قط إلا حل حبوته أو غضب، إلا وهب بن منبه». معمر عن سماك بن الفضل قال: «كنا عند عروة أمير اليمن إلى جنبه وهب في قوم، فشكوا عاملهم وذكروا منه شيئاً قبيحاً، فتناول وهب عصا فضرب بها رأس العامل حتى سال دمه، فضحك عروة بن محمد وقال: يعيب علينا أبو عبد الله الغضب وهو يغضب! فقال: ما لي لا أغضب وقد غضب الذي خلق الأحلام فقال: ﴿فَلَمَّا أَسْفُونَا ائْتَمَمْنَا مِنْهُمْ﴾^(٢). ويروى أنهم قالوا لوهب: «إنك تحدثنا بالرؤيا فتقع حقاً. فقال: هيهات، ذهب ذلك عني مذ وليت القضاء»).

١. مدينة تقع حالياً في أفغانستان، ولابد أن لخلفيته العرقية والثقافية هذه دخل في ما قدم.

٢. القرآن الكريم: سورة الزخرف: ٥٥.

وعن البشارة النبوية بشأنه قال: (عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يكون في أمتي رجلان أحدهما يقال له وهب يهب الله له الحكمة، والآخر يقال له غيلان، هو أضر على أمتي من إبليس»). وقد بين الذهبي ضعف إسناد هذا الخبر بأكثر من راوٍ.

وعن بعض آرائه العقدية قال: (قال أحمد بن حنبل: «كان يُتهم بشيء من القدر، ورجع»). وقال عمرو بن دينار: «دخلت على وهب بصنعاء، فأطعمني من جوزة في داره فقلت له: وددت أنك لم تكن كتبت في القدر كتاباً، فقال: وأنا والله وددت ذلك». وقال حماد بن سلمة: «ثنا أبو سنان، سمعت وهب بن منبه يقول: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعاً وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء: من جعل شيئاً من المشيئة إلى نفسه فقد كفر، فتركت قلبي»^(١). إلى هنا لا نجد إلا الثناء الجميل على الرجل، بل والمقام الرفيع الذي ناله بالعبادة والعلم والأخلاق والقضاء وغير ذلك، وإن كان الحديث عن اطلاعه الواسع على كتب الأنبياء - بزعمه - يثير الشك في النفس وي طرح تساؤلاً مشروعاً عن مدى تأثره بتلك الكتب الموروثة عن أهل الكتاب وإقحامها في ما قدّمه ورواه للمسلمين. وعلى كل حال، فإن القوم قد أخذوا عن وهب من العلوم والمعارف ما شاؤوا، فهل كان تقييمهم له صحيحاً؟

كتب خير الدين الزركلي عن وهب بن منبه في موسوعته «الأعلام» فقال: (كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالمٌ بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. يعد في التابعين، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمه من حمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبدالعزيز قضاءها. وكان يقول: سمعت اثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا قليل.. وفي «طبقات الخواص» أنه صحب ابن عباس ولازمه ثلاث عشرة سنة. من كتبه «ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم» رآه ابن خلكان في مجلد واحد، وقال: هو من الكتب المفيدة.

١. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٧، ص ٤٩٧-٥٠٠.

وله «قصص الأنبياء» و «قصص الأخيار» ذكرهما صاحب كشف الظنون^(١).

وبذا بدأت تتبدى بعض الحقيقة.. فالرجل من المهتمين بكتب أهل الكتاب وبالقصص، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه صحب بعض الصحابة، وصحبه بعض تابعي التابعين، سنعرف كيف قام بإقحام رواياته وقصصه وآرائه وخلفيته الثقافية والعرقية والعقدية في ما ورثه المسلمون عنه، تارة بعنوان مروياته عن الصحابة، وأخرى بعنوان منقولاته عن كتب أهل الكتاب، وثالثه من خلال اهتماماته القصصية.

وقد أزاح العلامة الشيخ محمد رشيد رضا الستار في مقال له في مجلة «المنار» وبشكل واضح عن الدور الذي لعبه ابن منبه في حقن التراث الإسلامي بجراثيم الروايات الإسرائيلية، وعن الخدمة التي قدمها الأمويون له حتى صار مرجعاً للمسلمين في شؤون دينهم وعلماء من أعلامهم تحف به صنوف الثناء والمدائح. قال: (ضعفه عمر بن الفلاس، واغتر به الجمهور؛ لأن جل روايته للإسرائيليات، ولم يكونوا يدققون النظر في نقدها تدقيقهم في نقد روايات أصول الدين وفروعه، وقلما كان أحد من رجال الجرح والتعديل يعرف شيئاً من كتب أهل الكتاب ليصح حكمه على الرواة عنها. على أن البخاري «رحمه الله» لم يرو عنه حديثاً في صحيحه مرفوعاً ولا قصة إسرائيلية، ولا مسألة علمية، وإنما روى عنه أثراً واحداً، وهو ما حدث به عن أخيه همام عن أبي هريرة من قوله: «ليس أحدٌ أكثر مني حديثاً إلا عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه كان يكتب ولا أكتب». ولم ينفرد به وهب بل تابعه عليه معمر عن همام، فلا يصح أن يعد وهب من رواة صحيح البخاري الذين ائتمنهم على سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). هذا، وإن ما نقلوه عنه من الرجوع عن عقيدة القدر لرمي له بعقيدة الجبر المحض وهي شر منها^(٢)، فكانوا بذلك كمن يغسل الدم بالبول! وهو مع ذلك يدل

١. الزركلي: الأعلام، ج ٨، ص ١٢٥-١٢٦.

٢. من المعلوم أن الأمويين هم من أحيوا مقولة الجبرية بعد أن كانت جزء من عقيدة المشركين، فكانت

على كذبه فيما يرويه عن كتب الأنبياء (عليهم السلام) فقد ذكروا عنه أنه قال: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلها: «مَنْ جَعَلَ إِلَى نَفْسِهِ شَيْئاً مِنَ الْمَشِئَةِ فَقَدْ كَفَرَ» فتركت قولِي^(١).

ثم علق العلامة محمد رشيد رضا على ما سبق فاضحاً كذب هذه المقولة ومضمون ما رواه عن الكتب المزعومة للأنبياء من عدة جهات ونذكرها من خلال النقاط التالية:

أولاً: إن كتب الأنبياء التي بأيدي أهل الكتاب لا تبلغ هذا العدد.

ثانياً: كتب أهل الكتاب لا تشتمل على هذا، ولا يُعرف لهم نقل له في مجادلاتهم في هذه المسألة.

ثالثاً: إن هذا القول باطل قطعاً بدليل الآيات الكثيرة في القرآن، المثبتة لمشيئة الإنسان، كقوله «عز وجل»: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٢) ﴿لَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾^(٣) ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(٤) ﴿فَأَذِنَ لِمَنْ شِئَتْ مِنْهُمْ﴾^(٥) ﴿لَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾^(٦) وفي معنى الآيات أحاديث كثيرة أيضاً، ولا ينافي هذه الآيات قوله «تعالى»: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٧) بل يقررها ويؤكد لها إذ هو صريح في أن الله «عز وجل» شاء أن يكون للبشر مشيئة خلقها لهم فيما خلقه من صفاتهم وغرائزهم وقواهم.

من الوسائل التي اعتمدها لتبرير طغيانهم وجرائمهم وسلب الإرادة من الشعوب بذريعة أنهم القدر الذي كتبه الله ولا مفر لهم منه!

١. رشيد رضا: مجلة المنار، ع ٢٦٤، ص ٧١٦.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٢٩.

٣. القرآن الكريم: سورة التكوين: ٢٨.

٤. القرآن الكريم: سورة فصلت: ٤٠.

٥. القرآن الكريم: سورة النور: ٦٢.

٦. القرآن الكريم: سورة المدثر: ٦٧.

٧. القرآن الكريم: سورة الإنسان: ٣٠.

رابعاً: إن وهباً قد انتقل من بدعة القدرية إلى بدعة الجبرية التي هي شر منها وأضر، وأدهى وأمر، فهي التي أمتت قلوب المسلمين وهمهم التي فتحوا بها البلاد، ودكوا بها الأطواد، وأرضتهم بالذل والهوان، وتعبدهم للظلمة منهم، ثم للمستعبدین لهم من غيرهم.

وأعقب ملاحظاته السابقة بقوله: (هذا وإن عمدتنا في جرح رواية وهب ما جاء به من الإسرائيليات التي نقطع ببطلانها وهو آفتها كروايات كعب فيها، وقد شوها تفسير كتاب الله بما بثا فيها من الخرافات، وبما أدخلها فيها من العقائد الباطلة، ومن تأييد عقائد أهل الكتاب والشهادة لكتبهم التي بين أيديهم بالصحة)^(١).

واستشهد بواحدة من مرويات وهب بن منبه لتأييد الحقيقة السابقة فقال: (ونكتفي في هذه - وهي شرها - بما نقله الحافظ ابن كثير عنه في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُوءُونَ آلَ كِتَابٍ لِّتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)) قال: قال وهب بن منبه: «إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله عز وجل»، لم يغير منهما حرف، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحول^(٣).

ثم ذكر تعليق ابن كثير على الرواية السابقة، قال: (قال ابن كثير: فإن عني وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة، ونقصان ووهم فاحش، وهو من باب تفسير المعبر المعبر^(٤) وفهم كثير منهم - بل

١. رشيد رضا: مجلة المنار، ع ٢٦، ص ٧١٦.

٢. القرآن الكريم: سورة آل عمران: ٧٨.

٣. رشيد رضا: مجلة المنار، ع ٢٦، ص ٧١٦.

٤. وفي نسخة مكتبة الأزهر: المعبر المعرض، ولعل مراده بالمعبر العبري أي العبراني.

أكثرهم بل جميعهم - فاسد. وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء^(١).

وأتبع العلامة محمد رشيد رضا ذلك برأيه مغلقاً الباب أمام أي تبرير يمكن أن يُقدّم لصالح وهب بن منبه، فقال: (إن ابن كثير قد علم من حال كتب أهل الكتاب ما لم يكن يعلم أئمة الجرح والتعديل ممن فوقه كأحمد وابن معين والبخاري ومسلم الذين لم يروا هذه الكتب كما رآها، ولم يطلعوا على ما بينه المطلعون عليها قبله من تحريفها وأغلاطها ومخالفتها لما نقطع به من أصول الإيمان بالله ورسوله إلخ، كابن حزم وابن تيمية أستاذة، ولو علم أولئك ما علمه هؤلاء من ذلك لجزموا بأن وهباً كان كذاباً غاشاً للمسلمين بصلاحه، ولم يقبلوا له رواية قط، كما كانوا يجزمون بجرح من يقول في الدين بدون ما زعمه من كون التوراة والإنجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب كما أنزلهما الله عز وجل، لم يتغير منهما حرف واحد. وإن تحريفهم لهما إنما كان في تأويلهما، وفي نسبة بعض المسائل التي ليست فيهما إليهما، أي كما يفعل المبتدعون في الإسلام والمتعصبون للمذاهب في تأويل القرآن والحديث لإثبات بدعهم ومذاهبهم، وكما أراد ابن كثير «عفا الله عنه» أن يلتمس لوهب تأويلات كتاويلات متعصبي المذاهب لمشايخهم، ولو نقل هذا القول عن جهمي أو معتزلي أو شيعي لقطع هو وأمثاله بخروجه به من الملة، فهذا التأويل بديهي البطلان؛ لأن كل أحد يجزم بأن وهباً يتكلم عن التوراة والإنجيل الموجودين في الأرض لا عن اللوح المحفوظ، ولا عن علم الله عز وجل، وعن كلامه الذي هو صفة من صفاته)^(٢).

وختم العلامة محمد رشيد رضا مقاله بعقد مقارنة بين حجم المروي في تفسير ابن كثير من الإسرائيليات والمسيحيات وبين غيره من الكتب فقال: (ولو أردنا أن نجتمع من تفسير ابن كثير وحده ما فيه من الإسرائيليات وغيرها عن وهب نفسه

١. رشيد رضا: مجلة المنار، ٢٦ع، ص ٧١٦.

٢. رشيد رضا: مجلة المنار، ٢٦ع، ص ٧١٦.

وعن صنوه في روايتها كعب الأحبار، وننتقدها، لأننا في ذلك كتاباً خاصاً، مع العلم بأن ابن كثير «رحمه الله» يحترس مما لم يحترس غيره منها. وأما إذا رجعنا إلى كتب القصاصين والمفسرين الذين جمعوا كل ما سمعوا فإننا نجد هنالك العجب العجيب والذي يقال فيه: إنه لا تلبس عليه ثياب، ويا حسرتا على من يظنون أن سنة النبي المختار، تزول الثقة بها بجرح وهب وكعب الأحبار^(١).

وبرأيي فإن ما ختم به العلامة محمد رشيد رضا يوضح حجم الكارثة التي ألحقها وهب بن منبه وكعب الأحبار وسواهما ممن أقحموا القصص ومرويات أهل الكتاب وأباطيلهم وموروثات الثقافات المختلفة باسم تفسير القرآن والحديث النبوي ومرويات الصحابة مما لا يحتاج معه إلى مزيد من الشرح والبيان.

❖ البحث التمهيدي الرابع، المعاجز وخرق القوانين الكونية:

من المناسب ونحن نمهد للبحث حول شخصية الخضر أن نتناول هذه المسألة لمُدخلتها في تقييم الكثير من النصوص الخاصة بسيرة الخضر، والتي فاضت بالأحداث الإعجازية والخرقة لقوانين الطبيعة، الأمر الذي يكون - بتقديري - من أسباب وهن تلك النصوص.

بالطبع هذا لا يعني إنكار أصل وقوع المعاجز، فمما لاشك فيه أننا كمسلمين نؤمن بالمعجزة، كوسيلة من الوسائل التي أراد الله «عز وجل» أن يؤيد بها بعض أنبيائه «عليهم السلام» في مواجهة المنكرين، إما لإحداث الصدمة المخيفة التي تفتح عقولهم وتخرجهم من حالة الغفلة إلى حالة الوعي للحقيقة الماثلة أمامهم، كما في قوله «عز وجل»: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾^(٢) ليكون ذلك تمهيداً للاستماع إلى دعوة ذلك النبي والتفكير فيها، أو لإنقاذ ذلك النبي من هلكة دبرها له أعداءه كما في قصة الخليل إبراهيم «عليه السلام» والنار:

١. رشيد رضا: مجلة المنار، ع ٢٦، ص ٧١٦.

٢. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ٥٩.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وفي قصة الكليم موسى (عليه السلام) واليم: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، مع التأكيد على أن الرسائل السماوية تعتمد في دعوة الناس إلى الإيمان على الاقتناع بالدليل الفطري أو العقلي، لا على المعاجز.

ولعل إلى ذلك أشار أمير المؤمنين علي (عليه السلام) حين قال: (وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانِيَ الثَّمَارِ، مُلْتَفَ الْبُنَى، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بَرَّةٍ سَمَرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدَقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدَقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرَدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءَ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِالْأَوَانِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجًا لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَانًا لِلتَّدَلُّلِ فِي نَفْسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ)^(٣).

فيمكن أن نستفيد - ضمنياً - من هذه الفقرة من الخطبة القاصعة أن الله لا يريد للناس أن يكون إيمانهم وهدايتهم من خلال ما هو خارق للعادة، بل من خلال القناعة القائمة على الدليل الفطري أو العقلي، بعد التخلص عن الكبرياء الزائفة التي تدفعهم للعناد، فالتكبر والعناد كلاهما من حُجَبِ العقل والفطرة.

١. القرآن الكريم: سورة الأنبياء: ٦٨-٧١.

٢. القرآن الكريم: سورة الشعراء: ٦٣-٦٧.

٣. الشريف الرضي: نهج البلاغة، خ ١٩٢.

وهكذا فإننا نؤمن بالكرامة، وهي أمور تقع على خلاف ما اعتاد عليه الناس وألفوه في زمانهم، دون أن تبلغ حد الإعجاز الذي يخرق قوانين الكون والطبيعة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه ليس بالضرورة أن ترتبط الكرامة بدعوى النبوة، وذلك من قبيل نزول الرزق على السيدة مريم بنت عمران «عليها السلام»: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١). والفرق واضح بين معجزة انشقاق البحر بضربة من عصا، وبين الحصول على فاكهة الصيف في الشتاء.

ومثال آخر علي ذلك ما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(٢). فهذا الأمر الذي صدر منه بإحضار عرش بلقيس من سبأ إلى القدس في أقل من لحظة، يحتمل أحد أمرين:

١. أن يكون توظيفاً للقوانين العلمية التي كان يعرفها ذلك المتحدث، لاسيما بلحاظ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهو ما لربما يعني أنه كان يمتلك من المعرفة في القوانين العلمية ما أمكنه من توظيفها لتحقيق المطلوب، على تقدير أن «علم الكتاب» هنا هو العلم بـ «كتاب التكوين» أي «القوانين الإلهية المودعة في الطبيعة». وبهذا التفسير لن يدخل الحدث في ضمن المعجزة أو الكرامة، إلا على قول بعض العلماء الذين يفسرون المعجزة بأنها توظيف للقوانين الطبيعية بصورة يعجز عنها سائر الناس.

٢. أن يكون خرقاً للقوانين الطبيعية، ولكنه لما لم يكن مقروناً بدعوى النبوة، فلن ندخله في إطار المعجزة، ويمكن أن نسمي ذلك العمل «كرامة» على سبيل المثال. ولكي لا تختلط المعجزة والكرامة بالخرافة في الذهنية العامة عند الناس، لابد

١. القرآن الكريم: سورة آل عمران: ٣٧.

٢. القرآن الكريم: سورة النمل: ٤٠.

من إدراك الحقائق التالية التي قرَّرها بعض العلماء والباحثين من خلال النصوص القرآنية والأدلة العقلية والسنة المحقَّقة:

١. المعجزة حالة استثنائية في دورة الحياة وفي تصرفات بعض الأنبياء.
٢. المعجزة خلاف الأصل، وما هو كذلك فإنه سيحتاج إلى دليل قطعي لإثبات حصوله.
٣. المعجزة لا تكون إلا للأنبياء «عليهم السلام»، قال العلامة جعفر السبحاني في بيان مفهوم المعجزة: (أمر خارق للعادة، مع دعوى النبوة، ومقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة... إن الإتيان بما هو خارق للعادة لا يسمى معجزة إلا إذا كان مقترناً بدعوى النبوة)^(١).
٤. كان الأنبياء أحياناً إذا ما طلب الناس منهم معجزة، لا يستجيب الله لطلبهم، بل يأتي الجواب: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(٢). أي أن الحياة لا بد من أن تسير وفق منطق السنن، ومنطق العلة والمعلولية.
٥. ليس بالضرورة أن يكون لكل نبي معجزة، فقد بعث الله عدداً من الأنبياء دون أن يسددهم بها، ولعلنا نجد مثال ذلك في قوله «عز وجل» على لسان قوم النبي هود «عليه السلام»: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).
٦. التساهل في قبول أخبار المعاجز والكرامات يؤدي إلى خلق عقلية تختلط فيها المفاهيم، وتتداخل فيها المعاجز والكرامات من جهة بالخرافات والأوهام من جهة أخرى.
٧. المعاجز بيد الله لا بيد أحد وإن كان نبياً، وقد قال «عز وجل»: ﴿وَقَالُوا لَنْ

١. السبحاني: محاضرات في الإلهيات، ص ٢٥٨.

٢. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ٩٣.

٣. القرآن الكريم: سورة هود: ٥٣.

نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ
الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ «عز وجل»: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا
رَّسُولًا﴾^(١). وأوضح منه ما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتُ
مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، وقد قال العلامة
الطباطبائي في تفسيرها: (اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن، تعريضاً
منهم أنه ليس بآية وزعماً منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوة إلهية غيبية يقوى
على كل ما يريد... ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: جواب عن زعمهم أن من يدعي
الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها على كل ما أراد، بأن الآيات عند الله ينزلها متى
ما أراد وكيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره)^(٣).

وحين نأخذ بعين الاعتبار الملاحظات السابقة وبكل دقة وجدية، ستتضيق
الدائرة كثيراً على القصص والأخبار التي يتداولها الناس حول وقوع «معجزة»
هنا أو «كرامة» هناك - مع التأكيد على أن عهد المعاجز قد انتهى وذلك بوفاة خاتم
النبیین (عليهم السلام) - وعلى كثير من الروايات المنتشرة في الكتب التراثية الخاصة
بالتفسير والحديث والتاريخ والأدب والقصص وغيرها عن أحداث جرت، وخوارق
وقعت، وذلك إما لضعف تلك الروايات من الناحية السُنَدِيَّة، أو لكونها استثناءً
ومتعارضة مع الأصل الذي ذكرناه مسبقاً وهو أن مجريات الأحداث في الحياة تسير
وفق القوانين والسنن، وأن أي ادعاء على خلاف ذلك سيحتاج إلى برهان قاطع أو
يُطمأن إليه لإثباته. وبذا تتحول الكثير من تلك الأخبار والحكايات والروايات إما
إلى خرافات وأساطير، أو إلى حوادث اعتيادية يتم تهويلها وإخراجها عن سياقها
الطبيعي لغرض ما أو تحت ضغط نفسي معيّن، أو أنها تبقى في دائرة الاحتمال لا

١. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ٩٠-٩٣.

٢. القرآن الكريم: سورة العنكبوت: ٥٠-٥١.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج: ١٦ ص: ١٤٠.

القطع واليقين، ويوكل علمها إلى الله «عز وجل» فتفقد بالتالي أثرها الحاسم في تلك الادعاءات.. مع التأكيد مجدداً على إمكانية وقوع الكرامة لعدم ارتباطها بعهد النبوات، ولكن إثبات وقوعها لأحد يحتاج إلى دليل يُطمأن إليه، لا مجرد الحكاية والنقل والادعاء.

وإذا كان البعض ينطلق من القصص القرآني حول النبي سليمان «عليه السلام»، كما في قوله «عز وجل»: ﴿وَأَسْلَمْنَا رِيحَ غَدُوهاَ شَهْرَ وَرَوَاحِهاَ شَهْرَ وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطرِ وَمَنْ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١) وفي قوله «عز وجل»: ﴿قَالَ عَصْرِيَّتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾^(٢) وغيرها من الآيات للحديث عن ظهور الجن لبعض الناس وتجسدهم في أشكال معينة، وعن امتلاك بعض الناس لبعض «الأسرار السليمانية» في كشف الغيب وتسخير الكائنات وما إلى ذلك، فإن هذه لا تعدو أن تكون مجرد ادعاءات وهمية وجزءاً من الخرافات والأساطير التي يُخدع بها البسطاء لاستغلالهم مادياً أو جنسياً، بل وحتى مخابراتياً!

والذي ينبغي قوله هنا أن كل التفاصيل الغريبة والخرافة والتي يمتزج فيها ارتباط العالم الذي نشهده بعالم الغيب المرتبط بالجن والعفاريت بتلك الصورة التي قصّها القرآن الكريم من قصص النبي سليمان «عليه السلام»، يمثل حالة استثنائية لن تتكرر لأحد من بعده أياً كان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٣)، والآية

١. القرآن الكريم: سورة سبأ: ١٢-١٣.

٢. القرآن الكريم: سورة النمل: ٣٩.

٣. القرآن الكريم: سورة ص: ٣٥-٣٨.

واضحة في عبارة: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾.

وأما التمسك بما جاء في سورتي الجن والأحقاف حول الجن الذين استمعوا إلى القرآن فآمنوا، فهي لم تتحدث عن رؤية النبي (صلى الله عليه وآله) لهم، فضلاً عن حديثه معهم، بل تدل من خلال القراءة المتأنية للآيات على خلاف ذلك، كما في قوله: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾^(١)، فقد أوحى للنبي ذلك، ولم يكن النبي يعلم بما جرى قبل أن يوحى إليه الخبر، فكيف يكون قد التقى بهم بعد أن تجسّدوا ثم كلمهم؟! نعم، دخلت بعض الأحاديث على الخط وقدّمت الحدث بصورة مغايرة لما في القرآن، والقاعدة تقول أن ما عارض القرآن فهو زخرف.

ولربما يدّعي البعض أنه قد شاهد الجن في صور مجسّدة أو كالظل والخيال، وأنه سمعهم وكلمهم، وهو صادق في ادعائه، متوهم في ما رأى، إذ لا تعدو مشاهدته وسماعه أن يكون صورة متكونة في دماغه. لا انعكاساً للواقع. وتتكون هذه الصورة الوهمية والهلأوس نتيجة انفعال نفسي أو مرض عقلي «كالفصام» أو تعاطي لمواد مهلوسة أو الإصابة بالحمى الشديدة، لتدخل بالتالي في دائرة الخرافة لا الحقيقة.

إن الله يريد لعالمنا المشهود هذا أن يسير وفق النظم والقوانين المعهودة، لا من خلال تلك الصورة الاستثنائية التي قدّمتها قصص النبي سليمان.. كما أن مجرد الإمكان لا يعني الوقوع، ومن ادّعى الوقوع فعليه الإتيان بالبرهان القاطع لا بالكلام المزخرف، ولا بالتأثير بالأساليب النفسية المحفّزة للقدرات العقلية في تكوين الصور الوهمية في ذهن البشري. وللأسف فإن خطابنا الديني غير الدقيق - أحياناً - في استعمال المصطلحات وخلط المفاهيم وعدم التدقيق في النصوص أدى إلى خلق عقلية يسهل عليها قبول أية قصة أو أي نص يتضمن ما يدّعى أنه معجزة أو كرامة، على الرغم من أن ذلك خلاف الأصل في الحياة.

١. القرآن الكريم: سورة الجن: ١.

وإلى هذا أشار الشيخ محمد هادي الغروي بقوله: (إن المعجزة فارقة للنظام الطبيعي، فإذا أردت أن تثبت شيئاً مختلفاً مع النظام الطبيعي فمن المنطقي أن تكون خطواتك هذه أكثر صعوبةً وعسراً ممّا أردت إثبات شيء غير خارق منسجم مع الطبيعة. إذاً المعجز لا يثبت إلا بدليل قطعي أو مقارب للقطعي، أي المتواترات أو ما يمكن الاعتماد عليه من النصوص المستفيضة. وهذا معناه أنه لا يمكن اعتماد في مثل المعاجز على أخبار الآحاد)^(١).

ثم قدّم مثلاً على ذلك من خلال ما جاء في موسوعة «بحار الأنوار» حول انعقاد نطفة رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (دعنا - بدايةً - نأخذ العلامة المجلسي مثلاً. ففي ما يتعلق بانعقاد نطفة رسول الله اعتمد المجلسي على كتاب «الأنوار» للبكري... وقد علق المحقق الرباني الشيرازي «رحمه الله» تعليقة قيّمة هنا، حينما أكد أن البكري المنقول عنه في «البحار» متقدّم على البكري أستاذ الشهيد الثاني «رحمه الله» وأن الأول منهما موصوف لدى كل من تعرض لحياته بأنه رجل قصّاص وضّاع، فكتابه لا يعد كتاب تاريخ، بل كتاب أسطورة، وإنما صنّفه لتلك المجالس التي راجت تدريجياً في العالم السني حول مولد النبي (صلى الله عليه وآله)، حيث كانوا يحيون سابقاً الأيام العشرة لمولد النبي، لا سيما في الأوساط الصوفية. إذاً فالعلامة المجلسي «رحمه الله» أحسن الظن بهذا الرجل، لسببين: الأول: عدّه من مشايخ الشهيد الثاني. الثاني: اشتمال كتابه على كثير من الخوارق)^(٢).

وهكذا تحدث الشيخ حسين الخشن عن تأثير هذا الخلط في المفاهيم في تشكيل العقلية التي يسهل عليها قبول أية قصة أو أي نص يتضمن ما يُدّعى أنه معجزة أو كرامة لها علاقة بالثقافة العاشورائية على وجه التحديد، وهو ما يمكن أن ينساق إلى كثير من القضايا ذات العلاقة بالثقافة الدينية ككل.

وبالتالي فإن من المصادر غير المعتبرة بحسب اعتقاده، أو التي لا بدّ من التأمّل

١. الغروي: منهج البحث التاريخي، معايير الدراسة وأخطاء المؤرخين، مجلة نصوص معاصرة، ع ٢٠٤.

٢. الغروي: منهج البحث التاريخي، معايير الدراسة وأخطاء المؤرخين، مجلة نصوص معاصرة، ع ٢٠٤.

فيها، هي محاولة تثقيف الأمة بما يُعرف بأخبار العجائب والغرائب والكرامات. معتبراً أننا نؤمن بمنطق المعجزة والكرامة، فالقرآن الكريم حدثنا عن معاجز الأنبياء، فلا بدّ من أن نؤمن بذلك، ولا نتردّد فيه، فما نصّ عليه القرآن - مثلاً - نقبله بدون تردّد، لكن الذي يحصل في كثير من الحالات هو التوسّع في نقل الكرامات، والإسهاب في تثقيف الناس بها، والاستشهاد بها بهدف إثبات حقانيّة عقيدتنا أو مذهبنا، ولذا يتمّ الحديث عن أنّ فلاناً حصل معه كذا، وفلاناً شفي في المكان الفلاني وما إلى ذلك؛ هل هذه الطّريقة صحيحة؟ ثم أبدى الشيخ الخشن عدّة ملاحظات على اعتماد هذا الأسلوب في التثقيف العام:

١. إنّ التقدير الإلهي أو القانون الإلهي، قضى أن يجري هذا الكون وفق منطق السنن وليس وفق منطق المعاجز والكرامات، إنّ المعاجز، وكذا الكرامات هي استثناء، حتّى بالنسبة إلى الأنبياء، وليس من شرط النبيّ (صلى الله عليه وآله) أن يقوم بمعجزة، ولا قامت حياة الأنبياء على أساس المعاجز، وإنما كانوا يعيشون حياةً طبيعيّة، وأحياناً كانوا إذا ما طلب الناس منهم معجزة، لا يستجيب الله لطلبهم، بل يأتي الجواب: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١). إذاً هذه نقطة مهمّة، وهي أنّ الإسلام يعلمنا أنّ الحياة لا بدّ من أن تسير وفق منطق السنن، منطق العلّة والمعلوليّة. إنّ الأمّة عندما ابتعدت عن الأخذ بمنطق السنن، وأصبحت تفتش عن أدوية لأعراضها من خلال التداوي بالقرآن أو بالأحراز، وتطلب النصر بالدعاء بدل إعداد القوّة، عندها تخلّفت وتأخّرت وأصبحت على هامش الأمم.. هذا أولاً.

٢. لا بدّ من التوثق من هذه المعاجز أو الكرامات قبل أن تطرح على الرّأي العام، فعندما يأتي شخصٌ ويقول لك: هناك شجرة في المكان الفلاني، يرشح منها الدّم في العاشر من محرّم كلّ عام، فلا تقبل ذلك ببساطة وسذاجة، بل توثّق من الخبر. أنا أذكر أنّ أحدهم جاء إلى أحد علمائنا الكبار، أحد الفقهاء، وقدم له كتاباً ألفه

١. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ٩٣.

حول قصّة هذه الشجرة التي يرشح منها الدّم في عاشوراء، وطلب منه أن يكتب له مقدّمة لذلك الكتاب، فقال له الفقيه: أنا مستعدّ، لكن بشرط أن تجلس أنت تحت هذه الشجرة ٣٦٥ يوماً، فإذا لم يرشح منها الدّم في كلّ هذه المدّة، باستثناء اليوم العاشر، ساعتئذ أفكر في أن أكتب لك مقدّمة لكتابتك، لذا لا بدّ من التوثّق من هذه الأمور. إنّ كثيراً من الأمور تلقى على عواهنها، وهي لا أساس لها من الصّحة.

٣. إنّ منطق الأمور العجائبيّة، ربما لا يكون هو المنطق السليم لإحقاق الحقّ ودحض الباطل، فغيرنا يطرح الكثير من هذه الأمور، وأنتم تسمعون بذلك وتشاهدونه على شاشات التلفزة، مما يُحكى عن بركة لتمثال رشح منه الزيت وشفي منه فلان أو فلان، إلى غير ذلك من القصص العجائبيّة التي تنقل ويتداولها الناس، وربما يتمّ في ضوئها تطويب بعض الكهنة، ولو أننا تجاوزنا أصحاب الأديان السّماويّة، وذهبنا إلى الهندوس، سنرى أمثال هذه القضايا التي قد تكون أحياناً مبنية على علم معيّن أكثر مما تكون كرامة. ولهذا، فإنّنا نعتقد أنّ حقانيّة الدّين أو المذهب، هي في امتلاكه الحجّة، واعتماده على المنطق، وإنّ قوّة المنطق في رسالة الحسين، هي التي تثبت حقانيّة هذه النّهضة، وليس حصول عجيبة أو كرامة مع فلان أو فلان.

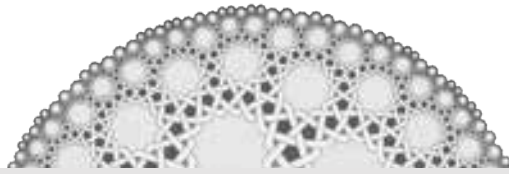
ونبّه الخشن في الختام أن كلامه هذا لا يشكّل دعوة إلى التشكيك أو رفض كلّ ما ينقل إلينا من الكرامات، بل إنّني أدعو إلى التعامل مع هذه الأمور وفق القاعدة المعروفة المنقولة عن ابن سينا: «كلّ ما طرق سمعك فذرّه في بقعة الإمكان، حتى يزودك عنه قاطع البرهان». لكنّه في الوقت نفسه، يدعو نفسه، ويدعو غيره من الخطباء، إلى احترام عقول النّاس، وضرورة تثقيفهم بالثقافة المثمرة على أقلّ تقدير، فلا يتمّ طرح الأمور التي تثير انقساماً وبلبلّة في وسط المستمعين، وربما يدفع الآخرين بأن يسموا الخطباء والعلماء بالكثير من الصّفات السّلبية، وأن من مسؤوليتهم أن يكونوا - على الأقلّ - ممن يعملون بوصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله:

(إِنَّا معاشِر الأنبياءُ أُمَرْنَا أَنْ نَكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدَرِ عَقُولِهِمْ)^(١).

❖ خلاصة حول المعاجز والكرامات:

ومما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

١. الإيمان بالمعاجز بالمعنى الاصطلاحي جزء من الإيمان بالنبوت، إلا أنها تمثل حالة استثنائية في دورة الحياة وفي تصرفات الأنبياء.
٢. الرسائل السماوية تعتمد في دعوة الناس إلى الإيمان على الاقتناع بالدليل الفطري أو العقلي بالدرجة الأولى، لا على المعاجز.
٣. المعجزة خلاف الأصل، وما هو كذلك فإنه سيحتاج إلى دليل قطعي أو مقارب له كي نصدّق بحدوثه، ولا يكفي وجود رواية تتحدث عن وقوعها في كتاب هنا أو هناك.
٤. التساهل في قبول أخبار المعاجز والكرامات يؤدي إلى خلق عقلية تختلط فيها المفاهيم، وتؤثر سلباً على السلوك، وليس توجّه البعض - عند المرض مثلاً - إلى بعض الدجالين ممن يبيعون الوهم إلا من نتائج ذلك.



الفصل الثاني



فرضيات مختلفة

بعد هذه التمهيدات نعود إلى أصل البحث، والمؤشرات تدل على أن قصة العبد الصالح الذي اتبعه موسى (عليه السلام) لفترة من الزمن، وورد ذكرها في سورة الكهف، كانت هي المدخل لتعرّف المسلمين على شخصية أطلقت عليها مجموعة من الروايات اسم «الخَضِر»..

فمن هو الخَضِر؟

هل هو حقيقة أم أسطورة؟

وهل هو من الأنبياء؟

هل هو النبي إيليا؟

أم هو مار جرجس الشهيد؟

أم جميعهم؟

أم أنه سواهم؟

ولماذا عُرف باسم الخَضِر؟

وفي أية فترة من الزمن عاش؟

وهل ما زال على قيد الحياة؟

وهل العبد الصالح في أحداث القصة القرآنية مع موسى، هو الخضر؟

بل هل موسى المذكور في الآيات هو النبي موسى بن عمران؟

وماذا ورد بشأن الخضر في أخبار أهل الكتاب؟

هل التقى بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله)؟

وهل للخضر لقاءات ببعض أئمة أهل البيت (عليهم السلام)؟

وما علاقته بالمهدي والمسيح (عليهما السلام) في آخر الزمان؟

كلها أسئلة تنتظر الإجابة عليها.. وسنتناول في هذا الفصل قسماً منها وفق

الترتيب الآتي:

- استعراض مجمل القصة القرآنية.
- شرح وبيان الآيات التي تناولت القصة.
- تحقيق حول شخصيات القصة القرآنية وسائر ما يتعلق بها من ظروف اللقاء وسببه ونتائجه وغير ذلك.
- بيان الهدف من عرض القرآن لهذه القصة الغريبة.
- دراسة احتمال كون الخضر هو العبد الصالح.

❖ قصة موسى والعبد الصالح:

يمكن إجمال القصة القرآنية الخاصة بلقاء موسى بالعبد الصالح بالوصف

التالي: كان موسى (عليه السلام) في سفر مع فتاه^(١): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ^(٢)﴾

١. فتاه: أي لصاحبه أو خادمه. ولم يذكر القرآن اسم الفتى، وإن ذكرت بعض الأحاديث أنه ليس سوى يوشع بن نون الذي سيكون نبي بني إسرائيل من بعده.

٢. لا أبرح: أي لا أزال.

حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ^(١) أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا^(٢) ﴿٣﴾ ودون أن تُفصح الآيات عن السبب أخبره موسى أن أدنى غايته مجمع «مُلْتَقَى» البحرين، ولعل تحديد المكان جاء عن طريق الوحي، فكأن الله قد أوحى إليه أن يخرج في سفره هذا حتى يبلغ مجمع البحرين، فإن لم يجد غايته هناك من خلال تحقق علامة ما، فإن عليه أن يستمر في سفره حتى تتضح له الغاية من خلال تلك العلامة. ولا تكشف الآيات عما إذا كان الوحي قد أخبر موسى عن طبيعة هذه العلامة أم أنها علامة فحسب.

وهكذا تستمر الرحلة حتى إذا بلغا مجمع البحرين تحققت العلامة التي لم يلتفت إليها موسى، بل شاهدها الفتى لوحده.. لقد رأى أمراً عجباً.. رأى السمكة الميتة التي كانت بحوزتهما تعود إلى الحياة من جديد وتتمكن من الوصول إلى البحر، ومن ثم استطاعت أن تسبح مبتعدة: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا^(٤)﴾ ﴿٥﴾.

ولا نعلم هل تحقق ذلك بالقفز أو الانزلاق إلى الماء؟ وهل كانت سمكة مجففة أو مملحة مما يتخذها المسافرون كنوع من زاد الطريق؟ أم أنه قد تم اصطيادها من ساحل البحر لتكون طعاماً لهما لاحقاً؟ وعلى الرغم من أن حدوث ذلك أثار العجب عند الفتى، إلا أنه لم يُخبر موسى بما جرى، ولا تتحدث الآيات عن الأمر الذي شغله أو منعه عن ذلك، بل أجملت السبب بقول الفتى لاحقاً: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ^(٦)﴾ وليس في هذا دلالة على تفصيل ما شغله عن ذكر الحدث لموسى وكيفيته، علماً بأنه قد تكرر في القرآن مثل هذا التعبير، ففي قصة يوسف (عليه السلام): ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ

١. مجمع البحرين: أي ملتقاهما.

٢. حُقُبًا: أي دهرًا وزمانًا طويلاً.

٣. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٠.

٤. سَرَبًا: أي مسلماً ومذهباً.

٥. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦١.

٦. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٣.

ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ^(١)، وفي قصة النبي موسى (عليه السلام): ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ^(٢)، فهل هو من جهة انتساب كل عمل سلبى إلى الشيطان الذي يرمز للشر، أم أن لوسوسة شيطان الجن دوراً في ذلك؟ الأمر غير واضح.

وعلى كل حال، فقد تحققت العلامة عند مجمع البحرين، ولم يلتفت إليها موسى (عليه السلام)، ولعله بقي هناك لبعض الوقت كتصرف طبيعي لمن ينتظر موعداً، ولكنه لم يكن بالانتظار الكافي، فقد كان في عجلة من أمره تشوّقاً للحدث^(٣).

وبدأت الرحلة من جديد، حتى إذا تجاوزا ذلك المكان وقطعا مسافة يبدو أنها كانت طويلة، أو شاقة من حيث وعورة التضاريس، قرر موسى (عليه السلام) الاستراحة وتناول الطعام الذي ما كان سوى تلك السمكة: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا^(٤)﴾^(٥)، وعندها تذكّر الفتى ما جرى عند مجمع البحرين، حيث أويا إلى صخرة للاستراحة، فأخبر موسى بذلك: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا^(٦)﴾^(٧)، فعلم (عليه السلام) أن مبتغاه أصبح خلف ظهره، وأن عليهما العودة من جديد ومن ذات الطريق التي قدما منها إلى أن يصلا إلى مجمع البحرين حيث الصخرة التي أويا إليها: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا^(٧)﴾.

١. القرآن الكريم: سورة يوسف: ٤٢.

٢. القرآن الكريم: سورة القصص: ١٥.

٣. ولعل اتصاف النبي موسى بمثل هذا الاستعجال في اتخاذ القرار كان من الأمور التي أوجبت مثل هذا اللقاء مع العبد الصالح بأمر من الله، ومن ثم الدخول في تلك التجارب المتتالية التي ستتحدث عنها الآيات تباعاً.

٤. نصباً: أي تعباً ووهناً.

٥. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٢.

٦. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٣.

٧. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٤.

وهكذا تحقق اللقاء عند تلك الصخرة، مع العبد الصالح الذي نال من عند الله ما وُصف بأنه رحمة وعلم: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(١).

ومن جديد يكتنف القصة غموض يرتبط هذه المرة بطبيعة الرحمة المقصودة هنا، وماهية العلم الذي امتاز به مما سنكتشف لاحقاً من خلال تفاصيل الأحداث أنه لم يكن من نوع العلم الذي يحصل عليه الإنسان بالدراسة والتحصيل. ثم عرّض موسى على العبد الصالح أن يتبعه ليتعلم منه ما يحقق له النضوج والرشد على المستوى المعرفي أو الأخلاقي أو الروحي.

في أي جانب من العلم والمعرفة بالتحديد تلّخص طلب موسى؟ لا ندرى بالضبط، ولكن الغاية من الاتباع هو تعلّم ما يحقق له رُشداً: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^(٢).

ويبرز هنا السؤال التالي: أكان العبد الصالح على علم بأنه سيلتقي بالنبي موسى كي يعلمه من ذلك العلم الذي امتاز به، أم أنه نوع من التخطيط الإلهي الذي غاب عن ذلك العبد وكان موسى على دراية به؟

لأن افتراض علم العبد الصالح بالغاية من اللقاء يستدعي أن لا يرفض هذا الطلب: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾^(٣)، بل كان من المفترض به أن يقبل صحبة موسى في السفر تلقائياً كي يعلمه، لأنه إنما جاء لتعليمه. إلا أن يقال أن كلامه جاء لمجرد تنبيه النبي موسى على موطن الخلل الذي يريد الله له معالجته^(٤)، وأنه في داخله قد وافق على تلك

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٥.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٦.

٣. خيراً: أي معرفة.

٤. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٧-٦٨.

٥. سنذكر لاحقاً أن موطن الخلل هو الطبيعة الانفعالية التي اتسم بها النبي موسى واستعجاله في الأمور، وهو ما لا يتناسب وموقع النبوة في القيادة.

الصعبة.. بل إنه إنما قصد اللقاء لهذا الغرض لا لسواه، فكيف يرفضه؟ ويخبرنا القرآن أن موسى من أجل إقتناع العبد الصالح بقبول اتباعه له، أبدى استعداداً للصبر والتحمل وعدم عصيان أوامره مطلقاً: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾^(١)، فوافق بناءً على هذا الوعد، شارطاً عليه أن لا يسأله عن شيء، بل ينتظر التوضيح والتفسير لما سيصدر عنه من تصرفات: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^(٢) وهكذا بدأت الرحلة ضمن هذا الشرط.

وكانت الرحلة البحرية أول محطات التدريب العملي التي خاضها النبي موسى بمعية العبد الصالح.. استقل الاثنان سفينة، فتفاجأ موسى بسلوك غريب صدر عن صاحبه.. لقد بادر إلى إحداث ضرر بالغ بالسفينة بخرقها وتعريضها للغرق بمن فيها على حين غفلة من الجميع!

لم يتحمل موسى هذا المشهد المناهض في ظاهره للشرع والقانون والعرف والعقل. فبادر للاحتجاج والمعارضة والاتهام بأنه قد جاء بتعدٍّ سافر وفعل فظيع قبيح: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾^(٣) ^(٤) ^(٥).

إلا أن هذا الاحتجاج قوبل من قبل العبد الصالح بالتذكير بالوعد الذي قطعه موسى له بأن يصبر ولا يحتج ولا يسأل: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٦).

شعر النبي موسى «عليه السلام» بالحرَج فاعتذر إليه مبرراً ما صدر عنه بالنسيان

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٩.

٢. ذكراً: أي بياناً.

٣. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٠.

٤. إمراً: أي داهية عظيمة.

٥. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧١.

٦. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٢.

وصعوبة تحمّل الموقف غير العادي: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي^(١) مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾^(٢).

قَبِلَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ (عليه السلام) اعتذاره وأكمل رحلتها بعد النزول من السفينة حتى التقيا بغلام.. ومجدداً بادر الرجل إلى تصرّف عدواني في ظاهره، حيث قتل ذلك الغلام الذي لم يصدر عنه أي تصرّف يستحق معه القتل، فضلاً عن أنه مجرد غلام صغير غير مكلف، ومهما ارتكب من جريمة فإن عقوبته لا تبلغ القتل. لم يتحمّل النبي موسى السكوت على هذا الأمر الفظيع، فأنكر عليه ذلك قائلاً: أَقْتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا، لا يقبله شرع ولا عقل ولا قانون ولا عرف: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا﴾^(٣).

وواجهه العبد الصالح بالوعد المقطوع من جديد: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٤).. نعم، لقد سمع موسى هذا منه قبل انطلاقهما في الرحلة، إلا أنه لم يكن يتوقع أن الأمور ستجري بهذه الصورة، وأنه سيفاجأ بمثل هذه المبادرات المستهجنة في ظاهرها والتي لا يتحملها صاحب ضمير، فضلاً عن نبي يخاف الله ويحب الخير للناس.

ولكن النبي موسى (عليه السلام) لم يكن يملك سوى أن يقدم وعداً مجدداً بالصبر والتحمل وعدم السؤال عن غرائب ما يجري، فمن جهة كان بحاجة إلى هذه الرحلة التعليمية، ولأنها جاءت بأمر من الله، وهو يريد أن يعرف إلى أين ستصل الأمور، وما النتائج التي سيجنيها في خاتمة المطاف.. ومن جهة أخرى فإن عدم التزامه بالوعد الذي قطعه لصاحبه منذ البداية شكّل له حرجاً شديداً.. ولذا فقد أضاف

١. ترهقني: أي تحمّلني.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٣.

٣. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٤.

٤. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٥.

من عند نفسه وعداً جديداً: إِنَّ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا الْمَوْقِفِ، فَكَ أَنْ تُتَهَيَّ الرحلة، وَلَا عُدْرَ لِي بَعْدَهَا، وَلَنْ تَكُونَ مُلَاماً وَلَا مُطَالِباً بِشَيْءٍ: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾^(١).

قَبِلَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ الْوَعْدَ الْمُسْتَجِدَّ، فَانْطَلَقَا إِيَّاماً لِلرَّحْلَةِ الْغَرِيبَةِ، حَتَّى وَصَلَا قَرْيَةً وَقَدْ بَلَغَ بِهِمَا الْجُوعُ مَبْلَغَهُ، فَطَلَبَا الطَّعَامَ مِنْ أَهْلِهَا، إِلَّا أَنَّ أَوَّلَئِكَ الْقَوْمِ كَانُوا مِنَ الْبُخْلِ وَاللُّؤْمِ عَلَى دَرَجَةٍ امْتَنَعُوا مَعَهَا عَنْ تَقْدِيمِ الطَّعَامِ لِابْنِي السَّبِيلِ.

وَمَعَ هَذَا، حِينَ شَاهَدَ الْإِثْنَانِ جِدَاراً فِي نَفْسِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ وَهُوَ مَتَهَاوٍ يَكَادُ أَنْ يَتَهَدَّمَ، سَارَعَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ لِإِصْلَاحِهِ وَإِقَامَتِهِ دُونَ طَلَبِ مَنْ أَحَدٌ وَلَا مِقَابِلٍ! وَلَا يَخْفَى أَنَّ إِقَامَةَ جِدَارٍ يَتَهَاوَى يَحْتَاجُ إِلَى بَذْلِ جُهْدٍ كَبِيرٍ مِمَّا يَسْتَنْزِفُ الْمَزِيدَ مِنْ طَاقَةِ الْإِنْسَانِ.

اسْتَعْرَبَ مُوسَى تَصَرَّفَ صَاحِبِهِ مِنْ جَدِيدٍ، وَثَارَ مَتَسَائِلًا فِي احْتِجَاجٍ وَمَتَنَاسِيًا الْوَعْدَ الْأَخِيرَ الَّذِي قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ: أَلَمْ يَكُنِ الْأَوَّلَى أَنْ يَطَالِبَ أَصْحَابَ هَذَا الْجِدَارِ بِالْأَجْرِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الْعَمَلَ بِإِصْلَاحِهِ؟ لَقَدْ كَانَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فِي أَمْسٍ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ الْأَجْرِ الَّذِي قَدْ لَا يَزِيدُ عَلَى طَعَامٍ يَسِدُّانَ بِهِ جُوعَهُمَا، فَلَمْ التَّبَرَّعْ بِعَمَلٍ مَضْنٍ يَزِيدُ مِنْ مَعَانَاتِهِمَا، وَيَكُونُ خِدْمَةً لِقَوْمٍ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْبُخْلِ وَاللُّؤْمِ؟ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا^(٢) أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ^(٣) فَاقَامَهُ^(٤) قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^(٥).

وَهَكَذَا حَكَّمَ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَلَى تِلْكَ الصُّحْبَةِ بِالْقَطِيعَةِ: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ^(٦) مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٧) لَنْ أَتْرَكَكَ بَعْدَ الْآنِ

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٦.

٢. استطعما: أي طلبا الطعام.

٣. ينقض: أي يشرف على السقوط.

٤. فأقامه: أي فسواه.

٥. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٧.

٦. تأويل: أي تفسير وكشف خفايا الأمر.

٧. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٨.

غارقاً في الحيرة، بل سأنبؤك بحقيقة تلك التصرفات وما وراءها، وهو ما لم تصبر عليه.

وتوالت التوضيحات: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾^(١) لقد كانت السفينة مصدر معيشتهم، وقد اتخذ الملك الظالم قراراً بضم كل سفينة صالحة للإبحار في ملكه أو لأسطول حكمه، ومن هنا كان خرق السفينة يلحق بها ضرراً جزئياً يكون مقبولاً ويمكن تعويضه بالمقارنة إلى ضرر غصبها بأكملها وحرمان أصحابها من مصدر رزقهم. وأما الغلام فكان ولداً لأبوين مؤمنين، ولو أن الحياة امتدت به لأرهقهما بطغيانه وكفره،

ولذا فقد كان قتله بأمر من الله رحمةً لهما: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(٢).

ومن مزيد رحمته أنه سيرزقهما بولد آخر يتّصف بالبر وطهارة النفس وحسن السلوك: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً﴾^(٣) وَأَقْرَبَ رَحْمًا^(٤)﴾^(٥).
وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين يعيشان في تلك القرية، وكان تحتة كنز لهما، والأحاديث وإن تضاربت في حقيقة ذلك الكنز المخبأ إلا أن بعضاً منها يتحدث عن كنز معنوي معرّف، لا عن كنز مادي. وكان أبوهما صالحاً، فشملتتهما الرحمة الإلهية، فأمرني الله أن أقيمه ليبقى الجدار صامداً مخفياً ذلك الكنز، حتى يبلغا أشدهما ويستخرجاه، وإلا فإن تهدم ذلك الجدار الآن وانكشف الكنز سيجعله نهباً لأهل القرية وضياعاً لليتين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٩.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٠.

٣. زكاة: أي طهارة.

٤. أقرب رحماً: أي أشد وصلاً للقرابة والرحم.

٥. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨١.

وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ^(١) ولذلك فلم تكن المسألة خدمةً لأهل القرية الذين لا يعيشون قيمة العطاء ولا يستحقون الكرامة من الآخرين، بل رعايةً لهذين اليتيمين جزاءً لصالح أبيهما.

وختم العبد الصالح كلامه مؤكداً أنَّ ما كان منه مخالفاً في ظاهره للشرع والقانون والعقل والعرف لم يكن تصرفاً شخصياً ليكون حالة ذاتية تخضع للنوازع الخاصة والأهواء الشخصية، وإنما صدر عنه ما صدر بأمر من الله «عز وجل»: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٢) وهكذا تجلّت الصورة الحقيقية للأحداث الغريبة التي عايشها النبي موسى في هذه الرحلة، ولكن بعد فوات الأوان، ولم يعد بالإمكان استمرار المصاحبة وتعلم المزيد، فكان الفراق.

❖ الأحاديث وسبب التخطيط للقاء:

نستعرض بدايةً ما جاء في بعض الروايات من الإشارة إلى سبب التخطيط للقاء، وسندرسها من خلال السند والمتن والدلالة، ومن ثمّ نعرّج على كلمات بعض العلماء في رؤيتهم التحليلية للقصة.

١. تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إنما مثلٌ عليٍّ ومثلنا من بعده من هذه الأمة كمثل موسى النبي «عليه السلام» والعالم حين لقّيه واستنطقه وسأله الصحبة، فكان من أمرهما ما اقتضاه الله لنبيه «صلى الله عليه وآله» في كتابه، وذلك أن الله قال لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٣) ثم قال: ﴿

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٢.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٢.

٣. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٤٤.

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿١﴾ وقد كان عند العالم علمٌ لم يُكْتَبْ لموسى في الألواح، وكان موسى يظن أن جميع الأشياء التي يحتاج إليها في تابوته، وجميع العلم قد كُتِبَ له في الألواح، كما يظن هؤلاء الذين يدعون أنهم فقهاء وعلماء أنهم قد أثبتوا جميع العلم والفقه في الدين مما تحتاج هذه الأمة إليه وصح لهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلموه ولفظوه، وليس كل علم رسول الله علموه ولا صار إليهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولا عرفوه، وذلك أن الشئ من الحلال والحرام والأحكام يردُّ عليهم فيسألون عنه ولا يكون عندهم فيه أثر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ويستحيون أن ينسبهم الناس إلى الجهل، ويكرهون أن يسألوا فلم يجيبوا الناس فيطلبوا العلم من معدنه فلذلك استعملوا الرأي والقياس في دين الله وتركوا الآثار ودانوا الله بالبدع، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «كل بدعة ضلالة». فلو أنهم إذ سُئِلُوا عن شئ من دين الله فلم يكن عندهم منه أثر عن رسول الله، ردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم من آل محمد (عليهم السلام). والذي منعهم من طلب العلم منا العداوة والحسد لنا، ولا والله ما حسد موسى العالم - وموسى نبي الله يوحى إليه - حيث لقيه واستنطقه وعرفه بالعلم، ولم يحسده كما حسدتنا هذه الأمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) على ما علمنا وما ورثنا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولم يرغبوا إلينا في علمنا كما رغب موسى إلى العالم وسأله الصحبة ليتعلم منه العلم ويرشده، فلما أن سأل العالم ذلك، علم العالم أن موسى لا يستطيع صحبته ولا يحتمل عليه ولا يصبر معه، فعند ذلك قال العالم: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ ﴿٢﴾ فقال له موسى وهو خاضع له يستعطفه على نفسه كي يقبله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ﴿٣﴾ وقد كان العالم يعلم أن موسى لا يصبر على

١. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٤٥.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٨.

٣. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٩.

علمه، فكَذَلِكَ وَاللَّهُ يَا إِسْحَاقَ بْنَ عِمَارٍ حَالُ قَضَاةِ هَؤُلَاءِ وَفَقَهَائِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ الْيَوْمَ، لَا يَحْتَمِلُونَ وَاللَّهُ عَلَمُنَا وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَطِيقُونَهُ وَلَا يَأْخُذُونَ بِهِ وَلَا يَصْبِرُونَ عَلَيْهِ، كَمَا لَمْ يَصْبِرْ مُوسَى عَلَى عِلْمِ الْعَالَمِ حِينَ صَحِبَهُ، وَرَأَى مَا رَأَى مِنْ عِلْمِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ مُوسَى مَكْرُوهًا، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ رِضًى وَهُوَ الْحَقُّ، وَكَذَلِكَ عَلَمُنَا عِنْدَ الْجَهْلَةِ مَكْرُوهٌ لَا يَأْخُذُ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَقُّ^(١). تَقْيِيمُ السَّنَدِ: الرِّوَايَةُ مَرْسَلَةٌ.

وختلاصة الفكرة في الحديث أن الله «عز وجل» أراد من ترتيب أمر هذا اللقاء أن يفهم النبي موسى «عليه السلام» أن ما لديه من العلم الذي تلقاه عبر الألواح لا يمثل كل المعارف والعلوم التي يحتاج إليها، وأن منها ما يحتاج إلى ارتباط بالغيب، ومنها ما يختزن أسراراً لا يمكن إدراكها بالقراءة الظاهرية السطحية. ثم ربط الإمام - إن صحَّ الخبر - بين مفهوم القصة وبين واقع ارتباط الناس بالأئمة من أهل البيت «عليهم السلام» وهو تأويل جميل وربط للواقع بالنص القرآني، وقد اعتدنا عليه في مجموعة من أحاديثهم الخاصة بتفسير آيات القرآن.

إلا أنه يُلاحظ على الخبر نسبة جهل النبي موسى بحقيقة أن ما في الألواح لا يمثل كل العلوم والمعارف، ولا يُتصور أن يكون «عليه السلام» قد توهم ذلك، على الأقل لمحدودية ما يمكن أن تحتويه من نصوص مكتوبة. وأما تصور أن الألواح هي التوراة فلا يعدو أن يكون خطأ شائعاً غلب على ظن الكثيرين، والأقوى أنها اشتملت على الوصايا العشر، قال «عز وجل»: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمُ بِأَخْذِهَا بِحَسَنِهَا سَأَرِيبَكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢).

٢. تفسير العياشي: عن عبد الرحمن بن سيابة، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن موسى صعد المنبر وكان منبره ثلاث مراق^(٣))، فحدث نفسه أن الله لم

١. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٠-٣٣٢.

٢. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٤٥.

٣. مراق جمع المراقبة: أي الدرجة.

يخلق خلقاً أعلم منه، فأتاه جبرئيل فقال له: إنك قد ابتليت فانزل، فإن في الأرض من هو أعلم منك، فاطلبه. فأرسل إلى يوشع إني قد ابتليت فاصنع لنا زاداً وانطلق بنا... الخبر^(١). تقييم السند: الرواية مرسلة.

وهي قريبة من الرواية السابقة من حيث تحديد الغرض الإلهي من ترتيب اللقاء، وإن اختلفت من حيث أن الثانية حددت الموقف الذي تجلّى من خلاله التصرّو الخاطئ عند النبي موسى (عليه السلام) بحسب الرواية.

٣. تفسير العياشي: عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله، عن أبيه (عليه السلام)، قال: (بينما موسى قاعد في ملاء من بني إسرائيل إذ قال له رجل: ما أرى أحداً أعلم بالله منك، قال موسى: ما أرى. فأوحى الله إليه: بلى، عبدي الخضر، فسأل السبيل إليه: وكان له آية الحوت إن افتقده، فكان من شأنه ما قص الله^(٢)). تقييم السند: الرواية مرسلة.

مجدداً تذكر الرواية أن الغرض من ترتيب اللقاء هو تصحيح التصور الخاطيء لدى النبي موسى (عليه السلام) بخصوص أعلميته، وإن قدّمت تفصيلاً مختلفاً بعض الشيء عما جاء في الروايات السابقة.

٤. بحار الأنوار: (نقل أبو الفرج ابن الجوزي في المدهش في قوله (عز وجل): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ الآية، عن ابن عباس والضحاك ومقاتل قالوا: «إن موسى (عليه السلام)، لما أحكم التوراة وعلم ما فيها قال في نفسه: لم يبق في الأرض أحد أعلم مني، من غير أن يتكلم مع أحد^(٣)، فرأى في منامه كأن الله أرسل الماء بالماء حتى غرق ما بين المشرق والمغرب، فرأى فتاه على البحر فيها صُرْدَة^(٤)، فكانت الصردة تجيء للماء الذي غرق الأرض فتنتقل الماء بمنقارها ثم تدفعه في البحر،

١. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٢.

٢. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٤.

٣. هذا متعارض مع ما جاء في رواية سابقة من أنه صرّح بذلك.

٤. الصردة: نوع من الطيور.

فلما استيقظ الكليم هاله ذلك، فجاءه جبرائيل فقال: مالي أراك يا موسى كئيماً؟ فأخبره بالرؤيا، فقال: إنك زعمت أنك استغرقت العلم كله فلم يبق في الأرض من هو أعلم منك، وإن لله عبداً علماً في علمه^(١) كالماء الذي حملته الصردة بمنقارها فدفعته في البحر، فقال: يا جبرئيل من هذا العبد؟ فقال: الخضر بن عاميل من ولد الطيب، يعني إبراهيم الخليل (عليه السلام). قال: من أين أطلبه؟ قال: اطلبه من وراء هذا البحر، فقال: من يدلني عليه؟ قال: بعض زادك. قالوا: فمن حرصه على رؤياه لم يستخلف في قومه، ومضى لوجهه وقال لفتاه يوشع: هل أنت موازري^(٢)؟ قال: نعم، قال: اذهب فاحتمل لنا زاداً. فانطلق يوشع فاحتمل أرغفة وسمكة عتيقة مالحة، سارا في البحر حتى خاضا وحلاً وطيناً، ولقيا تعباً ونصباً حتى انتهيا إلى صخرة ناتئة في البحر خلف بحر أرمنية يقال لتلك الصخرة: قلعة الحرس. فأتياها فانطلق موسى ليتوضأ فاقتحم مكاناً فوجد عيناً من عيون الجنة في البحر فتوضأ منها وانصرف ولحيته تقطر ماء، وكان (عليه السلام) حسن اللحية، ولم يكن أحد أحسن لحية منه، فنفض موسى لحيته فوقعت منها قطرة على تلك السمكة المالحة، وماء الجنة لا يصيب شيئاً ميتاً إلا عاش، فعاشت السمكة ووثبت في البحر فسارت، فصار مجراها في البحر سرباً، ونسي يوشع ذكر السمكة ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ أَتَيْنَا غَدَائِنَا﴾ الآية، فذكر له أمر السمكة فقال له: ذلك الذي نريده. فرجعا يقصّان^(٣) أثرهما، فأوحى الله إلى الماء فجمد وصار سرباً على قامة موسى وفتاه، فجرى الحوت أمامهما حتى خرج إلى البر فصار مسيره لهما جادة فسلكاها فناداهما مناد من السماء: أن دعا الجادة^(٤)، فإنه طريق الشياطين إلى عرش إبليس، وخذا ذات اليمين. فأخذ ذات اليمين حتى انتهيا إلى صخرة عظيمة وعندها صلى فقال موسى: ما أحسن هذا المكان ينبغي أن يكون لذلك

١. أي مقارنة بعلمه.

٢. موازري: أي معينني.

٣. يقصّان: أي يتتبعان.

٤. دعا الجادة: أي اتركا الطريق.

العبد الصالح، فلم يلبث أن جاء الخضر حتى انتهى إلى ذلك المكان والبقعة، فلما قام عليها اهتزت خضراً، قالوا: وإنما سمي الخضر لأنه لا يقوم على بقعة بيضاء إلا صارت خضراء، فقال موسى (عليه السلام): السلام عليك يا خضر، فقال: وعليك السلام يا موسى، يا نبي بني إسرائيل. فقال: ومن أدراك من أنا؟ قال: أدراني الذي دلك على مكاني. فكان من أمرهما ما كان وما قصة القرآن العظيم^(١).
تقييم السند: الرواية ضعيفة السند.

بالإضافة إلى ضعف السند، لا بد أن ننتبه إلى أن الخبر ليس مروياً عن النبي أو الإمام، كما أنه لا يخفى ما في الرواية من تفاصيل تقترب من الأساليب القصصية الأسطورية التي ملأت التراث الإسلامي من خلال نشاط القصاصين، ولا تشير القصة القرآنية إلى شيء منها من قريب أو بعيد، وقد تحدثنا عن هذه النقطة - في مقدمة الكتاب - بالتفصيل.

❖ آراء العلماء والمفسرين:

تساءل العلماء والمفسرون عن الغرض من الترتيب الإلهي للقاء بين النبي موسى والعبد الصالح (عليهما السلام)، ونستعرض هنا بعضاً مما جاء في كتاباتهم على مر العصور:

١. علل الشرائع: نقل الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الملقب بالصدوق محاولة ابن طيفور لتفسير ذلك، قال: (سمعت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن طيفور الدامغاني الواعظ بفرغانة يقول في خرق الخضر (عليه السلام) السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدران: تلك إشارات من الله تعالى لموسى (عليه السلام) وتعريضات إلى ما يريده من تذكيره لمن سابقة لله تعالى نبهه عليها وعلى مقدارها من الفضل، ذكره بخرق السفينة أنه حفظه في الماء حين ألقته أمه في التابوت وألقت التابوت في اليم وهو طفل ضعيف لا قوة له، فأراد بذلك أن الذي

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٨٩-٢٩١.

حفظك في التابوت الملقى في اليم هو الذي يحفظهم في السفينة. وأما قتل الغلام فإنه «موسى» كان قد قتل رجلاً في الله «تعالى»، وكانت تلك زلة عظيمة عند من لم يعلم أن موسى «عليه السلام» نبي، فذكره بذلك منة عليه حين دفع عنه كيد من أراد قتله به. وأما إقامة الجدار من غير أجر فإن الله «تعالى» ذكره بذلك فضله فيما أتاه في ابنتي شعيب حين سقى لهما وهو جائع ولم يبتغ على ذلك أجراً مع حاجته إلى الطعام، فنبهه الله «تعالى» على ذلك ليكون شاكراً مسروراً. وأما قول الخضر لموسى «عليه السلام»: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فإن ذلك كان جهة موسى «عليه السلام» حيث قال: ﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ فموسى «عليه السلام» هو الذي حكم بالمفارقة لما قال له: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإن موسى «عليه السلام» اختار سبعين رجلاً من قومه لميقات ربه فلم يصبروا بعد سماع كلام الله «تعالى» حتى تجاوزوا الحد بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً^(١)﴾ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا، ولو اختارهم الله «تعالى» لعصمهم، ولما اختار من يعلم منه تجاوز الحد، فإذا لم يصلح موسى «عليه السلام» للاختيار مع فضله ومحلّه فكيف تصلح الأمة للاختيار الإمام بأرائها؟ وكيف يصلحون لاستنباط الأحكام واستخراجها بقولهم الناقصة وآرائهم المتفاوتة وهمهم المتباينة وإراداتهم المختلفة؟! تعالى الله عن الرضى باختيارهم علواً كبيراً، وأفعال أمير المؤمنين «عليه السلام» مثلها مثل أفاعيل الخضر وهي حكمة وصواب وإن جهل الناس وجه الحكمة والصواب فيها^(٢).

٢. بحار الأنوار: نقل العلامة المجلسي عن الشيخ الصدوق قوله: (إن موسى «عليه السلام» مع كمال عقله وفضله ومحلّه من الله «تعالى» لم يستدرك باستنباطه واستدلّاله معنى أفعال الخضر «عليه السلام» حتى اشتبه عليه وجه الأمر فيه، وسخط جميع ما كان يشاهده حتى أخبر بتأويله، فرضي، ولو لم يُخبر بتأويله لما أدركه ولو بقي في الفكر عمره، فإذا لم يجز لأنباء الله ورسله «صلوات الله عليهم» القياس

١. القرآن الكريم: سورة البقرة: ٥٥.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٦٣.

والاستنباط والاستخراج، كان مَنْ دونهم من الأمم أولى بأن لا يجوز لهم ذلك^(١).

٣. مال بعض مَنْ تناول القصة بالشرح إلى أنها تهدف إلى غرض معنوي وتربوي مختلف، مع ادعاء أنها ليست من وحي الواقع، بل إنها مجرد مثال يحمل معنىً رمزياً. قال العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان»: (قيل: إن القصة أسطورة تخيلية صورت لغاية أن كمال المعرفة يورد الإنسان مشرعة عين الحياة ويسقيه ماءها وهو الحياة الخالدة التي لا موت بعدها أبداً والسعادة السرمدية التي لا سعادة فوقها قط).

ولم يرتض العلامة هذا الرأي فقال: (وفيه أنه تقدير من غير دليل، وظاهر الكتاب العزيز يدفعه، ولا خبر في القصة التي يقصها القرآن عن عين الحياة هذه إلا ما ورد في أقاويل بعض المفسرين والقصاصين من أهل التاريخ من غير أصل قرآني يستند إليه أو وجدان حسي لعَيْنِ هذه صفتها في صقع من أصقاع الأرض)^(٢).

٤. واعتبر البعض أن حادثة السفينة وخرقها رمزت للنبي موسى (عليه السلام) ما جرى له في طفولته حين أوحى الله لأمه بأن تلقيه في اليم، فوثقت الأم بذلك، فرعته يد العناية الإلهية حتى أعاده إليها كمرضة له. وكان من المفترض به أن يستذكر عناية الله «تعالى» حين خرق العبد الصالح السفينة ولا يحتج عليه.

وأن حادثة قتل الصبي رمزت بالنسبة إلى موسى حادثة قتله للقبطي، وكيف أن العناية الإلهية تدخلت من جديد لتنتقذه من مكر المتربصين به السوء، وكان من المفترض به أن يثق بالإرادة الإلهية في هذه الحادثة أيضاً. وأخيراً فإن إقامة الجدار على الكنز ترمز إلى النتائج العظيمة التي سيحققها النبي موسى (عليه السلام) بمرور الوقت، وعليه أن يثق بالله في هذا الطريق^(٣).

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٨٩.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٣٨.

٣. أطلعت على هذا الرأي من خلال أحد الأصدقاء من العلماء ولا أذكره بالتحديد، كما لا أتذكر مصدر التحليل أكان من عند نفسه أم أخذه عن أحد.

❖ رأي شخصي:

والذي أستقرُّه بشأن الغرض الإلهي من ترتيب اللقاء بينهما، أن الآيات وإن لم تذكر ما طبيعة العلم الذي تلقاه النبي موسى من العبد الصالح، بل هل تلقى شيئاً من العلم «الإلقائي» أو «التدريسي» على يديه، أم أن ذلك تم من خلال المواقف الثلاثة التي عايشاها فقط لا غير.. إلا أن الإجابة على السؤال الخاص بغرض اللقاء يرتكز في الأساس على ما جاء في الآية السابعة والستين من سورة الكهف والتي تحكي القصة: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. فمن يتتبع السيرة القرآنية للنبي موسى (عليه السلام) يجده صاحب شخصية انفعالية جداً، يتعجل ردود الفعل، ويصدر عنه - في الظروف الضاغطة - ما كان الأولى والأجدر به أن يتركه.

ويتضح ذلك من خلال الموارد التالية:

١. قتله القبطي وندمه: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).
٢. قُرب تكرار نفس ردة الفعل بعد فترة وجيزة: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾^(٢).
٣. هروبه وهو يتلقى كلمات الله في بداية الوحي فيما حكاها القرآن الكريم دون أن يلتفت إلى الوراء: ﴿وَأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾^(٣).
٤. حين أمره الله بالذهاب إلى فرعون، كان أول ما طلبه من ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(٤).

١. القرآن الكريم: سورة القصص: ١٥-١٦.

٢. القرآن الكريم: سورة القصص: ١٩.

٣. القرآن الكريم: سورة القصص: ٣١.

٤. القرآن الكريم: سورة طه: ٢٥-٢٨.

وفي ذلك دلالة على إدراكه للحالة الانفعالية السريعة التي ابتلي بها مما قد يفسد عليه المهمة، ويؤثر على بيانه وتعبيره.

٥. ردة فعله العنيفة على أخيه حين عاد إلى بني إسرائيل وقد أخبره الله أنهم عبدوا العجل من بعده، دون أن يستعلم من أخيه ما جرى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾^(١)، فلم تسلم منه الألواح التي تشتمل على كلمات الله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾^(٢).

٦. ردود فعله السريعة والمتكررة في أحداث قصته مع العبد الصالح، على الرغم من وعوده المتكررة بالتسليم وعدم السؤال.

هذه هي الطبيعة الإنسانية التي يغالبها الأنبياء «عليهم السلام» في ترفيقهم في طريق الكمالات، من أجل أن يكونوا في مستوى المسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقهم في تلقي الوحي والعمل به وتبليغه وقيادة الناس وهدايتهم والتعامل مع التحديات الضخمة التي يواجهونها في دعوتهم، والضغط النفسي الهائل التي لا يتحملها أي إنسان عادي لولا المدد الإلهي المستمر.

وقد تحدث القرآن عن بعض توجيهاته للنبي (صلى الله عليه وآله) لإعداداته في مواجهة هذه الظروف العصيبة ومنها قوله «عز وجل»: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نَّصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا، وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(٣).

وقوله «عز وجل»: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ

١. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٥٠.

٢. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٥٤.

٣. القرآن الكريم: سورة المزمل: ١-١٠.

المُسْتَهْزِئِينَ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ^(١). وقوله «عز وجل»: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذَا أَذَقْنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا، وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سَنَّةٌ مِمَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا، أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا، وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا، وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا، وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا^(٢)».

وقوله «عز وجل»: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ، وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(٣)».

كما عبر عن ذلك الإمام علي (عليه السلام) حيث قال في شأن النبي (صلى الله عليه وآله): (ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره)^(٤).

١. القرآن الكريم: سورة الحجر: ٩٤-٩٩.

٢. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ٧٣-٧٤.

٣. القرآن الكريم: سورة الأنعام: ٣٣-٣٥.

٤. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

ولعل الله (عز وجل) أراد للنبي موسى (عليه السلام) أن يتغلب على هذه الحالة الانفعالية التي وإن كانت خالصة لوجه الله وللحق والعدالة، ولكنها لا تتناسب والمهمة المنوطة به، والعنوان الذي يحمله كنبى من أولي العزم، فكان لابد وأن يعالجها.. فمرَّ في تلك التجربة الحية المتفاعلة مع الناس على اختلافهم واختلاف الظروف، لتتكشف له تلك الحقيقة في نهاية المطاف.

❖ الهدف من سرد القصة:

وهذا يجرُّنا بالتبع إلى تساؤل آخر ليس ببعيد عما سبق: ما الغرض من سرد هذه القصة في سورة الكهف بعد استعراض قصة أصحاب الكهف والرقيم؟

سورة الكهف من السور المكية وجاءت في خضم التحدي الكبير الذي كان يعيشه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في مواجهة مشركي قريش في عنادهم وجحودهم وتحديهم المستمر والمتكرر بمطالباتهم بنزول المعجزات المادية بأنواعها على الرغم من وقاحتهم التي كانوا لا يخفونها حين يعلنون أنهم لا يضمنون إيمانهم بها بسهولة: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالُهَا الْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١)!

وكان من الطبيعي أن يشعر النبي (صلى الله عليه وآله) بالحاجة إلى معجزة تُعينه في كسر هذا الجمود الذي يلف الموقف ويمتد أحياناً إلى أشهر وسنوات أسوة بمن سبقه من الأنبياء (عليهم السلام)، ولعله كان يطلب من الله (عز وجل) ذلك وهو يتطلع من خلالها إلى تحقيق تقدّم يقلب الموازين لصالح المؤمنين الذين كانوا يذوقون ويلات العذاب والاستضعاف، ويفتح أبواب الهداية أمام

كثيرين كانوا يعتبرون أن رفض ساداتهم التصديق بالرسالة والقرآن وعدم نزول المعاجز المؤيدة لصدق النبوة مما كانت تحكيه آيات القرآن ذاتها من أهم دوافع امتناعهم عن الدخول في دين الله.

ولعل في مثل هذه الظروف العصيبة كان النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنون برسائله يتساءلون عن سرّ الامتناع الإلهي عن نزول المعاجز المادية المبهرة التي تُخرس الألسن، أو العذاب الماحق الذي يخلصهم من الضغوطات الرهيبة التي كانوا يواجهونها، ونظرات الاستهزاء التي كانت تلاحقهم وهي تشكك في مصداقية النبي بارتباطه بالسماء، وكلمات الاستهزاء التي كانوا يواجهون بها ليل نهار وهم في موقف الضعف دون أن تنتصر لهم المساء.. فمتى الفرج؟ وإلى متى الصبر؟

وهكذا تنتزل الآيات من سورة الكهف لتحكي لهم قصة أصحاب الكهف والرفيق الذين اختاروا الإيمان والصبر والتوكل على الله «عز وجل» ثقةً به وتصديقاً بوعده، فكتب لهم حسن العاقبة، وهم في غفلةٍ عن التخطيط الإلهي الذي امتد طوال مئات من السنين لم تكن خاتمتها سوى الانتصار لهم ولو بعد حين، وتأكيذاً لحقيقة أن الموت والحياة بيد الله، وأن الله الذي أيقظهم من ذلك السبات الطويل لقادر على أن يحيي الموتى يوم القيامة، وهي القضية الإيمانية التي كانت مثار جدل واسع وفتنة كبيرة في العهد الذي عادوا فيه إلى الحياة، فشاء الله أن ينتصر من خلاله للمؤمنين الذين كانوا يواجهون الفكر الضال الداعم لإنكار البعث والقيامة^(١).

وتأتي الآية الثامنة والعشرون من السورة لتطالب النبي بالاستقامة في هذا الطريق والصبر: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

١. راجع ما ورد في الفصل الأول من هذا الكتاب حول قصتهم.

فَلْيَكْفُرْ^(١)، ثم تستطرد في طرح القضايا المختلفة لتُعرِّج بعدها على قصة موسى والعبد الصالح، لتؤكد من جديد على أهمية الصبر والتوكل على الله والثقة بوعده وعدم الاعتماد في تحليل الأمور والمواقف ومجريات الأحداث على ظلامية الصورة الظاهرة وسوداويتها، لأن الله العليم الحكيم قد أخفى وراء ذلك حقائق لا يريد من خلالها إلا الخير.

هذا، ويمكن إضافة أمر آخر إلى ما سبق، وهو الأسلوب الوديع الذي يعبر عن روح التواضع للعلم والعلماء، من دون نظر إلى طبيعة المركز الاجتماعي أو الديني الذي يقف فيه العالم والمتعلم، وهو ما نلاحظه في كلمات النبي موسى مخاطباً العبد الصالح قائلاً: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٢)، وهي رسالة إلى المؤمنين وغيرهم كي يتلقوا العلم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بكل تواضع وإقبال واهتمام ولا يعيشوا التعالي لتمتعهم بالقوة الاقتصادية أو الامتداد الاجتماعي أو الرفعة النسبية أو غير ذلك.

❖ إشكاليات وتساؤلات:

احترار المفسرون في حقيقة الشخصيات المذكورة في هذه القصة القرآنية، فمن هو موسى المذكور فيها: أهو النبي موسى بن عمران (عليه السلام)، أم هو نبي آخر اسمه موسى بن ميثا؟

وعلى الأول كيف يمكن أن يكون على وجه الأرض من هو أعلم منه؟ لاسيما بلحاظ أنه رسول صاحب شريعة وكتاب مُنَزَّل، ومن المفترض أن يكون الأعلم في زمانه، والمسدد من قبل الله (عز وجل) لمعرفة القضايا الغيبية ذات البعد الديني والشرعي، فكيف غابت عنه معرفة خبايا تصرفات العبد الصالح؟

ثم متى كان هذا اللقاء ومتى جرت الأحداث؟ قبل نبوته أو بعدها؟

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٢٨-٢٩.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٢٨-٢٩.

وعلى الأول كيف يُتصور تحقق الوحي إليه بأن يلتقي بالعبد الصالح في المكان المحدد وهو ليس بنبي بعد؟ أكان عن طريق الرؤيا أم بغير ذلك؟ وما الهدف من اللقاء في المقام الأول؟ أكان تعليمًا له أم تأديبًا إلهيًا أم عقوبة؟ ثم من هو العبد الصالح؟ أهو الخضر أم شخص مجهول أم ملك في صورة إنسان؟ ومن هو الفتى المرافق لموسى؟ أهو يوشع بن نون وصي موسى أم شخص آخر؟ ولماذا عبرت عنه الآية بعنوان الفتى؟ الصغر سنّه أم لخدمته لموسى أم لغير ذلك؟ وهل القصة واقعية أم من ضرب الأمثال؟

وأين هو مجمع البحرين؟ وما اسم القرية التي استطعما أهلها؟ وما حقيقة الكنز الذي كان تحت الجدار؟ أكان ماديًا أم معنويًا؟ وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي حاول المفسرون وأصحاب الحديث والمؤرخون الإجابة عليها، فكتبت أقلامهم الكثير، وشطحت تصوراتهم في كثير من الأحيان حتى تحوّلت القصة إلى ما يشبه الأسطورة. وأجمل في ما يلي جوانب مما دوّنوه حول تلك التساؤلات.

❖ موسى في القصة:

رفض البعض فكرة أن موسى المذكور في القصة هو النبي موسى بن عمران، قال العلامة الطباطبائي: (موسى الذي ذكر في القصة هو ابن عمران الرسول النبي أحد أولي العزم عليهم السلام، على ما وردت به الرواية من طرق الشيعة وأهل السنة. وقيل هو أحد أسباط يوسف ابن يعقوب عليهم السلام، وهو موسى بن ميثا بن يوسف، وكان من أنبياء بني إسرائيل). والدليل الذي تمسك به العلامة في رفضه لهذه المقولة: (ويُبعد أن القرآن قد أكثر ذكر اسم موسى حتى بلغ مائة ونيفاً وثلاثين، وهو يريد ابن عمران عليه السلام، فلو أريد بما في هذه القصة غيره لضم إليه قرينة صارفة)^(١).

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٣٨.

ويبدو أن مَسْلَمَةَ اليهود الذين أقحموا مقولاتهم الإسرائيلية في مرويّات المسلمين هم مَنْ وراء هذا الادّعاء، تعظيماً لنبيهم موسى (عليه السلام)، ورفضهم لكونه متعلماً على يد العبد الصالح. ولما لم يتمكنوا من التصريح برفض القصة من أساسها زجّوا هذا القول من خلال الإسرائيليات.

ويدل على ذلك الرواية التالية التي رواها البخاري في صحيحه، كما رواها آخرون، واللفظ له: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا عمر وقال: أخبرني سعيد بن جبيرة قال: (قلت لابن عباس: إن نوماً البكالي يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر. فقال: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: قام موسى النبي (صلى الله عليه وسلم) خطيباً في بني إسرائيل فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فغضب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: رب وكيف لي به؟ فقل له: احمل حوتاً في مكل فتأخذ فقدته فهو ثم... إلخ الخبر^(١).

وهكذا روى أحمد بن حنبل في مسنده: (حدثنا عبد الله، حدثني أبو عثمان عمرو بن محمد بن بكير الناقد، ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو يعني ابن دينار، عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: إن نوماً الشامي يزعم - أو يقول - ليس موسى صاحب خضر موسى بني إسرائيل. قال: كذب نوف عدو الله، حدثني أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن موسى (عليه السلام) قام في بني إسرائيل خطيباً فقالوا له: مَنْ أعلم الناس؟... إلخ الخبر^(٢).

والذي يقوّي القول بأن اليهود هم من وراء هذا الادّعاء وأنها من الإسرائيليات هو التعرف على صاحب المقولة، أعني: نوف البكالي. ففي شرح صحيح مسلم للنووي: (قوله «إن نوماً البكالي» هكذا ضبطه الجمهور بكسر الموحدة وتخفيف

١. البخاري: الجامع الصحيح، ح ١٢٢.

٢. أحمد بن حنبل: المسند، ح ٢١٠١٣.

الكاف، ورواه بعضهم بفتحها وتشديد الكاف. قال القاضي: هذا الثاني هو ضبط أكثر الشيوخ وأصحاب الحديث. قال: والصواب الأول وهو قول المحققين وهو منسوب إلى بني بكال، بطن من حمير، وقيل من همدان. ونوف هذا هو ابن فضالة، كذا قاله ابن دريد وغيره، وهو ابن امرأة كعب الأحبار. وقيل: ابن أخيه، والمشهور الأول. قاله ابن أبي حاتم وغيره. قالوا: وكنيته أبو يزيد. وقيل أبو رشد. وكان عالماً حكيماً قاضياً وإماماً لأهل دمشق^(١). قوله «كذب عدو الله»: قال العلماء هو على وجه الإغلاظ والزجر عن مثل قوله، لا أنه يعتقد أنه عدو الله حقيقة، إنما قاله مبالغة في إنكار قوله لمخالفته قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكان ذلك في حال غضب بن عباس لشدة إنكاره، وحال الغضب تطلق الألفاظ ولا تراد بها حقائقها، والله أعلم^(٢).

أما شارح صحيح البخاري - ابن حجر - فقد وضح المجال الذي تخصص فيه نوف البكالي الشامي، وهو الإسرائيليات، قال في فتح الباري: (نوف، بفتح النون وبالفاء، والبكالي بفتح الموحدة وكسرهما وتخفيف الكاف، ووهم من شددهما. منسوب إلى بكال بطن من حمير، ووهم من قال إنه منسوب إلى بكيل بكسر الكاف بطن من همدان، لأنهما متغايران. ونوف المذكور تابعي من أهل دمشق فاضل عالم لا سيما بالإسرائيليات، وكان ابن امرأة كعب الأحبار، وقيل غير ذلك)^(٣).

ثم احتمل ابن حجر أن يكون ابن عباس قاصداً للإساءة لنوف لعلمه بأنه يدخل الإسرائيليات في معارف الناس: (قال ابن التين: لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله، ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه وحقيقته غير مرادة. قلت: ويجوز

١. ولذا لقب بالشامي في خبر ابن حنبل.

٢. النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج ١٥، ص ١٣٦.

٣. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٩٤-١٩٥.

أن يكون ابن عباس أتهم نوباً في صحة إسلامه، فلهذا لم يقل في حق الحر بن قيس^(١) هذه المقالة مع تواردهما عليها^(٢).

❖ العبد الصالح في القصة:

بمراجعة كتب التفسير والحديث والتاريخ يمكننا القول بأن اعتبار العبد الصالح في القصة هو الخضر أمر يكاد يكون متفقاً عليه، قال العلامة الطباطبائي في «الميزان»: (العالم الذي لقيه موسى ووصفه الله وصفاً جميلاً بقوله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِן لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ولم يسمه، ورد في الروايات أن اسمه الخضر، وكان نبياً من الأنبياء معاصراً لموسى «عليه السلام»، وفي بعضها أن الله رزقه طول الحياة فهو حي لم يمت بعد، وهذا المقدار لا بأس به إذ لم يرد عقل أو نقل قطعي بخلافه، وقد طال البحث عن شخصية الخضر بين القوم كما في مطولات التفاسير وتكاثر القصص والحكايات في رؤيته، ومع ذلك لا تخلو الأخبار والقصص عن أساطير موضوعة أو مدسوسة^(٣) ومن الواضح أن العلامة وإن نسب التسمية إلى الروايات إلا أنه لم يُشكَل عليها ولم يورد قولاً آخر يعارض هذه التسمية، وهو ما يقوّي القول بموافقة لهذا القول.

أما الأحاديث التي أشار إليها فإليك نماذج منها:

١. أمالي الصدوق عن ابن البرقي، عن أبيه، عن جده، عن الحسن بن علي ابن فضال، عن إبراهيم بن محمد الأشعري، عن أبان بن عبد الملك، عن الصادق جعفر بن محمد «عليهما السلام»، قال: (إن موسى بن عمران «عليه السلام» حين أراد أن يفارق الخضر «عليه السلام» قال له: أوصني، فكان مما أوصاه أن قال له: إياك واللجاجة،

١. الحر بن قيس هذا هو المذكور في حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس في صاحب موسى الذي سأل لقاءه فمر بهما أبي بن كعب فحدثهما بقصة موسى والخضر. وسنورد الخبر في الصفحات القادمة برواية البخاري.

٢. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ١٩٥.

٣. الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٣٣٨.

أو أن تمشي في غير حاجة، أو أن تضحك من غير عجب، واذكر خطيئتك، وإياك وخطايا الناس^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بأبان بن عبد الملك.

وقد ورد شبهه بهذا المضمون في «تفسير مقاتل»: (حدثنا عبيد الله قال: حدثني أبي عن الهذيل عن المسيب عن السدي ومقاتل عن حذيفة: أنه لما حان للخضر وموسى «عليهما السلام» أن يفترقا، قال له الخضر: يا موسى، لو صبرت لأتيت على ألف عجيبة أعجب مमारأت، قال: فبكى موسى على فراقه. فقال موسى للخضر: أوصني يا نبي الله. قال له الخضر: يا موسى، اجعل همك في معادك، ولا تخض فيما لا يعينك، ولا تأمن الخوف في أمنك، ولا تيأس من الأمن في خوفك، ولا تذر الإحسان في قدرتك، وتدبر الأمور في عاقبتك. قال له موسى «عليه السلام»: زدني رحمك الله، قال له الخضر: إياك والإعجاب بنفسك، والتفريط فيما بقي من عمرك، واحذر من لا يغفل عنك. قال له موسى «عليه السلام»: زدني رحمك الله. قال له الخضر: إياك واللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعيرن أحداً من الخاطئين بخطاياهم بعد الندم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران.... إلخ الخبر)^(٢).

الملاحظ أن الخبر لم يُسند إلى النبي (صلى الله عليه وآله) كما أن المصدر هو تفسير مقاتل بن سليمان البلخي الذي قال عنه الذهبي: (كبير المفسرين، أبو الحسن، مقاتل بن سليمان البلخي. يروي - على ضعفه البين - عن: مجاهد، والضحاك... قال ابن المبارك - وأحسن^(٣) - : ما أحسن تفسيره لو كان ثقة! قال ابن عيينة: قلت لمقاتل: «زعموا أنك لم تسمع من الضحاك. قال: كان يغلق عليّ وعليه باب^(٤). فقلت في نفسي: أجل، باب المدينة^(٥)».... قال وكيع: «كان كذاباً». وعن أبي حنيفة قال:

١. الصدوق: الأموال، المجلس ٥٢.

٢. مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل، ج ٢، ص ٣٤٤.

٣. أي أن الذهبي يستحسن قوله ابن المبارك.

٤. أي أنه ادّعى أنه تلقى منه العلم في مجالس خاصة لا يعلم عنها الناس.

٥. أي أن ابن عيينة يكذب مقاتلاً في ادّعائه هذا.

«أتانا من المشرق ريان خبيثان: جُهم مُعطل، ومقاتل مُشبّه. مات مقاتل سنة نيف وخمسين ومائة. قال البخاري: مقاتل لا شيء ألبتّة. قلت^(١): أجمّعوا على تركه^(٢). فأية قيمة تبقى لما ورد في تفسيره؟

٢. الصدوق: عن أبيه، عن سعد، عن الأصفهاني، عن المنقري، عن سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن علي بن الحسين (عليهما السلام)، قال: (كان آخر ما أوصى به الخضر موسى بن عمران (عليهما السلام)، أن قال له: لا تعيّرن أحداً بذنب، وإن أحب الأمور إلى الله (عز وجل) ثلاثة: القصد في الجدة، والعفو في المقدرة، والرفق بعباد الله، وما رفق أحد بأحد في الدنيا إلا رفق الله (عز وجل) به يوم القيامة، ورأس الحكم مخافة الله (عز وجل)»^(٣). الرواية ضعيفة بأكثر من راوٍ.

٣. تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام): (إن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس يسأله عن سبي الذراري، فكتب إليه: أما الذراري فلم يكن رسول الله يقتلهم، وكان الخضر يقتل كافرهم ويترك مؤمنهم، فإن كنت تعلم ما يعلم الخضر فاقتلهم)^(٤). تقييم السند: الرواية مرسلة.

ويلاحظ عليها أنها مجتزأة من رواية أطول جاء فيها أنه سأل ابن عباس عن أربعة أمور، منها ما جاء في الخبر السابق، والرواية رواها الشيخ الصدوق في «الخصال» هكذا: (حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد ابن الوليد «رضي الله عنه» قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار، عن أحمد، وعبد الله ابني محمد بن عيسى، عن محمد بن أبي عمير، عن حماد بن عثمان الناب، عن عبيد الله بن علي الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: إن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس يسأله عن أربعة أشياء هل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يغزو بالنساء؟ وهل كان يقسم

١. هذا قول الذهبي.

٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج ٧، ص ٢٠١-٢٠٢.

٣. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ٥٤.

٤. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٥.

لهن شيئاً؟ وعن موضع الخمس، وعن اليتيم متى ينقطع يَتِمُّه؟ وعن قتل الذراري. فكتب إليه ابن عباس: أما قولك في النساء فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحذيهن ولا يقسم لهن شيئاً^(١)، وأما الخمس فإننا نزعم أنه لنا، وزعم قوم أنه ليس لنا فصبرنا، فأما اليتيم فانقطاع يَتِمُّه أشده وهو الاحتلام، إلا أن لا تؤنس منه رشداً فيكون عندك سفيهاً أو ضعيفاً فيمسك عليه وليه، وأما الذراري فلم يكن النبي يقتلها، وكان الخضر عليه السلام يقتل كافرهم ويترك مؤمنهم، فإن كنت تعلم منهم ما يعلم الخضر فأنت أعلم^(٢).

وهذه الرواية وإن كانت - وفق القراءة الأولية - معتبرة السند إلا أنه يلاحظ عليها ادعاء رواية الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) «ولد ٨٢ هـ» عن عبد الله بن عباس «ت ٦٨ هـ»، فهل من قائل بأن الإمام قد روى عن غير إمام؟ وفي هذه الحالة، أيكون تصديقاً منه لكل ما جاء في الرواية؟ هذا كله إذا قلنا أن «أبي عبد الله» هنا هو الإمام جعفر الصادق كما هو المتبادر إلى الذهن.. فهل الأمر كذلك فعلاً؟

هذا ما دفعني للبحث أكثر حتى وصلت إلى نتيجة مفاجئة! فالخبر مروي عند أهل السنة في كتبهم عن أبي عبد الله أيضاً، ولكنه ليس الإمام جعفر الصادق، بل عالم المدينة أبو عبد الله يزيد بن هرمز المدني^(٣)!

ففي صحيح مسلم: (وحدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن إسماعيل ابن أمية، عن سعيد المقبري، عن يزيد بن هرمز قال: كتب نجدة بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله عن العبد والمرأة يحضران المَغْنَمَ، هل يُقَسَّم لهما؟ وعن قتل الولدان؟ وعن اليتيم متى ينقطع عنه اليَتَمُّ؟ وعن ذوي القربى، من هم؟ فقال

١. أي يعطيهن شيئاً ما، ولم يحرمهن من الغنيمة.

٢. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ٢٣٥.

٣. تحدث العلامة السيد كمال الحيدري في أكثر من مناسبة عن الخط الذي حصل في بعض الكتب بين (أبي جعفر) الإمام محمد الباقر وبين (أبي جعفر) الطبري صاحب التفسير، كما وقع في تفسير التبيان للشيخ الطوسي ومنه إلى كتاب مجمع البيان للطبرسي. انظر: alhaydari.com/ar

ليزيد: اكتب إليه. فلولا أن يقع في أحموقة ما كتبتُ إليه^(١). اكتب: إنك كتبتَ تسألني عن المرأة والعبد يحضران المغنم، هل يُقسم لهما شيء؟ وإنه ليس لهما شيء. إلا أن يُحذيا. وكتبتَ تسألني عن قتل الولدان؟ وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يقتلهم. وأنت تقتلهم. إلا أن تعلم منهم ما علم صاحب موسى^(٢) من الغلام الذي قتله. وكتبتَ تسألني عن اليتيم، متى ينقطع عنه اسم اليتيم؟ وإنه لا ينقطع عنه اسم اليتيم حتى يبلغ ويؤنس منه رُشد. وكتبتَ تسألني عن ذوي القربى، من هم؟ وإنا زعمنا أنا هم. فأبى ذلك علينا قومنا^(٣).

فمن هو يزيد بن هرمز؟ قال المزي في «تهذيب الكمال»: (يزيد بن هرمز المدني، أبو عبد الله، مولى بني ليث وقيل مولى غفار وقيل مولى آل أبي ذباب الدوسيين، كان رأس الموالي يوم الحرة وهو والد عبد الله بن يزيد بن هرمز معلم مالك بن أنس... قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: فسمعت أبي يقول: يزيد بن هرمز هذا ليس بيزيد الفارسي، هو سواه. وكان ابن هرمز من أبناء الفرس الذين كانوا بالمدينة وجالسوا أبا هريرة... وقال غيره: مات في خلافة عمر بن عبد العزيز^(٤)). فهل وقع تصحيح في سند رواية الشيخ الصدوق في «الخصال» بحيث نُسب الخبر إلى الإمام الصادق (عليه السلام) بينما الرواي له شخص آخر يكتنّى أيضاً بأبي عبد الله، وهو يزيد بن هرمز؟

قد يستعجل القارئ ويحسم الأمر بالإيجاب، إلا أن روايتين أخريتين يرويهما مسلم في صحيحه تجعلنا نتوقف مرة أخرى، فالروايتان عن هرمز بن يزيد أيضاً، ولكن الراوي عنه هذه المرة هو الإمام جعفر الصادق عن الإمام محمد الباقر!

١. نجدة الحروري كان من رؤوس الخوارج.

٢. لاحظ أن اسم الخضر لم يُذكر في هذا الخبر.

٣. مسلم: صحيح مسلم، ج ١٨١٢.

٤. استمرت خلافة عمر بن عبد العزيز بين ٩٩ - ١٠١ هـ.

٥. المزي: تهذيب الكمال، ج ٣٢، ص ٣٠، ترجمة رقم ٧٠٦٢.

والرواية الأولى كالتالي: حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا سليمان يعني ابن بلال عن جعفر بن محمد عن أبيه^(١) عن يزيد بن هرمز: (أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال. فقال ابن عباس: لولا أن أكنتم علماء ما كتبت إليه. كتب إليه نجدة: أما بعد، فأخبرني هل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهن بسهم؟ وهل كان يقتل الصبيان؟ ومتى ينقضى يتم اليتيم؟ وعن الخمس لمن هو؟ فكتب إليه ابن عباس: كتبت تسألني هل كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يغزو بالنساء وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذّين من الغنيمة، وأما بسهم فلم يضرب لهن. وإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكن يقتل الصبيان فلا تقتل الصبيان^(٢). وكتبت تسألني متى ينقضى يتم اليتيم؟ فلعمرى إن الرجل لتتبت لحيته وإنه لضعيف الأخذ لنفسه ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتيم. وكتبت تسألني عن الخمس لمن هو وإننا كنا نقول هو لنا. فأبى علينا قومنا ذاك^(٣)).

والثانية هكذا: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق ابن إبراهيم كلاهما عن حاتم بن إسماعيل عن جعفر بن محمد عن أبيه عن يزيد بن هرمز: (أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خلال. بمثل حديث سليمان بن بلال غير أن في حديث حاتم وإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكن يقتل الصبيان فلا تقتل الصبيان إلا أن تكون تعلم ما علم الخضر من الصبي الذي قتل)^(٤).

وهكذا يعود اسم الإمام الصادق ليظهر من جديد في سند الرواية مع عدم انقطاع عن الراوي المباشر للخبر، فالإمام يرويها عن أبيه عن يزيد ابن هرمز

١. قال حسن أبو الأشبال الزهيري في بيان سند الخبرين السابقين: (... حدثنا سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد. وهو ابن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب §. عن أبيه عن يزيد بن هرمز...) انظر: الزهيري: شرح صحيح مسلم، المحاضرة ١٠٠، ص ٨.

٢. لا ذكر هنا لقضية العبد الصالح وقتل الأطفال.

٣. مسلم: صحيح مسلم، ح ٤٧٨٧.

٤. ن. م. ح ٤٧٨٨.

عن ابن عباس، مع اختلاف في المتن، فتارة يُستشهد بقضية العبد الصالح وقتل الغلام، وتارة تخلو الرواية منها.

وعلى كل حال، فإنَّ أقصى ما يمكن قوله هو أن الإمام الصادق قد نقل جواب ابن عباس الذي تضمّن تسمية العبد الصالح باسم الخضر، وهو لا يمثّل دلالة أكيدة على قبول الإمام بذلك.

والذي يزيد الأمر وهنا أن رواية يزيد بن هرمز الأولى لم تتضمن الاسم بل عبّر عنه ابن عباس بقوله: «صاحب موسى»، ولعل تعبير بعض رواة الخبر أو مثبتي الرواية في الكتب قد غلب على الأصل فصحّحوا كلام ابن عباس وأبدلوا قوله: «صاحب موسى» بـ «الخضر»، والله أعلم.

٤. صحيح البخاري: (حدثنا أبو القاسم خالد بن خلي قاضي حمص قال: حدثنا محمد بن حرب قال: حدثنا الأوزاعي، أخبرنا الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس ابن حصن الفزاري في صاحب موسى فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر شأنه فقال أبي: نعم، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يذكر شأنه يقول: بينما موسى في ملاء من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال أتعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضر... إلخ الخبر)^(١).

٥. قريب منه ما في مسند أحمد بن حنبل: (ثنا محمد بن عباد المكي، ثنا عبد الله بن ميمون القداح، ثنا جعفر بن محمد الصادق، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: ماراني^(٢) رجل من بني فزارة في الرجل

١. البخاري: الجامع المسند الصحيح، ح ٧٨.

٢. ماراني: أي جادلني، من الممارسة أي الجدل.

الذي أتبعه موسى (عليه السلام) فقلت: هو الخضر (عليه السلام). وقال الفزاري هو رجل آخر. فمرّ بنا أبي بن كعب، قال ابن عباس: فدعوته فسألته: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يذكر الذي تبعه موسى (عليه السلام)؟ قال: نعم. سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: بينما موسى جالس في ملاء من بني إسرائيل فقال له رجل: هل أحد أعلم بالله (عز وجل) منك؟ قال: ما أرى. فأوحى الله إليه بلى، عبيد الخضر.... إلخ الخبر^(١).

ونلاحظ هنا ورود اسم الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) من جديد في سند رواية لها علاقة بابن عباس وقضية صاحب موسى، وهذه المرة الإمام يروي الخبر عن ابن شهاب، وهو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، الملقب بالزهري والذي قال عنه الذهبي: (الإمامُ العَلَمُ، حافظُ زمانه)^(٢) وهو أول من جمع ودوّن الحديث في العهد الأموي من بين علماء أهل السنة.. والأمر فيه غرابة. وعلى كلٍّ، هل يكفي. تماشياً مع هذه الروايات. أن نأخذ الأمر مأخذ المسلمات، لاسيما وأن في أسانيدنا كلام، وهي متضاربة في مضامينها، وليس كلها ينتهي إلى النبي أو الإمام؟

فلعل الأمر برمته مُخلّق قد تغلغل إلى تراث المسلمين، ولم يكتثروا للتحقيق فيه، لأنه لا يمت إلى إيمان ولا شريعة، فأخذ مأخذه، وأصبح كأمر مسلم به غير قابل للنقاش، ورب مشهور لا أصل له. وسيتبين لنا المزيد حول الموضوع من خلال استكمال البحث في الفصول اللاحقة.

❖ أسئلة متفرقة:

حاول العلامة محمد باقر المجلسي في موسوعته «بحار الأنوار» تقديم إجابات متنوعة على عدد من الأسئلة المتعلقة بتفاصيل القصة وذلك بتجميع ما كتبه بعض

١. أحمد بن حنبل: المسند، ح ٢١٠٣٠.

٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٢٦.

المفسرين والعلماء في هذا الصدد إلى زمانه، وبدورنا ننقل ما ذكره إتماماً للفائدة، وإن كان في بعضه تكرار لما سبق.. قال:

قال الطبرسي «رحمه الله» في قوله «عز وجل»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾: أكثر المفسرين على أنه موسى بن عمران، وفتاه يوشع بن نون، وسماه فتاه لأنه صحبه ولازمه سفرًا وحضر للتعليم منه. وقيل: لأنه كان يخدمه.

وقال محمد بن إسحاق: يقول أهل الكتاب: إن موسى الذي طلب الخضر هو موسى بن ميثا بن يوسف، وكان نبياً في بني إسرائيل قبل موسى ابن عمران، إلا أن الذي عليه الجمهور أنه موسى بن عمران.

﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ معناه: لا أزال أمضي وأمشي فلا أسلك طريقاً آخر حتى أبلغ ملتقى البحرين: بحر فارس وبحر الروم^(١). وقال محمد بن كعب: هو طنجة، وروي عنه إفريقية.

أقول: قال البيضاوي: وقيل: البحرين موسى وخضر «عليهما السلام»، فإن موسى كان بحر علم الظاهر وخضر كان بحر علم الباطن!

وروي أن موسى خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبة بليغة فأعجب بها فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ فقال: لا. فأوحى الله إليه: بلى عبدنا الخضر، وهو بمجمع البحرين. وكان الخضر في أيام إفريدون، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى.

وقيل: إن موسى سأل ربه: أيُّ عبادك أحب إليك؟ فقال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال: فأبي عبادك أفضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأبي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى. قال: إن كان في عبادك أعلم مني فادلني عليه، قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال:

١. الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط، ولكن يبقى السؤال: هل كان يلتقي هذا البحرين في زمن ما؟

كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتلك، فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ أي مجمع البحرين و ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف أضيف إليه على الاتساع، أو بمعنى الوصل ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى أن يطلبه ويتعرف حاله، ويوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وروي أن موسى رقد فاضطرب الحوت المشوي ووثب في البحر معجزة لموسى أو الخضر.

وقيل: توضأ يوشع من عين الحياة فانتضح الماء عليه فعاش ووثب في الماء. وقيل: نسيا تفقد أمره وما يكون منه إمارة على الظفر بالمطلوب ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً من قوله: ﴿وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ﴾. وقيل: أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه^(١).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ ما نتغدى به ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قيل: لم ينصب حتى جاوز الموعد، فلما جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقى عليه الجوع والنَّصَب. وقيل: لم يعي موسى في سفر غيره، ويؤيده التقييد باسم الإشارة ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ﴾ ما دهاني^(٢) ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى. وقيل: هي الصخرة التي دون نهر الزيت.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ فقدته أو نسيت ذكره بما رأيت منه. ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان، ولعله نسي ذلك لانجذاب شراشه إلى جناب القدس^(٣)، وإنما نسبته إلى الشيطان هضماً لنفسه، أو لأن عدم احتمال القوة للجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يعد من نقصان ﴿وَاتَّخَذَ

١. هكذا في النسخة المطبوعة و المخطوطة من البحار، و الصواب «كالطافي عليه» كما في المصدر، من طفا يطفو: علا فوق الماء و لم يرسب، و منه السمك الطافي و هو الذي يموت في الماء فيعلو و يظهر.

٢. دهاني: أي أصابني.

٣. الشراشر: عروق متصلة بالقلب، وفي التعبير دلالة على المحبة والوله والشوق إلى الله.

سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿ سَبِيلًا عَجَبًا وَهُوَ كَوْنُهُ كَالسَّرْبِ، أَوْ اتِّخَاذًا عَجَبًا، وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي هُوَ السَّرْبُ. وَقِيلَ: هُوَ مُصْدَرُ فَعْلِهِ الْمُضْمَرُ، أَيْ قَالَ يَوْشَعَ فِي آخِرِ كَلَامِهِ أَوْ مُوسَى فِي جَوَابِهِ: عَجَبًا!! تَعَجُّبًا فِي تِلْكَ الْحَالِ. وَقِيلَ: الْفَعْلُ لِمُوسَى، أَيْ اتَّخَذَ مُوسَى سَبِيلَ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا.

﴿قَالَ ذَلِكَ﴾ أَيْ أَمَرَ الْحَوْتِ ﴿مَا كُنَّا نَبْعُ﴾ نَطْلُبُ، لِأَنَّهُ أَمَارَةُ الْمَطْلُوبِ ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ فَرَجَعَا فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَا فِيهِ ﴿قَصَصًا﴾ أَيْ يَتَّبِعَانِ آثَارَهُمَا اتِّبَاعًا، أَوْ مُقْتَصِينَ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ الْخَضِرُ وَاسْمُهُ بَلِيَا بْنُ مَلْكَانَ، وَقِيلَ: الْيَسَعَ، وَقِيلَ: الْيَاسَ. ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ هِيَ الْوَحْيُ وَالنَّبُوءَةُ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ مِمَّا يَخْتَصُّ بِنَا وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا بِتَوْفِيقِنَا وَهُوَ عِلْمُ الْغُيُوبِ.

﴿مِمَّا عَلَّمَتْ رُشْدًا﴾ عِلْمًا ذَا رُشْدٍ، وَلَا يَنَالُ فِي نُبُوَّتِهِ وَكَوْنِهِ صَاحِبَ شَرِيعَةٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ غَيْرِهِ مَا لَمْ يَكُنْ شَرْطًا فِي أَبْوَابِ الدِّينِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَعْلَمُ مِمَّنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ فِيمَا بَعَثَ بِهِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ لَا مُطْلَقًا.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أَيْ كَيْفَ تَصْبِرُ وَأَنْتِ نَبِيٌّ عَلَى مَا أَتَوَلَّى مِنْ أُمُورٍ ظَوَاهِرِهَا مَنَاقِيرُ وَبُوَاطِنُهَا لَمْ يَحِطْ بِهَا خَبْرُكَ؟

﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أَخَذَ الْخَضِرُ فَأَسَاءَ فَخَرَقَ السَّفِينَةَ بِأَنْ قَلَعَ لَوْحِينَ مِنَ الْوَاهِحَا.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أَتَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا مِنْ أَمْرِ الْأُمَرَاءِ: إِذَا عَظُمَ.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بِالَّذِي نَسِيْتَهُ أَوْ بِشَيْءٍ نَسِيْتَهُ، يَعْنِي وَصِيَّتَهُ بِأَنْ لَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، أَوْ بِنَسْيَانِي إِيَّاهَا، وَهُوَ اعْتِذَارُ بِالنَّسْيَانِ أَخْرَجَهُ فِي مَعْرِضِ النَّهْيِ عَنِ الْمُواخَاذَةِ مَعَ قِيَامِ الْمَنَاعِ لَهَا. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالنَّسْيَانِ التَّرْكَ، أَيْ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا تَرَكْتَ مِنْ وَصِيَّتِكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ مَعَارِضِ الْكَلَامِ، وَالْمُرَادُ شَيْءٌ آخَرُ نَسِيَهُ.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ولا تغشني عسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على المنسي، فإن ذلك يعسر علي متابعتك.

﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي بعدما خرجا من السفينة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل: قتل عنقه. وقيل: ضرب برأسه الحائط. وقيل: أضجعه فذبحه.

والفاء للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تروٍّ واستكشاف حال، ولذلك قال: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرة من الذنوب.

﴿شَيْئًا نُّكَرًا﴾ أي منكراً. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي قد وجدت عذراً من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: (رحم الله أخي موسى استحيًا فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب).

قوله: ﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قرية أنطاكية. وقيل: أبله بصرة. وقيل: باجروان إرمينة. وأضافه وضيغه: أنزله.

﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ يداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة للمشاركة ﴿فَأَقَامَهُ﴾ بعمارته أو بعمود عمده به. وقيل: مسحه بيده فقام! وقيل: نقضه وبناه ﴿قَالَ لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريصاً على أخذ الجعل لينتعشا به، أو تعريفاً بأنه فضول لما في «لو» من النفي، كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه.

﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ لمحاويج وهو دليل على أن المسكين يطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفه. وقيل: سُمُّوا مساكين لعجزهم عن دفع الملك، أو لزمانتهم^(١)، فإنها كانت لعشرة إخوة: خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر.

﴿فَارَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ قدامهم أو خلفهم وكان رجوعهم عليه. وقرئ: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

١. أي كانوا من ذوي الإعاقة.

﴿أَنْ يَرْهَقَهُمَا﴾ أَنْ يَغْشَاهُمَا ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ لِنِعْمَتِهِمَا بِعُقُوبِهِ فَيُلْحِقَهُمَا شَرًّا، أَوْ يَقْرَنَ بِإِيمَانِهِمَا طُغْيَانَهُ وَكُفْرَهُ فَيَجْتَمِعُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ مُؤْمِنَانِ وَطَاغٍ كَافِرٌ، أَوْ يَعْدِيهِمَا بَعْلَتُهُ فَيَرْتَدَا بِإِضْلَالِهِ أَوْ بِمَمَالَأَتِهِ عَلَى طُغْيَانِهِ وَكُفْرِهِ حَبًّا.

﴿أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أَنْ يَرْزُقَهُمَا بَدْلَهُ وَلَدًا ﴿خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ طَهَارَةً مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ ﴿أَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رَحْمَةً وَ عَطْفًا عَلَى وَالِدَيْهِ. قِيلَ: وَلِدَتْ لَهَا جَارِيَةٌ فَتَزَوَّجَهَا نَبِيٌّ فَوَلَدَتْ نَبِيًّا هَدَى اللَّهُ بِهِ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ.

﴿لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ قِيلَ: اسْمُهُمَا أَصْرَمُ وَصَرِيمٌ.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، رَوَى ذَلِكَ مَرْفُوعًا. وَقِيلَ: مِنْ كِتَابِ الْعِلْمِ. وَقِيلَ: كَانَ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ مَكْتُوبٌ فِيهِ: عَجِبْ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَحْزَنُ؟! وَعَجِبْ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالرِّزْقِ كَيْفَ يَتَعَبُ؟! وَعَجِبْ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ؟! وَعَجِبْ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفُلُ؟! وَعَجِبْ لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَقْلِبُهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِمَا؟! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ^(١).

❖ مع العلامة الطباطبائي:

وهكذا نجد العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» يطرق هذا الباب مشيراً إلى بعض الأحاديث التي تحاول الإجابة على مجموعة من التساؤلات الخاصة بتفاصيل القصة. ففي ما يخص تحديد موقع مجمع البحرين قال: (منها ما يتحصل من رواية ابن بابويه والقمي أن مجمع البحرين من أرض الشامات وفلسطين بقرينة ذكرهما أن القرية التي ورداها هي الناصرة التي تنسب إليها النصراني، وفي بعضها أن الأرض كانت آذربيجان وهو يوافق ما في الدر المنثور عن السدي أن البحرين هما الكر والرس حيث يصبان في البحر، وأن القرية كانت تسمى باجروان، وكان أهلها لثاماً. وروي عن أبي أنه أفريقية، وعن القرظي أنه

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٨١-١٨٦.

طنجة، وعن قتادة أنه ملتقى بحر الروم وفارس^(١).

وحول تحديد طبيعة الكنز الخاص باليتيمين قال: (قد تكاثرت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الكنز الذي كان تحت الجدار كان لوحاً مكتوباً فيه الكلمات، وفي أكثرها أنه كان لوحاً من ذهب، ولا ينافيه قوله في هذه الرواية: «ما كان ذهباً ولا فضة». لأن المراد به نفي الدينار والدرهم كما هو المتبادر. والروايات مختلفة في تعيين الكلمات التي كانت مكتوبة على اللوح، لكن أكثرها متفقة في كلمة التوحيد ومسألتني الموت والقدر. وقد جمع في بعضها بين الشهادتين كما رواه في الدر المنثور عن البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب في قول الله «عز وجل»: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾^(٢) قال: «كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله. عجباً لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح؟ وعجباً لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك؟ وعجباً لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن؟ وعجباً لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟»^(٣).

ومن نصوص الأحاديث التي أشار إليها العلامة في إجاباته السابقة:

١. تفسير علي بن إبراهيم: أبي، عن محمد بن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله «عليه السلام» أنه قال: (كان ذلك الكنز لوحاً من ذهب فيه مكتوب: بسم الله لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، عجبت لمن يعلم أن الموت حق كيف يفرح؟ عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يفرق؟ عجبت لمن يذكر النار كيف يضحك؟ عجبت لمن يرى الدنيا وتصرّف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟)^(٤). تقييم السند: الرواية ضعيفة لعدم ثبوت نسبة النسخة المتداولة من التفسير لعلي بن إبراهيم القمي.

١. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٥٤ - ٣٥٩.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٢.

٣. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٥٤ - ٣٥٩.

٤. القمي: تفسير القمي: ص ٤٠١.

٢. الصدوق في «علل الشرائع» عن القطان، عن السكري، عن الجوهري، عن ابن عمارة، عن أبيه، عن جعفر بن محمد «عليهما السلام» أنه قال في ضمن خبر طويل: (ولم يكن ذلك الكنز بذهب ولا فضة، ولكن كان لوحاً من ذهب فيه مكتوب: عجب لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجب لمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟ عجب لمن أيقن أن البعث حق كيف يظلم؟ عجب لمن رأى الدنيا وتصرّف أهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟ ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾^(١) كان بينهما وبين هذا الأب الصالح سبعون أباً، فحفظهما الله بصلاحه)^(٢). تقييم السند: الرواية ضعيفة بأكثر من راو.

٣. الحميري في قرب الإسناد: ابن عيسى، عن البزنطي، عن الرضا «عليه السلام» قال: (كان في الكنز الذي قال الله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ لوح من ذهب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، محمد رسول الله، عجت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ وعجت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن؟ وعجت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن إليها؟ وينبغي لمن غفل عن الله ألا يتهم الله «عز وجل» في قضائه ولا يستبطؤه في رزقه)^(٣). تقييم السند: النسخة الموجودة من الكتاب لم تثبت نسبتها لعبد الله ابن جعفر الحميري. وروى الخبر العياشي في تفسيره بسند مرسل، وفي الكافي عن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن ابن أسباط مثله. والسند ضعيف بمعلى بن محمد.

٤. الصدوق في «الخصال» عن أبيه، عن سعد، عن محمد بن عبد الحميد، عن العلاء، عن محمد، عن أبي جعفر «عليه السلام» في قول الله «عز وجل»: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾. قال: (والله ما كان من ذهب ولا فضة، وما كان إلا لوحاً فيه كلمات أربع: إني أنا الله لا إله إلا أنا، ومحمد رسولي، عجت لمن أيقن بالموت كيف يفرح قلبه؟ وعجت لمن أيقن بالحساب كيف تضحك سنّه؟ وعجت لمن أيقن بالقدر

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٢.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٦١-٦٢.

٣. الحميري: قرب الإسناد، ص ٣٧٥.

كيف يستبطن الله في رزقه؟! وعجبت لمن يرى النشأة الأولى كيف ينكر النشأة الآخرة؟!^(١) تقييم السند: الرواية ضعيفة بمحمد بن عبد الحميد. وللرواية أسانيد أخرى بمضمون قريب وهي ضعيفة السند تركت ذكرها تجنباً للإطالة.

٥. الكليني وهي عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن محمد ابن خالد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (سألت عن قول الله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾. فقال: أما إنه ما كان ذهباً ولا فضة وإنما كان أربع كلمات: إني أنا الله لا إله إلا أنا، من أيقن بالموت لم يضحك سنه، ومن أقر بالحساب لم يفرح قلبه، ومن آمن بالقدر لم يخش إلا ربه)^(٢). تقييم السند: الرواية معتبرة السند.

وهكذا تطرقت الأخبار لتحديد شخصية الفتى المرافق لموسى، قال العلامة الطباطبائي: (الفتى الذي ذكره الله وأضافه إلى موسى قيل هو يوشع بن نون وصيه، وبه وردت الرواية، قيل: سمي فتى لأنه كان يلزمه سفرًا وحضرًا، أو لأنه كان يخدمه)^(٣).

أما الروايات التي تطرقت لذلك فمن نماذجها ما يلي:

١. بحار الأنوار: (وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام) في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ وهو يوشع بن نون^(٤). تقييم السند: الرواية مرسلّة.

٢. تفسير العياشي عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: (كان وصي موسى بن عمران يوشع بن نون، وهو فتاه الذي ذكره الله في كتابه)^(٥). تقييم السند: الرواية مرسلّة.

١. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ١١٢.

٢. الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٤٨.

٣. الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٣٣٨.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٨٦.

٥. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٥٦.

❖ أعلمية العبد الصالح:

بالإضافة إلى التساؤلات السابقة حول تفاصيل القصة، فقد أثارت بعض جوانبها إشكالات على مستوى بعض المفردات العقدية، من قبيل أعلمية العبد الصالح مع وجود الحجة عليه في ذلك الزمان، أي النبي موسى، وعن تقبل فكرة اتباع الأفضل للمفضل، وكيف يمكن التفكيك بين الحجية وبين الاتباع، وغير ذلك مما نقله العلماء في كتبهم عن حوارات دارت بين علماء من مذاهب مختلفة، أو حوارات افتراضية في معرض بحث بعض المسائل العقدية. وفي الأسطر التالية نماذج من ذلك. قال العلامة المجلسي: (يمكن أن يكون في البشر من هو أعلم منه^(١)، أو المعنى أنه كان الغرض تعليم موسى، لا كون الخضر حجة عليه وأفضل منه وكون موسى «عليه السلام» رعية له. بل كان واسطة كالمالك). وفي تفسير العياشي عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كان موسى أعلم من الخضر)^(٢). تقييم السند: الرواية مرسلة.

وفيه عن هشام أيضاً، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كان سليمان أعلم من آصف، وكان موسى أعلم من الذي اتبعه)^(٣). تقييم السند: الرواية مرسلة.

أما السيد المرتضى علم الهدى فقد توسّع في استعراض الإشكالات حول القصة والردود عليها، وبدوري أذكرها مع إعادة ترتيبها بما ييسر ربط السؤال بالإجابة، قال:

الإشكال الأول: كيف يجوز أن يتبع موسى «عليه السلام» غيره ويتعلم منه وعندكم أن النبي لا يجوز أن يفترق إلى غيره؟

الجواب: أما العالم الذي نعتة الله في هذه الآيات فلا يجوز إلا أن يكون نبياً

١. أي من النبي موسى.

٢. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٠.

٣. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣٣٤.

فاضلاً، وقد قيل: إنه الخضر (عليه السلام)، وأنكر أبو علي ذلك وزعم أنه ليس بصحيح، قال: لأن الخضر يقال: إنه كان نبياً من أنبياء بني إسرائيل الذين بعثوا بعد موسى (عليه السلام)، وليس يمتنع أن يكون الله عز وجل قد أعلم هذا العالم ما لم يعلمه موسى (عليه السلام)، وأرشد موسى (عليه السلام) إليه ليتعلم منه، وإنما المنكر أن يحتاج النبي في العلم إلى بعض رعيته المبعوث إليهم، وأما أن يفتقر إلى غيره ممن ليس له برعية فجائز، وما تعلمه من هذا العالم إلا كتعلمه من الملك الذي يهبط إليه بالوحي، وليس في هذا دلالة على أنه كان أفضل من موسى في العلم، لأنه لا يمتنع أن يزيد موسى (عليه السلام) عليه في سائر العلوم التي هي أفضل وأشرف مما علمه.

الإشكال الثاني: كيف يجوز أن يقول له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(١) والاستطاعة عندكم هي القدرة، وقد كان موسى (عليه السلام) على مذهبكم قادراً على الصبر؟

الجواب: وأما نفي الاستطاعة فإنما أراد بها أن الصبر لا يخف عليك، وأنه يثقل على طبيعتك، كما يقول أحدنا لغيره: إنك لا تستطيع أن تنظر إلي، وكما يقول للمريض الذي يجهد الصوم وإن كان عليه قادراً: إنك لا تستطيع الصيام ولا تطبيقه، وربما عبّر بالاستطاعة عن الفعل نفسه، كما قال الله عز وجل، حكاية عن الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢) فكأنه على هذا الوجه قال له: إنك لن تصبر ولن يقع منك الصبر، وإن كان إنما نفي القدرة على ما ظنه الجاهل، لكان العالم وهو في ذلك سواء، فلا معنى لاختصاصه بنفي الاستطاعة. والذي يدل على أنه إنما نفي عنه الصبر لا الاستطاعة قول موسى (عليه السلام) في جوابه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾^(٣)

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٧.

٢. القرآن الكريم: سورة المائدة: ١١٢.

٣. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٩.

ولم يقل: ستجدي إن شاء الله مستطيعاً، ومن حق الجواب أن يطابق الابتداء، فدل جوابه على أن الاستطاعة في الابتداء هي عبارة عن الفعل نفسه.

الإشكال الثالث: كيف قال موسى (عليه السلام): ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فاستثنى المشية في الصبر، وأطلق فيما ضمّنه من طاعته واجتناب معصيته؟

الجواب: قوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فهو أيضاً مشروط بالمشية وليس بمطلق على ما ذكر في السؤال، فكأنه قال: ستجدي صابراً ولا أعصي لك أمراً إن شاء الله، وإنما قدم الشرط على الأمرين جميعاً، وهذا ظاهر في الكلام.

الإشكال الرابع: كيف قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾^(١) و ﴿شَيْئًا نُّكْرًا﴾^(٢) وما أتى العالم منكرًا على الحقيقة؟ والجواب: فأما قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾ فقد قيل: إنه أراد شيئاً عجباً، وقيل: إنه أراد شيئاً منكراً، وقيل: إن الأمر أيضاً هو الداهية فكأنه قال: جئت داهية. وقد ذهب بعض أهل اللغة إلى أن الإمر مشتق من الكثرة من أمر القوم: إذا كثروا، وجعل عبارة عما كثر عجبه، وإذا حملت هذه اللفظة على العجب فلا سؤال فيها، وإن حملت على المنكر كان الجواب عنها وعن قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ واحداً، وفي ذلك وجوه:

منها: أن ظاهر ما أتته المنكر ومن يشاهده ينكره قبل أن يعرف علته.
ومنها: أن يكون حذف الشرط فكأنه أراد: إن كنت قتلته ظالماً لقد جئت شيئاً نكراً.
ومنها: أنه أراد أنك أتيت أمراً بديعاً غريباً، فإنهم يقولون فيما يستغربونه و يجهلون علته: إنه نكر ومنكر، وليس يمكن أن يدفع خروج الكلام مخرج الاستفهام والتقرير دون القطع، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا﴾^(٣)

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧١.

٢. ن. م. ٧٤.

٣. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧١.

والى قوله: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾^(١) ومعلوم أنه إن كان قصد بخرق السفينة إلى التغريق فقد أتى منكرًا، وكذلك إن كان قتل النفس على سبيل الظلم.

الإشكال الخامس: ما معنى قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾^(٢) وعندكم أن النسيان لا يجوز على الأنبياء؟

الجواب: أما قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ فقد ذكر فيه وجوه ثلاثة:

أحدها أنه أراد النسيان المعروف، وليس ذلك بعجب مع قصر المدة، فإن الإنسان قد ينسى ما قرب زمانه لما يعرض له من شغل القلب وغير ذلك.

والوجه الثاني أنه أراد: لا تؤاخذني بما تركت، ويجري ذلك مجرى قوله «عز وجل»: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ﴾^(٣) أي ترك، وقد روي هذا الوجه عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: قال موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ يقول: بما تركت من عهدك.

والوجه الثالث: أنه أراد: لا تؤاخذني بما فعلته مما يشبه النسيان، فسماه نسياناً للمشابهة كما قال المؤذن لإخوة يوسف (عليه السلام): ﴿إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(٤) أي إنكم تشبهون السراق، وكما يتأول الخبر الذي يرويه أبو هريرة، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (كذب إبراهيم ثلاث كذبات: في قوله: سارة أختي، وفي قوله: بل فعله كبيرهم هذا، وفي قوله: إني سقيم)^(٥) والمراد بذلك - إن كان هذا الخبر صحيحاً - أنه فعل ما ظاهره الكذب. وإذا حملنا هذه اللفظة على غير النسيان الحقيقي فلا سؤال فيها، وإذا حملناها على النسيان في الحقيقة كان

١. ن. م. ٧٤.

٢. ن. م. ٧٣.

٣. القرآن الكريم: سورة طه: ١١٥.

٤. القرآن الكريم: سورة يوسف: ٧٠.

٥. الخبر كما في صحيح مسلم ح ٢٣٧١ كالتالي: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وواحدة في شأن سارة».

الوجه فيها أن النبي إنما لا يجوز عليه النسيان فيما يؤديه أو في شرعه، أو في أمر يقتضي التنفير عنه، فأما فيما هو خارج عما ذكرناه فلا مانع من النسيان، ألا ترى أنه إذا نسي أو سها في مأكله أو مشربه على وجه لا يستمر ولا يتصل فينسب إلى أنه مغفل أن ذلك غير ممتنع.

الإشكال السادس: لم نعت موسى (عليه السلام) النفس بأنها زكية ولم تكن كذلك على الحقيقة؟

الجواب: وأما وصف النفس بأنها زكية فقد قلنا إن ذلك خرج مخرج الاستفهام لا على سبيل الإخبار، وإذا كان استفهاماً فلا سؤال على هذا الموضوع. وقد اختلف المفسرون في هذه النفس فقال أكثرهم: إنه كان صبيّاً لم يبلغ الحلم، وإن الخضر وموسى (عليهما السلام) مرّاً بغلمان يلعبون فأخذ الخضر منهم غلاماً فأضجعه وذبحه بالسكين، ومن ذهب إلى هذا الوجه يجب أن يحمل قوله: ﴿زَكِيَّةٌ﴾ على أنه من الزكاء الذي هو الزيادة والنماء، لا من الطهارة في الدين، من قولهم: زكت الأرض يزكو إذا زاد ريعها. وذهب قوم إلى أنه كان رجل بالغاً كافراً، ولم يكن يعلم النبي موسى (عليه السلام) باستحقاقه للقتل، فاستفهم عن حاله، ومن أجاب بهذا الجواب إذا سئل عن قوله «عز وجل»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾^(١) يقول: لا يمتنع تسمية الرجل بأنه غلام على مذهب العرب وإن كان بالغاً.

الإشكال السابع: ولم قال: ﴿فَخَشِينَا﴾؟ فإن كان الذي خشيه الله «عز وجل» ما ظنه قوم فالخشية لا تجوز عليه تعالى، وإن كان هو الخضر فكيف يستبجح دم الغلام لأجل الخشية والخشية لا تقتضي علماً ولا يقيناً!

الجواب: أما قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(٢) فالظاهر يشهد أن الخشية هي من العالم لا منه (عليه السلام)، والخشية ههنا قيل: إنها العلم كما

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٤.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٠.

قال الله «عز وجل»: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾^(١) وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾^(٢) وقوله «عز وجل»: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾^(٣) وكل ذلك بمعنى العلم، وعلى هذا الوجه كان يقول: إنني علمت بإعلام الله «عز وجل» لي أن هذا الغلام متي بقي، كفر أبواه، ومتى قُتل، بقيا على إيمانهما، فصارت تبقيته مفسدة ووجب احترامه، ولا فرق بين أن يميته الله تعالى وبين أن يأمر بقتله.

وقد قيل: إن الخشية هنا بمعنى الخوف الذي لا يكون معه يقين ولا قطع، وهذا يطابق جواب من قال: إن الغلام كان كافراً مستحقاً للقتل بكفره، وانضاف إلى استحقاقه ذلك بالكفر خشية إدخال أبويه في الكفر وتزيينه لهما. وقال قوم: إن الخشية هنا هي الكراهية، يقول القائل: فرقت بين الرجلين خشية أن يقتتلا، أي كراهية لذلك، وعلى هذا التأويل والوجه الذي قلنا إنه بمعنى العلم لا يمتنع أن يضاف الخشية إلى الله «عز وجل».

الإشكال الثامن: فإن قيل: فما معنى قوله «عز وجل»: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾^(٤) والسفينة البحرية تساوي المال الجزيل؟ وكيف يسمى مالها بأنه مسكين، والمسكين عند قوم شر من الفقير؟

الجواب: أما قوله: ﴿لِمَسَاكِينَ﴾ ففيه غير وجه:

منها أنه لم يعن بوصفهم بالمسكنة: الفقر، وإنما أراد عدم الناصر وانقطاع الحيلة كما يقال لمن له عدو يظلمه ويتهضمه: إنه مسكين ومستضعف وإن كان كثير المال واسع الحال، ويجري هذا المجرى ما روي عنه «عليه السلام» من قوله: مسكين رجل لا زوجة له. وإنما أراد وصفه بالعجز وقلة الحيلة وإن كان ذا مال واسع.

ووجه آخر وهو أن السفينة للبحري الذي لا يتعيش إلا بها ولا يقدر على التكسب

١. القرآن الكريم: سورة النساء: ١٢٨.

٢. القرآن الكريم: سورة البقرة: ٢٢٩.

٣. القرآن الكريم: سورة التوبة: ٢٨.

٤. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٩.

إلا من جهتها، كالدَّار التي يسكنها الفقير هو ووعِياله ولا يجد سواها، فهو مضطر إليها ومنقطع الحيلة إلا منها، وإذا انضاف إلى ذلك أن يشاركه جماعة في السفينة حتى يكون له فيها الجزء اليسير، كان أسوأ حالاً وأظهر فقرًا. ووجه آخر أن لفظة المساكين قد قرئت بتشديد السين، وإذا صحت هذه الرواية فالمراد بها البخلاء، وقد سقط السؤال.

الإشكال التاسع: كيف قال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾^(١) ومن كان وراءهم قد سلموا من شره ونجوا من مكروهه، وإنما الحذر مما يستقبل؟
الجواب: أما قوله «عز وجل»: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ فهذه اللفظة يعبر بها عن الأمام والخلف معاً، فهي ههنا بمعنى الأمام، ويشهد بذلك قوله «عز وجل»: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾^(٢) يعنى من قدامه وبين يديه، وقال الشاعر:

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم

ولا شبهة في أن المراد بجميع ذلك: القدام، وقال بعض أهل العربية: إنما صلح أن يعبر بالوراء عن الأمام إذا كان الشئ المخبر عنه بالوراء يعلم أنه لا بد من بلوغه ثم سبقه وتخليفه.

ووجه آخر: أنه يجوز أن يريد أن ملكاً ظالماً كان خلفهم وفي طريقهم عند رجوعهم على وجه لا انفكاك لهم منه ولا طريق لهم غير المرور به، فخرق السفينة حتى لا يأخذها إذا عادوا عليه.

ويمكن أن يكون وراءهم على وجه الاتباع والطلب، والله أعلم بمراده^(٣).

وأثار العلامة السيد محمد حسين فضل الله في تفسيره بعض الملاحظات والإجابات حول مدى علم النبي في سعته وشموله، وما إذا كان من الضروري أن

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٧٩ .

٢. القرآن الكريم: سورة إبراهيم: ١٦ .

٣. المرتضى: تنزيه الأنبياء، باب تنزيه موسى عليه السلام.

يملك علم كل شيء، أو أن المسألة تقتصر على ما أراد الله له أن يعلمه في ما يختص بتبليغ رسالته وما تحتاجه من معرفة التفاصيل؟

وأشار إلى رأي البعض القائلين بضرورة إحاطة النبي بعلم كل شيء، بما في ذلك مفردات العلوم الطبيعية، والقضايا الجزئية، لأن النبي يمثل الشخص الذي يجب على كل الناس أن يطيعوه ويقتدوا به، فلا بد من أن يكون أعلم الجميع، لأن العقل لا يجوز إمامة الجاهل للعالم، ولو في الموارد الخاصة.

ثم تطرق للرأي الآخر القائل بأن العقل لا يفرض - في مسألة القيادة والإمامة والطاعة - إلا أن يكون الشخص الذي يتحمل هذه المسؤوليات محيطاً بالجوانب المتصلة بمسؤولياته، في ما لا يحيط به الناس إلا من خلاله، أما الجوانب الأخرى من جزئيات حياتهم العامة، أو من مفردات علوم الحياة والإنسان، أو من خفايا الأمور البعيدة عن عالم المسؤولية، أما هذه الجوانب، فلا دليل على ضرورة إحاطته بها، ولا يمنع العقل أن يكون لشخص حق الطاعة في بعض الأمور التي يحيط بها، على الناس الذين يملكون إحاطة في أشياء أخرى لا يحيط بها ولا تتعلق بحركة المسؤولية.

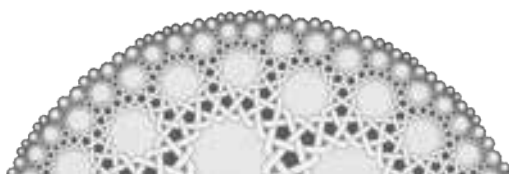
ثم احتمل إمكانية الاستشهاد بقصة النبي موسى والعبد الصالح كدليل على صحة هذا الرأي الذي يميل إليه، كما يميل إليه بعض العلماء القدامى، لأنه يلتقي بالجو القرآني الذي يتحدث عن الأنبياء بطريقة معينة بعيدة عما اعتاده الناس في نظرتهم إليهم من خلال الأسرار الخفية والكمال القريب من المطلق^(١).

❖ ختام الفصل:

بعد هذا الاستعراض لشرح الآيات وما يتعلق بها من أمور غامضة والتي حاولت النصوص وسعى المفسرون إلى تأويلها وتطبيقها، نشرع في الفصول اللاحقة بالحديث حول مدى انطباق كون العبد الصالح في القصة هو الخضر،

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٤، ص ٣٦٤.

لاسيما بلحاظ أخذ أكثر المفسرين ذلك مأخذ التسليم، ثم يتلوه بحث حول صورة الخضر وحقيقته وتاريخه في التراث الديني والشعبي، بل وحتى مستقبله وفق بعض النصوص.



الفصل الثاني



إيليا أم مار جرجس؟

من هو العبد الصالح «الخضر بجسب التصور المشهور»؟

هل هو النبي إيليا؟

أم هو مار جرجس الشهيد؟

أم كلاهما؟

أم أنه سواهما؟

❖ الاحتمال الأول:

ذهب بعض الباحثين إلى القول باتحاد شخصيتي الخضر والنبي إيليا (= إياهو = إلياس) انطلاقاً من كون الخضر هو العبد الصالح كما جاء في القصة القرآنية.

فما هي القيمة العلمية لخلفيات هذا الرأي على نطاق نصوص التراث اليهودي، وفي الموروث الثقافي الشعبي، ليجعل المسألة بمستوى المسلمات التي تدفع بعض المجتمعات العربية المعاصرة للإيمان باتحاد الشخصيتين دون ترديد، ووفق ما توارثته عبر الأجيال المتعاقبة.

بالعودة إلى كتب العهد القديم والتي تمثل التوراة وما بعدها من كتب وأسفار إلى «سفر المكابيين الثاني» لن يجد الباحث قصة تقترب - ولو قليلاً - من قصة موسى والعبد الصالح. إلا أنه يمكن من خلال التراث اليهودي المدون خارج نطاق العهد القديم أن نجد قصة قد تكون هي أساس ادعاء وحدة شخصيتي الخضر والنبي إيليا، وهي قصته مع الإشع (= اليسع = يوشع = يشوع) بن شافاط، والذي عُرف في بعض المصادر بأنه «يشوع بن لاوي» باعتباره من سبط لاوي نسبةً إلى لاوي ابن النبي يعقوب بـ.

بدءً، فلنتعرف على الشخصيتين، وعلى تفاصيل القصة الواردة في التراث اليهودي المدون.

❖ من هو النبي إيليا؟

إيليا - المسمى في النص العبري للعهد القديم: إياهو - من أنبياء بني إسرائيل، ورد ذكره في العهد القديم وفي كتب اليهود الأخرى كالتلمود والمشناه، وذكر في العهد الجديد عدة مرات، وفي نصوص أهل الكتاب أنه سيأتي قبل المجيء الثاني للمسيح بـ ليعينه في مهمته في إرساء دولة العدل على البسيطة!

جاء في كتاب «المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم» في تفسير المعنى الحرفي للاسم إيليا: (إيليا: يهوه هو الله)^(١).

وفي قاموس معاني الأسماء: (إلياس: اسم علم مذكر يوناني، والسين فيه لاحقة باليونانية. وهو تحريف لـ «إياهو» العبري، والمعنى: الله الأعلى، وإلهي يَهْوَه. فالاسم عبري مختوم بسين يونانية. وهو اسم إسلامي ومسيحي. واسمه في التوراة «إيليا» وسموا به. وهو اسم لنبي عظيم)^(٢).

كما يلقب في الكتاب المقدس بـ «التشبي» وذلك نسبة إلى «تشبه = تسبيت» في

١. الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ٢٠٩.

بلاد جلعاد الواقعة شرق الأردن. جاء في «المحيط الجامع»: (تشبي: هناك ولد النبي إيليا «١ مل ١٧: ١»). قد تكون بلدة في جلعاد كما تقول الترجمة اليونانية التي تجد تلة اسمها مار إلياس. أما الاسم فحُفظ في الاستب جنوبي وادي يابيش^(١).

والقرائن تدل على أنه هو نفسه النبي إلياس المذكور في القرآن الكريم بلحاظ مواجهته لعبادة الوثن «بعل» والذي سيرد ذكره أيضاً في مصادر أهل الكتاب.. قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾^(٢).

تحدث عنه العهد القديم في كتاب «الملوك الأول» و «الملوك الثاني» وهما يشكّلان معاً سفرًا واحداً في العهد القديم، وفي تعريف طبيعة هذا السفر جاء: (ويُدعى بأن نبياً من الأنبياء قد صنّف بوحي من الروح القدس هذين الكتابين معاً في نحو القرن السادس قبل الميلاد. يغطي هذان الكتابان حقبة تاريخية تقارب ثلاث مئة وخمسين سنة، حكم في خلالها عدد من الملوك على إسرائيل، لهذا دُعي هذان الكتابان بهذا الاسم. يستهل كتاب الملوك الأول بوفاة داود وخلافة سليمان ابنه ملكاً على بني إسرائيل، ثم بناء الهيكل في أورشليم، وما أصاب المملكة من انقسام بعد موت سليمان، فقامت مملكة يهوذا في الجنوب ومملكة إسرائيل في الشمال. وينتهي الكتاب بوصف تفصيلي للصراع الذي نشب بين إيليا النبي وأخاب ملك إسرائيل)^(٣).

في سفر الملوك نجد خبر بعثة النبي إيليا: (ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف)^(٤)، ثم صراعه مع ملك إسرائيل «أخاب = أخاب» وزوجته «إيزابل» الذين نشرا الوثنية بدلاً من التوحيد، ثم العروج به إلى

١. الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ٣٥٧.

٢. القرآن الكريم: سورة الصافات: ١٢٣-١٢٥.

3. www.arabicbible.com

٤. الكتاب المقدس: العهد القديم: ملاخي ٤: ٥.

السماء بعد نزول أنواع من العذاب على أعدائه، وسنستعرض تفاصيل هذا الخبر لاحقاً من خلال ما ورد في التراث المسيحي.

وبحسب الثقافة اليهودية فإن النبي إيليا يُعد أحد القلائل الذين رُفعوا إلى السماء ليبقى حياً على مرّ القرون، ولذا فهو يُعرف باسم «ملاك العهد» الذي يحضر ختان كل فرد يهودي، بما للختان من أهمية كبرى ودلالة رمزية في التشريع والعقيدة اليهودية باعتبارها تمثل ولادة روح يهودية جديدة. وما زال الأطفال اليهود يسمعون الترانيم التي تخاطب هذا النبي وتتاديه متوسّلةً بالكلمات التالية: (إيليا النبي، إيليا التشبّي، إيليا الجلعاوي، هلمّ إلينا وأقبل بمعيّة المسيح ابن داود)^(١).

فإيليا النبي -بحسب العقيدة اليهودية- هو النذير بقدوم المسيح في آخر الزمان، حيث سيوحّد الأجيال اليهودية المتعاقبة في إيمانها بالمسيح والخلص^(٢).

وتعتبر هذه الأنشودة أيضاً جزءاً من دعاء انتهاء السبت «هفدلاه»، وهي تعني - وفق ما ذكره الدكتور عبدالوهاب المسيري في موسوعته حول اليهود واليهودية والصهيونية - التمييز: (حيث يأخذ هذا الدعاء شكل ابتهالات تُتلى على النبيذ والتوابل والشمع احتفالاً بانتهاء شعائر السبت، وهي بذلك تقابل القيدوش الذي تبدأ به الشعائر. وأهم الابتهالات هي تلك التي تشير إلى التمييز بين اليوم المقدس الذي سينتهي، واليوم العادي الذي سيبدأ، وبين النور والظلام، وبين اليهود والأغيار، وبين يوم الراحة المقدّس وأيام العمل الستة الأخرى. وليس بإمكان اليهودي أن يستأنف نشاطه العادي إلا بعد تلاوة هذا الدعاء)^(٣).

وفق حكمة وعلم «الكابالا» حيث التفسير الباطني والصوفي للتراث اليهودي

1. "Eliyahu HaNavi, Eliyahu HaTishbi, Eliyahu HaGiladi..."

"Elijah the Prophet, Elijah the Tishbite, Elijah the Giladite..."

"Bi'mehera Yavo Elaynu, im Mashiach ben David."

"May he soon come to us, accompanying the Messiah, Son of David."

2. www.ou.org/about/judaism/rabbis/eliyahu.htm

3. www.elmessiri.com

المدون باسم «زوهار»^(١)، فإن روح إيليا خلقت خلال الأيام الستة التي تم فيها خلق السماوات والأرض. ومنذ ذلك الوقت وُجد إيليا على صورة ملك، ولكنه يهبط إلى الأرض - أحياناً - بهيئة بشرية، ومن ولادة طبيعية. ولهذا السبب نجد في كتاب «المدراش»^(٢) نصاً يعتبر أن إيليا النبي و«فينحاس» حفيد هارون ابن عمران أخي النبي موسى كلاهما شخص واحد! ويُفسّر ذلك من خلال ادعاء وحدة الروح وثنائية الظهور في جسدين وزمنين مختلفين يفصل بينهما مئات السنين.

إيليا وفينحاس - بحسب هذا التفسير - عاشا حياة مماثلة، وكاملاً مسيرة بعضهما البعض. إذ أن فينحاس رمز حماسة الإله ووصاياه. وضحيّ بنفسه ليمنع تدنيس اسم الإله، فأكرمه الله بالخلود إذ ظهر لاحقاً في صورة إيليا النبي الذي - بدوره - ارتفع إلى السماء بعربة نارية، وكتب الله له الخلود على مرّ الأزمنة.

ومن هنا - أيضاً - نفهم سر حضوره ضيفاً عند كل عملية ختان «ظهور للروح اليهودية» باعتبار شأنه الرفيع وخدمته الجليلة للرب^(٣).

وفي مراسيم عيد الفصح اليهودي، يتم وضع خمسة كؤوس من النبيذ، أربعة منها لتفاصيل الوعود الإلهية بخلص موسى وقومه من فرعون وأعوانه ولتأكيد ربوبية الله وقيادة موسى لشعبه.

أما الكأس الخامسة فهي للوعد الإلهي ببلوغ الأرض التي أقسم الله من قبل أن يعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب ولموسى من بعدهم. وإذا لم يتحقق هذا الوعد إلا على يد الجيل الذي أعقب حادثة عبور اليم، فقد تردد أحبار اليهود في دخول هذا الوعد في مراسيم الاحتفال بهذا العيد، ولذا فإنهم عملياً يخصصون

1. Zohar

٢. المدرش يوازي كتب التفسير في الإسلام، أي كتبه رجال دين يهود لتوضيح أو تأويل التوراة، ولفظة (مدرش) تعني الدراسة والبحث والتأويل وجذرها (درش) وتقابلها لفظة (درس) بالعربية، والمدرش تنوع كتابته بين القرن الثاني والقرن الثالث عشر بعد الميلاد.

3. www.chabadworld.net

الكأس الخامسة لما يرمز له ظهور إيليا النبي في آخر الزمان حيث سيتحقق الوعد بالحصول على الأرض الموعودة، كما يتم حجز مكان خاص لإيليا على مائدة الاحتفال بهذا العيد، مع إبقاء باب البيت مفتوحاً طوال فترة الاحتفال بانتظار حضوره ضمن المدعوين. ويعرف هذا الكأس باسم «كأس إيليا».

كما ويعتقد أحبار اليهود - بحسب النص التلمودي - أن إيليا النبي يحضرهم ليعينهم في المواطن التي يجدون أنفسهم فيها أمام معضلة شرعية يعجزون عن حلها، فهو المنقذ الغيبي الذي ينتظر الإشارة ليقدم سريعاً، كما أنه صاحب الحضور الغيبي الذي قد لا يشهده الإنسان في مواطن عديدة بينما تدركها كائنات حية أخرى كالكلاب عندما نجدها سعيدة من غير سبب ظاهر، وما ذاك إلا لوجود إيليا بالقرب منها ^(١)!

❖ إيليا في التراث المسيحي:

وفي التراث المسيحي عُرف إيليا النبي بأنه من كبار رجال الله الأنبياء من سلالة كهنوتية و كان متنسكاً يقطن في البراري متعبداً للرب في كهوف الجبال، وكان يلبس فروة من جلد خروف، يتمنطق بمنطقة من جلد على حقويه، وتفسير اسمه «إله رب أو إله قوي»، ولعظم غيرته على مجد الله لُقّب بـ «الغيور». عاش إيليا النبي في أواخر القرن العاشر- والتاسع. قبل المسيح في أيام الملك أخاب «= أحاب» وامراته إيزابل الشريرين ^(٢).

وتنص أسفار العهد القديم على أن المملكة العبرية كانت في ذلك العهد منقسمة على ذاتها: مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة ويحكمها أخاب وزوجته إيزابل، ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم، وحصل ذلك الانشقاق عقب وفاة النبي سليمان بن داود (عليهما السلام) عام ٩٣٣ ق. م.

1. Bialik, H. N. and Y. H Ravnitzky. eds. The Book of Legends: Sefer Ha-Aggadah. p 756, 782, and 805.

2.greekorthodox-beitsahour.blogspot.com

كانت الملكة إيزابل فينيقة الأصل وهي بنت أتبعل ملك الصدوقيين، فلما تزوجت آخاب وانطلقت إلى السامرة أخذت معها صنم البعل وعشتاروت وبصحبة ٤٥٠ كاهناً وثناً يأكلون ويشربون على مائدتها وقيمون شعائر عبادة الأوثان خلافاً لشريعة التوحيد التي جاء بها النبي موسى كليم الله من قبل، ولم تكتف إيزابل بذلك بل تمادت في الشر وقتلت ما استطاعت من الكهنة الموحدين واستمالت زوجها ضعيف الشخصية إلى عبادة الأوثان وكانا يعيشان في البذخ والترف ويسكنان بيتاً من العاج.

وهكذا تدخل النبي إيلياً إذ أنه: (لما رأى نفاقهما وأعمالهما الأثيمة المخالفة للشريعة انتقدت غيرته ووبخهما بشدة وعنف، وحبس السماء عن المطر بصلاته فلم تمطر مدة ثلاث سنين و ستة أشهر، فجاج الناس وصار ضيق شديد، وعنى الرب بإيليا في تلك الأيام فأرسله إلى وادي كريت تجاه الأردن وهناك كانت الغربان تقوته وتأتيه كل يوم بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساءً، وكان يشرب من النهر. ولما طال انحباس المطر جف ماء كريت. ذهب بأمر الرب إلى مدينة صرفة قرب صيدا، وهناك أقام عند امرأة أرملة فقيرة جعل دقيقتها وزيتها لا ينفذان مدة انقطاع المطر، وإذ مات ابنها فيما هو مقيم في بيتها أقامه. أعاده إلى الحياة. لها بصلاته إلى الله. أنزل إيليا ناراً من السماء على جبل الكرمل وأحرق بها الذبيحة التي قدمها لله أمام جميع الشعب، وقتل في وادي قيشون الأنبياء الكذبة والكهنة الذين كانوا يسجدون للبعل والأصنام عددهم ٤٥٠، ثم صعد بعد ذلك إلى رأس الكرمل و صلى إلى الله فهطلت الأمطار. ذهب إلى جبل سينا و في الطريق اقتبل طعاماً من الملاك، و إذ تقوّى بذلك الطعام سار أربعين يوماً و أربعين ليلة إلى أن وصل جبل حوريب و دخل المغارة التي هناك وتراءى له الرب. تنبأ^(١) إيليا عن خراب بيت آخاب الملك و موت ابنه أخزيا، و أنزل ناراً من السماء مرتين أكلت فيهما أول رئيس خمسين و ثاني رئيس خمسين مع رجالهما الذين

١. أي أخبر بالوحي أو بتعليم من الغيب .

أرسلهم أخزيا الملك للقبض عليه. ضرب إيليا النبي نهر الأردن بردائه فانفلقت المياه إلى هنا وهناك واجتازه مع تلميذه الإشع ماشيين على اليبس، وأخيراً وفيما كان يخاطب تلميذه الإشع اختطفته مركبة نارية بغتة فصعد نحو السماء حيثما نقله الله حياً. وقد شاعت عقيدة تقول بأن إيليا سيعود إلى الأرض قبل مجئ المسيح الثاني. أي المجئ الثاني للمسيح في آخر الزمان. ليهيء له الطريق، اعتماداً على ما ورد في نبوءة ملاخيا، وهو آخر أنبياء العهد القديم: «ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم و المخوف. فيرد قلب الآباء على الأبناء و قلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي و أضرب الأرض بلعن» «ملاخي ٤ : ٥ ، ٦ » وعلى ما قاله المعلم الإلهي - السيد المسيح (عليه السلام) - «لأن جميع الأنبياء و الناموس إلى يوحنا تنبؤوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي. من له أذنان للسمع فليسمع» «متى ١١ : ١٣-١٥». إن إكرامات المسيحيين للنبي إيليا الغيور منتشرة و شفاعته مقبولة وعجائبه كثيرة، و قد شيد المؤمنون على اسمه كنائس كثيرة و يطلبون شفاعته فينجدهم في شدائدهم و يشفي أمراضهم ويسرع إلى إغاثتهم^(١).

وعن سر غيبته والهدف منها وفق الرؤية المسيحية: (وقد أخفاه الله ليُعلمنا أنه قادر أن يستخدم أي نية أو قلب أو وسيلة لمجد اسمه طالما القلب قد قدم له. وقد استخدمه الله منذ شبابه عكس موسى النبي الذي بدأ يخدم في سن ٨٠ سنة)^(٢).

ومن خلال تتبع النصوص الواردة في العهد الجديد - من جهة أخرى - يمكن الخروج بانطباع أن النبي إيليا (عليه السلام) - عند المسيحيين - يمثل شخصية بارزة بين عموم أنبياء بني إسرائيل، لاسيما بلحاظ:

١. الاعتقاد بخروجه في آخر الزمان لإنقاذ البشرية بمعونة المسيح (عليه السلام) وإرساء دولة العدل على الأرض. وفي هذا الإطار يطالعنا النص التالي

1.greekorthodox-beitsahour.blogspot.com

2. www.ava-kyrillos.net

في إنجيل «مرقس» حيث يقول: (فسألوه^(١) قائلين: لماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟ فأجاب وقال لهم إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء)^(٢).

٢. النصوص التي تحدثت عن بدء بعثة السيد المسيح (عليه السلام) حيث تصوّر البعض أنه إيليا المبعوث من جديد: (قال آخرون إنه إيليا. وقال آخرون: إنه نبي أو كأحد الأنبياء)^(٣)، (وقوماً أن إيليا ظهر. وآخرين أن نبياً من القدماء قام)^(٤). (فأجابوا وقالوا يوحنا المعمدان. وآخرون إيليا. وآخرون إن نبياً من القدماء قام)^(٥).

٣. النصوص التي تنقل حواراً يدور بين بعض الحاضرين عند صلب شبیه المسيح وسماعهم لهمهمات صادرة عنه وهو ينادي ربه «ياهو» فظنوا أنه ينادي «إيلياهو» أي إيليا: (فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيليا)^(٦). (وأما الباقون فقالوا اترك. لنرى هل يأتي إيليا يخلصه)^(٧). (فركض واحد وملاً إسفنجة خلاً وجعلها على قسبة وسقاه قائلاً اتركوا. لنر هل يأتي إيليا لينزله)^(٨).

٤. النصوص التي تتحدث عن كونه مثلاً للقوة في العزيمة والالتزام بأوامر الله: (ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيئ للرب شعباً مستعداً)^(٩). (فسألوه وقالوا له فما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي)^(١٠).

١. أي سألوا النبي عيسى عليه السلام.
٢. الكتاب المقدس: العهد الجديد: مرقس ٩ : ١١-١٢.
٣. الكتاب المقدس: العهد الجديد: مرقس ١٥ : ٦.
٤. الكتاب المقدس: العهد الجديد: لوقا ٩ : ٨.
٥. الكتاب المقدس: العهد الجديد: لوقا: ٩ : ١٩.
٦. الكتاب المقدس: العهد الجديد: متى ٢٧ : ٤٧.
٧. الكتاب المقدس: العهد الجديد: متى ٢٧ : ٤٩.
٨. الكتاب المقدس: العهد الجديد: مرقس ١٥ : ٣٦.
٩. الكتاب المقدس: العهد الجديد: لوقا ١ : ١٧.
١٠. الكتاب المقدس: العهد الجديد: يوحنا ١ : ٢٥.

ويسمى إيلياً بالنبي الناري: (لحرارة خدمته وقوتها، طلب فنزلت نار من السماء وأكلت الذبيحة، مرة أخرى لتأكل أعداءه، فرأى ناراً عجيبة في وسط الجبال، واختطفه الرب للسماء في مركبة نارية. كانت قوة إيليا في كونه رجل صلاة، لم يكن له جيش أو أتباع في الشعب بل قال لآخاب «حي هو الرب الذي أنا واقفٌ أمام»^(١).

وفي الوقت الذي يلتزم فيه بعض مفسري العهد القديم بالمعنى الحرفي لحدث المركبة النارية والصعود إلى السماء، أول آخرون هذا النص، فقد جاء في «المحيط الجامع» في تفسير المركبة النارية: (فالنار تدل على حضور الله، وهو الذي جاء وأخذ إيليا بمعنى أنه «جعله يموت» فالتص العبري الأصلي لا يقول أن إيليا صعد في المركبة النارية، في مركبة النار الخاصة بالله الذي هو نار لا تدنى منه، بل هو دخل في العاصفة، هنا نجد معنيين لفعل «ي ع ل» العبري، فقد يعني صعد، ولكن إن عدنا إلى اللغات السامية مثل السريانية نعرف أن «ع ل، ن ع و ل» يعني دخل، وفي العربية نجد «غل» أي دخل في العمق. أما ارتفع فيقابل «ع ل ا» في السريانية و «علا» في العربية. وهكذا نقول إن عاصفة رملية أخذت إيليا ودفنته في الصحراء، فمات كما يموت جميع الناس. ولكن للعاصفة معنى دينياً، هي تدل على عمل الله. إذن مات إيليا لما دخل في العاصفة كما يموت جميع الناس، ولكن الله أخذه إليه كما يأخذ جميع الأبرار منذ نوح وإبراهيم، بل هابيل وشيث وأنوش وأخنوخ... ولكن من أين جاء الصعود في المركبة كما نراه في الإيقونوغرافيا؟ فالتص اليوناني يتبع العبري «عاصفة السماء» ولكنه يجعل الفعل في صيغة المجهول ليدل على أن الله رفعه. ويوضح: «رُفع إيليا في العاصفة كما إلى السماء». يبقى أن الصعود في المركبة لا يفسره إلا التقليد اليهودي الذي نجد أثره في سي ٤٨:٩: «أخذ في عاصفة من نار وفي مركبة نجيل نارية». إذا كان جميع البشر ماتوا، إذا كان يسوع نفسه قد مات، فأيليا مات هو أيضاً. ولكن قد يكون حدث له ما حدث لموسى: دُفن في البرية

لئلا يعرف أحد أين دُفن، فيصبح دفنه موضع إكرام. وهذا يتنافى مع وصية الله الأساسية. راجع ما قيل عن موسى في «تث ٥: ٢٤»: دُفن في الوادي، في أرض موآب، فلا تبحثوا عنه. ولكن جاء مَنْ قال: الرب دفنه. ومهما يكن من أمر، فلا يتعلق المؤمن بموسى ولا بإيليا بل بالرب الإله^(١).

٥. القول بظهوره للمسيح «عليه السلام» في حياته الأولى، إذ أخذ ذات يوم ثلاثة من الحواريين وهم بطرس ويعقوب بن زبدي ويوحنا، وصعد بهم إلى الجبل ليصلي، وفيما هو يصلي تجلى أمامهم النبي موسى والنبي إيليا: (وظهر لهم إيليا مع موسى. وكانا يتكلمان مع يسوع)^(٢).

هذا وتحفل الكنيسة الشرقية البيزنطية بعيد مار إلياس في ٢٠ تموز من كل عام، وقد شيدت العديد من الأديرة والكنائس التي تحمل اسم هذا النبي في كل من فلسطين ولبنان وسورية، ولعل أهمها دير مار إلياس في «معرة صيدنايا» الذي يحوي المغارة التي التجأ إليها النبي إيليا هرباً من اضطهاد الملك آحاب والملكة إيزابيل حيث يذكر الكتاب المقدس أنه التجأ إلى بركة دمشق^(٣).

❖ إيليا في القرآن الكريم:

أشرت مسبقاً إلى أن القرائن تدل على أن النبي إلياس «عليه السلام» المذكور في القرآن الكريم هو ذاته النبي إيليا الذي نتحدث عنه، حيث قال (عز وجل): ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤).

وقال (عز وجل): ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّا كَذَلِكَ

١. الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، ص ٢١٠.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم: مرقس ٩: ٤.

٣. الكتاب المقدس: العهد القديم: ملوك ١٩: ١٥-١٩.

٤. القرآن الكريم: سورة الأنعام: ٨٥.

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ^(١). ويستوقفنا قوله «عز وجل»: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾، فما الذي تعنيه هذه الآية؟ وهل هو تأكيد لما في العهد القديم والجديد من القول بأنه ما زال حياً وأنه سيخرج في آخر الزمان ليكون من الممهدين للمسيح «عليه السلام» كما هي عقيدة أهل الكتاب، وبالتالي من الممهدين له وللمهدي المنتظر «عليه السلام» كما هي عقيدة المسلمين؟

يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا التعبير لم يرد بخصوص النبي إلياس فقط، فقد ورد قبله بحق النبي نوح «عليه السلام» إذ قال «عز وجل»: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، وفي حق النبي إبراهيم «عليه السلام» إذ قال «عز وجل»: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، مما يجعلنا نبتعد عن الاحتمال السابق، إذ لا يدعي أحد أن نوحاً وإبراهيم «عليهما السلام» على قيد الحياة، أو سيرجعان في آخر الزمان. وعلى كل حال سأستعرض أقوال ثلاثة من المفسرين المعاصرين في هذا المجال:

١. العلامة الطباطبائي، قال في شأن النبي نوح: (وهو «عليه السلام» الأب الثاني للنسل الحاضر من الانسان إليه ينتهى أنسابهم والجميع ذريته لقوله «عز وجل»: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ «الصافات: ٧٧»، وهو «عليه السلام» أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم وإدريس «عليهما السلام»، قال «عز وجل»: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ «الصافات: ٧٨»^(٤).

١. القرآن الكريم: سورة الصافات: ١٢٣-١٣٢.

٢. القرآن الكريم: سورة الصافات: ٧٧ - ٧٩.

٣. القرآن الكريم: سورة الصافات: ١٠٣-١١١.

٤. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٢٥١.

وقال في موضع آخر: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ «الصفات: ٧٨-٨٠»، فيتلخص معنى الآيتين في مثل قولنا: إنا جزينا نوحاً بما كان عبداً شكوراً لنا أننا أبقينا دعوته وأجرينا سنته وطريقته في ذرية من حملناهم معه في السفينة، ومن ذلك أننا أنزلنا على موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل^(١).

وقال: (قوله «عز وجل»: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ المراد بالترك الإبقاء، وبالأخريين الأمم الغابرة غير الأولين، وقد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم (عليه السلام) أيضاً في هذه السورة، وقد بدلت في القصة بعينها من سورة الشعراء من قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ «الشعراء: ٨٤»، واستفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم بدعوته ويدعو إلى ملته وهي دين التوحيد. فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء في الآخرين هو إحياءه (عليه السلام) دعوة نوح (عليه السلام) إلى التوحيد ومجاهدته في سبيل الله عسراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة^(٢). ثم اعتبر أن ذات المعنى هو المراد في الآيتين الواردتين بحق الخليل إبراهيم والنبي إلياس (عليهما السلام).

٢- العلامة فضل الله: قال في شأن الآية النازلة بحق النبي نوح (عليه السلام): ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ فقد خلد الله ذكره في رسالته، وفي صبره الطويل في خط التجربة الرسالية، لينتفع بها العاملون في سبيل الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، فلا يسقطون أمام التحديات، ولا يهربون من الضغوط الصعبة والمشاكل المعقدة^(٣).

٣- العلامة مكارم الشيرازي: (وإضافة إلى ذلك يقول القرآن: إنا جعلنا لنوح ثناءً وذكرًا جميلاً في الأجيال والأمم اللاحقة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾. فقد

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٧.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ١٣٢.

٣. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٩، ص ١٩٩.

وصفه القرآن المجيد بالنبي المقاوم والشجاع والصبور والرحيم والعطوف، وأطلق عليه لقب شيخ الأنبياء. وتاريخه أسطورة للمقاومة والثبات، كما يمكن أن يستلهم سالكو طريق الحق من برامجه عبراً ودروساً تمكنهم من اجتياز العراقيل التي يضعها الأعداء والجهلة أمامهم. فبعد تحمله كافة الصعاب والآلام، منحه الله (عز وجل) وساماً خالداً يفتخر به في العالمين سلام على نوح في العالمين^(١).

وفي حق النبي إلياس (عليه السلام) قال: (قوله عز وجل): ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي إن الأمم القادمة سوف لن تنسى الجهود الكبيرة التي بذلها الأنبياء الكبار من أجل حفظ خط التوحيد، وسقاية شجرة الإيمان، وما دامت الحياة موجودة في هذه الدنيا فإن رسالتهم ستبقى حية وخالدة^(٢).

❖ إيليا في التراث الإسلامي:

وأما في بعض المصادر الإسلامية فقد جاء تعريف شخصية النبي إلياس على أنه: (هو إدريس، عن ابن مسعود وقتادة، وقيل: هو من أنبياء بني إسرائيل من ولد هارون بن عمران ابن عم اليسع، وهو إلياس بن ياسين بن فتاح بن العيزار بن هارون بن عمران، عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغيرهما، قالوا: إنه بُعث بعد حزقيل لما عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وكان يوشع لما فتح الشام بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطاً منهم بيبعلبك وهم سبط إلياس بعث فيهم نبياً إليهم فأجابه الملك، ثم إن امرأته حملته على أن ارتد وخالف إلياس، وطلبه ليقتله فهرب إلى الجبال والبراري، وقيل: إنه استخلف اليسع على بني إسرائيل ورفع الله (عز وجل) من بين أظهرهم، وقطع عنه لذة الطعام والشراب، وكساه الريش فصار إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً، وسلط الله على الملك وقومه عدواً لهم، فقتل الملك وامرأته، وبعث الله اليسع رسولاً فأمنت به بنو إسرائيل وعظموه وانتهوا إلى أمره، عن ابن عباس، وقيل: إن إلياس صاحب البراري، والخضر صاحب

١. الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٣٤٢-٣٤٣.

٢. الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٣٩٠ - ٣٩٨.

الجزائر، ويجتمعان في كل يوم عرفة بعرفات، وذكر وهب أنه ذو الكفل، وقيل: هو الخضر (عليه السلام)، وقال: اليسع هو ابن أخطوب ابن العجوز^(١).

ولا يخفى ما للقصاصين والروايات الإسرائيلية والموضوعة من أثر كبير في هذا التخبط في تحديد شخصية هذا النبي في التراث الإسلامي، وما يحيط بها من أساطير وتصورات خرافية.

وفي عالم الأحاديث تطالعنا نصوص عديدة متضاربة في مضامينها، وهي تقترب أحياناً من قصص العهد القديم، وتختلف معها أحياناً أخرى، ومنها ما يشتمل على الغرائب، ومنها ما يدل على أن إيليا ليس هو الخضر، بل هما شخصان مختلفان. وإليك نماذج منها:

١- الكليني في الكافي عن علي بن محمد ومحمد بن الحسن عن سهل ابن زياد عن بكر بن صالح عن محمد بن سنان عن مفضل بن عمر قال: (أتينا باب أبي عبد الله (عليه السلام) ونحن نريد الإذن عليه فسمعناه يتكلم بكلام ليس بالعربية، فتوهمنا أنه بالسريانية، ثم بكا فبكينا لبكائه، ثم خرج إلينا الغلام فأذن لنا فدخلنا عليه، فقلت: أصلحك الله أتيناك نريد الإذن عليك فسمعناك تتكلم بكلام ليس بالعربية فتوهمنا أنه بالسريانية ثم بكيت فبكينا لبكائك، فقال: نعم ذكرت إلياس النبي (عليه السلام) وكان من عبّاد أنبياء بني إسرائيل، فقلت كما كان يقول في سجوده، ثم اندفع فيه بالسريانية فما رأينا واللّه قساً ولا جاثليقاً أفصح لهجة منه به، ثم فسّره لنا بالعربية فقال: كان يقول في سجوده: أتراك معذبي وقد أظلمات لك هواجري؟ أتراك معذبي وقد غفرت لك في التراب وجهي؟ أتراك معذبي وقد اجتنبت لك المعاصي؟ أتراك معذبي وقد أسهرت لك ليلي؟ قال: فأوحى الله إليه: أن ارفع رأسك فأني غير معذبك. قال: فقال: إن قلت: لا أعذبك ثم عذبتني، ماذا ألت عبدك وأنت ربي؟ فأوحى الله إليه: أن ارفع رأسك فأني غير معذبك، فأني إذا

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٩٧.

وعدت وعداً وفيت به^(١). تقييم السند: رواية ضعيفة السند ومن مرويات الغلاة.

٢- الكليني عن محمد بن أبي عبد الله ومحمد بن الحسن، عن سهل ابن زياد، ومحمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد جميعاً، عن الحسن بن العباس بن الجريش عن أبي جعفر الثاني قال - نرويه باختصار - : (قال أبو عبد الله عليه السلام): بينا أبي (عليه السلام) يطوف بالكعبة إذا رجل معتجر^(٢) قد قيض له. فقطع عليه أسبوعه^(٣) حتى أدخله إلى دار جنب الصفا، فأرسل إلي فكننا ثلاثة فقال: مرحباً يا ابن رسول الله ثم وضع يده على رأسي وقال: بارك الله فيك يا أمين الله بعد آبائه. يا أبا جعفر، إن شئت فأخبرني وإن شئت فأخبرتك وإن شئت سلني وإن شئت سألتك، وإن شئت فأصدقني وإن شئت صدقتك؟ قال: كل ذلك أشاء، قال: فإياك أن ينطق لسانك عند مسألتني بأمر تضمّر لي غيره قال: إنما يفعل ذلك من في قلبه علمان يخالف أحدهما صاحبه وأن الله (عز وجل) أبى أن يكون له علم فيه اختلاف. قال: هذه مسألتني وقد فسرت طرفاً منها. أخبرني عن هذا العلم الذي ليس فيه اختلاف، من يعلمه؟ قال: أما جملة العلم فعند الله جل ذكره، وأما ما لا بد للعباد منه فعند الأوصياء، قال: ففتح الرجل عجيرته واستوى جالساً وتهلّل وجهه، وقال: هذه أردت ولها أتيت، زعمت أن علم ما لا اختلاف فيه من العلم عند الأوصياء، فكيف يعلمونه؟ قال: كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه إلا أنهم لا يرون ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يرى، لأنه كان نبياً وهم محدّثون، وأنه كان ينفذ إلى الله (عز وجل) فيسمع الوحي وهم لا يسمعون، فقال: صدقت يا ابن رسول الله سألتك بمسألة صعبة: أخبرني عن هذا العلم ما له لا يظهر كما كان يظهر مع رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: فضحك أبي (عليه السلام) وقال: أبى الله (عز وجل) أن يطلع على علمه إلا ممتحناً للإيمان به كما قضى على رسول الله أن يصبر على

١. الكليني: الأصول من الكافي، ج ١، ص ٢٢٧.

٢. الاعتجار هو أن يلف العمامة على رأسه ويرد طرفها على وجهه، ولا يعمل شيئاً تحت ذقنه.

٣. أي طوافه المكوّن من سبعة أشواط.

أذى قومه، ولا يجاهدوهم إلا بأمره، فكم من اكتتام قد اكتتم به حتى قيل له: اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين وأيم الله أن لو صدع قبل ذلك لكان آمناً، ولكنه إنما نظري في الطاعة، وخاف الخلاف فلذلك كف، فوددت أن عينك تكون مع مهدي هذه الأمة، والملائكة بسيوف آل داود بين السماء والأرض تعذب أرواح الكفرة من الأموات، وتلحق بهم أرواح أشباههم من الأحياء. ثم أخرج سيفاً ثم قال: ها إن هذا منها، قال فقال: أبي: إي والذي اصطفى محمداً على البشر، قال: فرد الرجل اعتجاره وقال: أنا إلياس، ما سألتك عن أمرك وبني منه جهالة غير أنني أحببت أن يكون هذا الحديث قوة لأصحابك وسأخبرك بأية أنت تعرفها إن خاصموها بها فلجوا... إلى أن قال: فقال الرجل: أشهد أنكم أصحاب الحكم الذي لا اختلاف فيه ثم قام الرجل وذهب فلم أره^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند.

٢. قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي «ت ٥٧٢هـ» في كتابه قصص الأنبياء بالإسناد إلى الصدوق بإسناده عن وهب بن منبه، عن ابن عباس قال: (إن يوشع بن نون بوأ بني إسرائيل الشام بعد موسى عليه السلام) وقسمها بينهم فصار منهم سبط ببعلبك بأرضها، وهو السبط الذي منه إلياس النبي، فبعثه الله إليهم وعليهم يومئذ ملك فنتهم بعبادة صنم يقال له بعل، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ، فَكَذَّبُوهُ﴾^(٢). وكان للملك زوجة فاجرة يستخلفها إذا غاب فتقضي بين الناس، وكان لها كاتب حكيم قد خلص من يدها ثلاث مائة مؤمن كانت تريد قتلهم، ولم يعلم على وجه الأرض أنثى أزنى منها، وقد تزوجت سبعة ملوك من بني إسرائيل حتى ولدت تسعين ولداً سوى ولد ولدها، وكان لزوجها جار صالح من بني إسرائيل، وكان له بستان يعيش به إلى جانب قصر الملك، وكان الملك يكرمه، فسافر مرة فاغتصمت امرأته وقتلت العبد الصالح وأخذت بستانه غصباً من أهله وولده،

١. الكليني: الأصول من الكافي، ج ١، ص ٢٤٢ - ٢٤٧.

٢. القرآن الكريم: سورة الصافات: ١٢٣-١٢٧.

وكان ذلك سبب سخط الله عليهم، فلما قدم زوجها أخبرته الخبر فقال لها: ما أصبت، فبعث الله إلياس النبي يدعوهم إلى عبادة الله فكذبوه وطردوه وأهانوه وأخافوه، وصبر عليهم واحتمل أذاهم ودعاهم إلى الله «عز وجل» فلم يزداهم إلا طغياناً، فألى الله على نفسه أن يهلك الملك والزانية إن لم يتوبوا إليه، وأخبرهما بذلك، فاشتد غضبهم عليه وهموا بتعذيبه وقتله، فهرب منهم فلحق بأصعب جبل فبقي فيه وحده سبع سنين، يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر، والله يُخفي مكانه، فأمرض الله ابناً للملك مرضاً شديداً حتى يئس منه، وكان أعز ولده إليه، فاستشفعوا إلى عبدة الصنم ليستشفعوا له فلم ينفع، فبعثوا الناس إلى حد الجبل الذي فيه إلياس «عليه السلام» فكانوا يقولون: اهبط إلينا واشفع لنا، فنزل إلياس من الجبل وقال: إن الله أرسلني إليكم وإلى من وراءكم، فاسمعوا رسالة ربكم، يقول الله: ارجعوا إلى الملك فقولوا له: إني أنا الله لا إله إلا أنا إله بني إسرائيل الذي خلقهم، وأنا الذي أرزقهم وأحييهم وأميتهم وأضرهم وأنفعهم، وتطلب الشفاء لابنك من غيري؟ فلما صاروا إلى الملك وقصوا عليه القصة امتلاً غيظاً فقال: ما الذي منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوثقوه وتأتونني به فإنه عدوي؟ قالوا: لما صار معنا قذف في قلوبنا الرعب عنه، فندب خمسين من قومه من ذوي البطش وأوصاهم بالاحتيال له وإطاعه في أنهم آمنوا به ليغتر بهم فيمكنهم من نفسه، فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس «عليه السلام» ثم تفرقوا فيه وهم ينادونه بأعلى صوتههم ويقولون: يا نبي الله ابرز لنا فإننا آمنّا بك، فلما سمع إلياس مقاتلتهم طمع في إيمانهم فكان في مغارة فقال: اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في النزول إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم، فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فاحترقوا، فبلغ الملك خبرهم فاشتد غيظه فانتدب كاتب امرأته المؤمن وبعث معه جماعة إلى الجبل وقال له: قد آن أن أتوب، فانطلق لنا إليه حتى يرجع إلينا يأمرنا وينهانا بما يرضي ربنا، وأمر قومه فاعتزلوا الأصنام، فانطلق كاتبها والفئة الذين أنفذهم معه حتى علا الجبل

الذي فيه إلياس، ثم ناداه فعرف إلياس صوته فأوحى الله «عز وجل» إليه: أن ابرز إلى أخيك الصالح وصافحه وحيّه. فقال المؤمن: بعثني إليك هذا الطاغي وقومه، وقص عليه ما قالوا، ثم قال: وإني لخائف إن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني، فأوحى الله «عز وجل» إلى إلياس: إن كل شئ جاءك منهم خداع ليظفروا بك، وإني أشغله عن هذا المؤمن بأن أميت ابنه، فلما قدموا عليه شد الله الوجود على ابنه وأخذ الموت بكظمه ورجع إلياس سالماً إلى مكانه، فلما ذهب الجزع عن الملك بعد مدة سأل الكاتب على الذي جاء به، فقال: ليس لي به علم. ثم إن إلياس «عليه السلام» نزل واستخفى عند أم يونس بن متى ستة أشهر ويونس مولود، ثم عاد إلى مكانه فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات ابنها حين فطمته فعظمت مصيبتها فخرجت في طلب إلياس ورقت الجبال حتى وجدت إلياس فقالت: إني فجعت بموت ابني وألهمني الله تعالى عز وعلا الاستشفاع بك إليه ليحيي لي ابني فإنني تركته بحاله ولم أدفنه وأخفيت مكانه، فقال لها: ومتى مات ابنك؟ قالت: اليوم سبعة أيام، فانطلق إلياس وسار سبعة أيام أخرى حتى انتهى إلى منزلها، فرفع يديه بالدعاء واجتهد حتى أحيا الله «عز وجل» جلت عظمته بقدرته يونس «عليه السلام» فلما عاش انصرف إلياس، ولما صار ابن أربعين سنة أرسله الله إلى قومه كما قال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١). ثم أوحى الله «عز وجل» إلى إلياس بعد سبع سنين من يوم أحيا الله يونس: سلمي أعطك. فقال: تميتني فتلحقني بأبائي فإنني قد مللت بني إسرائيل وأبغضتهم فيك، فقال تعالى جلت قدرته: ما هذا باليوم الذي أعري منك الأرض وأهلها، وإنما قوامها بك، ولكن سلمي أعطك. فقال إلياس: فأعطني ثاري من الذين أبغضوني فيك، فلا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتي. فاشتد على بني إسرائيل الجوع وألح عليهم البلاء، وأسرع الموت فيهم، وعلموا أن ذلك من دعوة إلياس، ففزعوا إليه وقالوا: نحن طوع يدك، فهبط إلياس معهم ومعه تلميذ له اليسع وجاء إلى الملك فقال: أفنيت بني إسرائيل بالقحط، فقال: قتلهم الذي

أغواهم، فقال: ادع ربك يسقيهم، فلما جن الليل قام إلياس «عليه السلام» ودعا الله، ثم قال ليسع: انظر في أكناف السماء ماذا ترى؟ فنظر فقال: أرى سحابة. فقال: أبشروا بالسقاء، فليحرزوا أنفسهم وأمتعتهم من الغرق، فأمطر الله عليهم السماء وأنبت لهم الأرض، فقام إلياس بين أطهرهم وهم صالحون، ثم أدركهم الطغيان والبطر فجهدوا حقه وتمردوا، فسلط الله عليهم عدوا قصدهم ولم يشعروا به حتى رهقهم، فقتل الملك وزوجته وألقاهما في بستان الذي قتلته زوجة الملك، ثم وصى إلياس إلى اليسع وأنبت الله لإلياس الريش وألبسه النور ورفعاه إلى السماء، وقذف بكسائه من الجو على اليسع، فنبأه الله على بني إسرائيل وأوحى إليه وأيده، فكان بنو إسرائيل يعظمونه ويهتدون بهداه^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند ومن الإسرائيليات لأن راويها وهب بن منبه.

٤. وفي كتاب قصص الأنبياء أيضاً رواية لا تتضمن شيئاً مريباً، والسند كالتالي: الصدوق، عن أبيه، عن سعد، عن أحمد بن الحسن، عن عمرو ابن سعيد، عن مصدق، عن عمار، عن الصادق «عليه السلام» قال: (كان في زمان بني إسرائيل رجل يسمى إليا رئيس على أربع مائة من بني إسرائيل، وكان ملك بني إسرائيل هوى امرأة من قوم يعبدون الأصنام من غير بني إسرائيل فخطبها، فقالت: علي أن أحمل الصنم فأعبده في بلدتك، فأبى عليها ثم عاودها مرة بعد مرة حتى صار إلى ما أرادت فحولها إليه ومعها صنم، وجاء معها ثمان مائة رجل يعبدونه، فجاء إليا إلى الملك فقال: ملكك الله ومد لك في العمر فطغيت وبغيت! فلم يلتفت إليه فدعا الله إليا أن لا يسقيهم قطرة، فنالهم قحط شديد ثلاث سنين حتى ذبحوا دوابهم فلم يبق لهم من الدواب إلا برزون يركبه الملك، وآخر يركبه الوزير، وكان قد استتر عند الوزير أصحاب إليا يطعمهم في سرب، فأوحى الله تعالى جل ذكره إلى إليا: تعرّض للملك فإني أريد أن أتوب عليه، فأتاه فقال: يا إليا ما صنعت بنا؟ قتلت بني إسرائيل، فقال إليا: تطيعني فيما أمرك به؟ فأخذ عليه العهد، فأخرج

١. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ٢٥٠.

أصحابه وتقربوا إلى الله (عز وجل) بثورين، ثم دعا بالمرأة فذبحها وأحرق الصنم وتاب الملك توبة حسنة حتى لبس الشعر وأرسل إليه المطر والخصب^(١). تقييم السند: في تصحيح سندها اختلاف.

٥ - وفي التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري (عليه السلام): قال رسول الله صلى الله عليه وآله، لزيد بن أرقم: (إذا أردت أن يؤمنك الله من الغرق والحرق والشرق فقل إذا أصبحت: بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، بسم الله ما شاء الله ما يكون من نعمة فمن الله، بسم الله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بسم الله ما شاء الله صلى الله على محمد وآله الطيبين. فإن من قالها ثلاثاً إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والشرق حتى يمسي، ومن قالها ثلاثاً إذا أمسى أمن من الحرق والغرق والشرق حتى يصبح، وإن الخضر وإلياس (عليهما السلام) يلتقيان في كل موسم فإذا تفرقا عن هذه الكلمات^(٢)). تقييم السند: لم تثبت نسبة الكتاب إلى الإمام العسكري (عليه السلام).

٦ - وفي بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار، عن محمد بن الحسين، عن أحمد بن الحسن الميثمي، عن أبان بن عثمان، عن موسى النميري قال: (جئت إلى باب أبي جعفر (عليه السلام) لأستأذن عليه، فسمعنا صوتاً حزيناً يقرأ بالعبرانية، فبكينا حيث سمعنا الصوت، وظننا أنه بعث إلى رجل من أهل الكتاب يستقرءه، فأذن لنا فدخلنا عليه فلم نر عنده أحداً، فقلنا: أصلحك الله سمعنا صوتاً بالعبرانية فظننا أنك بعثت إلى رجل من أهل الكتاب تستقرؤه، قال: لا، ولكن ذكرت مناجاة إلهيا لربه فبكيت من ذلك، قال: قلنا: وما كان مناجاته جعلني الله فداك؟ قال: جعل يقول: يا رب أترك معذبي بعد طول قيامي لك؟ أترك معذبي بعد طول صلاتي لك؟ وجعل يعدد أعماله، فأوحى الله إليه: إني لست أعذبك،

١. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ٢٤٢.

٢. الإمام العسكري: تفسير القرآن، ص ١٩.

قال: فقال: يا رب وما يمنحك أن تقول لا بعد نعم وأنا عبدك وفي قبضتك؟ قال: فأوحى الله إليه: إني إذا قلت قولاً وفيت به^(١). وهذه الرواية قريبة المضمون من الرواية الأولى للكليني. تقييم السند: الرواية ضعيفة السند إذ لم تثبت نسبة النسخ المتوفرة من الكتاب لمؤلفها.

٧- في مناقب آل أبي طالب: (روي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله، سمع صوتاً من قلة جبل: اللهم اجعلني من الأمة المرحومة المغفورة، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا بشيخ أشيب، قامته ثلاث مائة ذراع، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله، عانقه، ثم قال: إنني آكل في كل سنة مرة واحدة وهذا أوانه، فإذا هو بمائدة أنزلت من السماء فأكلا، وكان إلياس عليه السلام^(٢)). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند ومرسلة.

٨- وروى الثعلبي عن رجل من أهل عسقلان: (أنه كان يمشي بالأردن عند نصف النهار، فرأى رجلاً فقال: يا عبد الله من أنت؟ فجعل لا يكلمني، فقلت: يا عبد الله من أنت؟ قال: أنا إلياس، قال: فوقع علي رعدة فقلت: ادع الله أن يرفع عني ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك، قال: فدعا لي بثمان دعوات: يا بر يا رحيم يا حنان يا منان يا حي يا قيوم. ودعوتين بالسريانية فلم أفهمهما، فرفع الله عني ما كنت أجد، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فقلت له: يوحى إليك اليوم؟ قال: منذ بُعث محمد رسولاً فإنه ليس يوحى إلي، قال: قلت له: فكلم من الأنبياء اليوم أحياء؟ قال: أربعة: اثنان في الأرض واثنان في السماء، ففي السماء عيسى وإدريس عليهما السلام، وفي الأرض إلياس والخضر عليهما السلام، قلت: كم الأبدال؟ قال: ستون رجلاً: خمسون منهم من لدن عريش المصر إلى شاطئ الفرات، ورجلان بالمصيصة، ورجل بعسقلان، وسبعة في سائر البلاد، وكلما أذهب الله عز وجل، بواحد منهم جاء سبحانه بآخر، بهم يدفع الله عن الناس

١. الصفار: بصائر الدرجات، ص ٩٩.

٢. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١١٨-١١٩.

البلاء، وبهم يمطرون، قلت: فالخضر أنى يكون؟ قال: في جزائر البحر، قلت: فهل تلقاه؟ قال: نعم، قلت: أين؟ قال: بالموسم، قلت: فما يكون من حديثكما؟ قال: يأخذ من شعري وأخذ من شعره، قال: وذلك حين كان بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال، فقلت: فما تقول في مروان بن الحكم؟ قال: ما تصنع به؟ رجل جبار عات على الله (عز وجل)، القاتل والمقتول والشاهد في النار، قلت: فإني شهدت فلم أظعن برمح ولم أرم بسهم ولم أضرب بسيف وأنا أستغفر الله (عز وجل) من ذلك المقام لن أعود إلى مثله أبداً، قال: أحسنت، هكذا فكن، فإني وإياه قاعدان إذ وضع بين يديه رغيفان أشد بياضاً من الثلج فأكلت أنا وهو رغيفاً وبعض آخر، ثم رفع فما رأيت أحداً وضعه ولا أحداً رفعه، وله ناقة ترعى في واد الأردن، فرفع رأسه إليها فما دعاها حتى جاءت فبركت بين يديه فركبها، قلت: أريد أن أصحبك، قال: إنك لا تقدر على صحبتي، قال: قلت: إني خلق مالي زوجة ولا عيال، فقال: تزوج وإياك والنساء الأربع: إياك والناشزة والمختلة والملاعنة والمبارئة، وتزوج ما بدا لك من النساء، قال: قلت: إني أحب لقاءك، قال: إذا رأيته فقد رأيته، ثم قال لي: إني أريد أن أعتكف في بيت المقدس في شهر رمضان، ثم حالت بيني وبينه شجرة فوالله ما أدري كيف ذهب^(١). تقييم السند: رواية مرسله لأنها مجهولة الراوي.

❖ إيليا في كلمات العلماء:

قال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره: (كلام في قصة إيلياس «عليه السلام»:

أ. قصته في القرآن: لم يذكر اسمه «عليه السلام» في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع وفي سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء حيث قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢). ولم يذكر «عز وجل» من قصته في هذه السورة إلا أنه كان يدعو إلى عبادة الله «عز وجل» قوماً كانوا يعبدون بعلأ فآمن به

١. الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج ٨، ص ١٦٨.

٢. القرآن الكريم: سورة الأنعام: ٨٥.

وأخلص الإيمان قوم منهم، وكذّبه آخرون وهم جُل القوم وإنهم لمحضرون. وقد أثنى الله «عز وجل» عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامة وأثنى عليه في هذه السورة - الصافات - بأنه من عباده المؤمنين المحسنين وحياه بالسلام بناء على القراءة المشهورة ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾.

ب - الأحاديث فيه: ورد فيه «عليه السلام» أخبار مختلفة متهافئة كغالب الأخبار الواردة في قصص الأنبياء الحاكية للعجائب كالذي روي عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس، وما عن ابن عباس عن النبي «صلى الله عليه وآله»: أن الخضر هو إلياس، وما عن وهب وكعب الأحبار وغيرهما أن إلياس حي لا يموت إلى النفخة الأولى، وما عن وهب أن إلياس سأل الله أن يريحه من قومه فأرسل الله إليه دابة كهيئة الفرس في لون النار فوثب إليه فانطلق به فكساه الله الريش والنور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فصار في الملائكة، وما عن كعب الأحبار أن إلياس صاحب الجبال والبر وأنه الذي سماه الله بذئ النون، وما عن الحسن أن إلياس موكل بالفياء في والخضر موكل بالجبال، وما عن أنس أن إلياس لاقى النبي «صلى الله عليه وآله» في بعض أسفاره فقعدا يتحدثان ثم نزل عليهما مائدة من السماء فأكلا وأطعماني ثم ودعه وودعني ثم رأيته مر على السحاب نحو السماء إلى غير ذلك. وفي بعض أخبار الشيعة أنه «عليه السلام» حي مخلد لكنها ضعاف، وظاهر آيات القصة لا يساعد عليه. وفي البحار في قصة إلياس «عليه السلام» عن قصص الأنبياء بالإسناد عن الصدوق بإسناده إلى وهب بن منبه، ورواه الثعلبي في العرائس عن ابن إسحاق وعلماء الأخبار أبسط منه، والحديث طويل جداً، وملخصه أنه بعد انشعاب ملك بني إسرائيل وتقسمة بينهم سار سبط منهم إلى بعلبك وكان لهم ملك منهم يعبد صنما اسمه بعل ويحمل الناس على عبادته. وكانت له امرأة فاجرة قد تزوجت قبله بسبعة من الملوك وولدت تسعين ولداً سوى أبناء الأبناء، وكان الملك يستخلفها إذا غاب فتقضي بين الناس، وكان له كاتب مؤمن حكيم قد خلص من يدها ثلاث مائة مؤمن تريد قتله، وكان في جوار قصر الملك رجل مؤمن له بستان وكان الملك يحترم

جواره ويكرمه. ففي بعض ما غاب الملك قتلت المرأة الجار المؤمن وغصبت بستانه فلما رجع وعلم به عاتبها فاعتذرت إليه وأرضته فألى الله «عز وجل» على نفسه أن ينتقم منهما إن لم يتوبا فأرسل إليهم إيلياس «عليه السلام» يدعوهم إلى عبادة الله وأخبرهما بما آلى الله فاشتد غضبهم عليه وهموا بتعذيبه وقتله فهرب منهم إلى أصعب جبل هناك فلبث فيه سبع سنين يعيش بنبات الأرض وثمار الشجر. فأمرض الله ابنا للملك يحبه حباً شديداً فاستشفع ببعل فلم ينفعه فقبل له: إنه غضبان عليك إن لم تقتل إيلياس فأرسل إليه فئة من قومه ليخدعوه ويقبضوا عليه فأرسل الله إليهم نارا فأحرقتهم ثم أرسل إليه فئة أخرى من ذوي البأس مع كاتبه المؤمن فذهب معه إيلياس صونا له من غضب الملك لكن الله «عز وجل» أمات ابنه فشغله حزنه عن إيلياس فرجع سالماً. ثم لما طال الأمر نزل إيلياس من الجبل واستخفى عند أم يونس بن متى في بيتها ويونس طفل رضيع ثم خرج بعد ستة أشهر إلى الجبل ثانياً واتفق أن مات بعده يونس ثم أحياه الله بدعاء إيلياس بعد ما خرجت أمه في طلبه فوجدته فتضرعت إليه. ثم إنه سأل الله أن ينتقم له من بني إسرائيل ويمسك عنهم الأمطار فأجيب وسلط الله عليهم القحط فأجهدوا سنين فندموا فجاءه فتابوا وأسلموا فدعا الله فأرسل عليهم المطر فسقاهم وأحيا بلادهم. فشكوا إليه هدم الجدران وعدم البذر من الحبوب فأوحى إليه أن يأمرهم أن ييذروا الملح فأنبت لهم الحمص وأن ييذروا الرمل فأنبت لهم منه الدخن. ثم لما كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد وعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه فأمل ذلك إيلياس فدعا الله أن يريجه منهم فأرسل الله إليه فرساً من نار فوثب عليه إيلياس فرفعه الله إلى السماء وكساه الريش والنور فكان مع الملائكة. ثم سلط الله على الملك وامراته عدوا فقصدتهما وظهر عليهما فقتلتهما وألقى جيفتهما في بستان ذلك الرجل المؤمن الذي قتلاه وغضبوا بستانه. وأنت بالتأمل فيما تقصه الرواية لا ترتاب في ضعفها^(١).

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ١٥٩-١٦١.

وكتب العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حول هذا النبي قائلاً: (من هو إيلياس؟ لا يوجد أي شك في أن إيلياس هو أحد أنبياء الله الكبار، وآيات بحثنا تصرح بهذا الأمر، قال (عز وجل): ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١). اسم نبي الله إيلياس جاء في آيتين من آيات القرآن المجيد، الأولى في هذه السورة، أي سورة الصافات، والثانية في سورة الأنعام الآية ٨٥ إذ ذكر اسمه مع مجموعة أخرى من الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وأبدى المفسرون وجهات نظر متعددة بشأن إيلياس، إذ أن البعض تساءل هل أن اسم إيلياس هو اسم ثان لنبي واحد، أم أنه يتعلق بنبي ليس له اسم ثان، وما هي صفات وخصائص هذا النبي؟ للإجابة على هذه التساؤلات نستعرض وجهات النظر المتعددة تلك:

أ - يعتقد البعض أن إيلياس هو إدريس لأن كلمة إدريس، تلفظ إدراس، وبعد أن طرأت عليها تغيرات بسيطة أضحت إيلياس.

ب - إيلياس هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو ابن «ياسين» أحد أحفاد هارون أخي نبي الله موسى (عليه السلام).

ج - مجموعة من المفسرين اعتبرت إيلياس هو الخضر. في حين أعربت مجموعة أخرى عن اعتقادها في أن إيلياس هو صديق الخضر، وكلاهما ما زال حياً، وأن إيلياس موكل بالفيافي، والخضر موكل بالبحار والجزر. ومجموعة ثالثة أكدت على أن إيلياس موكل بالصحاري والخضر موكل بالجبال، ويقولون بخلود الإثنين. والبعض يرى أن إيلياس ابن «اليسع».

د - إيلياس هو نفسه «إيليا» نبي بني إسرائيل الذي عاصر الملك «آخاب» والذي أرسله الباري (عز وجل) لإنذار وهداية «آخاب» الطاغية المتجبر. وقال البعض: إنه يحيى معمدان المسيح.

١. القرآن الكريم: سورة الصافات : ١٢٣.

ولكن الذي يتناسب وظاهر آيات القرآن الكريم هو أن هذا الاسم اسم أحد أنبياء الله غير تلك الأسماء التي وردت في القرآن المجيد، وأنه بعث لهداية قوم يعبدون الأصنام، فكذبه أكثر القوم، عدا مجموعة من المؤمنين المخلصين الذين صدقوه. وكما أشرنا سابقاً فإن البعض يعتقد بأنه بعث إلى بلاد الشام، استناداً إلى اسم الصنم «بعل» الذي كان يعبده القوم الموجودون في تلك المنطقة، وهي «بعلبك» التي هي اليوم إحدى مدن لبنان وتقع قرب الحدود السورية.

على أية حال، فقد وردت قصص مختلفة في الكتب بشأن هذا النبي، ولأنها غير معتمدة وموثوقة فقد صرف النظر عنها^(١).

❖ من هو النبي الإشع؟

أما صاحبه الإشع «= اليسع = يشوع = يوشع» والذي سيرد ذكره في تفاصيل القصة المرتقبة، فهو نبي ووصي إلياس وفق العهد القديم، فقد جاء أن الله «عز وجل» أمر إلياس بأن يعلن الإشع نبياً خلفاً له: (وكذلك امسح الإشع بن شافاط من آبل محولة نبياً خلفاً لك)^(٢).

ثم يتحدث سفر الملوك عن الأيام الأخيرة من وجود النبي إيليا على الأرض وانتقال مسؤولية النبوة، وهو ما سنذكره في الصفحة التالية ضمن تفاصيل أحداث قصة الرحلة.

ولن نستغرق كثيراً في تفاصيل شخصية النبي الإشع لأنه ليس الشخصية المحورية في البحث.

❖ أحداث قصة الرحلة:

نعود الآن إلى النقطة الأهم في الموضوع، وهي تفاصيل القصة التي تحكي ما جرى في رحلة النبي إيليا والنبي الإشع كما جاءت في العهد القديم وفي كتب اليهود

١. الشيرازي: الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٣٩٠-٣٩١.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، الملوك الأول: الإصحاح ١٩.

الأخرى، والتي قد نجد في إطارها العام تشابهاً مع قصة العبد الصالح والنبي موسى في القرآن الكريم.

فبعد أن تذكر نصوص سفر الملوك الأول تفاصيل أحداث صراع النبي إلياس مع الكهنة والمشركين من أتباع الإله «بعل» وخروجه من عندهم، تقول: (فذهب من هناك ووجد اليشع بن شافاط يحرق واثنا عشر فدان بقدر قدميه، وهو مع الثاني عشر، فمرّ إلياس به وطرح رداءه عليه، فترك البقر وركض وراء إلياس وقال: دعني أقبل أبي وأمي وأسير وراءك. فقال له: اذهب راجعاً لأنني ماذا فعلت لك؟ فرجع من ورائه وأخذ فدان بقدر وذبجهما، وسلق اللحم بأدوات البقر، وأعطى الشعب فأكلوا. ثم قام ومضى وراء إلياس وكان يخدمه)^(١).

وتدخل القصة في بعض تفاصيل الصراع اللاحق مع الملك أخاب إلى هلاكه، ثم تتحدث عن تفاصيل رحلة النبي إلياس مع وصيه النبي اليشع: (إلياس واليشع ذهبا من الجلجال، فقال إلياس لأليشع: امكث هنا لأن الرب قد أرسلني إلى بيت إيل. فقال اليشع: حيّ هو الرب وحية هي نفسك، إني لا أتركك. ونزلا إلى بيت إيل. فخرج بنو الأنبياء - ذرية الأنبياء - الذين في بيت إيل إلى اليشع وقالوا له: أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك؟ فقال: نعم، إني أعلم فاصمتوا. ثم قال له إلياس: يا اليشع امكث هنا لأن الرب قد أرسلني إلى أريحا. فقال: حيّ هو الرب وحية هي نفسك، إني لا أتركك. وأتيا إلى أريحا. فتقدم بنو الأنبياء الذين في أريحا إلى اليشع وقالوا له: أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك؟ فقال: نعم إني أعلم فاصمتوا. ثم قال له إلياس: امكث هنا لأن الرب قد أرسلني إلى الأردن. فقال: حيّ هو الرب وحية هي نفسك، إني لا أتركك. وانطلقا كلاهما. فذهب خمسون رجلاً من بني الأنبياء ووقفوا قبالتهم من بعيد. ووقف كلاهما بجانب الأردن. وأخذ إلياس رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس. ولما عبرا قال إلياس لأليشع: اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أؤخذ منك. فقال اليشع:

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، الملوك الأول: الإصحاح ١٩ : ١٩ - ٢١ .

ليكن نصيب اثنين من روحك عليّ. فقال: صعبت السؤال. فإن رأيتني أؤخذ منك يكون لك كذلك، وإلا فلا يكون. وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء. وكان الإشع يرى وهو يصرخ: يا أبي، يا أبي، مركبة إسرائيل وفرسانها. ولم يره بعد. فأمسك ثيابه ومزّقها قطعتين. ورفع رداء إيليا الذي سقط عنه ورجع ووقف على شاطئ الأردن. فأخذ رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال: أين هو الرب إله إيليا؟ ثم ضرب الماء أيضاً فانطلق إلى هنا وهناك فعبّر الإشع. ولما رآه بنو الأنبياء الذين في أريحا قبائلته قالوا: قد استقرت روح إيليا على الإشع. فجاءوا للقاءه وسجدوا له إلى الأرض وقالوا له: هو ذا مع عبيدك خمسون رجلاً ذوّو بأس فدعهم يذهبون ويفتشون على سيدك لئلا يكون قد حمّله روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو في أحد الأودية. فقال: لا ترسلوا. فألحّوا عليه حتى خجل وقال: أرسلوا. فأرسلوا خمسين رجلاً ففتشوا ثلاثة أيام ولم يجدوه. ولما رجعوا إليه وهو ماكث في أريحا قال لهم: أما قلت لكم لا تذهبوا؟^(١).

إلى هنا لا يجد القارئ أي أمر يمكن أن يكون حدثاً مشابهاً لقصة موسى مع العبد الصالح، ومرافقة الإشع لإيليا في سفره لا تشتمل على أحداث قريبة من مقصدنا، إلا أن في التراث اليهودي خارج نطاق العهد القديم بعض التفاصيل الأخرى للرحلة، وهذا ما أشار إليه البروفيسور لويس جنزبيرغ^(٢) «١٨٧٣-١٩٥٣» المتخصص في التلموديات والدراسات اليهودية حين ترجم كتب التلمود^(٣) من العبرية إلى الإنجليزية ونشرها بين السنوات ١٩٠٩-١٩٣٨ في كتابه الموسوعي

١. الكتاب المقدس : العهد القديم، الملوك الثاني: الإصحاح ٢ : ١-١٨ .

٢. Louis Ginzberg.

٣. التلمود (= Thelmod) من جذر (למד = لمد) وتعني تعلّم وعرف ودرس، فتلمود تعني دراسة وهي قريبة من لفظة (تلميذ)، ويتكوّن التلمود من محورين رئيسين: المشناه والجمارا، أما المشناه فهي الشريعة النقلية الشفوية، ويزعم اليهود أنها منقولة عن النبي موسى، وهي تتكوّن من ستة مباحث. ولفظة مشناه مشتقة من جذر (נשן = شنه)، وتعني (تثّى) بالعربية وراجع وأعاد. وأما الجمارا فهي نقاشات حول المشناه. وعند اليهود التلمود البابلي والأورشليمي. انتهت كتابة التلمود في القرن ٦م.

«أساطير اليهود = Legends of the Jews» في ستة أجزاء، وجاء فيه ما ترجمته عن الإنجليزية: (من بين الكثير والمختلف من التعاليم التي قدّمها إيليا إلى أصحابه، ليس هنالك تعاليم أكثر أهمية من فصل الله في حكمه^(١)، التعاليم التي تدافع عن عدالة الله في تدبير الشؤون الأرضية. لقد كان يستخدم كل فرصة ليبين ذلك بالنصيحة والمثال. في إحدى المرات، قدم لصاحبه الرابي يوشع بن لاوي «= اليسع = اليسع = يشوع» فرصة تنفيذ أي رغبة يتمناها، وكل ما طلبه الرابي هو أن يسمح له بمرافقة إيليا في جولاته في أرجاء العالم. كان إيليا مستعداً لتنفيذ هذه الأمنية، ولكنه وضع شرطاً واحداً فقط، هو أن على الرابي، مهما رأى أن تصرفات إيليا غريبة، أن لا يسأل عن أي تفسير لها. فإن خالف ذلك، فإنهما سيفترقان. فانطلق إيليا والرابي سوياً، وارتحلا حتى بلغا منزل رجل فقير لم يكن يمتلك من حطام الدنيا سوى بقرة. كان الرجل وزوجته طيبا القلب بصورة كبيرة، فاستقبلا السائحين بترحيب ودّي، ودعياهما إلى منزلهما وقدا لهما الطعام والشراب من أفضل ما يمتلكان وأعدا أريكة مريحة لنامهما. وفي اليوم التالي، وبينما استعد إيليا والرابيني للاستمرار في ترحالهما، دعا إيليا لكي ما تموت بقرة مضيفهما. وقبل أن يغادرا المنزل نفقت البقرة. صُدم الرابيني يوشع من سوء الحظ الذي نال هذه العائلة الطيبة، وكاد أن يفقد صوابه. وفكّر: أهذا جزاء الرجل الفقير على كل ما قدمه لنا؟ ولم يستطع منع نفسه من توجيه السؤال لإيليا. ولكن إيليا ذكره بالشرط المفروض والمتفق عليه في بداية رحلتها، فاستمرا بالترحال من دون أن يقل فضول الرابي. وفي تلك الليلة بلغا منزل رجل ثري لم يراع الأدب فلم يكلف نفسه عناء النظر إلى وجهيهما. ومع أنهما أمضيا تلك الليلة في بيته إلا أنه لم يقدم لهما الطعام أو الشراب. كان ذلك الرجل راغباً في ترميم حائط كان آيلاً للسقوط. ولكنه لم يعد مضطراً لبذل أي مجهود لإعادة بنائه، وذلك لأنه

عندما غادر إيليا المنزل دعا لكي ما يعتدل الجدار من ذاته، فاعتدل! دهش الربيني يوشع بشدة، ولكنه استجابة للوعد الذي قطعه، كبت السؤال الذي كان على طرف لسانه. وهكذا استمر الإثنين في ترحالهما، حتى وصلا إلى كنيس مزين كانت مقاعده مصنوعة من الذهب والفضة. ولكن المتعبين فيه لم يكونوا متناغمين مع روعة البناء، وذلك لأنه عندما وصل الأمر إلى الإيفاء باحتياج الزائرين المرهقين، قال أحد الحضور: ليس هنالك قطرة ماء أو كسرة خبز، ويستطيع المسافران الغريبان أن يبيتا في الكنيس ريثما تجلب لهما الوجبات الخفيفة. وفي الصباح الباكر لليوم التالي عندما كانا على وشك المغادرة تمنى إيليا لهؤلاء الذين كانوا موجودين في الكنيس ساعة دخولهما إليه، أن يجعل الله منهم - جميعاً - قادة. وثانية اضطر الربيني يوشع أن يتحلى بأقصى قدر من ضبط النفس، وأن لا يطرح السؤال الذي كان يثور في نفسه. في البلدة التالية، استقبلا بود كبير، و تمت ضيافتهما - بوفرة - بكل ما اشتهدت أبدانهما المتعبة. وعند المغادرة دعا إيليا لهؤلاء المضيفين الكرماء بأن يرزقهم الله رأساً واحداً فقط. هنا لم يتمالك الرباني نفسه أكثر، وطلب تفسيراً لتصرفات إيليا الغريبة. رضي إيليا بأن يوضح أسباب تصرفاته أمام يوشع قبل أن يفترقا عن بعضهما. وتحدث كما يلي: قُتلت بقرة الرجل الفقير لأنني علمت أنه قد قُدر في السماء موت زوجته في نفس اليوم، فدعوت الله لكي يرضى بفقدان الرجل ما يمتلكه بدلاً عن زوجته. أما بالنسبة للرجل الغني، فقد كان هنالك كنز مخبأ تحت الحائط الآيل للسقوط، و لو أنه بناه فإنه كان سيجد الذهب، ولهذا أقمت الحائط بصورة إعجازية لحرمان الرجل البخيل من هذه اللقية الثمينة. وتمنيت أن يكون للقوم غير المضيفين المجتمعين في الكنيس قادة عديدين، لأن الدمار مقدّر سلفاً لأي موضع فيه رؤساء عديدين بسبب كثرة المداولة والخلافات. وفي المقابل بالنسبة فقد تمنيت لقاطني آخر موضع في رحلتنا أن تكون لهم قيادة واحدة، لأنه إن قاد شخص واحد بلدة فسيحالفها النجاح في كل ما تقوم به. لهذا فاعلم أنك

إن رأيت شخصاً أثيماً تزدهر أعماله، فإن هذا ليس لمصلحته دائماً، وإن عانى رجل صالح من الحاجة والضييق، فلا تظن أن الله غير عادل. ومع هذه الكلمات افترق إيليا ويوشع عن بعضهما، وذهب كل منهما في حال سبيله. كم هو عسير أن نصدر حكماً صحيحاً من دون الاعتماد على شئ -كدليل- سوى المظاهر الخارجية^(١).

والنص باللغة الإنجليزية كالتالي:

Among the many and various teachings dispensed by Elijah to his friends, there are none so important as his theodicy, the teachings vindicating God's justice in the administration of earthly affairs. He used many an opportunity to demonstrate it by precept and example. Once he granted his friend Rabbi Joshua ben Levi the fulfilment of any wish he might express, and all the Rabbi asked for was, that he might be permitted to accompany Elijah on his wanderings through the world. Elijah was prepared to gratify this wish. He only imposed the condition, that, however odd the Rabbi might think Elijah's actions, he was not to ask any explanation of them. If ever he demanded why, they would have to part company. So Elijah and the Rabbi fared forth together, and they journeyed on until they reached the house of a poor man, whose only earthly possession was a cow. The man and his wife were thoroughly good-hearted people, and they received the two wanderers with a cordial welcome. They invited the strangers into their house, set before them food and drink of the best they had, and made up a comfortable couch for them for the night. When Elijah and the Rabbi were

1. www.sacred-texts.com

ready to continue their journey on the following day, Elijah prayed that the cow belonging to his host might die. Before they left the house, the animal had expired. Rabbi Joshua was so shocked by the misfortune that had befallen the good people, he almost lost consciousness. He thought: "Is that to be the poor man's reward for all his kind services to us?" And he could not refrain from putting the question to Elijah. But Elijah reminded him of the condition imposed and accepted at the beginning of their journey, and they travelled on, the Rabbi's curiosity unappeased. That night they reached the house of a wealthy man, who did not pay his guest the courtesy of looking them in the face. Though they passed the night under his roof, he did not offer them food or drink. This rich man was desirous of having a wall repaired that had tumbled down. There was no need for him to take any steps to have it rebuilt, for, when Elijah left the house, he prayed that the wall might erect itself, and, lo! it stood upright. Rabbi Joshua was greatly amazed, but true to his promise he suppressed the question that rose to his lips. So the two travelled on again, until they reached an ornate synagogue, the seats in which were made of silver and gold. But the worshippers did not correspond in character to the magnificence of the building, for when it came to the point of satisfying the needs of the way-worn pilgrims, one of those present said: "There is not dearth of water and bread, and the strange travellers can stay in the synagogue, whither these refreshments can be brought to them." Early the next morning, when they were departing, Elijah wished those present in the synagogue in which they had lodged, that God might raise them all to be "heads." Rabbi Joshua again had to exercise great

self-restraint, and not put into words the question that troubled him profoundly. In the next town, they were received with great affability, and served abundantly with all their tired bodies craved. On these kind hosts Elijah, on leaving, bestowed the wish that God might give them but a single head. Now the Rabbi could not hold himself in check any longer, and he demanded an explanation of Elijah's freakish actions. Elijah consented to clear up his conduct for Joshua before they separated from each other. He spoke as follows: "The poor man's cow was killed, because I knew that on the same day the death of his wife had been ordained in heaven, and I prayed to God to accept the loss of the poor man's property as a substitute for the poor man's wife. As for the rich man, there was a treasure hidden under the dilapidated wall, and, if he had rebuilt it, he would have found the gold; hence I set up the wall miraculously in order to deprive the curmudgeon of the valuable find. I wished that the inhospitable people assembled in the synagogue might have many heads, for a place of numerous leaders is bound to be ruined by reason of multiplicity of counsel and disputes. To the inhabitants of our last sojourning place, on the other hand, I wished a 'single head,' for the one to guide a town, success will attend all its undertakings. Know, then, that if thou seest an evil-doer prosper, it is not always unto his advantage, and if a righteous man suffers need and distress, think not God is unjust." After these words Elijah and Rabbi Joshua separated from each other, and each went his own way. How difficult it is to form a true judgment with nothing but external appearances as a guide.

❖ تطابق الشخصيتين:

من خلال العرض السابق لا يمكننا القول بصورة حاسمة بأن العبد الصالح - وبالتالي الخضر حسب التصور الشائع - هو إيليا النبي (عليه السلام)، لأن مجرد وجود بعض التشابه في قصة الترحال مع تلميذه اليشع لا يعد دليلاً على الأمر، لاسيما بلحاظ الأمور التالية:

١. اختلاف الأسماء وزمن الوقوع، فقد عاش النبي موسى في القرن الرابع عشر قبل الميلاد أما إيليا فقد عاش في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد.

٢. التباين في أغلب الأحداث في تفاصيلها عند مقارنة القصتين.

٣. أن مَنْ ادَّعى من علماء المسلمين اتحاد الشخصيتين لم يقدم دليلاً صحيحاً على ذلك بحيث يمكن الركون إليه، هذا فضلاً عن أن بعض العلماء رفض القول باتحاد إيليا مع إلياس كما اتضح لنا ذلك في تفسير الأمثل، وإن كنت أرجح كونهما شخصاً واحداً.

٤. ومما يؤيد عدم اتحاد شخصية العبد الصالح مع إلياس النبي هو عدم ذكر اسمه في القصة القرآنية، على الرغم من أن إلياس قد ذُكر في القرآن في موردتين، فلماذا لم تذكر القصة اسمه وأبقت شخصيته غامضة؟ قد يجاب عن ذلك بأن الله (عز وجل) ذكر النبي يونس (عليه السلام) بلقب «ذي النون»، فلا مانع من ذكر النبي بلقبه. ولكن يرد عليه أن القرآن الكريم ذكر قصة يونس مع الحوت «= النون» في آيات أخرى، مما يجعل ذكره باللقب ذا دلالة واضحة عند القارئ للقرآن، بخلاف قصة العبد الصالح إذ لم ترد سوى مرة واحدة وبهذا الغموض.

نعم تبقى نقطة مهمة وهي أن نصوص أهل الكتاب تذكر ظهور إيليا في آخر الزمان ليمهد للمسيح في بسط العدل، وهو ما يشترك مع ما في بعض أحاديث المسلمين من ظهور الخضر ليعين المهدي والمسيح (عليهما السلام) في إقامة دولة العدل

في آخر الزمان، فهل يمكن اعتبارها دليلاً على أن العبد الصالح على فرض كونه الخضر هو إيليا النبي؟ فلنذكر أولاً بعض النماذج من هذه الأحاديث:

في الحديث النبوي المروي في كتاب الفتن لحنبل بن إسحاق: (يأتي الدجال وهو محرّم عليه أن يدخل أنقاب المدينة، فيخرج إليه رجل يومئذ هو خير الناس أو خيرهم فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله، حديثه. فيقول الدجال أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكّون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحيى: واللّه ما كنت قط أشد بصيرة فيك مني الآن. قال: فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه)^(١)، وهذا الخبر وإن لم يسمّ الخضر، ولكن فُسّر على أنه هو المراد.

قال معمر: (وبلغني أنه يجعل على حلقة صفيحة من نحاس، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه)^(٢).

وفي صحيح البخاري ومسلم حديث مشابه له، قال مسلم في آخره: (قال أبو إسحاق: يُقال أن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام)^(٣).

أما ظهور إلياس النبي في آخر الزمان فنجدّه في الخبر الثاني الذي ذكرته تحت عنوان «النبي إيليا في الحديث»، فراجع.

ولابد من التنبيه هنا إلى أن القارئ لبعض الروايات قد يقع في الخلط بين كلمتي «إلياس» و«اليأس»، ففي كتاب عبد الله بن بشار رضيع الحسين عليه السلام: (عن ابن عباس يبعث الله المهدي بعد الياس، حتى تقول الناس لا مهدي، وأنصاره ناس من أهل الشام عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً)^(٤).

١. حنبل بن إسحاق: الفتن، ح ٤٢.

٢. نعيم بن حماد: الفتن، ح ١٥١٤.

٣. مسلم: صحيح مسلم، ح ٢٩٨٣.

٤. نعيم بن حماد: الفتن، ص ٨٥.

فعبارة (حتى تقول الناس لا مهدي) تدل على أن المراد هو «اليأس» لا اسم النبي «إلياس». كما أن البعض قد يخلط بين «إيليا» النبي و«إيليا» أي مدينة القدس كما في الخبر التالي: (يخرج على لواء المهدي غلام حديث السن، خفيف اللحية، أصفر، لو قاتل الجبال لhezها حتى ينزل إيليا) فيتصور من عبارة (حتى ينزل إيليا) أي ينزل النبي إيليا من السماء، بينما المعنى: يستمر الغلام حديث السن في الحركة باتجاه أرض فلسطين حتى ينزل مدينة القدس، وهي إيليا.

بعد هذا العريض السريع لبعض الروايات نعود للإجابة على التساؤل السابق حول إمكانية اعتماد هذه الروايات كدليل على اتحاد شخصية النبي إيليا بالخضر، فنقول: إن الروايات في هذا الباب لا يمكن الاعتماد عليها فهي ضعيفة السند لا تصلح أن تكون دليلاً على المطلوب، ولا يستبعد أن تكون من الإسرائيليات وروايات القصاصين التي غزت التراث الإسلامي، وعليه فلا ترتقي لتكون دليلاً على أن العبد الصالح - وبالتالي الخضر حسب التصور الشائع - هو إيليا النبي.

❖ مقولة اليهود باتحاد الشخصيتين:

للأكاديمي المتخصص في العلاقات بين الأديان الشرق أوسطية وتاريخ المجتمعات اليهودية في الشرق الأوسط الدكتور جوزيف مرعي بحث حول وحدة الشخصيتين لدى يهود القرون الوسطى.

فقد تحدث عن وجود شواهد كثيرة على انتشار نموذج معين من إحياء ذكرى النبي إلياس والخضر من قبل المسلمين واليهود على حد سواء في المراقد والمزارات خلال ذلك العصر، ويبيّن أن الشخصيتين - النبي إلياس والخضر - قُدمتا في العديد من كتب المزارات وكتابات رحالة القرون الوسطى من اليهود والعرب وباللغتين العبرية والعربية على أنهما شخصية واحدة، كما اشتركا في المزارات التي عُرفت باسميهما أيضاً.

وأحال إلى ما كتبه «فريدريك جونز بليس» في كتابه «الأديان في سوريا وفلسطين

الحديثين»^(١) من أن اليهود المتحدثون بالعربية كانوا في الربع الأول من القرن الثامن عشر في دمشق، وبالتحديد في منطقة جوبر، يقومون بتقديم النذور لمقام النبي إلياس الذي يطلقون عليه اسم «الخضر» أيضاً ! وعلّق الدكتور مرعي على ذلك بأن اليهود لربما اعتادوا إطلاق هذه التسمية على هذا النبي تأثراً بالمسلمين.

كما واستشهد د. مرعي بما كتبه محمد طلاس حول مقامات ومراقد حلب حيث قدّم وصفاً دقيقاً لكنيس يهودي يعود إلى القرن الرابع عشر ويقع في حي بَحْسِيَتَا بمدينة حلب^(٢) حيث ذكر أن في هذا الكنيس غرفة، وفي الغرفة مقام «للخضر» يوقد فيه اليهود القناديل ويقدمون نذورهم، وهي عبارة عن زيت خاص يستعمل كوقود لتلك القناديل.

وأضاف إلي ما سبق المعلومات التي قدّمتها السيدة «إي. س. درور» في مقال لها بعنوان «إلياس دائم الخضرة»^(٣) حيث وضّحت من خلاله صور تقديس الخضر وزيارته وتقديم النذور إليه في العصور الحديثة.

فقد ذكرت أن الطقوس الخاصة بالرجل الأخضر منتشرة بشكل كبير في العراق وتأتي تحت اسم «خضر إلياس». ففي مقبرة حزقيل ببلدة الكفل القريبة من النجف الأشرف نجد غرفة مخصصة تحمل عنوان «قبة إياهو النبي» حيث يعتقد اليهود أن هذه الغرفة الصغيرة يمكنها أن تتسع تلقائياً وبصورة إعجازية لاستيعاب الزائرين مهما بلغت أعدادهم.

ويتم تمديد الأطفال المرضى على أرضية تلك الغرفة أملاً في شفائهم على يد هذا النبي، كما وتعتبر بعض حجارة جدران هذه الغرفة ذات خاصية غيبية حيث بإمكانها أن تهب الخصوبة لمن يلمسها أو يقبلها!

1. Frederick Jones Bliss: The Religions of Modern Syria and Palestine, p4

٢. يقطن فيه معظم يهود حلب والتجارة فيه نشيطة.

3. E. S. Drower: Evergreen Elijah: Ritual Scenes from Jewish Life in the Middle East

وأضافت أن للنبي إلياس في العراق مقامات أخرى، منها مقام في مرقد عزرا الواقع على نهر دجلة، وهي بمجملها من المزارات التي يشترك المسلمون والمسيحيون واليهود في تقديسها وزيارتها.

ويقول الدكتور مرعي بأن مقامات الخضر في العصور الوسطى انتشرت في كل الشرق الأدنى، ويعود بناء بعض منها إلى عصور ما قبل الإسلام، وقد ذكر الرحالة المسلمون كابن جبير وابن بطوطة عدداً من هذه المقامات والمشاهد والمزارات والرُّبُط^(١) والخانقاهات^(٢) والمصليات والمساجد التي انتشرت في مصر والأناضول والشام والعراق وفارس والبحرين والهند والتي ارتبطت باسم الخضر.

كانت بلاد الشام - بحسب د. مرعي - مركزاً لتقديس الخضر خلال القرون الوسطى، وقد انتشرت المقامات التي تحمل اسمه في دمشق وحلب ومنيح ودرعا والقدس. كما تحدث ابن بطوطة وابن جبير عن مشاهدتهما لمصلى الخضر مقابل كهف في جبل قاسيون المشرف على مدينة دمشق.

كان الناس يداومون على زيارة هذه المقامات والمشاهد لنيل البركة ولتقديم النذور، وقد ارتبط ذلك كله بالاعتقاد السائد بأن الخضر يظهر في هذه الأماكن تماماً كما كان معتقد اليهود بخصوص كنس^(٣) النبي إلياس.

وذكر د. مرعي أن لرواية رواها كعب الأحبار حول لجوء النبي إلياس إلى كهف يقع بالقرب من دمشق وبقائه فيه حياً منذ ذلك الزمان دور في انتقال هذا المعتقد من اليهود إلى المسلمين.

وضمن استدلالاته على المطلب نقل الباحث قصتين، الأولى منهما تفيد بأن رجلاً يُعرف باسم معبد العرودي^(٤) رأى في منامه الخضر، حيث أمره بأن يبيع قطع

١. الربط: جمع رباط وهو من أماكن الخلوة الخاصة بالصوفية.

٢. خانقاهات: جمع خانقاه وهو من أماكن تجمع الصوفية.

٣. كنس: جمع كنيس، وهو معبد اليهود.

٤. جد أحد مشايخ الصوفية المعروف باسم أبي بكر العرودي المتوفي سنة ١١٢٠هـ.

الأغنام الذي يمتلكه والمكوّن من خمسمائة رأس، وأن يشيّد بئمنها مشهداً حدّد له مكانه بالدقة، وأخبره بأنه سيجد قواعد وأساسات ذلك المشهد معدّة ومدفونة تحت الأرض، وما عليه سوى أن يكشف عنها ويقيم فوقها المشهد، فاستجاب معبد لطلب الخضر وأقام المشهد^(١).

وأما القصة الثانية فقد رواها عن ابن الحوراني^(٢) حول تشييد مقام للخضر في مقبرة تقع جنوب دمشق وتعرف باسم مقبرة باب كيسان حيث ادّعت رؤيته في ذلك الموقع. ويقوم الناس بزيارة المقام والتبرك به.

ثم علّق على القصتين بأنه كما يقع مقام الخضر الذي شيّده معبد في حي اليهود، فإن هذا المقام أيضاً يقع بالقرب من حيهم^(٣).

والعنوان الذي اختارته السيدة «درور» لبحثها الذي أشرت إليه قبل صفحتين، وهو: «Evergreen Elijah = إلياس دائم الخضرة = إلياس الخضر» أصاب الهدف، إذ يوضّح كيف أن اعتقاد اليهود ببقاء النبي إلياس حياً وحضوره إلى بيوتهم ومجالسهم وفي المناسبات الخاصة، وانتقال هذا المعتقد إلى المسلمين من خلال الإسرائيليات وبالنّسبة الثقافيتين بين الطرفين، قد داخل بين الشخصيتين وقدمهما في صورة شخصية واحدة.. فإلياس هو دائم الخضرة، أو الخضر بتعبير آخر.. وبالتالي اعتبر المسلمون أن إلياس هو الخضر الذي توارثوا قصصه واعتبروه المقصود في قصة العبد الصالح والنبي موسى.. وهكذا تأثر النصارى الذين عاشوا تحت حكم المسلمين بهذا التصور وصاروا يتعاملون مع شخصية الخضر المعروفة لدى المسلمين على أنها هي ذات شخصية إلياس النبي. وسيتبيّن لنا لاحقاً دور القصاصين والصوفية في إمعان هذا الخلط.

١. ادعى حفيده الشيخ الصوفي أبوبكر العروذكي أن كل من يطوف بالمشهد الذي بناه جده سبعة أشواط وأخذ من تربته شيئاً قليلاً، شفي من مرضه، تماماً كما يشفي الكحل أمراض العيون.

٢. ابن الحوراني: الإشارات إلى أماكن الزيارات، ص ٢٤.

3. Josef W. Meri :Re-Appropriating Sacred Space: Medieval Jews and Muslims Seeking Elijah and Al-Khadir, p 238-254

❖ رأي الطائفة الدرزية:

ويمكن من خلال التراث الدرزي أن نلاحظ التصريح باتحاد الشخصيات: إلياس والعبد الصالح والخضر.

وتطالعنا في ذلك عدة كتابات، منها مقالة بعنوان «الخضر (عليه السلام) هو العبد الصالح في قصة موسى النبي وهو إيليا النبي صاحب معجزة المحرقة» للأستاذ «منير فرو» وجاء فيها: (في الخامس والعشرين من كانون الثاني من كل عام يحتفل أبناء الطائفة الدرزية في البلاد بعيد زيارة مقام سيدنا الخضر (عليه السلام) في قرية كفر ياسيف في الجليل، وهذا التاريخ تم الاتفاق عليه بين رجال الدين منذ الزمن البعيد وقد اعترفت حكومة إسرائيل بهذا العيد رسمياً، وأصبح العيد يوم عطلة رسمي لأبناء الطائفة الموحدة - أي الدروز - . وفي هذه المناسبة يتوافد إلى المقام الشريف مشايخ الطائفة من الجولان والجليل والكرمل لتأدية الصلوات والابتهال إلى العلي القدير بأن يمن على منطقة الشرق الأوسط والعالم أجمع بالسلام المنشود والتداول في شؤون الطائفة ومستجداتها خصوصاً في ظل الأوضاع الصعبة التي تمر بها البلاد الأمنية، الاجتماعية، الأخلاقية والاقتصادية. يعتبر مقام الخضر (عليه السلام) في كفر ياسيف من أشهر المقامات الموجودة في إسرائيل حيث تم رعايته من قبل المرحوم سيدنا الشيخ أمين طريف الرئيس الروحي للطائفة الدرزية، إذ رمم البناء القديم وأضاف إليه غرفاً عديدة كذلك قام فضيلته بشراء عدة دونمات وضمها إلى ممتلكات المقام. وأيضاً جاء من بعده حفيده الشيخ أبو حسن موفق طريف الذي يقوم بتوسيع المقام الذي أحيط بسور عال وأصبح بهجة للنظر ومصدر فخر واعتزاز لكل أبناء الطائفة الدرزية، وإليه يلوذون في ساعات الضيق طلباً للرحمة والفرج. ولسيدنا الخضر مقامات عديدة متواجدة في بلادنا والدول المجاورة يبلغ عددها حوالي ٧٠ مقاماً حسب كتاب «طبقات الأنبياء والأولياء الصالحين في الأرض المقدسة» للدكتور شكري علاف، وهذه المقامات والمواقع ما

هي إلا أماكن جلوس واستراحة أو إقامة قصيرة لسيدنا الخضر «عليه السلام» ومن أهمها: مقامه في اللد، في دير البلح، يافا، في تل الصايف في الخليل، بالقرب من يطه قرية الخضر، رجم الخضر إلى الغرب من بيت لحم، دير مار إلياس على يسار المسافر من القدس إلى بيت لحم، كنيسة الخضر في الطيبة، رام الله، وفي القدس عدة أماكن تحمل اسم الخضر عددها ١٣ موقعاً، وفي نابلس وقضائها عدة أماكن تحمل اسم الخضر عددها ١١ مكان، وفي طولكرم عدة أماكن تحمل اسم هذا النبي الرسول عددها ٥، وفي قضاء جنين ٢ أماكن، وتزداد مقاماته كلما اتجهنا شمالاً، ففي قضاء حيفا المقامات التالية: مقامه في بسمه طبعون، مقام الخضر الأخضر في صبارين، تل الخضر في قيساريا، مقامه في عتليت، مقامه في عرب الحلف بالقرب من الجلمه، مقامه في صفوريا، مغارة الخضر في حيفا، وأيضاً مغارة مار إلياس إلى الشرق من ستيتا مارييس، دير المحرقة شرق دالية، الكرمل مقام أبو إبراهيم في دالية الكرمل، وفي شفاعمر مغارة سيدنا الخضر، في أبو سنان كنيسة على اسم القديس جاورجيوس، مقام في البصة، مقام الخضر الشرقي في البعنه، دير الأسد، وفي الرامه، ومغارة له إلى الجنوب من كابول، كرسي الياهو إلى الجنوب من ميرون في الحولة، تل الخضر، وعلى الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا خان اسمه خان الخضر، مقامه في البانياس، ومقام النبي إيليا بالقرب من قرية مسعده، وهناك موقع اسمه الخضر في منطقة بيسان، وموقع اسمه الخصرة في عسقلان. والخضر «عليه السلام» له قصص وروايات كثيرة، فكان كثير التبعد والسياحة، ويقال سمي بالخضر لاختضار الأرض التي يجلس عليها لعبادة خالقه. وله قصة معروفة مع النبي موسى بن عمران ذكرت في سورة الكهف في القرآن فيها يعلم النبي موسى تأويل الأشياء مع الصبر والرضى بأحكام الرب، كان اسمه العبد الصالح. والخضر معروف عند جميع الديانات وله مكانة خاصة وهناك اعتقاد بأنه حي لا يموت يبعثه الله في كل زمن ليدعو إلى الإيمان به، فعند اليهود اسمه الياهو هنبى أو التشبي، وعند المسيحيين مار إلياس أو مار

جريس أو مارجورجيوس، وله قصة مع التين ولوحة متداولة بين الناس، وعند المسلمين العبد الصالح وكنيته «أبو العباس»، وعند الدروز يكنى بـ «أبو إبراهيم» رمزاً للشجاعة^(١).

ولا أستبعد أن يكون مصدر هذا القول عندهم هو الروايات الضعيفة المبنوثة في كتب المسلمين، والتي أخذها الدروز من خلال جذورهم الإسلامية التي ابتعدوا عنها تدريجياً في خضم تاريخهم الملى بالأحداث، أو من خلال التراث الصوفي الذي سنستعرض له في الفصل الخامس من الكتاب من زاوية رؤيته لحقيقة الخضر وشخصيته ودوره في الحياة، إذ تؤكد دراسات عديدة على أن للفكر الصوفي تأثيراً بالغاً في تأسيس العقيدة الدرزية^(٢).

❖ الاحتمال الثاني:

بعد الانتهاء من دراسة احتمال اتحاد شخصية النبي إيليا بالخضر، تنتقل لدراسة احتمال اتحاد شخصية القديس جرجس بالخضر كما جاء في النص السابق في مقال السيد «فرو»، وهو ما تحدثت عنه كتابات عديدة لباحثين وبعده لغات، كما شاع في الأوساط العربية الشعبية أيضاً.

القديس جرجس = «مار جرجس»^(٣) = جاورجيوس = جريس = جورج = جرجه «(٢٨٠-٣٠٣م) عرّفته المصادر المسيحية بأنه: (قديس حسب معظم الكنائس الغربية والشرقية، وهو واحد من الأربعة عشر مساعد حسب الطائفة الكاثوليكية. يحتفل به يوم ٢٣ إبريل من كل عام، ومعنى اسمه الحارث أو الفلاح)^(٤). ونقترب هنا من عنوان «الخضر» الذي قد يكون للدلالة على الاشتغال في مهنة الفلاحة والارتباط بالخضرة والزروع.

1. www.marmar.co.il

٢. سيأتي مزيد توضيح حول هذه النقطة تحت عنوان (الكأس المقدسة وماء الحياة) في الفصل الخامس من الكتاب.

٣. مار أي سيد في اللغة السريانية، وفي العراق وإيران تستخدم كلمة مير للدلالة على نفس المعنى.

4. www.sintgeorgius.nl/ar

وبحسب هذه المصادر فإن مسقط رأس والدة القديس مار جرجس هي مدينة «اللد» الفلسطينية، بينما يعود نسب والده إلى إقليم «كبادوكيا = قبادوقيا»^(١): (ولد سنة ٢٨٠ م في مدينة اللد في فلسطين لأبوين مسيحيين من النبلاء، توفي والده فاعتنت به والدته وأنشأته في جو عائلة مسيحية. ولما بلغ السابعة عشرة دخل في سلك الجندیّة وترقى إلى رتبة قائد ألف في حرس الإمبراطور الروماني «ديوكليسيانوس» الذين كانوا يقاتلون المسيحيين في تلك الفترة، لكنه لم يخف عقيدته المسيحية عن العلن، مما أغضب الإمبراطور وأخضع القديس لجميع أنواع التعذيب لرده عن دينه لكن دون جدوى. العديد ممن شاهدوه معذباً تحولوا إلى المسيحية، حتى الإمبراطورة «ألكساندرا». وبعد موته أعيد رفاته إلى مسقط رأسه)^(٢).

ويعرف القديس جرجس أيضاً بمار جرجس الملطي نسبة إلى مدينة «ملطية» موطن آباء القديس وأجداده وهي تقع في إقليم كبادوكيه بآسيا الصغرى ولذلك يطلق عليه أحياناً اسم مار جرجس الكبادوكي.. جيئورجوس: وهي من الأصل اليوناني وترجمته عربياً: فلاح أو عامل في الأرض، وهي كناية كنسية لقب بها وتمثل عن أن القديس كان قد فلاح في حقل الملكوت واشتغل في كرم الرب.

مار جرجس الفلسطيني: لأن والدته كانت من مدينة اللد بفلسطين. مار جرجس الكبير: تميزاً له عن القديسين الآخرين الذين لهم نفس الاسم. مار جرجس الروماني: لأنه كان يتمتع بحقوق المواطن الروماني كاملة وقد منح هذه الجنسية طبقاً لقانون «كاراكلا» الصادر عام ٢١٢م ويقضى بمنح الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الرومانية والأمراء الأصليين. سان جورج: وهو الاسم الذي يعرف به القديس في الكنيسة الغربية. أمير الشهداء: وهو أشهر لقب للقديس

١. الاسم التاريخي لإقليم في آسيا الصغرى . تركيا . وموطن قبائل الحثيين.

2. georgesaghbini.blogspot.com

وتقول الرواية إن السيد المسيح أعطاه هذا الاسم. سريع الندهة^(١): وهو اللقب الشعبي المعروف به القديس^(٢).

❖ أسطورة جرجس والتنين:

ارتبط اسمه بأسطورة قديمة وملخصها أنه في مدينة اللد في فلسطين^(٣) كان هناك تنين بنى عشه في مدخل نبع للماء، وكان السكان المحليون يحاولون إخراج التنين من عشه لكي يستقوا من مياه النبع حيث كان المصدر الرئيس للماء في المدينة، ولكي يخرجوا التنين كانوا يومياً يضعون له خروفاً كغذاء، وعندما نفذت الخراف كانوا يضعون بشخص مختار بالقرعة، وحدث أنه كانت الضحية أميرة محلية، وحينها صدف أن القديس جرجس يمر بالحادث حيث يقوم بمقاتلة التنين متحامياً بالصليب، ثم يتغلب على التنين ويقتله محرراً الأميرة.

ولكي يظهر السكان امتنانهم اعتنقوا المسيحية. وهناك قصص وروايات أخرى تعود للعصور الوسطى والتي أساسها أساطير إغريقية ويونانية قديمة.

وقد أول البعض القصة السابقة معتبرين أنها تحمل معنى رمزياً، فالأميرة للدلالة على الكنيسة، والتنين رمز الشيطان الذي يحرك العالم الشرير ضد الإيمان. والحربة التي قاتل بها القديس تشير إلى الصليب، وهزيمة التنين تشير إلى هزيمة الشر ومصدره إبليس بقوة الإيمان. بينما يرى بعض المحللين أن الأسطورة متأثرة بحكاية «بيرسيوس» وقتله التنين وحش البحر الذي أراد التهام «أندروميда»^(٤).

١. أي سريع الإجابة لمن يتوسل به .

2. georgesaghbini.blogspot.com

٣. وفي روايات أخرى مدينة سيريني في ليبيا .

٤. بيرسيوس = Perseus المقدوني، بطل إغريقي أسطوري، أنقذ الأميرة الأثينية أندروميديا من براثن التنين وحش البحر الذي قُدمت إليه قرباناً للتخلص من هجماته المدمرة على المدينة. واستطاع بيرسيوس الراكب على الحصان المجنح أن يقتل التنين وينقذ الأميرة ليتزوجها . وسنلاحظ لاحقاً كيف تأثرت القصص المروية في التراث الإسلامي حول الخضر بأساطير يونانية تتعلق بالإسكندر الأكبر، وهو أمر متكرر أيضاً في أساطير أخرى لدى الشعوب الشرقية استطاعت أن تقتحم التراث الإسلامي لتتحول إلى أحداث ونصوص دينية!

وترمز للقصة لوحات أيقونية وتماثيل تجمع القديس والتين، وتعتبر رمزاً وطنياً لمدن بيروت، جورجيو، جنوا، موسكو، وحتى لدول مثل إنكلترا، روسيا، اليونان، جورجيا، زامبيا، البرتغال، فلسطين، وغيرها ممن يعتبرون القديس جرجس شفيع الدولة - أو المدينة - حسب التراث المحلي المسيحي. كما يُعتبر القديس مار جرجس «شفيعاً» لكثير من الجيوش في البلاد التي على دين المسيحية في أنحاء العالم، وكثير من الجيوش تمتلك أوسمة باسم القديس مار جرجس، تُعطى لمن يتفانى في خدمة البلاد والجيش.

❖ مقتل القديس جرجس:

وبعيداً عن هذه الأسطورة، وعودة إلى قصة مقتله جاء في المصادر المسيحية أنه: (لما شدد القيصر ديوكليانوس^(١) في اضطهاد المسيحيين وأصدر بذلك أمراً علّقه على جدار البلاط الملكي في نيكوميديّة، تقدّم جورجيو ومزّق ذلك الأمر. فقبض عليه الوثنيون فشوهوه أولاً، ثم ألبسوه خُفّاً من حديد مسمراً بقدميه وسحبوه وراء خيل غير مروّضة، فخلّصه الله من ذلك كلّ، ثم طرحوه في أتون مضطرم فلم يؤذّه، ولما رأى الملك ديوكليانوس هذا الشهيد غائصاً في بحر الدماء لا يئن ولا يتأوّه أكبر شجاعته، وعزّ عليه أن يخسر قائد حرسه وابن صديقه القديم. فأخذ يلاطفه ويتملّقه لكي يثنيه عن عزمه، فأحبّ جورجيو أن يُبدي عن شعوره بعطف الملك، فتظاهر بالافتناع وطلب له أن يُسمح له بالذهاب إلى معبد الأوثان، فأدخلوه معبد الإله «أبلون» باحتفال مهيب حضره الملك ومجلس الأعيان والكهنة بحلّهم الذهبية وجمع غفير من الشعب. فتقدّم جورجيو إلى تمثال أبلون ورسم إشارة الصليب. وقال للصنم: أتريد أن أقدم لك الذبائح كأنك إله السماء والأرض؟ فأجابه الصنم بصوت جهير: كلا أنا لست إلهاً بل الإله هو الذي أنت تعبده. وفي الحال سقط ذلك الصنم على الأرض وسقطت معه سائر الأصنام. وعندها صرخ

١. (= ديوقليطيانوس = دقلديانوس = Diocletian = Diocletian) وهو الذي تذكره روايات المسلمين في قصة أهل الكهف على أنه الحاكم الوثني الظالم الذي هربوا منه، وحكم من ٢٨٥ - ٣٠٥.

الكهنة والشعب: أن جورجوس بفعل السحر حطم آلهتنا. فالموت لهذا الساحر. فصلبوه ورموه بالنشاب حتى توفى. فطارت شهرة استشهاده في الآفاق^(١).

وتذكر بعض المصادر المسيحية أنه مات ثلاث مرات خلال التعذيب، وكان الله يحييه في كل مرة، حتى استشهد في المرة الرابعة. وفي نص آخر أن رأسه قُطعت وأخذ بعضهم جسده إلى مصر ودفن في مصر القديمة.

وبحسب القس الدكتور يوسف حبي فقد سجل أحد أعوان جرجس الشهيد سيرة حياته وقصة استشهاده، وبالغ في الأحداث، كما كانت العادة يومذاك، ففي تاريخ شهداء فلسطين، الذي ألفه «أوسابيوس» القيصري، قصتان لمار جرجس بالغ فيهما المؤلف مبالغة واضحة للعيان، تمثيلاً وأساليب كتابة قصص الشهداء والقديسين كما كانت متبعة آنذاك. وقد ألف «باباي» الكبير «٥٥٠-٦٢٨م» قصة مار جرجس بالسريانية، وطبعها «بيجان» في باريس. وتعلق المؤمنون المسيحيون في كل مكان بأمثلة البطولة التي قدمها القديس جرجس^(٢).

❖ جرجس الشفيح:

يعتقد المسيحيون بمقام القديس مار جرجس عند الله، ولذا فهم يتبركون به ويحتفلون بذكراه ويتقدمون إليه بطلباتهم ليشفع لهم. كما أنهم اعتنوا بتشديد الكنائس والمقامات التي تخلد بطولاته.

وبحسب القس الدكتور يوسف حبي فإن أول معبد شُيِّد على اسمه هو الضريح الذي ضم رفاته في مسقط رأس اللد، حتى جاء قسطنطين الكبير فبنى في الموضع كنيسة فخمة. ثم انتشرت المعابد والكنائس والديارات المشيدة على اسمه تكريماً له. وفي ما يلي بعض الصور المنقولة حول المقامات والكنائس واحتفالات التكريم الخاصة بهذه الشخصية حول العالم:

1. www.marefa.org

2. www.ankawa.com

١- في فلسطين يحتفل المسيحيون والمسلمون على حد سواء في الخامس والسادس من شهر مايو «أيار» من كل عام بذكرى مقتل مار جرجس على يد الرومان، وهو الاحتفال الذي يُعرَف بعيد القديس جورجوس، والمشهور شعبياً باسم «الخضر الأخضر»، الفارس الممتطي على صهوة الحصان ليقتل التين بحربة طويلة، وينقذ الفتاة الحسنة. وقد اعتاد المحتفلون التوجه في هذين اليومين إلى بلدة الخضر الواقعة جنوب القدس سيراً على الأقدام العارية، حيث توجد فيها كنيسة باسم القديس جورجوس، فيقفون أمام تصاوير تمثله ويهتفون بصيحات «يا خضر أخضر» أو «يا سيدنا الخضر»، ويشعلون الشموع، ويمررون سلاسل في رقابهم وأيديهم، في محاكاة لمعاناة القديس جورجوس، ثم يقدمون نذورهم من أموال نقدية وأطعمة، كما يذبحون الخراف رجاء شفاعته القديس أو الولي صاحب المقام الرفيع.

وتسير كثير من الفلسطينيين حافيات من المدن والبلدات القريبة إلى مقام القديس، وقد بنيت الكنيسة الحديثة التي تحمل اسمه في عام ١٩١٢ وهناك الكنيسة القديمة لا يقل عمرها عن ٣٥٠ عاماً، وتوجد أيقونات تعود لعام ١٧١٣ وأخرى لعام ١٨٣٨ ويعتقد أن والده مار جورجوس سكنت في هذا المكان بعد خروجها من اللد. وتم بناء كنيسة في المكان في العصر البيزنطي.

وقد ذكرت الكاتبة «سامانثا ريتشيس» في كتابها «القديس جورج: البطل، الشهيد، والأسطورة» أن اللد في فلسطين كانت تعتبر مدينة القديس جورج بادعاء أنه قد استشهد فيها، وفيها كانت كاتدرائية القديس جورج التي تعرضت للهدم مرتين، وبدلاً عنها نجد كنيسة أرثوذكسية صغيرة تحتوي على قبر القديس، وعُلقت على بعض جدرانها ما يدعى أنها القيود والأغلال التي قُبِدَ بها قبيل استشهاده.

بينما تذهب رواية أخرى إلى أن هذه القيود إنما كان يُقَيَّدُ بها المجانين الذين يُحضَرون عند هذا المكان المقدس للشفاء ببركة القديس جورج بحسب اعتقادهم^(١).

1. Riches; Samantha: St George: Hero; Martyr; and Myth; p118

٢. في بيروت عاصمة لبنان كنائس عديدة تحمل اسمه، وهناك خليج مار جرجس أو خليج الخضر الذي تجثم عليه مدينة بيروت. ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي ادّعى البيروتيون أنهم يعرفون بالدقة أين تم قتل التين على يد هذا القديس، ويشيرون إلى مكان قريب من بيروت عند الخليج الذي ما زال يحمل اسمه. وقد بنوا كنيسة صغيرة في ذلك الموقع^(١) تخليداً للحدث.

ثم هناك مقام مار جرجس في بعلبك، قرب مدرسة راهبات القليّين الأقدسين. وهو مزار في وسط الحي الذي يُعرف باسمه «حي مار جرجس»، ويضاء بالشموع، وقد علّقت على أحد جدرانها لوحة رخامية لمار جرجس وهو يصرع التين. ويشارك المسلمون المسيحيين في زيارتهم لهذا المقام^(٢).

٣. في سورية توجد العديد من الكنائس التي تحمل اسم القديس مار جرجس وأشهرها كنيسة في بلدة «أزرع» في جنوب سورية بمحافظة درعا، والتي يعود تاريخها إلى حوالي ٥١٥ ميلادي.

ومن بينها أيضاً كنيسة بناها الإمبراطور «جستيان» في القرن السادس الميلادي. إلا أنه تم تدمير الكثير من هذه الكنائس خلال الأزمنة المتعاقبة وتحت وطأة الحروب والفتن. ويعتبر اسم جورج أو جريس من الأسماء الشعبية عند المسيحيين في بلاد الشام.

وفي دمشق نجد مقاماً للخضر حيث يدّعى هناك أنه الموقع الذي قتل فيه التين، ويقع هذا المقام حالياً في مسجد الخضر، وقد اعتاد المسافرون إلى دمشق زيارة هذا الموقع ومشاهدة الصخرة التي يدّعى وقوع القتل عندها^(٣).

١. تحولت الكنيسة في العهد الإسلامي إلى مسجد يحمل اسم الخضر .

2. www.el-kalima.com

3. Riches; Samantha: St George: Hero; Martyr; and Myth; p117

وفي شمالي مدينة «سَلَمِيَّة»^(١) بمسافة ٣ كم مزار يقبع فوق قمة جرداء، وكان ديراً للمسيحيين، ولكن بعد الفتح الإسلامي تحول الدير إلى مسجد صغير، وتبدّل اسمه من دير المار جورجوس إلى مزار الخضر الحي. ويلحق بهذا الدير العديد من الغرف وبعض المغاور والكهوف، ولكنه الآن خرب تماماً لم يبق منه إلا بقية جدار وقاعدة للمحراب.

ويقع مزار آخر في قرية «طرطب» في سفح التل الغربي، ولا تبعد عن «القامشلي»^(٢) أكثر من ٥ كم. بُني المزار القديم الترابي الذي كان قد تعرض للخراب عدة مرات، وأعيد بناؤه وقد عُرف باسم القديس مار جرجس منذ مئات السنين. ويدعي رئيس المزار حدوث كرامات فيه بشفاء مرضى.

وللمزار عيد سنوي هو عيد القديس مار جرجس الذي يصادف ٢٣ من نيسان، لكن العادة جرت أن يحتفل بعيدة ليلة الأحد من كل عام بإقامة قداس احتفالي يقيمه مطران الأبرشية.

وفي الحي الغربي من «صافيتا»^(٣) مزار آخر باسم مار جرجس حيث تقام فيه الصلوات ليلة عيد جاورجوس في ٦ أيار على الحساب الشرقي، ويزوره المسيحيون دوماً طالبين شفاعته ويشعلون فيه الشموع والبخور.

٤. وفي العراق عدة مقامات ومزارات باسم الخضر، من بينها تلك التي تحدث عنها القس الدكتور يوسف حبي تحت عنوان «دير ماركوركيس»، قال: (يقع دير مار كوركيس على بعد ٩ كم، إلى الشمال من مركز مدينة الموصل، و٨٠٠ م عن يمين

١. مدينة سورية تقع على بعد ٣٠ كم إلى الشرق من مدينة حماة في وسط سورية. لهذه البلدة أهمية تاريخية حيث أنها كانت مقراً للدعوة الإسماعيلية، ومنها انطلق عبيدالله المهدي إلى المغرب العربي ليؤسس الدولة الفاطمية. ومازالت سلمية مقراً من المقرات المهمة للإسماعيلية وخاصة المحلالية.

٢. مدينة سورية تقع في جهة الشمال الشرقي على الحدود مع تركيا وعلى مقربة من سفح جبال طوروس بمحاذاة مدينة نصيبين التركية، وتتبع إدارياً محافظة الحسكة.

٣. تقع إلى الغرب من مدينة حمص وبالقرب من الحدود الشمالية للبنان، وهي من البلدات المسيحية القديمة في سورية، وبها عدة كنائس ومزارات.

الطريق المؤدي من الموصل إلى دهوك. وبعد أن كان يجثم وحيداً فوق رابية تطل على سهول خصبة وبساتين يرويها نهر دجلة.. وتدلنا هذه المصادر على أن شفيح الدير هو الشهيد مار كوركيس أو جرجس. وقد يكتب أو يلفظ أيضاً جرجيس أو جيورجيس، ويأتي في قرانا محرفاً بلفظ ججو، وفي الغرب جورج. وهو اسم معروف وشهير جداً في الأوساط المسيحية، وحتى الإسلامية. والديارات والكنائس المشيدة بهذا الاسم لا تحصى. نذكر من الكنائس التي على اسمه، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وفي بلادنا فقط. الكنائس التالية: ثلاث في الموصل، وكنيسة في كل من بغداد، وألقوش، وعينكاوة، وكرمليس، وقره قوش، وتلسقف، وزاخو، وفيشخابور، وبيرسفي، وشيوز وإلخ. جلها باسم الشهيد كوركيس وقلة باسم كوركيس آخر. وفي الموصل جامع باسم نبي الله جرجيس. ولسنا نغالي إن قلنا أن الشهيد كوركيس يأتي في المرتبة الأولى في قوائم القديسين والأولياء الذين على اسمهم شُيِّدت ديارات وكنائس ومزارات، بعد العذراء مريم أم المسيح، وتأتي القديسة شموني بعدهما.. وكنيستنا الشرقية تدعو «كبار حिला» أي الجبار القوي. ويحتل مار كوركيس في طقس كنيسة المشرق «الكنيسة الآشورية - الكلدانية» مكانة مرموقة جداً، فيذكر في صلوات الصباح والمساء قبل مريم العذراء وتسبحه المجد. وقد دعاه يوحنا فم الذهب «أمير الشهداء». وكانت بلادنا وطقوسنا تحتفي بذكر استشهاده كما تحتفل بالأعياد والمواسم الكبرى. ولا تزال بعض المناطق الشرقية تقيم الاحتفالات الدينية والمناسبات الاجتماعية والمواسم السارة تكريماً لهذا القديس الشهيد. ومنها موسم دير مار كوركيس قرب الموصل، الذي نحن بصدد، والواقع في الأحد الخامس من الصوم الكبير من كل عام، أي في أواخر شهر آذار أو مطلع نيسان، في الربيع، إذ تزدهم الرقعة الفسيحة حيث موقع الدير بألوف الناس يأتونه من كل حذب وصوب لقضاء يوم بهيج في سفوح تلوله وينتشرون في ربوعه الخضراء الزاهية بالألوان^(١).

٥. في تركيا حيث يمكن إلى اليوم مشاهدة المنحوتات الممثلة للقديس مار جرجس على الجدران الشاهقة للقلعة التي بناها الصليبيون في «بودروم»^(١)، أو في الكهف الموجود في كبادوكيا التي تعتبر مسقط رأس آباء القديس مار جرجس. تقول الكاتبة «سامانثا ريتشيس»: (لقد تبنى الإسلام القديس جورج وجعل منه شخصية مقدسة)^(٢).

٦. وللقديس مار جرجس في مصر شهرة كبيرة، وبها على الأقل أربعون كنيسة قبطية تحمل اسمه.

٧. وفي أثيوبيا يُطلق على القديس جورج لقب «ملك القديسين». وتنتشر فيها العديد من الكنائس التي تحمل اسمه^(٣).

٨. في بريطانيا ١٥٢ قرية تحمل اسم سانت جورج «= القديس جرجس»، وتنقش صورته على الجنيه الإنجليزى. الجنيه الذهب.

وتحتفل بريطانيا بذكرى استشهاده في ٢٣ من أبريل من كل عام، ويعتبر البريطانيون هذا اليوم عيداً قومياً لهم تُعطّل فيه الأعمال الحكومية ويسمى بيوم سانت جورج، كما يطلق اسمه على بعض المؤسسات التجارية والمحلات العامة والمدارس والملاجئ.

كما أن الكثير من ملوك بريطانيا اتخذوا اسمه لأنفسهم تبركاً به، مثل جورج الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس^(٤).

٩. في إيطاليا يتمتع سان جورج بمكانة عظيمة لدى الكاثوليك فهو يعتبر نصير الكنيسة الكاثوليكية، وقد وجدت في روما ونابولي كنائس قديمة جداً على اسم

١. مدينة مهمة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في المنطقة الجنوبية الغربية من تركيا.

2. Riches; Samantha: St George: Hero; Martyr; and Myth; p115

3. Riches; Samantha: St George: Hero; Martyr; and Myth; p119

4. www.marefa.org

القديس جيورجوس، وكان البابا «جلاسيوس» الأول بابا روما قد أثبت قداسة مار جرجس في مجمع عُقد في روما سنة ٤٠٤م^(١).

١٠ - في فرنسا بنى الملك «كلوفيس» الثاني «٦٣٨ - ٦٥٦» كنيسة كبيرة على اسم سان جورج، وكانت الملكة «كلونيدا» زوجته تؤمن بشفاعته، فأكثر من بناء الكنائس على اسمه، وكانت تخصص الأموال الكثيرة لخدمة هذه الكنائس من مالها الخاص^(٢).

١١ - في النمسا أنشأ الإمبراطور «فريدريك» في سنة ١٤٧٠م رتبة من الكافلية «الفروسية» على اسم سان جورج^(٣).

١٢ - في روسيا القيصرية كان للقديس مار جاورجيوس مكانة عظيمة، فرسموا صورته على الحصون، وأنشأت الإمبراطورة كاترين وساماً رفيع الشأن اسمه وسام جاورجيوس، وهو على شكل صليب منقوش عليه في الوسط صورة للقديس، وكانت تمنحه للقواد العظام الذين ينتصرون في الحروب مكافأة على شجاعتهم وتخليداً لبطولتهم، وكان مار جرجس هو شفيع الإمبراطورية الروسية قبل الثورة البلشفية سنة ١٩٢٣.

واختير ليكون شفيعاً لروسيا الفدرالية، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي^(٤).

١٣ - في اليونان يعظمونه ويشيدون على اسمه الكنائس والأديرة، ويسمونه باسم يتميز به عن جميع الشهداء، فيلقبونه بالظافر أو حامل علامة الظفر، كما يصفونه بالشهيد العظيم ورئيس الشهداء^(٥).

1. georgesaghbini.blogspot.com

2. www.mhabatzaidal.com/margeorges.htm

3. www.christian-dogma.com

4. www.echristian.ae

5. www.mhabatzaidal.com/margeorges.htm

❖ رأي الطائفة النصيرية العلوية:

تحدثت الكاتبة «جيسيلا بروشاسكا» في كتابها حول المجتمع النصيري العلوي في قيليقية^(١) عن تدخل شخصية الخضر بالقدّيس جورج في الأناضول وسوريا وفلسطين، وتشاركهما في العديد من المقامات المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين على حد سواء. وإذا يشوب الغموض والتشويش حقيقة معتقد النصيريين العلويين حول شخصية الخضر، إلا أنهم لا يقدّمونه دائماً بصورة المنقذ والمخلص والمنجي من الأخطار. وقد اعتاد عوام العلويين على الاستغاثة به حين تعصف بهم الظروف العسيرة.

ومن هنا لا نستغرب حين نعرف أن مدينة قيليقية لوحدها تضم خمسة وعشرين مشهداً للخضر، بينما يبلغ مجموع المشاهد والمقامات المشيّد باسمه في مناطق العلويين في سوريا وتركيا - بحسب ادعائهم - ٢٦٥ أو ٢٦٦ بعدد أيام السنة، ويتناغم هذا مع الاعتقاد السائد بأن الخضر يجوب الأرض، ومن النادر أن يبقى في مكان واحد، وأنه خلال تجواله كان يطلب أحياناً أن يقام له مشهد أو مقام في هذا المكان أو ذاك. كما وتكثر دعاوى مشاهدة الخضر بين العلويين، سواء في المنامات أو في اليقظة، لاسيما في الظروف العسيرة وفي الحالات الحرجة التي تستدعي اتخاذ قرار صعب من قبل المرضى والمتحضرين. عندئذ يظهر الخضر للحظات وعادةً ما يكون صامتاً، إلا أن صاحب العلاقة يدرك فوراً أن أمراً عظيماً قد تحقق - أو سيتحقق - على يد الخضر تزامناً مع هذا الحضور المبارك^(٢).

❖ زاوية الخضر وإلياس:

ومن باب المناسبة نذكر أن هناك مزارات أخرى مرتبطة بالخضر دون أن ترتبط باسم مار جرجس ودون أن يكون لها قيمة خاصة لدى المسيحيين، ومن بينها

١. أو كيليكيا: منطقة جغرافية تاريخية تقع جنوب الأناضول على السواحل الجنوبية الشرقية لتركيا.

2. Gisela Prochazka-Eisel and Stephan Prochazka: The Plain of Saints and Prophets, The Nusayri-Alawi Community of Cilicia (Southern Turkey) and its Sacred Places, p 128-129.

ما يُعرف باسم «زاوية الخضر والياس»^(١) في عبادان الإيرانية.

وهذا المقام قديم، ذكره ابن بطوطة في رحلته حيث قال: (ثم ركب من ساحل البصرة في صنبوق^(٢)، وهو القارب الصغير، إلى الأبلّة^(٣)، وبينها وبين البصرة عشرة أميال، في بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار، والبياعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه. وفيما بين البصرة والأبلّة متعبد سهل بن عبدالله التستري^(٤)، فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي، ويدعون عند ذلك تبركاً بهذا الولي «عليه السلام» والنواتية^(٥) يحرفون^(٦) في هذه البلاد وهم قيام. وكانت الأبلّة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت، وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها، ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الأبلّة يسمى بمغامس، وذلك فيما بعد المغرب، فصبحنا عبادان، وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها، وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين، وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال. وعلى ساحل البحر منها رابطة تُعرف بالنسبة إلى الخضر والياس «عليهما السلام» وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة والزاوية، ويتعيشون من فتوحات^(٧) الناس، وكل من يمرّ بهم يتصدق عليهم^(٨)).

١. الزاوية والرباط والتكية وبيت الذكر والخانقاه كلها مصطلحات صوفية تدل على المكان الخاص بتجمع الصوفية لإقامة طقوسهم وشعائهم، ولكل اسم من الأسماء السابقة خصوصية عندهم من حيث حجم المكان وموقعه إلخ.

٢. وباللهجة الكويتية (سنبوك)، وهو مركب كان يصنع ويستعمل إلى عهد قريب.

٣. ميناء أنشئ قبل البصرة ويقع على ملتقى طرق التجارة من إيران والعراق والخليج العربي وفي زاوية الخليج الذي يدخل إلى البصرة. كانت تعرف باسم مدينة أبولوكس Apologus و Ubulum.

٤. من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري.

٥. أي البحارة.

٦. أي يمارسون حرفتهم في قيادة المراكب وهم قيام.

٧. أي عطايا الناس وصدقاتهم.

٨. ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ١٨٩-١٩٠.

❖ مقام الخضر في جامع الكوفة:

وفي جامع الكوفة الكبير مقام باسم الخضر، وهو ملاصقٌ لمقام آخر منسوب للنبي إبراهيم (عليه السلام). كما أن في نفس الجامع مقامات أخرى عديدة كمقام آدم (عليه السلام) ومقام نوح (عليه السلام) ومقام إدريس (عليه السلام) ومقام النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

وإدعاء هذه المقامات في هذا الجامع المشيّد في العهد الإسلامي «١٧ هـ» ينطلق من أحاديث مروية عن أهل البيت (عليهم السلام) وهي ضعيفة السند بأجمعها^(١)، ورواة بعضها من المتهمين بالغلو كالفضل بن عمر، ومن الضعفاء جداً كمحمد بن سنان وعمرو بن شمرو بن يزيد، ومن الكذّابين كالحسن بن علي بن أبي حمزة البطائني، كما أن بعضها يحتوي على مغالطات تاريخية.

ومن بين هذه الروايات الخبر التالي: (عن ابن نباته قال: بينا نحن ذات يوم حول أمير المؤمنين (عليه السلام) في مسجد الكوفة إذ قال: يا أهل الكوفة لقد حباكم الله عز وجل بما لم يحب به أحداً ففضل مصلاكم وهو بيت آدم، وبيت نوح، وبيت إدريس، ومصلّى إبراهيم الخليل، ومصلّى أخي الخضر (عليه السلام)، ومصلّاي، وإن مسجداً هذا أحد الأربع المساجد التي اختارها الله عز وجل لأهلها، وكأني به يوم القيامة في ثوبين أبيضين شبيه بالمحرم يشفع لأهله ولمن صلى فيه، فلا ترد شفاعته ولا تذهب الأيام حتى ينصب الحجر الأسود فيه، وليأتين عليه زمان يكون مصلّى المهدي من ولدي ومصلّى كل مؤمن، ولا يبقى على الأرض مؤمن إلا كان به أو حنّ قلبه إليه فلا تهجرن، وتقربوا إلى الله عز وجل بالصلاة فيه وارغبوا إليه في قضاء حوائجكم، فلو يعلم الناس ما فيه من البركة لأتوه من أقطار الأرض ولو حبوا على الثلج)^(٢).

وعن الفضل بن عمر قال: (كنت مع أبي عبد الله (عليه السلام) بالكوفة أيام قدّم

١. انظر الجزء الثاني من مشرعة بحار الأنوار لمحسني، تقييم أسانيد الباب ٦ من ج ٩٧ من البحار.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٣٨٩-٣٩٠.

على أبي العباس فلما انتهينا إلى الكناسة، فنظر عن يساره ثم قال: يا مفضل ههنا صُلب عمي زيد «رحمه الله» ثم مضى بأصحابه، ثم مضى حتى أتى طاق الرفائين وهو آخر السراجين فنزل، فقال لي: أنزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي خَطَّه آدم وأنا أكره أن أدخله راكباً، فقلت له: فمن غيَّره عن خطَّته؟ فقال: أما أول ذلك فالطوفان في زمن نوح، ثم غيَّره بعد أصحاب كسرى والنعمان بن منذر، ثم غيَّره زياد بن أبي سفيان. فقلت له: جعلت فداك وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح؟ فقال: نعم يا مفضل، وكان منزل نوح وقومه في قرية على متن الفرات مما يلي غربي الكوفة، فقال: وكان نوح رجلاً نجاراً فأرسله الله وانتجبه، ونوح أول من عمل سفينة فجرى على ظهر الماء، وإنَّ نوحاً لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ويدعوهم إلى الهدى فيمروّن به ويسخرون منه، فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾. إلى قوله ﴿إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(١). قال فأوحى الله إليه: يا نوح أن اصنع الفلك وأوسعها وعجل عملها بأعيننا ووحينا، فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده يأتي بالخشب من بعد حتى فرغ منها^(٢).

وعن أبي عبيدة، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (مسجد كوفان روضة من رياض الجنة، صلى فيه ألف نبي وسبعون نبياً، وميمنته رحمة، وميسرته مكرمة، فيه عصا موسى وشجرة يقطين وخاتم سليمان، ومنه فار التور، ونجرت السفينة، وهي صُرة بابل، ومجمع الأنبياء)^(٣).

وفي رواية حبة العرنى وميثم الكنانى: (أتى رجلُ علياً «عليه السلام» فقال: يا أمير المؤمنين إني تزودت زاداً وابتعت راحلة وقضيت بتاتي - يعني حوايجي - وأنطلق إلى بيت المقدس. فقال له «عليه السلام»: انطلق، فبِع راحلتك، وكل زادك، وعليك

١. القرآن الكريم: سورة نوح: ٢٦-٢٧.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٣٨٥-٣٨٦.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٣٨٩.

بمسجد الكوفة، فإنه أحد المساجد الأربعة، ركعتان فيه تعدلان كثيراً فيما سواه من المساجد، والبركة منه على رأس اثني عشر ميلاً من حيث ما جئته، وقد ترك من أسسه ألف ذراع، ومن زاويته فار التنور، وعند الأسطوانة الخامسة صلى إبراهيم الخليل، وصلى فيه ألف نبي، وألف وصي، وفيه عصا موسى وخاتم سليمان وشجرة يقطين، ووسطه روضة من رياض الجنة، وفيه ثلاثة أعين يزهرن عين من ماء، وعين من دهن، وعين من لبن، انبثت من ضفت تذهب الرجز وتطهر المؤمنين! ومنه سير جبل الأهواز، وفيه صلى نوح النبي (عليه السلام) وفيه أهلك يغوث ويعوق، ويحشر يوم القيامة منه سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ولا عذاب. جانبه الأيمن ذكر، وجانبه الأيسر مكر، ولو علم الناس ما فيه من الفضل لأتوه حبواً^(١).

وعن هارون بن خارجة قال: (قال لي الصادق (عليه السلام): كم بين منزلك وبين مسجد الكوفة؟ فأخبرته فقال: ما بقي ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبد صالح دخل الكوفة إلا وقد صلى فيه، وإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرَّ به ليلة أسري به فاستأذن له الملك فصلى فيه ركعتين، والصلاة الفريضة فيه الف صلاة والنافلة فيه خمسمائة صلاة، والجلوس فيه من غير تلاوة وقرآن عبادة، فأته ولو زحفاً^(٢)).

وعن ابن نباته قال: (كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يصلي عند الأسطوانة السابعة من باب الفيل مما يلي الصحن إذ أقبل رجل عليه بردان أخضران وله عقيصتان سوداوان أبيض اللحية، فلما سلم أمير المؤمنين من صلاته أكب عليه فقبَّل رأسه ثم أخذ بيده فأخرجه من باب كندة قال: فخرجنا مسرعين خلفهما ولم نأمن عليه فاستقبلنا (عليه السلام) في جارسوخ^(٣) كندة قد أقبل راجعاً، فقال:

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٣٩٤-٣٩٥.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٣٩١.

٣. الكلمة فارسية في أصلها وتتنطق (جارسوق) وهو الموضع المتفرع من السوق بحيث يمكن للفرد أن ينطلق منه إلى أربعة اتجاهات.

ما لكم؟ فقلنا: لم نأمن عليك هذا الفارس فقال: هذا أخي الخضر، ألم تروا حيث أكب علينا؟ قلنا: بلى، فقال: إنه قال لي: إنك في مدرة لا يريد لها جبار بسوء إلا قصمه الله، واحذر الناس، فخرجت معه لأشيّعه لأنه أراد الظَّهر^(١).

وكما هو واضح هنا، فلا علاقة لهذا المقام الموجود في جامع الكوفة بشخصية مار جرجس، ودون أن يكون لها قيمة خاصة لدى المسيحيين.

❖ مقام الخضر جنوب دمشق:

جاء في كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» لعمر بن أحمد المعروف بابن العديم «ت ٦٦٠هـ»: (قرأت بخط الحافظ أبي طاهر السلفي وأخبرنا به عنه إجازة أبو القاسم عبد الله بن الحسين بن رواحة قال: سمعت خمار تاش بن عبد الله البجني التركي في المشهد المجدد على باب دمشق، وسألته عن سبب بنائه فقال: كنت من شرار الأجناد وأوغادهم، فرأيت ليلة وأنا بحلب فيما يرى النائم كأن الخضر (عليه السلام) أتاني وأراني هذا الموضع، وكان على الجادة بين طريقتين، فقال: هذا موضع شريف، فاقصد فلاناً سماه خمار تاش وقل له حتى يبنى هذا مشهداً، وانظر وتبّه فمن هاهنا الى مشهد القدم مثل ما من هاهنا الى البلد، وعلى أحد جانبيك مغارة، وعلى الآخر ثلاث شجرات حتى لا تنسى وغاب عني فانتبهت وأنا مذعور، فقلت ومن أنا حتى أرى مثل هذا المنام؟ وسكت ولم أظهر شيئاً، فمضى على هذا زمان ثم رأيته في المنام فعاتبني وقال: لم لم تبلغ رسالتنا؟ فلما أصبحت تأهبت للسفر وجئت الى دمشق وذكرت للرجل ما قاله، فتوانى في ذلك وسكت أنا ولم أراجع، فرأيته في المنام ثالثاً وقال: بلغ الرسالة ولا بأس عليك وقل لهم: ههنا آبار ثلاث قد طمت، وقبور من قبور الصالحين قد انطمست. وأراني علامات، فنحن في الحديث وإذا قد ظهر رجل على فرس أشهب وعليه ثياب بيض وخلفه رجلان على زِيَّه، فقصده الخضر (عليه السلام)،

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٣٩٣. والظاهر أي ظهر الكوفة وهو النجف الشريف.

وسلم عليه وعليهما، واستقى من إحدى الآبار وشرب وشربوا، فلما ولى الرجل والليذان معه قال: تعلم من هذا؟ هذا خاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله) ومعه صاحبان له، فلما أصبحت قمت وقلت: ليس بعد هذا شك، وقصدت صاحب البلد وذكرت له القصة، فركب في عسكره وجاء فدلتته على البئر الأولى فضحك أمير من أمراء الدولة، فصاح عليه وزبره وأمر بحفر الموضعين فلم يحفروا كثيراً حتى ظهر حجر عظيم فنحوه وإذا البئر كما قيل لي، فكبروا واستقوا وشربوا منها وبنوا هذا المشهد، وقد تبت أنا وقعدت في هذا الموضع ولعل الله يغفر لي ذنوبي، وكان هناك نفر فشهدوا له بأن الامر كما ذكر، وأن الموضع به ظهر وقالوا: تعجب من ذلك أهل دمشق كلهم والاجناد^(١).

وهكذا تم تأسيس مشهد باسم الخضر جنوب دمشق خلال القرن الثاني عشر الميلادي، من دون أن يكون له في الأساس ارتباط بشخصية مار جرجس.

❖ مقام الخضر في فيلكا:

ومن بينها أيضاً ما كان يُعرف باسم مقام الخضر في جزيرة فيلكا التابعة لدولة الكويت.

حول الجزيرة وأهميتها التاريخية كتب كلٌّ من «هيلين ديفيد» و«كوني جوهان أزييتيا» في كتابهما «دليل أختام فيلكا - موقع الخضر» أنه: (مهما بدت جزيرة فيلكا صغيرة على الخرائط، فإنها تحظى بمكانة مهمة لا يُستهان بها في مسيرة الحضارة البشرية، فهي تحتضن العديد من المواقع الأثرية التي تروي لنا تاريخاً ضارباً في القدم يربو عمره على ٤٠٠٠ سنة، كما أنها مارست دوراً بارزاً عبر الزمن في العلاقات بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، وبين الأراضي المحيطة بها وسكان منطقة الخليج العربي، سهول وادي الرافدين، كذلك مناطق وادي السند^(٢)

١. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ٧، ص ٣٣٨١-٣٣٨٢.

٢. جزء من باكستان الحالية.

الغنية بإمكانياتها الزراعية، علاوة على الهضبة الإيرانية، وشبه جزيرة عمان، والتي تكمن ثرواتها في مواردها الغنية^(١).

ويذكر الكاتبان أيضاً أن هذه الجزيرة كانت تُسمى في الماضي باسم «أجاروم» Agarum أي أرض الإله «إنزاك»^(٢)، كبير آلهة دلمون، وأنها كانت محوراً للحضارات التي مدّت إشعاعها حول جزيرة البحرين من نهاية الألفية الثالثة إلى منتصف الألفية الأولى قبل ميلاد السيد المسيح، وفي الجزيرة العديد من الدلائل الآثرية لتلاقي وتفاعل الشعوب والبلدان في المنطقة، مثل المدن السومرية المزدهرة في وادي الرافدين.

وقبل الاستمرار في نقل ما ذكره الكاتبان لابد من التنبيه إلى أن دلمون حضارة قامت في جزيرة البحرين وشرق الجزيرة العربية، ومن بينها فيلكا نفسها، وعرفها السومريون بأرض الفردوس وأرض الخلود والحياة. ولكن في كتاب «معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم» للباحث محمد أبو المحاسن عصفور، نجد أنه عثر في سنة ١٨٧٩م على كتابة مسمارية في البحرين ترجع إلى العهد البابلي القديم في النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. وبها إشارة إلى قصر «رموم» عبد الإله إنزاك رئيس قبيلة أجاروم، وأنّ من المحتمل أن أجاروم القديمة هي قبيلة عربية بقي اسمها مستعملاً، وحُرِّف إلى «بني هجر» التي تقيم الآن في بقعة تجاور البحرين، كما يرجح أن هذا الاسم المحرف، هَجَر، كان يستعمل في العصور الوسطى للدلالة على منطقة الأحساء^(٣).

نعود إلى ما ذكره الكاتبان ديفيد وأزبيتيا حيث قالاً بأن الجدل ما زال دائراً فيما بين الأكاديميين حول ما إذا كانت فيلكا هي «جنة عدن» الوارد ذكرها في

١. ديفيد وأزبيتيا: دليل أختام فيلكا، ص ٦.

٢. إنزاك/ إنزاغ/ إنشاج/ إمشاغ: من الآلهة القديمة التي كانت تُعبد في بلاد الرافدين ونواحي من شرق الجزيرة العربية، وهو بحسب تصورهم ابن الإله أنكي.

٣. عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٢٦١.

قصة آدم وحواء في الكتاب المقدس، وفي قصة الملك السومري جلجامش وسعيه لاكتشاف سرّ الخلود في هذه الحياة.

وفي جنوب غرب الجزيرة موقع لمستوطنة كبيرة تعود إلى العصر الدلموني، وهي تشمل منطقة مزدحمة بالبيوت الخاصة التي تجمّعات حول مبنى ديني ومبنى كبير ربما استُخدم في أنشطة اقتصادية، وبجانبه معبد كبير، ويعود تاريخها جميعاً إلى ما قبل ٣٥٠٠ سنة تقريباً، كما يوجد موقع آخر مهم في الشمال الغربي من الجزيرة تم استيطانه أثناء الفترة الزمنية نفسها، وهو موقع الخضر.

وقد عُثر في الجزيرة، ولاسيما في موقع الخضر على أختام تعود إلى تلك الحقبة الزمنية الضاربة في القدم^(١)، بل وُجد في فيلكا أكبر عدد من الأختام ضمن حضارة دلمون، إذ تم حتّى إعداد الكتاب سنة ٢٠١٦ م تسجيل ٧١٧ من هذه الأختام ضمن مجموعة متحف الكويت الوطني، بالإضافة إلى ستة من نماذج طباعات الأختام على الصلصال أو القار.

وبالمقارنة بجزيرة البحرين التي لم يتم العثور فيها إلا على قرابة ٦٠٠ ختم، وهي الجزيرة التي تعتبر أكبر من فيلكا بأكثر من عشر مرات، كما تتضمن مسطحاتها التي تم التقيب فيها العديد من المقابر التي لا يوجد لها مثل في فيلكا، فإن ذلك يشكّل أمراً غامضاً^(٢).

ويمكن أن نضيف هنا أن الأساطير السومرية القديمة تذكر أن الإله (إنكي) أرسل ابنه الإله إنزاك ليكون إلهاً حارساً لدلمون، وملكاً عليها، وبالتالي فالإله إنزاك هو أول ملوك دلمون المملكة بحسب الأسطورة. ثم انفصل الملك عن الإله بعد الطوفان كما جاء في ملحمة جلجامش، وهبطت الملكية من السماء إلى الأرض ليختار الإله خادماً بشرياً له هو كاهنه الأكبر وجعله ملكاً أو سيّداً على البشر كما

١. سأضيف في نهاية الكتاب مجموعة من الصور المتعلقة بموقع الخضر قبل هدمه وبعض الأختام التي عثر عليها في ذلك الموقع.

٢. ديفيد وأزيبيتا: دليل أختام فيلكا، ص ٦-١٢.

تشير النصوص المسمارية التي ورد فيها اسم الملك الديلموني «رموم» باعتباره خادماً للإله إنزاك. وتذكر بعض المصادر أن مركز عبادته الرئيس كان في جزيرة فيلكا، حيث تم تكريس معبد له. ويُقرن بين إنزاك وبين النخلة باعتباره إله النخيل.

وحول أصل البناء الذي يُعرف بمقام الخضر كتب الباحث الأثري «جيفري بيبى» في كتابه «البحث عن دلمون» عن هذا المقام الذي زاره بنفسه ووصفه قائلاً: (مقام الخضر، بدا هناك مرتفع ضئيل جوانبه شديدة الانحدار، يقع على لسان صخري واطئ يرشّ الماء جوانبه الثلاثة وقد علا قمته سياج صغير مستدير على هيئة جدار بعلو خمسة أقدام وبفجوة شكلت مدخلاً ضيقاً، وحينما تسلقنا المرتفع، استطعنا أن نعرف أنه أكمة صناعية، وأنه كان تلاً صغيراً، وقد نتأت من جوانبه الأحجار المشكلة للأبنية القديمة من هنا وهناك، وأنتصب عمود حجري خشن، دون أي شيء آخر وسط سياج فوق القمة، لا يكاد يبلغ ستة أقدام من كل جانب، ولقد دلت الأعلام الصغيرة والرايات المثلثة وقصاصات القماش البراقة الألوان والمرفرفة التي ركزت وسط أحجار الجدار على أن المبنى كان مزاراً يحج إليه)^(١).

وحول البعد الزمني والتاريخي للمقام قال: (لم نتمكن أنفسنا من إيجاد أي دليل يحدّد زمن المقام، وتعود كسر الفخار الوافرة كلّها لأزمة حديثة، غير أننا لمحنا على مسافة لا تكاد تبعد أكثر من مائة ياردة من المقام هناك، أكمّتين كبيرتين مسطحتين، فاتجّهنّا إليهما، فوجدنا كسر الفخار الحمراء ذات الحواف العائد لحضارة باربار ملقاة عليهما)^(٢).

ويُسهب المؤلف في إعطاء هذا الامتداد التاريخي للموقع من خلال مجموعة من الأدلة والشواهد، معتبراً أن هذا مقام الخضر شُيّد في الواقع على أنقاض معبد يعود إلى فترة حضارة باربار، أي قبل المسيحية بل واليهودية، وأن أهل

١. جيفري بيبى: البحث عن دلمون: ترجمة أحمد عبيدلي، ص ٢٨٣.

٢. جيفري بيبى: البحث عن دلمون: ترجمة أحمد عبيدلي، ص ٢٨٤. وتعود هذه الحضارة الواقعة في البحرين إلى قبل أكثر من أربعة آلاف سنة.

الجزيرة كانوا يستمرّون في إعطاء الموقع بُعداً مقدّساً ولكن بعناوين ومعطيات جديدة بتبدل الدّين الذي يسود فيها: (كان هناك معبد «لإنزاك» على فيلكا، وكان هناك معبد «لأرتميس»^(١) قبل ألفين من السنين وكذلك مصنع لإنتاج التماثيل النذرية للآلهة والإلهات الإغريقية، وبدا كما لو أن فيلكا كانت لآلاف من السنين جزيرة مقدّسة، ولا تزال مكاناً يُحج إليه)^(٢).

وقد شدّه هذا العمق التاريخي للمكان للتفكير في شخصية الخضر وماهيتها لدى الشعوب القديمة وفي هذا الزمان بالصورة التي جعلت الناس يربطون بينها وبين هذا الموقع الذي يقصدونه: (وحيثما تمعّنت في الدلائل المتزايدة حول استمرار فيلكا لألوف من السنين كمكان مقدّس قرّرت أنه بات واجباً عليّ أن أنظر بتمعّن أكبر في شخصية الخضر)^(٣).

وكتب فرحان الفرحان: (أقيم التلّ الحجري الذي كان يُعرف بمقام الخضر في نهاية القرن الماضي، ويقال أن التي شيّده امرأة سعودية تدعى شاهة، كان قد تزوّجها أحد رجالات الجزيرة. وكانت هذه المرأة غنيّة تحب فعل الخير ومساعدة الناس، وكان الغرض من تشييدها لهذا البناء ليكون بمنزلة فئار عال لإرشاد السفن التي تمر بالقرب من الجزيرة، حيث إن المنطقة التي أقامت فيها هذا البناء تقع قبالتها داخل المياه صخور مرجانية وقطع صخرية خطيرة، كما كان بالقرب من هذا المكان أيضاً ميناء كبير يعرف بميناء سعيدة، كانت السفن التجارية الكبيرة ترسو فيه، لذلك أقامت هذا البناء ليكون علامة مميزة تسترشد بها السفن للتعرف على الجزيرة، ولأخذ الحيطه والحذر من الصخور الحجرية الخطرة القريبة من هذه المنطقة، وشيّدته من طابقين، وقسمته إلى غرف عديدة ليكون استراحة للبحارة الذين يرسون في الميناء، أو الذين يمرون

١. أرتميس من الآلهة القديمة التي كانت تُعبد في تلك الحضارة .

٢. جيفري بيبي: البحث عن دلمون: ترجمة أحمد عبيدلي، ص ٣٣٢ .

٣. جيفري بيبي: البحث عن دلمون: ترجمة أحمد عبيدلي، ص ٣٣٣ .

بالجزيرة، وكان هذا هو الغرض الأساسي الذي شُيّد من أجله هذا المبنى في بادية الأمر. ولكن بعد وفاة صاحبه في بداية هذا القرن، استولت على هذا المبنى امرأة أخرى وحولته إلى مزار يقصده الناس للتبرّك، وأقامت حجّتها بأنّ في هذا المكان تقع صخرة محفورة عليها أثر لإبريق وعصا وخطوة للرجل الصالح الذي يُعرف باسم الخضر، وأنه استراح في هذا المكان وصلى. ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا المكان مزاراً للعامة يقصدونه من مدينة الكويت وغيرها بالإضافة إلى أهالي الجزيرة... كان «لوريمر» العالم الانكليزي قد زار فيلكا وكتب عنها من ضمن ما كتب يقول في ذلك عن المزارات والمقامات التالي في كتابه الجغرافي عن الكويت: «وأخيراً يوجد مقام الخضر الذي يُرى من المراكب من ميناء الزور، وهو الآن برج دون سقف ومهدّد بأن يجور عليه البحر، ومما لوحظ هذا العام تخلف الإيرانيين عن هذه الزيارات»^(١).

ويذكر د. حسن جاسم أشكناني على صفحة «تراث الكويت» في الشبكة العنكبوتية أنه قد ورد اسم موقع الخضر في العديد من المصادر والمراجع التاريخية، لا سيما الأثرية منها. فقد ارتبط اسم موقع الخضر بجزيرة فيلكا ارتباطاً وثيقاً نظراً لاعتباره مزاراً أو مرقداً يقصده الكثير من الناس من منطلق ديني.

حيث ذكر المؤرخ عبدالعزيز الرشيد في كتابه «تاريخ الكويت» أن موقع الخضر يُعدّ مزاراً يقصدها العامة، فيذبّحون لها ويبتهلون بالأدعية وطلب العلاج وقضاء الحاجيات ويستغيثون بها في رد الغائب.

وقد سمى الباحث خالد سالم محمد في كتابيه «جزيرة فيلكا صفحات من الماضي» و«صور من الحياة القديمة في جزيرة فيلكا» موقع الخضر بمقام الخضر والذي كان يُعدّ من أهم الأماكن التي كان يقصدها الناس وذلك لقضاء نذورهم وطلب الحاجة من الله. وأضاف أن المقام عبارة عن تلّ حجري غرضه أن يكون

١. من مقال بعنوان: (ابن بطوطة وخضر فيلكا) لفرحان الفرحان نشر بجريدة القبس الكويتية بتاريخ ٢٠٠٧/٢/٢. وقد هدم هذا المقام في منتصف السبعينيات من القرن الماضي.

فناًراً لإرشاد السفن، نظراً لوقوعه قرب ميناء سعيدة، وكان يتكوّن من دورين وعدة غرف وذلك لاستراحة البحارة عند رسوهم بالجزيرة. وفي عام ٢٠٠٤ قامت البعثة السلوفاكية والكويتية المشتركة بالعثور على ميناء قديم يعود إلى الفترة الدلمونية القديمة، وقد تم العثور على الكثير من الفخاريات والاختام الدلمونية وكذلك على حبوب وعظام أسماك أعطت الكثير من المعلومات حول النشاط اليومي لحياة الإنسان في الجزيرة في تلك الفترة^(١).

ومن كل ما سبق، فإنّ ما يُمكن تصوّره حول مقام الخضر في فيلكا أنّه لربما كان في الأساس معبداً تاريخياً يعود إلى ما قبل أكثر من ٣٠٠٠ سنة، ومخصصاً لأحد أو بعض الآلهة، ولربما لخصوص إنزاك، خاصة وأنني قدّمت بأن المركز الرئيس لعبادة إنزاك كان في جزيرة فيلكا، وأن الإله إنزاك هو إله النخيل، والنخلة شجرة دائمة الخضرة، وهي نفس دلالة معنى اسم الخضر!

ثم إن للإله إنزاك أختاً مزعومة هي الإلهة «نانشة/نانشي/ نانسي/ نازي» ابنة أنكي، ويُرْمَز لها بسمكة لأنها إلهة السمك وصيد الأسماك^(٢). تم تكليف والد نانشة، إنكي، بتنظيم العالم وتخصيص وظيفة لكل إله، فتّم تعيين نانشي للقيام بمهمة حكم الخليج العربي، وكوظيفة ثانوية، كان عليها التأكّد من وصول شحنات الأسماك إلى البر الرئيسي.

والطريف في البين أنني عند مشاركتي في حلقة نقاشية حول جزيرة فيلكا ومقام الخضر بإدارة الأستاذ الباحث الكويتي محمد السعيد، وبمعيّتي نسخة من كتابي هذا في طبعته الأولى، تحدّث السعيد عن قيام الإلهة نانشة بمساعدة أخيها إنزاك حيث كانت تجوب به في البحر، وأنها كانت تُصوّر عند السومريين برمز السمكة، حينها استأذنت السعيد في إظهار غلاف كتابي هذا والذي يصوّر الخضر على ظهر سمكة وهو يجوب البحر، وهي لوحة فنية تعود إلى العهد الإسلامي، إنها

1. www.kuwaitheritage.com

٢. الماجدي: المثلوجيا السومرية، ص ٣١٦.

نفس الرواية الأسطورية السومرية عن إنزاك ونانشة تحوّلت إلى الخضر والسمة! بل إنّ اللوحة الفنية التي تصوّر الخضر على ظهر سمكة تحتوي على نفس نوعية السمة ورمزها وشكلها كما جاء في كتاب «المثولوجيا السومرية» للباحث الدكتور خزعل الماجدي، ويمكن المقارنة بينهما في ملحق الصور من كتابي هذا.

كل هذا يقوّي فرضيتي بأن مقام الخضر في هذه الجزيرة هو في الأصل معبد الإله الدلموني إنزاك لا غير، وفي العهد الإسلامي تحوّل إنزاك إله النخلة دائمة الخضرة إلى الخضر.

وعلى كل حال، فقد بُني المعبّد على تلة تُقابل الميناء الكبير لجزيرة فيلكا، بحيث يستقبل هذا المعبّد السفن القادمة لها «ليبارك» رحلتها. وحيث تحوّل أهل الجزيرة إلى المسيحية لاحقاً، ومن ثم إلى الإسلام، فقد انتهت دلالة الموقع على ذلك المعتقد الوثني القديم جداً، وتحوّل في ذاكرة أهل الجزيرة إلى موقع يحمل عنواناً إسلامياً ارتبط بشخصية غامضة ضاربة في عمق التاريخ منذ آلاف السنين هي شخصية الخضر الذي ما زال حياً يتنقّل من مكان إلى آخر، خصوصاً عندما يجد الأهالي ارتباطاً بين مفردة من مفردات شخصيات أسطورية قديمة مثل تلك الواردة في قصة جلجامش، وبين شخصية الخضر في تصوّرها الإسلامي، والذي استطاع أن يجد نبتة الخلود التي كان يبحث عنها الملك السومري. وبين الإله الدلموني والأسطورة السومرية وشخصية الخضر وُلد المقام في زمن ما على أنقاض المعبّد القديم، وهي الصورة المتكرّرة في أكثر من موقع منسوب إلى الخضر في العالم الإسلامي وخارجه.

❖ مسجد الخضر في تاروت:

وفي جزيرة تاروت في القطيف موقع آخر منسوب إلى الخضر، هو عبارة عن مسجد باسمه، ويقع بين مثلث بلدة تاروت وسنابس ودارين محاذياً لبلدة الربيعية من الجنوب، في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وفي المخيطة الشعبية

هناك أن للخضر نوعاً من الارتباط بهذا المكان، والذي يمثل بالنسبة إليه محطة من محطات السفر بين العراق والحجاز، وبالعكس، معتبرين أن يوم الثلاثاء هو يوم سفره المحدد، وأن لديه القدرة على أن يطير بنفسه ليطوي هذه المسافة البعيدة في وقت قياسي، مصحوباً بهالة من النور التي ادّعى البعض أنه قد شاهدها فعلاً في السماء.

وحول هذا الموقع التاريخي كتب جعفر البحراني: (يعتقد أهالي جزيرة تاروت أن في جزيرتهم ثلاثة مساجد اتفقوا على أنها مباركة ولها قدسية وخصوصية معينة هي مسجد الخضر ومسجد الشيخ علاء ومسجد الشيخ محمد المبارك، ولربما اختفت خصوصية المسجدين الأخيرين وبقت خصوصية مسجد الخضر ولا زالت مستمرة، ومع تقلصها وتغير نظرة الناس نظراً لتغير الظروف والطقوس التابعة لها، إلا أن شيئاً من الوهج والقداسة لا زال يحيط بالمسجد مع كل ذلك التغير. فالناس قبل ما يقارب ٢٥ عاماً عندما كانت الكتابات تخرج مجموعة من حفظة القرآن كان الاحتفال بهذا التخرج لا يتم إلا هناك حيث يتوافد الكثير من الناس في موسم معين مع ذويهم ومعلماتهم ومعلميهم فتُذبح الذبائح، وتحضر الولائم لهذا الشأن العظيم، وفضلاً عن ذلك فإن النذور التي يقيمها الناس، سواء في تاروت ودارين والزور في داخل الجزيرة أو من خارجها سواء في نواحي القطيف الأخرى، لم تكن تتوقف في يوم من الأيام، وغالباً كانت تشكل نوعاً من المهرجانات العامة التي يحيونها بنوع خاص للأفراح والابتهاج)^(١).

وأضاف الكاتب أن من الباحثين من اعتبر أن خصوصية هذا المكان أقدم من العهد الإسلامي: (وكون التشابه كبير بين مسجد الخضر في جزيرة فيلكه ومسجد الخضر في جزيرة تاروت، حيث يقع كلاهما في جزيرة، وفوق تل ركامي قريب من البحر، وفي مكان بعيد عن المنازل، يرجح بعض الباحثين أن موقعه القصي

١. مقال لجعفر البحراني تحت عنوان مسجد الخضر عليه السلام.. تاريخ عريق وخصوصية غائرة في القدم. مجلة الواحة الإلكترونية العدد ٢٢ .

- وهو أمر لا يمكن تأكيده الآن - كان يشكل محجاً للمسيحيين ^(١) الذين يعتقدون المذهب النسطوري - وهو المذهب الذي يعتقد أنه كان سائداً في المنطقة قبل الإسلام - خصوصاً وأنهم يعتقدون أن مكان العبادة يجب أن يكون بعيداً يقصده الناس ويسعون إليه من أجل أن يكون القصد والسعي خالصاً للعبادة، وأن وجوده قرب البحر يجعله في مكان مكشوف من أجل التفكير وغير ذلك من الشؤون العبادية الأخرى. ويعتقد الباحثون أيضاً أن المعبد كانت له أسطورة معينة اختفت مع دخول الإسلام، وبقيت قداسة المكان وخصوصيته التي توارثتها الأجيال ^(٢).

بل إن الكاتب اعتبر أن من الممكن الربط بين مقام الخضر في الكويت والمسجد المنسوب إليه في تاروت، وأن هذا الارتباط ممتد في التاريخ إلى حضارة باربار الوثنية التي تعود إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، وليس فقط إلى العهد الذي انتشر فيه المذهب النسطوري المسيحي في المنطقة.

ويمكن الموافقة على مثل هذا التحليل انطلاقاً من تطويع سمة المكان وعنوانه وفق التبدلات الحضارية، مع بقاء سمة القداسة الخاصة به في الذهنية الشعبية، كأن يكون المكان في الأساس معبداً للإله ما ضمن حضارة من الحضارات الوثنية، وترتبط بهذا الإله المزعوم قصص وأساطير ذات أبعاد غيبية وخارقة، ثم بتبدل الحال وامتداد حضارة كالمسيحية في المنطقة، يُبقي الناس للمكان اعتباره متمسكين بإرثهم الثقافي وبعاداتهم وتقاليدهم، ويتبدل الاسم أو العنوان، ولربما يتحول من نسبة لإله إلى نسبة لشخصية من شخصيات هذا الدين السماوي، ومن جديد مع تبدل الحال وامتداد الحضارة الإسلامية، يحافظ المجتمع على تقاليده وموروثاته ويطوِّعها بنحو ما مع الدين الجديد الذي تبناه، ولربما يُضفي عليها شيئاً من خصوصيات الإسلام، ويضع في ذلك بعض النصوص ليتحول الموقع إلى

١. من جديد، هل للأمر علاقة بشخصية الخضر عند المسيحيين والمتمثلة في القديس جرجس، لتنتقل في العهد الإسلامي لترتبط بالخضر كما يتصوره المسلمون؟ الأمر فعلاً ملفت للنظر .

٢. مقال لجعفر البجراني تحت عنوان مسجد الخضر .. تاريخ عريق وخصوصية غائرة في القدم. مجلة الواحة الإلكترونية العدد ٢٢ .

موقع مقدس ذي صبغة إسلامية واسم جديد من وحي التراث الإسلامي^(١)، وتبقى بعض القصص والأساطير القديمة حاضرة في ارتباطها بالمكان، وإن كانت بأسماء جديدة وتفاصيل محوَّرة.

وليس هذا بالمستغرب، ولا هو بالأمر الفريد، فالشواهد على ذلك كثيرة، ولا تخص الحضارة الإسلامية، ولا المنطقة العربية، ففي البيرو بأمریکا الجنوبية مثلاً، مازال صنّاع الملح في الجبال الشاهقة يقومون بطقوس معينة عند نبع الماء المتفجر في الجبل، يمزجون فيها بين عقيدتهم الحالية، وهي المسيحية الكاثوليكية، وبين عقيدتهم الوثنية السابقة، فيبتهلون إلى السيد المسيح «عليه السلام» من جهة، ويتقربون - في نفس الوقت - بالندور إلى الإله الذي كانوا ومازالوا يعتقدون بأنه المسؤول عن هبة الماء والملح إليهم، والذي يمثل بالنسبة إليهم عصب الحياة الاقتصادية عبر الزمان.

وقد اطلعنا في صفحات سابقة كيف تحوّلت مواقع مقدسة لها علاقة بشخصية الخضر وفق التصور المسيحي «القديس مار جرجس» إلى مواقع مقدسة لدى المسلمين من أهالي تلك المناطق وتحافظ على نسبتها للخضر ولكن ضمن الطابع الإسلامي للشخصية هذه المرة، مع استمرار تلك المجتمعات بإحياء ذكرى الشخصية التي يُنسب إليها الموقع «المقدس» ضمن التصورين المختلفين وفي يوم واحد!

وأنا أميل إلى القول بأن الكثير - ولربما أغلب - المواقع المنسوبة إلى الخضر تمتد في عمرها الزمني إلى ما قبل الإسلام، وأنها إنما اكتسبت في العهد الإسلامي صبغتها الإسلامية من خلال عملية التطويع ووضع النصوص وادعاءات المنامات وأمثال ذلك من مناحي صياغة الثقافة الشعبية لدى الأمم، والتي لا تعتمد على

١. لاحظ مثلاً كيف استطاع الفرس تطويع عيد النوروز الذي هو من موروّثاتهم الثقافية القديمة ليُصبح عيداً له حضوره في العهد الإسلامي في مجتمعاتهم، بل ووضع له في كتب التراث الإسلامي من النصوص ما يجعل له بُعداً إسلامياً أيضاً، كأن يروى استحباب الغُسل في ذلك اليوم على سبيل المثال.

الأسلوب العلمي في تبني الأفكار والمعتقدات بقدر ميلها إلى الأسطورة والخرافة والأخبار الموهولة والمنامات والكرامات الوهمية وأمثال ذلك، خلافاً للوصية الإلهية: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١)، لتكتسب بمرور الزمان هالة من القداسة والحقيقة الساطعة، ولتتحول القصص والأساطير والمنامات إلى نصوص دينية مقدسة وتعاليم شرعية مسلم بها.

❖ مقام خضر إلياس ببغداد:

ويمكن أن يكون مقام «خضر إلياس»^(٢) في بغداد شاهداً آخر على ما ذكرناه، فلهذا المقام مراسيم زيارة أسبوعية خاصة به، وهي ممتدة عبر القرون. ففي كل يوم خميس، وأثناء السير على جسر الشهداء أو على ضفاف نهر دجلة، يمكن مشاهدة ألواح خشبية تحمل شموعاً موقدة تطفو على سطح النهر، من صوب الكرخ، حيث يقع مقام الخضر في مسجد صغير يسمى مسجد خضر إلياس والتي عُرفت المحلة باسمه.

أغلب رواد هذا المقام من النساء، عجائز و صبايا، عذراوات أو متزوجات، لا تجمعهن سوى الأماني، ففي زيارة المقام تتبرك النساء وينذرن «صينية خضر إلياس» لتحقيق المراد، ويطلقن الشموع إلى وسط نهر دجلة بعد إشعالها على ألواح طافية، وهي إحتفاليات كثيراً ما تنتهي بإقامة الولائم ليعبرن بها عن الامتنان. فمن أين جاءت قداسة هذا المقام ونسبته؟ كتب الباحث الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف صاحب كتاب «الأصول التاريخية لمحلات بغداد» قائلاً: (وكان هذا المسجد في العصر العباسي رباطاً للصوفية)^(٣)، عُرف برباط الأخلاطية، نسبة إلى مؤسسته «سلجوقي خاتون الأخلاطية»، زوجة الناصر لدين الله العباسي،

١. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ٣٦ .

٢. لاحظ الربط بين اسمي الخضر وإلياس، وهو الارتباط الذي سعى البعض لتأكيد وحدة الشخصية من خلاله.

٣. سنذكر في الفصل الخامس حقيقة الارتباط بين الخضر والصوفية وتأثير ذلك على الكثير مما وصلنا وترسخ في الثقافة الإسلامية مما له علاقة بالخضر .

المتوفاة ١١٨٨ م، بنت قليج أرسلان السلجوقي، ورباطها الذي ضم خزانة كتب جليلة وقفها الخليفة الناصر، وظلت مدة تُعرف بتكية «قلج أرسلان»، لتَلَفِ الكتابة التي تشير إلى اسم ابنته. وقد لبثت عمارة هذا الرباط عامرة حتى أول عهد الدولة العثمانية في العراق إذ اتخذها الجنود البنكجيرية «الانكشارية» تكية لطريقتهم الصوفية المعروفة بالبكتاشية وهي التي ينتسبون إليها، ويحملون شعائرها، بل عرفت المنطقة حول هذه التكية بمحلة البكتاشية نسبة إليها... وقد كشفت أعمال الحفر لأسس الجسر الحديث الذي شُيّد هناك عن أن التكية كانت تقوم على أسس مسناة^(١) ضخمة بُنيت بقطع من الآجر عليه اسم الملك «نبوخذ نصر» من الدولة البابلية الثانية^(٢).

وهكذا يعود بنا التاريخ إلى عهد الدولة البابلية ما قبل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون، حيث الملك القوي نبوخذ نصر وقصة السبي البابلي لليهود وغير ذلك من أحداث جرت على عهده.. فهل لكل هذا علاقة بقداسة المكان إلى ما قبل العهد الإسلامي؟

وما تأثير الصوفية في الإبقاء على قداسة المكان التي توارثها أهل تلك المحلة عبر القرون المتتالية، لاسيما وقد عُرف عنهم العمل على تطويع الموروثات والعقائد الشعبية والدينية الحاضرة ضمن رؤيتهم الصوفية وبروحية تصالحية تجتذب من خلالها الناس وتستمر عن طريقها تلك الموروثات والعادات وإن أصبحت بصيغة أو مسميات جديدة؟ وهل يمكن ربط طريقة تقديم النذور والشموع الطافية على نهر دجلة والارتباط بطقوس معينة في يوم محدد من الأسبوع ولأغراض ذات علاقة بمطالب نسائية، من قبيل الزواج والإنجاب، وكلها بعيدة عن أية تعاليم إسلامية

١. المسناة عبارة عن جدار مطل على نهر دجلة لازالت بقاياه قائمة تحت جسر باب المعظم، مبنى بالآجر البابلي المختوم باسم الملك نبوخذ نصر، وقد عثر عليه المنقب السير هنري رولسن سنة ١٨٤٨م وكانت دجلة قد جز مائها في تلك السنة..

٢. من مقال بعنوان: محلة خضر إلياس في بغداد، تأريخ وطقوس للكاتب محمد مجيد والمنشور في جريدة المستشار الإلكترونية بتاريخ ١٢ يناير ٢٠١٥ نقلاً عن الكتاب المذكور أعلاه.

ونصوص شرعية عند مختلف المذاهب الإسلامية، بممارسة شعبية قديمة تعود إلى العهد البابلي والمعتقدات الوثنية التي كانت سائدة آنذاك؟

كتب أحمد سوسة في «تاريخ حضارة وادي الرافدين» أن السومريين والأكاديين والبابليين كانوا يعتقدون: (أن الفيضان بمثابة غضب الآلهة على فساد البشر وأثامهم وخطاياهم، فتقديم القرابين يخفف من غضب الآلهة عليهم، وما زالت معتقدات القرابين تمارس بصور شتى، ويقدم النساء النذر إلى - خضر إلياس - الذي يُعتقد أنه سلطان الماء وحامي الأنهار، فتوقد له الشموع ويجري تثبيتها على لوح خشبي صغير - كربة النخلة - ويجري وضعها في اتجاه تيار مياه النهر. والعادة أن تُشعل هذه الشموع ليلة الجمعة وهي أفضل الليالي وتُسِير في وسط النهر مع تيار المياه)^(١).

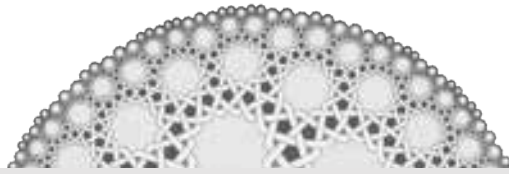
❖ جرجس والعبد الصالح:

وعودة إلى أصل الموضوع الذي ناقشناه في هذا القسم والمتعلق بالقدّيس مار جرجس ومدى إمكانية اتحاده مع شخصية الخضر أو العبد الصالح في قصة النبي موسى (عليه السلام)، فقد اتضح أن هذا القدّيس شخصية حقيقية وُلدت وعاشت في زمن الفترة^(٢) ما بين عهد النبي عيسى (عليه السلام) ونبينا محمد (صلى الله عليه وآله) ولا علاقة له بالقصة القرآنية التي دارت بين النبي موسى والعبد الصالح، أي الخضر وفق الرأي الشائع، وإن حمل اسم «جرجس» معنى: الفلاح والرجل الأخضر، لتتحد الشخصيتان في شخصية واحدة في المخيلة الشعبية، ولربما كان للمتصوفة الدور الأكبر في تقديمه بهذه الصورة كما سنعرف لاحقاً، وهو ما يوضح سبب الخلط الحاصل في الكتابات العديدة والمنقولات الشعبية والاحتفالات والمقامات والتكايا والمناسبات المسيحية الإسلامية المشتركة عبر التاريخ والتي تذكر اسم الخضر

١. أحمد سوسة: تاريخ حضارة وادي الرافدين، ج ١، ص ٤٤٤.

٢. عرف هذا العهد باسم زمن الفترة انطلاقاً من قوله (عز وجل): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ﴾ (المائدة: ١٩).

كمترادف لجرجس أو جورجوس أو سائر الأسماء التي عُرفت بها هذه الشخصية عند المسيحيين، مما يعطي انطباعاً على أن اتحاد الشخصيتين أمر مشهور في التاريخ العربي والإسلامي.. بينما الواقع أن بين أيدينا شخصية عاشت في زمن النبي موسى (عليه السلام)، ويقال أنه حي ويلقب بالخضر.. وشخصية أخرى عاشت في زمن الفترة ما بين عهد النبيين عيسى ومحمد (عليهما السلام)، وهي شخصية القديس جرجس، وقد مات شهيداً بحسب التاريخ المسيحي.



الفصل الرابع



الخضر في التراث الإسلامي

وصلنا في الفصل السابق إلى أن شخصية العبد الصالح - أي الخضر وفق الرأي المشهور - في القصة القرآنية مختلفة عن النبي إيليا (عليه السلام)، وعن القديس مار جرجس، وبالتالي تسقط مقولات اتحاد شخصية العبد الصالح مع أحدهما أو كليهما، ويبقى أن نبحث في شخصية الخضر ذاته كشخصية مستقلة. لا بلحاذ كونه العبد الصالح في القصة القرآنية. وهي الشخصية التي ورد ذكرها في التراث الإسلامي بكثرة، بل وله مقامات ومزارات مشهورة في بلدان منطقة الشرق الأوسط، كما ويحتفل أهالي العديد من هذه البلدان كل سنة إحياءً لذكرى معينة ترتبط بهذه الشخصية الغامضة.

❖ مقدمة:

قال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي: (طال البحث عن شخصية الخضر بين القوم كما في مطولات التفاسير وتكاثر القصص والحكايات في رؤيته، ومع ذلك لا تخلو الأخبار والقصص عن أساطير موضوعة أو مفسوسة)^(١). وقد ورد ذكر هذه الشخصية في العديد من النصوص المروية في كتب المسلمين،

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٣٨.

عن النبي وآله والصحابة والعلماء وأقطاب التصوف ومشايخه ومن عامة الناس. وفي إطار مصادر المسلمين الشيعة الإمامية - الإثني عشرية - التي اطلعت عليها قدر وسعي، لم أجد نصاً واحداً يمكن أخذه بعين الاعتبار من ناحية السند، بل أكثرها نصوص واضحة الضعف سنداً، أو هي من المرسلات أو ذات الأسانيد المقطوعة، أو منقولة عن كتب مجهولة المصدر أو لم تثبت نسبتها أو نسبة النسخ المتوفرة منها لمؤلفيها. وحتى لو حاول البعض أن يقوّي سند رواية ما، فإنه سيصطدم بمتن متعارض مع القرآن أو مع العقل.

وأما عند أهل السنة فإن دراسة الأسانيد ستختلف كلية، فالحكم على سند الأخبار بالصحة أو الضعف أو غير ذلك موكول إلى نظرية الأخذ بكل ما جاء في صحيح البخاري ومسلم - بل وكل الصحاح - أو نقد هذه النظرية، علاوة على بحوث أخرى ترتبط بالجرح والتعديل وهو ما لا أريد الخوض فيه من خلال هذا الكتاب، وأوكل أمره إلى أصحاب الاختصاص من علماء ومحققي أهل السنة.

وسأستعرض في هذا الفصل ما أمكن من نصوص تحدثت عن هذه الشخصية الغامضة والمثيرة، وسيجد فيها القارئ الكثير من التعارض والتخبط والتصورات الخرافية والاستنتاجات الشخصية للرواة والتشابه الكبير مع شخصيات وأحداث أسطورية آمنت بها الشعوب الوثنية القديمة وكانت جزء من تراثها الثقافى المروي والمدون. ومع مثل هذه الملاحظات لا تسكن النفس لقبول تلك المرويات المبنوثة في كتب التراث الإسلامى.

❖ اسم الخضر ونسبه:

قال ابن حجر في «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» بعد الحديث حول الخلاف عن سبب تسميته بالخضر: (والخضر قد اختلف في اسمه قبل ذلك^(١)) وفي اسم أبيه وفي نسبه وفي نبوته وفي تعميره، فقال وهب بن منبه: هو بليا بفتح الموحدة

١. أي قبل الاختلاف في سبب تلقيبه بالخضر.

وسكون اللام بعدها تحتانية. ووجد بخط الدمياطي في أول الاسم بنقطتين، وقيل كالأول بزيادة ألف بعد الباء، وقيل: اسمه إلياس، وقيل: اليسع، وقيل: عامر، وقيل: خضرون، والأول أثبت. ابن ملكان^(١) ابن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفشخد بن سام بن نوح. فعلى هذا فمولده قبل إبراهيم الخليل لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم. وقد حكى الثعلبي قولين في أنه كان قبل الخليل أو بعده. قال وهب: وكنيته أبو العباس. وروى الدارقطني في الأفراد من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال: هو ابن آدم لصلبه. وهو ضعيف منقطع. وذكر أبو حاتم السجستاني في المعمرين: إنه ابن قابيل بن آدم، رواه عن أبي عبيدة وغيره، وقيل: اسمه أرميا بن طيفاء. حكاه ابن إسحاق عن وهب، وإرميا بكسر أوله، وقيل بضمه، وأشبعها بعضهم واواً. واختلف في اسم أبيه فقليل ملكان، وقيل: كلمان، وقيل: عاميل، وقيل: قابل، والأول أشهر. وعن إسماعيل بن أبي أويس: هو المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد. وحكى السهيلي عن قوم: إنه كان ملكاً من الملائكة وليس من بني آدم. وعن ابن لهيعة: كان ابن فرعون نفسه، وقيل: ابن بنت فرعون. وقيل: اسمه خضرون بن عايل بن معمر بن عيصو ابن إسحاق بن إبراهيم. وقيل: كان أبوه فارسياً، رواه الطبري من طريق عبد الله بن شوذب. وحكى ابن ظفر في تفسيره أنه كان من ذرية بعض من آمن بإبراهيم^(٢).

وقال الصدوق في «كمال الدين»: (كان اسم الخضر خضرويه بن قابيل ابن آدم عليه السلام)، ويقال له خضرون أيضاً، ويقال له جعدا^(٣).

ومما سبق يتضح وجود اختلاف كبير في تحديد اسمه واسم أبيه ونسبه، فالاسم مردد بين: ١. بلياً / ٢. تلياً / ٣. بالياً / ٤. إلياس / ٥. اليسع / ٦. عامر

١. هذا الاسم المدعى لوالد الخضر.

٢. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٣٤.

٣. الصدوق: كمال الدين، ص ٣٩١. إلا أن المجلسي في بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٠٣ نقل عن الصدوق في الكتاب نفسه قوله: (كان اسم الخضر خضرويه بن قابيل بن آدم، ويقال: خضرون أيضاً، و يقال: خلعباً... والصحيح أن اسمه إلياس بن ملكان بن عامر بن أرفشخد بن سام بن نوح).

/ ٧. خضرون / ٨. أرميا / ٩. إرميا / ١٠. أرميا / ١١. أورميا / ١٢. المعمر / ١٣. خضرويه / ١٤. جعدا / ١٥. خلعبا.

أما اسم أبيه فمردد بين الأسماء التالية: ١. ملكان / ٢. آدم / ٣. قابيل / ٤. طيفاء / ٥. كلمان / ٦. عاميل / ٧. قابل / ٨. مالك / ٩. عاييل / ١٠. فرعون.

أما الاختلاف في نسبه فكما يلي: ١. ملك من الملائكة / ٢. ابن آدم أبي البشرية / ٣. ابن قابيل بن آدم أبي البشرية / ٤. ابن عم جد إبراهيم الخليل، فهو: ابن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفشخد بن سام بن نوح / ٥. من أحفاد نوح «عليه السلام»، فهو ابن ملكان بن عامر بن أرفشخد بن سام بن نوح / ٦. من الأزديين العرب، فهو: ابن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد / ٧. ابن فرعون مصر المعاصر للنبي موسى / ٨. ابن بنت فرعون مصر المعاصر للنبي موسى / ٩. حفيد النبي إسحق من ابنه عيصو، فهو: ابن عاييل بن معمر بن عيصو ابن إسحاق بن إبراهيم / ١٠. فارسي النسب دون تحديد / ١١. من ذرية بعض من آمن بإبراهيم الخليل عليه السلام دون تحديد للنسب.

❖ سبب تلقيبه بالخضر:

وهكذا وقع الاختلاف في كتب التراث الإسلامي حول سبب تلقيبه بالخضر، ومن تلك الأسباب:

١. لأنه جلس على بقعة من الأرض بيضاء لا نبات فيها فإذا هي تهتز وتقلب تحته خضراء نضرة. قال النووي في شرح صحيح مسلم: (واختلفوا في لقبه الخضر، فقال الأكثرون لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء. والفروة وجه الأرض). وبعد أن صوّب هذا الرأي علل ذلك بقوله: (فقد صح في البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)^(١).

١. النووي: شرح صحيح مسلم، شرح الحديث رقم ٢٣٧٩.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يحيى ابن آدم ثنا ابن مبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله في الخضر قال: (إنما سُمِّي خضراً أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تحته تهتز خضراء)^(١).

وفي صحيح البخاري: حدثنا محمد بن سعيد ابن الأصبهاني أخبرنا ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)^(٢).

قال ابن حجر في «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»: (وقد زاد عبد الرزاق في مصنفه بعد أن أخرجه بهذا الإسناد: الفروة، الحشيش الأبيض وما أشبهه. قال عبد الله بن أحمد بعد أن رواه عن أبيه^(٣) عنه: أظن هذا تفسيراً من عبد الرزاق. انتهى. وجزم بذلك عياض، وقال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش. وهذا موافق لقول عبد الرزاق. وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات. وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه)^(٤).

٢. لأنه كان لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراء، وقد روى هذا المعنى الصدوق في «علل الشرائع» عن القطان، عن السكري، عن الجوهري، عن ابن عمار، عن أبيه، عن جعفر بن محمد «عليه السلام» أنه قال: (إن الخضر كان نبياً مرسلأ بعثه الله عز وجل إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه، وكانت آيته أنه كان لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراء، وإنما سمي خضراً لذلك)^(٥). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بالقطان وغيره.

١. ابن حنبل: المسند الجامع، ج ٢، ص ٣١٢.

٢. البخاري: الجامع الصحيح، ح ٣٢٢١.

٣. أي الإمام أحمد بن حنبل.

٤. ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٣٣.

٥. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٦٠.

٣. ونقل النووي قولاً آخر في ذلك له علاقة بصلاة الخضر، ولكنه ضَعَفه، قال: (قيل: لأنه كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله) ^(١).

❖ هل كان نبياً؟

ذكر العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره تحت عنوان «قصة الخضر (عليه السلام)» أنه لم يرد ذكره في القرآن إلا ما في قصة رحلة موسى إلى مجمع البحرين ^(٢)، ولا ذُكر شيءٌ من جوامع أوصافه إلا ما في قول الله (عز وجل): ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ^(٣) من السورة والذي يتحصل من الروايات النبوية أو الواردة من طرق أئمة أهل البيت في قصته ^(٤)، ففي رواية محمد بن عمار عن الصادق (عليه السلام): (أن الخضر كان نبياً مرسلأ بعثه الله (عز وجل) إلى قومه فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه، وكانت آيته أنه لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراء وإنما سمي خضرأ لذلك، وكان اسمه تاليا بن مالك بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح...).

وقال العلامة أن مما يؤيد ما ذكر من وجه تسميته ما في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس وأبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (إنما سمي الخضر خضرأ لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء).

وأن في بعض الأخبار كما فيما رواه العياشي عن بريد عن أحدهما (عليهما السلام): (الخضر وذو القرنين كانا عالمين، ولم يكونا نبيين....). لكن الآيات النازلة في قصته مع موسى لا تخلو عن ظهور في كونه نبياً. كيف، وفيها نزول الحكم عليه؟ ^(٥).

١. النووي: شرح صحيح مسلم، شرح الحديث رقم ٢٣٧٩.

٢. يعتبر العلامة الطباطبائي أن الخضر هو العبد الصالح، وعلى هذا يبني سائر مقولاته.

٣. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٦٥.

٤. هكذا هي العبارة في الكتاب، ولعل فيها سقطاً.

٥. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٥٢.

والروايات متضاربة في الباب، ومنها:

١. تفسير العياشي: عن بريد، عن أحدهما «عليهما السلام»، قال: (قلت له: ما منزلتكم في الماضين أو بمن تشبهون منهم؟ قال: الخضر وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين)^(١). تقييم السند: الرواية مرسلة.

٢. بصائر الدرجات: أبو محمد عن عمران بن موسى عن ابن أسباط عن محمد بن الفضيل عن الثمالي قال: (سمعت أبا جعفر «عليه السلام» يقول: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا مُحدثٍ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته»)^(٢). فقلت: وأي شئ المُحدث؟ فقال: ينكت في أذنه فيسمع طنيناً كطنين الطست، أو يقرع على قلبه فيسمع وقعاً كوقع السلسلة على الطست، فقلت: نبي؟ فقال: لا، مثل الخضر ومثل ذي القرنين)^(٣).

تقييم السند: الرواية بالإضافة إلى أنها واردة في كتاب البصائر الذي ذكرت من قبل أن النسخة المتوفرة منه لم تثبت أنها للمصنف، فإنها كذلك تشتمل على تحريف في الآية القرآنية بإضافة كلمة مُحدث، وهذا يجعلنا نرفضها ولو كانت صحيحة السند.

٣. الصدوق في علل الشرائع: عن القطان، عن السكري، عن الجوهري، عن ابن عمار، عن أبيه، عن جعفر بن محمد «عليه السلام» أنه قال: (إن الخضر كان نبياً مرسلأً بعثه الله «عز وجل» إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه)^(٤). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بالقطان وغيره.

٤. شرح صحيح مسلم للنووي: (قال الحبري المفسر وأبو عمرو: هو نبي،

١. العياشي: تفسير القرآن، ج ٢، ص ٣٣٠.

٢. الآية هنا محرفة والصحيح أنها هكذا: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» (سورة الحج : ٥٢).

٣. الصفار: بصائر الدرجات، ص ١٠٩.

٤. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٥٩.

واختلفوا في كونه مرسلًا. وقال القشيري وكثيرون: هو وليّ. وحكى الماوردي في تفسيره ثلاثة أقوال: أحدها نبي، والثاني وليّ، والثالث أنه من الملائكة، وهذا غريب باطل. قال المازري: اختلف العلماء في الخضر هل هو نبي أو ولي، قال: واحتج من قال بنبوته بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^(١) فدل على أنه نبي أوحى إليه وبأنه أعلم من موسى، ويبعد أن يكون ولي أعلم من نبي. وأجاب الآخرون: بأنه يجوز أن يكون قد أوحى الله إلى نبي في ذلك العصر أن يأمر الخضر بذلك. وقال الثعلبي المفسر: الخضر نبي معمر^(٢).

❖ سبب عمره الطويل:

تطلّع الإنسان إلى الخلود وقهر الموت في هذه الحياة منذ بداية وجوده على الأرض، الأمر الذي عكسته القصص القرآنية وكتب التاريخ والأساطير الشعبية. فقد قال (عز وجل) في قصة إغواء آدم وحواء على يد إبليس: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٣). أما النتيجة فكانت مخالفة لمبتغاهما: ﴿فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٤).

وهكذا نجد في تاريخ الفراعنة والسومريين والآشوريين والفرس والعرب الجاهليين والإغريق والرومان وغيرهم - وفي آثارهم الحضارية - ما يدل على اهتمامهم بالأمر، كما لربما نجده في التعبير القرآني عن «عاد» قوم النبي هود حيث قال (عز وجل): ﴿وَتَتَخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾^(٥) مما يحتمل أن يعني

١. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٢.

٢. النووي: شرح صحيح مسلم، في ذيل الحديث برقم ٢٣٨٠.

٣. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ٢٠.

٤. القرآن الكريم: سورة طه: ١٢١.

٥. القرآن الكريم: سورة الشعراء: ١٢٩.

لجوءهم إلى الطبيعة عسى أن يجدوا فيها ترياقاً يخلصهم من الموت ويضمن لهم الأبدية ما دامت هذه الحياة الدنيا^(١).

❖ أسطورة جلجامش:

وفي أسطورة «جلجامش = كلكامش» السومرية^(٢) نجد هاجس البحث عن الخلود حاضراً لدى هذه الشخصية التي قال عنها عالم الآثار ومدير الآثار العام في العراق طه باقر «ت ١٩٨٤»؛ (كان في تأريخ أدب وادي الرافدين من أشهر أبطال القصص والملاحم، وإن أعماله ومغامراته أصبحت مادة لملاحم وقصص سومرية وبابلية عديدة. أما الحقائق التاريخية فهي كما قلنا قليلة، ومن ذلك أن اسمه ورد في إثبات الملوك السومريين من سلالة مدينة الوركاء^(٣) الأولى وهي السلالة الثانية التي حكمت من بعد الطوفان. بحسب ترتيب ذلك الإثبات. وكانت سلالة كيش^(٤) الأولى التي حكمت بعد الطوفان مباشرة. ويأتي ترتيب حكمه في سلالة الوركاء الأولى خامس ملك من ملوك تلك السلالة، وخصصت له حكماً دام ١٢٦ عاماً. وذكر كلكامش وابنه «أور. ننكال» في النص التاريخي المعروف باسم نص «تمال» الذي يعدد أسماء الملوك والحكام الذين اضطلعوا بتجديد أبنية المعبد الواقع في الحارة المقدسة «تمال» في «نفر»^(٥)، والمخصص للإلهة «نليل» زوجة الإله «أنليل».

١. فسرت الآية أيضاً بتفسيرات أخرى تختلف عن هذا المعنى .
٢. وجدت هذه الملحة مكتوبة بخط مسماري على ١٤ لوحاً وكسرة طينية، واكتشفت لأول مرة عام ١٨٥٣م في موقع أثري عرف فيما بعد أنه كان المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشوربانيبال في نينوى في العراق. ويحتفظ بالألواح الطينية التي كتبت عليها الملحة في المتحف البريطاني.
٣. الوركاء أو أوروك بالسومرية هي مدينة سومرية وبابلية على نهر الفرات تبعد ٣٠ كم شرق مدينة السماوة العراقية.
٤. كيش وتسمى أيضاً كيشاتو بالأكدية، وهي المعروفة الآن بتل الأحيمر هي منطقة أثرية في العراق كانت في السابق أحد المدن الرئيسية للسومريين، وتبعد عن مدينة بابل حوالي ١٢ كلم شرقاً، وتبعد عن العاصمة بغداد ٨٠ كلم جنوباً، وحسب القصص السومرية تعتبر كيش أول مدينة يتربع عليها ملك بعد الطوفان الكبير .
٥. نفر أو نيبور كما في المصادر الغربية وكذا هو الاسم الأصلي لها عند السومريين. هي العاصمة الدينية للسومريين والبابليين، وتقع على مسافة ٧ كم شمال شرق مدينة عكف إحدى أقضية محافظة القادسية ومركزها الديوانية التي تقع على مسافة ١٧٥ كم جنوب بغداد. وتقع على الضفة اليمنى من مجرى الفرات

وتروي القصص كما في ملحمة كلكامش أن أمه كانت الإلهة «ننسون» زوجة الإله «لو كال بندا»، ولكن أبا البطل كلكامش لم يكن «لو كال بندا» وإنما ورد في إثبات الملوك بهيئة «للا» الذي يعني اسمه نوعاً من الشياطين، وأنه كان كاهن كلاب^(١). وذكر أحد ملوك الوركاء المسمى «أنام» من العهد البابلي القديم مطلع الألف الثاني قبل الميلاد بأن سور مدينة الوركاء كان من أعمال البطل كلكامش، وهذا ما ذكرته أيضاً الملحمة^(٢).

يصادق جلجامش رجلاً شديداً القوة ولد وعاش في البرية، وربته بعض حيواناتها، فصار مثلها، يأكل مع الطباء، ويتدافع مع الوحش عند موارد الماء^(٣). إنه «أنكيديو» الذي لم يعرف لمعالم الحضارة طريقاً فتفاجأ بها في البداية حين اصططحبه جلجامش إلى حيث يحكم، ولكنه استطاع أن يتأقلم معها تدريجياً إلى أن قرر جلجامش أن يصطحبه في سفر بعيدة نحو غابات الأرز التي يحميها العفريت «خمبابا = هواوا» رغبة في أن يتغلب عليه أو أن يُقتل في النزال رغبة في تخليد اسمه عبر الزمان، كونه قد نازل أو تغلب على هذا العفريت صاحب القوة الهائلة.

وما إن وصل الصديقان إلى حيث الغابة، حتى خرج لهما العفريت، فبارزه جلجامش وتغلب عليه بمعونة الإله «شمش» الذي أهاج الرياح العاتية وساقها على العفريت فمسكت به وشلت حركته فاستسلم لهما، فقطع جلجامش رأسه، وعادا إلى أوروك ضافرين.

ثم تمضي الأيام ويموت أنكيديو، ويصاب جلجامش بحزن شديد، فيرفض أن يقوم أحد بدفن الجثة لمدة أسبوع إلى أن بدأت الديدان تخرج منها، ليضطر على

الأقدم. والصفة الشرقية من شط النيل المندرس. وتأتي قدسيتها من كونها العاصمة الدينية.

١. كانت مدينة الوركاء في أوائل عصر فجر السلالات تقسم إلى قسمين رئيسيين هما كلاب والثاني «أي أنا».

٢. باقر: ملحمة كلكامش، ص ٥٧-٥٨.

٣. لعل هذه الشخصية الأسطورية قد ألهمت بعض أدباء المجتمعات في عصور لاحقة فاختلقوا قصصاً لشخصيات من قبيل حي بن يقظان، وطرزان وفتي الأدغال ماوكلي.

إثرها إلى دفنه والانطلاق شارداً في البرية خارج مدينته «أوروك» وقد تخلص من ثيابه الفاخرة وارتدى جلود الحيوانات.

بالإضافة إلى حزنه، كان جلجامش -في قرارة نفسه- خائفاً من حقيقة أنه لابد من أن يموت يوماً، لأنه بشر، والبشر فان ولا خلود إلا للآلهة. لذا يبدأ رحلة للبحث عن الخلود والحياة الأبدية عن طريق التحوّل إلى إله، وسبيله لتحقيق ذلك هو الإنسان الوحيد الذي نجح في الخلود من قبل، «أوتنابشتم = أوتو-نبشتم».

جاء في الملحمة:

من أجل أنيكدو، خله وصديقه

بكى جلجامش بكاءً مرّاً وهام على وجهه في الصحاري «وصار يناجي نفسه»:

إذا ما مت، أفلا يكون مصيري مثل أنكيدو؟

لقد حل الحزن والأسى بروحي

خفت من الموت، وها أنا أهيّم في البوادي

وإلى «أوتو-نبشتم» ابن «أوبار-توتو»

أخذت الطريق وحشت الخطى إليه...^(١).

وعندما ينجح في الوصول إليه، يبدأ الأخير بسرد قصة الطوفان العظيم الذي حدث بأمر «الآلهة» وكيف نجا هو وزوجته فقط، لتكتب لهما «الآلهة» الخلود. ويعد هذا الرجل الخالد بأن يمكن جلجامش من تحقيق منيته إن نجح في الاختبار بأن يبقى متيقظاً دون أن يغلبه النوم لمدة ٦ أيام و٧ ليالي.. ويفشل جلجامش، وتشفق عليه زوجة أوتو-نبشتم، وتحت زوجها على مساعدته، فاستجاب لها وقال لجلجامش:

لقد جئت يا جلجامش إلى هنا وقاسيت التعب

١. باقر: ملحمة كلكامش، ص ١٥٠-١٥١.

فما عساني أن أعطيك حتى تعود إلى بلادك؟
 سأفتح لك يا جلجامش سرّاً خفياً
 أجل! سأكشف لك عن سر من أسرار الآلهة
 يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه
 وشوكه يخز يدك كما يفعل الورد
 فإذا ما حصلت يدك على هذا النبات، وجدت الحياة «الجديدة»
 وما أن سمع جلجامش هذا القول
 حتى فتح المجرى الذي أوصله إلى المياه العميقة
 وربط بقدميه أحجاراً ثقيلة
 ونزل إلى أعماق المياه حيث أبصر النبات
 فأخذ النبات الذي يخز يديه
 وقطع الأحجار الثقيلة من قدميه
 فخرج من عمق البحر إلى الشاطئ
 ثم قال جلجامش لـ «أور - شنابي» الملاح:
 يا أور - شنابي، إن هذا النبات عجيب
 يستطيع المرء أن يستعيد به نشاط الحياة
 لأحملنه معي إلى أوروك ذات الأسوار
 وأشرك معي الناس ليأكلوا منه
 وسيكون اسمه: «يعود الشيخ إلى صباه كالشباب»
 وأنا سأكله في آخر أيامي حتى يعود شبابي^(١).

١. باقر: ملحمة كلكامش، ص ١٩٢-١٩٣.

وهكذا وصل جلجامش إلى «دلمون»^(١) التي غاص في أعماق بحرها وتمكن من اقتلاع العشب السحرية، ولكنه في طريق عودته وعندما أراد أن يغتسل في بئر باردة الماء ونزل فيها، سرقت إحدى الأفاعي العشب وتناولتها ثم نزعت عنها جلدها كدليل على تجدد شبابها^(٢).

وإذ صار يبكي حزناً على ضياع النبتة السحرية، قال جلجامش:
لم أحقق لنفسي مغنماً

أجل! لقد حققت المغنم إلى «أسد التراب»^(٣)

أبعد عشرين ساعة مضاعفة

يأتي هذا المخلوق فيخطف النبات مني؟

وقد سبق لي أني لما فتحت منافذ الماء

وجدت أن هذا ندير لي أن أتخلي «عن مطلبي»

وأترك السفينة في الساحل^(٤).

رجع جلجامش إلى أوروك خالي الوفاض، وفي طريق العودة يشاهد السور العظيم الذي بناه حول أوروك، فيفكر في قرارة نفسه أن عملاً ضخماً كهذا السور هو أفضل طريقة ليخلد من خلالها اسمه.

وقد تركت هذه الملحمة الأدبية الموهلة في القدم تأثيرها على بعض القصص والأساطير التي كانت متداولة لدى المجتمعات البشرية المختلفة. قال الأستاذ طه باقر: (والبطل كلكامش - الذي سيأتي الكلام عليه - انتقل اسمه إلى معظم الآداب

١. هي جزيرة البحرين الحالية .

٢. ذكر الأستاذ طه باقر في هامش هذه الفقرة أنه من هذه الأسطورة نشأت عادة اتخاذ صورة الحية رمزاً للحياة والشفاء والطب.

٣. من نعوت الحية عند العراقيين القدماء .

٤. باقر: ملحمة كلكامش، ص ١٩٤.

القديمة، أو أن أعماله نُسبت إلى أبطال الأمم الأخرى مثل هرقل^(١) وأخيل^(٢) والاسكندر ذي القرنين^(٣) والبطل أوديسيوس في الأوديسة^(٤) (٥).

وهكذا - بالفعل - دخلت بعض تفاصيلها في الروايات المحكية عن الخضر والتي حُبكت بشكل قصصي أسطوري ماهر لتتداخل مع القصص والأساطير ذات العلاقة بالاسكندر الأكبر، والمتداخلة مع شخصية ذي القرنين القرآنية كما تبين وسيتبين لنا في بعض فصول كتابنا هذا.

بل إننا نجد للمحمة جلجامش تأثيراً على قصة القديس جورج والتين أيضاً وهذا ما خصص له أستاذ الآثار الأمريكي، الروسي الأصل «صمويل كريمر»^(٦) «ت ١٩٩٠» في كتابه من ألواح سومر فصلاً بعنوان ذبح التين قال فيه: (إن فكرة ذبح التين كانت ولا تزال من المواضيع المحببة لدى مؤلفي الأساطير عند جميع الأقسام وفي جميع العصور تقريباً، ففي بلاد الإغريق بوجه خاص حيث القصص والأساطير الدائرة على الآلهة والأبطال جملة لا عداد لها، يكاد لا يوجد بطل من أبطالهم إلا وقد قام بذبح التين الخاص به. ولعل «هرقل» و«فرسوس»^(٧) أشهر من عُرِفَ من أبطال اليونان في قتل الوحوش. وبظهور المسيحية نقل ذلك العمل البطولي إلى القديسين. والشاهد على ذلك قصة القديس جورج والتين، والقصص الأخرى الكثيرة المضاهية لها، والمنتشرة انتشاراً واسعاً. أما الأسماء والتفاصيل فتتباين من مكان إلى مكان آخر ومن قصة إلى قصة أخرى. ولكن ما

١. هرقل أو هيركليس في الميثولوجيا الإغريقية بطل نصف إله ونصف بشر وهو ابن الإله زيوس والإنسانة ألكميني. اشتهر بقوة الخارقة وله العديد من المغامرات ضمن هذه الأساطير.

٢. أخيل أحد الأبطال الأسطوريين في الميثولوجيا الإغريقية وهو ابن بيليوس ملك فثيا من حورية البحر ثيتس.

٣. اختلف مع الأستاذ طه باقر في كون ذي القرنين هو الاسكندر المقدوني.

٤. الأوديسة ملحمة شعرية إغريقية وضعها هوميروس في القرن ٨ قبل الميلاد. وتتكون من ٢٤ جزء.

٥. باقر: ملحمة كلكامش، ص ٥٥.

٦. وهو أستاذ الآثار العراقي طه باقر، وأمين متحف جامعة بنسلفانيا في قسم الألواح السومرية البابلية.

٧. هو ابن الإله زوس بحسب الأساطير اليونانية.

المنبع الأصلي لهذه القصص والوقائع؟ والجواب على ذلك أنه لما كان موضوع قتل التنين من الموضوعات المهمة في الأساطير السومرية في الألف الثالث ق.م، فمن الصواب أن نفترض أن الكثير من خيوط ونسيج الأساطير الإغريقية والقصص المسيحية القديمة الدائرة حول التنين إنما يرجع في أصله إلى مصادر وأصول سومرية. ولدينا الآن ما لا يقل عن ثلاث روايات من قصة ذبح التنين السومرية كما كانت شائعة في بلاد سومر قبل نيف وخمسة وثلاثين قرناً! ويكون الأبطال من الآلهة في قصتين... أما القصة الثالثة فيكون فيها البطل الذي يقتل التنين من البشر الفانيين، هو البطل جلجامش الذي يرجح أن يكون أصل قصة القديس جورج!^(١)

وبعد أن يذكر جوانب من القصتين الأولى والثانية، يتعرض كريمر لذكر رحلة جلجامش وأنكيدو إلى غابات الأرز حيث يلتقيان بالعفريت ويقضيان عليه، وتنتهي المغامرة بقطع جلجامش رأس ذلك العفريت، معتبراً أن هذه الأسطورة قد ألهمت الكثيرين فنسجوا أساطير الفارس والتنين التي انتشرت في الثقافات الإنسانية المختلفة. قال: (لقد كان جلجامش، كما قلنا من قبل، أشهر جميع الأبطال السومريين وأبعدهم صيتاً. فصار موضوعاً محبوباً لدى الشعراء والمغنين والمنشدين من أهل الأزمان القديمة. ومع ذلك فإن المستشرقين المحدثين لم يعرفوه ويقفوا على مآثره وأعمال بطولته من المصادر السومرية، وإنما كان ذلك من الكتابات السامية، لأنه كان بطل ملحمة بابلية تُعد الآن أهم إبداع أدبي في جميع آداب ما بين النهرين القديمة)^(٢).

❖ القرآن والخلود:

وبغض النظر عن كل هذه الأساطير والأمنيات، فإن الحقيقة القرآنية تنص على أن الموت في هذه الحياة الدنيا حتم لا يُقهر، قال الله «عز وجل» مخاطباً نبيه

١. كريمر: من ألواح سومر، ص ٣٣٧-٣٣٨.

٢. كريمر: من ألواح سومر، ص ٣٥٣.

الأكرم محمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ، كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(١)، وأن الخلود الذي يجب أن يبحث عنه الإنسان إنما هو الخلود في نعيم الآخرة، وما السبيل إلى ذلك إلا الإيمان والعمل الصالح في هذه الحياة التي تمثل المجاز وطريق العبور إلى حياة الخلد: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ، مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾^(٢). وأما الحديث عن ماء الحياة الذي يُكسب الخلود لشاربه، فمجرد أسطورة قديمة ترسّخت في ثقافات الشعوب، وتناقلتها الأساطير، واقتحمت عالم النصوص الدينية، ومنها ما له علاقة بقصة الخضر كما سنعرف.

فعند الإغريق، كانت آلهة الأولمبوس- وفق الأسطورة الإغريقية- تتناول مشروب «أمبروسيا» الذي يهب الحياة الأبدية، وكانت تعاقب كل من يتجرأ ويعطي الشراب إلى البشر... لهذا كانت الرغبة في الخلود تعد خطيئة وإثمًا، وكل من جرى وراءها تكون نهايته مؤلمة ومأساوية.

وهكذا وصلت أسطورة الحياة الخالدة إلى سيرة شخصية تاريخية حقيقية مثل الإسكندر المقدوني، الذي سعى من أجل العثور على ينبوع الذي يهب الخلود، ليقطع القائد المقدوني ما أطلق عليها اسم «أرض الظلام» في غابات أبخازيا ويضل طريقه فيها... ليجد الجندي البسيط «أندرياس» ذلك الينبوع ويتحول هو إلى إله. هذه الأسطورة بالذات تحولت في التراث الإسلامي إلى قصة ذي القرنين والخضر، حيث يفشل الأول في الحصول على الخلود من خلال هذا الماء المقدس، بينما ينجح الثاني في تحقيق مراده!

ومن الطريف أن تكون هذه الأسطورة سبباً لاكتشاف جغرافي حقيقي، ففي

١. القرآن الكريم: سورة الأنبياء: ٣٤-٣٥.

٢. القرآن الكريم: سورة ق: ٣١-٣٤.

العام ١٥١٣م، انطلق المستكشف الإسباني خوان بونسي دي ليون، للبحث عن ينبوع الخلود، إلا أنه لم يجده، بل اكتشف «فلوريدا» الأمريكية، واختار اسمها. وتكريماً له، تم إنشاء متنزه «ينبوع الشباب» في «سانت أوغستين» بالولاية الأمريكية.

وتتطلق مخيلة مؤلف كتاب «ألف ليلة وليلة» في العهد الإسلامي ليسطر قصة «بلوقيا» الباحث عن العشبة السحرية التي تهب الخلود، مع ربط الحكاية بسيرة النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) وبعض الأنبياء الكرام (عليهم السلام). فبعد أن يكتشف بلوقيا البشارة ببعثة النبي، يتوجه إلى الشام أولاً، حيث لا يجد مبتغاه، ثم يغادر إلى بيت المقدس حيث يجد فيها رجلاً عالماً قد دون في بعض كتبه خبر العشبة السحرية التي تحقق لكل من يدقها ويدهن بها قدميه القدرة على المشي على الماء دون أن تبطل قدماه، ولا يقدر أحد على تحصيل تلك العشبة إلا إذا كانت معه ملكة الحيات. ومن خلال امتلاك قدرة المشي على الماء سيتمكن من عبور بحر الظلمات ليصل إلى ماء الحياة ويشرب منه فينال الخلود.. أما الهدف من هذا كله فهو أن يطول به العمر حتى زمن بعثة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ليجتمع به ويؤمن على يديه!

وبدلاً من أن يتحقق له ما أراد، وبعد مغامرات طويلة تشترك فيها الملائكة والجن والإنس والطير والحيوان، يلتقي بالخضر في إحدى الجزر، حيث يأمر بإعادته إلى مصر موطنه. وتنتهي القصة عند هذا الحد^(١).

❖ الأحاديث والخلود:

ومن المؤسف أن جانب امتداد العمر مما يتعلق بشخصية الخضر لم يُدرس بشكل علمي دقيق، بل من خلال الروايات الضعيفة والغريبة التي انتشرت في كتب المسلمين، اعتماداً على قاعدة التسامح في الأخذ بمثل هذه النصوص التي لا علاقة لها بالقضايا الشرعية، وهو ما أدى إلى تسالم الكثير من العلماء حول هذه النقطة،

١. ألف ليلة وليلة: الليلة رقم ٤٨٦،، حكاية بلوقيا التي حكته ملكة الحيات علي حاسب كريم الدين.

وإن خالفهم في ذلك بعض المحققين ممن تريثوا في قبول الأمر، واستعرضوا الأدلة فوجدوا أنها لا تنهض للتسليم ببقاء الخضر حياً كل هذا الزمن الممتد عبر آلاف السنين.

قال ابن حجر في «فتح الباري» في إطار استعراض الآراء حول الموضوع: (قال ابن الصلاح: هو حي عند جمهور العلماء، والعامّة معهم في ذلك، وإنما شذّب إنكاره بعض المحدثين. وتبعه النووي، وزاد أن ذلك متفق عليه بين الصوفية وأهل الصلاح وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به أكثر من أن تحصر. انتهى. والذي جزم بأنه غير موجود الآن: البخاري وإبراهيم الحربي وأبو جعفر بن المنادي وأبو يعلى بن الفراء وأبو طاهر العبادي وأبو بكر بن العربي وطائفة).

ثم استعرض ابن حجر الدليل الأساسي للقائلين بموته فقال: (وعمدتهم الحديث المشهور عن ابن عمر وجابر وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وآله قال في آخر حياته: لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها اليوم أحد. قال ابن عمر: أراد بذلك انخرام قرنه).

ثم ذكر ردّ مثبتي عمره الطويل بقوله: (وأجاب من أثبت حياته بأنه^(١) كان حينئذ على وجه البحر، أو وهو مخصوص من الحديث^(٢)، كما خص منه إبليس بالاتفاق).

وأتى بأدلة أخرى للمنكرين مؤكداً بطلان النصوص التي تتحدث عن بقاءه حياً من خلال تقييم تلك النصوص وتضعيف أسانيدھا، قال: (ومن حجج من أنكر ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(٣)، وحديث ابن عباس: «ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه» أخرجه البخاري، ولم يأت في خبر صحيح أنه جاء إلى النبي

١. أي الخضر .

٢. أي مستثنى مما ورد في حديث النبي من عدم بقاء أحد من زامنه بعد مائة عام.

٣. القرآن الكريم: سورة الأنبياء: ٣٤ .

«صلى الله عليه وسلم» ولا قاتل معه، وقد قال (صلى الله عليه وسلم) يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض». فلو كان الخضر موجوداً لم يصح هذا النفي. وقال (صلى الله عليه وسلم): «رحم الله موسى، لوددنا لو كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما». فلو كان الخضر موجوداً لما حسن هذا التمني، ولأحضره^(١) بين يديه وأراه العجائب، وكان أدعى لإيمان الكفرة لا سيما أهل الكتاب. وجاء في اجتماعه مع النبي (صلى الله عليه وسلم) حديث ضعيف أخرجه ابن عدي من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سمع وهو في المسجد كلاماً فقال: «يا أنس اذهب إلى هذا القائل فقل له يستغفر لي، فذهب إليه فقال قل له: إن الله فضلك على الأنبياء بما فضّل به رمضان على الشهور. قال: فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر». إسناده ضعيف. وروى ابن عساكر من حديث أنس نحوه بإسناد أوهى منه. وروى الدارقطني في الأفراد من طريق عطاء عن ابن عباس مرفوعاً: «يجتمع الخضر وإلياس كل عام في الموسم^(٢) فيخلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويفترقان عن هؤلاء الكلمات: بسم الله ما شاء الله». الحديث في إسناده محمد بن أحمد بن زيد، بمعجمة ثم موحدة ساكنة، وهو ضعيف. وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى عن ابن أبي رواد نحوه، وزاد: «ويشربان من ماء زمزم شربة تكفيهما إلى قابل». وهذا معضل^(٣). ورواه أحمد في الزهد بإسناد حسن عن ابن أبي رواد وزاد: «إنهما يصومان رمضان بيت المقدس». وروى الطبري من طريق عبد الله بن شوذب نحوه، وروي عن علي أنه دخل الطواف فسمع رجلاً يقول: «يا من لا يشغله سمع عن سمع... الحديث... فإذا هو الخضر». أخرجه ابن عساكر من وجهين في كل منهما ضعف، وهو في المجالسة من الوجه الثاني. وجاء في اجتماعه ببعض الصحابة فمن بعدهم أخبار أكثرها واهي الإسناد، منها ما أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي من حديث أنس: لما قبض

١. أي النبي محمد .

٢. أي موسم الحج . .

٣. أي يصعب قبول كفاية شربة ماء زمزم لترويهما سنة كاملة !

النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل رجل فتخطاهم. فذكر الحديث في التعزية فقال أبو بكر وعلي: هذا الخضر. في إسناده عباد بن عبد الصمد، وهو واه. وروى سيف في الردة نحوه بإسناد آخر مجهول، وروى ابن أبي حاتم من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن علي نحوه، وروى ابن وهب من طريق ابن المنكر أن عمر صلى على جنازة فسمع قائلاً يقول: لا تسبقنا. فذكر القصة، وفيها أنه دعا للميت فقال عمر: خذوا الرجل. فتوارى عنهم فإذا أثر قدمه ذراع، فقال عمر: هذا والله الخضر. في إسناده مجهول، مع انقطاعه. وروى أحمد في الزهد من طريق مسعر عن معن بن عبد الرحمن عن عون بن عبد الله قال: بينا رجل بمصر في فتنة ابن الزبير مهموماً إذ لقيه رجل فسأله فأخبره باهتمامه بما فيه الناس من الفتن فقال: قل: اللهم سلمني وسلم مني. قال: فقالها فسلم. قال مسعر: يروون أنه الخضر. وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه وأبو عروبة من طريق رباح بالتحثانية ابن عبيدة قال: رأيت رجلاً يمشي عمر ابن عبد العزيز معتمداً على يديه، فلما انصرف قلت له: من الرجل؟ قال: رأيت؟ قلت: نعم. قال: أحسبك رجلاً صالحاً، ذاك أخي الخضر، بشرني أني سأولّى وأعدل. لا بأس برجاله^(١).

هنا توقف ابن حجر ليقدم خلاصة في دراسة أسانيد الأحاديث قائلاً: (ولم يقع لي إلى الآن خبر ولا أثر بسند جيد غيره، وهذا لا يعارض الحديث الأول في مائة سنة، فإن ذلك كان قبل المائة)^(٢).

ثم استمر في استعراض النصوص وتضعيف أسانيدها: (وروى ابن عساكر من طريق كرز بن وبرة قال: أتاني أخ لي من أهل الشام فقال: اقبل مني هذه الهدية، إن إبراهيم التيمي حدثني قال: كنت جالساً بفناء الكعبة أذكر الله فجاءني رجل فسلم علي فلم أر أحسن وجهاً منه ولا أطيب ريحاً، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا أخوك الخضر. قال: فعلمته شيئاً إذا فعله رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) في المنام.

١. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٣٤-٤٣٥.

٢. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٣٥.

وفي إسناده مجهول وضعيف. وروى ابن عساكر في ترجمة أبي زرعة الرازي بسند صحيح أنه رأى - وهو شاب - رجلاً نهاه عن غشيان أبواب الأمراء، ثم رآه بعد أن صار شيخاً كبيراً على حالته الأولى فنهاه عن ذلك أيضاً، قال: فالتفتُ لأكلمه فلم أره، فوقع في نفسي أنه الخضر. وروى عمر الجمحي في فرائده والفاكهي في كتاب مكة بسند فيه مجهول عن جعفر بن محمد أنه رأى شيخاً كبيراً يحدث أباه ثم ذهب، فقال له أبوه: ردّه علي. قال: فتطلبته فلم أقدر عليه، فقال لي أبي: ذاك الخضر. وروى البيهقي من طريق الحجاج بن قرافصة أن رجلين كانا يتبايعان عند ابن عمر قام عليهم رجل فنهماهما عن الحلف بالله ووعظهم بموعظة فقال ابن عمر لأحدهما: اكتبها منه. فاستعاده حتى حفظها ثم تطلبه فلم يره. قال: وكانوا يرون أنه الخضر^(١).

وهكذا خلص ابن حجر إلى عدم وجود دليل صحيح على بقاء الخضر حياً إلى زمانه، وأما النووي شارح صحيح مسلم فقال: (باب من فضائل الخضر عليه السلام): جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتهم في رؤيته والإجماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يستتر. وقال الشيخ أبو عمر بن الصلاح: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامّة معهم في ذلك. قال: وإنما شذّ بإنكاره بعض المحدثين).

وأضاف: (وقال الثعلبي المفسّر: الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محبوب عن الأبصار - يعني عن أبصار أكثر الناس - قال: وقيل إنه لا يموت إلا في آخر الزمان حين يُرفع القرآن. وذكر الثعلبي ثلاثة أقوال في أن الخضر كان من زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، أم بعده بقليل أم بكثير)^(٢).

وقال العلامة الطباطبائي في تفسيره: (ويظهر من أخبار متفرقة عن أئمة

١. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٣٥.

٢. النووي: شرح صحيح مسلم، ج ١٥، ص ١٣٥.

أهل البيت «عليهم السلام» أنه حي لم يمّت بعد، وليس بعزيز على الله «عز وجل» أن يعمر بعض عباده عمراً طويلاً إلى أمد بعيد، ولا أن هناك برهاناً عقلياً يدل على استحالة ذلك»^(١). وهذا صحيح من باب الإمكان، ولكن يبقى السؤال: هل من دليل صحيح على حدوث ذلك بالنسبة إلى الخضر؟ ثم ما الداعي لطول عمره بهذا الشكل الاستثنائي؟ وهل ما ورد في بعض روايات المسلمين من سبب طول عمره صحيح يمكن الأخذ به، بل والاقتناع بمضمونه؟

ونعرج الآن على الأخبار التي تتحدث عن سبب طول عمره، وهي متفاوتة من حيث المضمون، وقال العلامة الطباطبائي: (ورد في سبب ذلك في بعض الروايات من طرق العامة أنه ابن آدم لصلبه ونسئ له في أجله حتى يكذب الدجال، وفي بعضها أن آدم «عليه السلام» دعا له بالبقاء إلى يوم القيامة، وفي عدة روايات من طرق الفريقين أنه شرب من عين الحياة التي هي في الظلمات حين دخلها ذو القرنين في طلبها، وكان الخضر في مقدّمته فرزقه الخضر ولم يرزقه ذو القرنين^(٢)، وهذه وأمثالها آحاد غير قطعية من الأخبار لا سبيل إلى تصحيحها بكتاب أو سنة قطعية أو عقل. وقد كثرت القصص والحكايات وكذا الروايات في الخضر بما لا يعول عليها ذولب، كرواية خصيف: أربعة من الأنبياء أحياء، اثنان في السماء: عيسى وإدريس، واثنان في الأرض الخضر وإلياس. فأما الخضر فإنه في البحر وأما صاحبه فإنه في البر. ورواية العقيلي عن كعب قال: الخضر على منبر بين البحر الأعلى والبحر الأسفل، وقد أمرت دواب البحر أن تسمع له وتطيع، وتعرض عليه الأرواح غدوة وعشية. ورواية كعب الأخبار أن الخضر بن عاميل ركب في نفر من أصحابه حتى بلغ بحر الهند وهو بحر الصين فقال لأصحابه: يا أصحابي أدلونني، فدلوه في البحر أياماً وليالي ثم صعد فقالوا: يا خضر ما رأيت فلقد أكرمك الله

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٥١.

٢. نتذكر هنا قصة الاسكندر المقدوني والجندي البسيط أندرياس، الواردة في الأساطير اليونانية، علماً بأن الاسكندر كان وثنياً بينما تدل القصة القرآنية على إيمان ذي القرنين، ولا نجد فيها حديثاً عن علاقة الخضر أو العبد الصالح به، بل نجد ذلك في بعض الأحاديث الضعيفة.

وحفظ لك نفسك في لجة هذا البحر؟ فقال استقبلني ملك من الملائكة فقال لي: أيها الآدمي الخطاء إلى أين؟ ومن أين؟ فقلت: إني أردت أن أنظر عمق هذا البحر. فقال لي كيف؟ وقد أهوى رجل من زمان داود (عليه السلام)، لم يبلغ ثلث قعره حتى الساعة، وذلك منذ ثلاث مائة سنة!. إلى غير ذلك من الروايات المشتملة على نوادر القصص^(١).

وتطالعنا من بين هذه المرويّات النصوص التالية:

١. فتح الباري لابن حجر: (روى ابن إسحاق في المبتدأ عن أصحابه أن آدم أخبر بنيه عند الموت بأمر الطوفان، ودعا لمن يحفظ جسده بالتعمير^(٢) حتى يدفنه، فجمع نوح بنيه لما وقع الطوفان وأعلمهم بذلك فحفظوه حتى كان الذي تولى دفنه الخضر)^(٣).

وفي مصدر آخر تفصيل الخبر السابق إذ روي أن آدم (عليه السلام) لما حضرته الوفاة جمع بنيه فقال: (يا بني، إن الله سينزل على أهل الأرض عذاباً) وأخبرهم أن طوفاناً سيقع بالناس، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة وأن يدفنوه في غار عيّن لهم قرب بلاد الشام، فكان جسده معهم. وتناقل الأبناء عن الآباء هذه الوصية، حتى بعث الله (عز وجل) نوحاً (عليه السلام)، وقبل أن يحدث الطوفان حمل نوح جسد آدم معه في السفينة، وغرقت الأرض زماناً، فجاء نوح حتى نزل بأرض بابل وأوصى بنيه الثلاثة وهم سام، وحام، ويافت، أن يذهبوا بجسد آدم إلى الغار الذي أمرهم به أن يدفنوه به، فقالوا: الأرض وحشية لا أنيس بها ولا نهدي لطريق، ولكن لنتنظر حتى يعظم الناس ويكثروا، فقال لهم نوح: (إن آدم قد دعا الله أن يطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة. فلم يزل جسد آدم من جيل إلى جيل، حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه، فأنجز الله ما وعده، فهو

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٥١-٣٥٢.

٢. أي بطول العمر.

٣. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٣٠٩.

يحيا ما شاء الله له أن يحيا) ^(١).

٢. المجلسي في البحار عن تفسير القمي: (وسئل أمير المؤمنين عليه السلام) عن ذي القرنين أنبيأ كان أم ملكاً؟ فقال: لا نبياً ولا ملكاً بل عبداً أحب الله فأحبه، ونصح لله فتصح له... فسار ذو القرنين إلى ناحية المغرب فكان إذا مر بقرية زار فيها كما يزار الأسد المغضب، فينبعث في القرية ظلمات ورعد وبرق وصواعق يهلك من ناواه وخالفه، فلم يبلغ مغرب الشمس حتى دان له أهل المشرق والمغرب، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ ^(٢) أي دليلاً. فقليل له: إن الله في أرضه عيناً يقال لها عين الحياة لا يشرب منها ذو روح إلا لم يمت حتى الصيحة، فدعا ذا القرنين الخضر وكان أفضل أصحابه عنده ودعا ثلاث مائة وستين رجلاً ودفع إلى كل واحد منهم سمكة وقال لهم: اذهبوا إلى موضع كذا وكذا فإن هناك ثلاث مائة وستين عيناً، فليغسل كل واحد منكم سمكته في عين غير عين صاحبه، فذهبوا يغسلون، وقعد الخضر يغسل فانسابت السمكة منه في العين وبقي الخضر متعجباً مما رأى، وقال في نفسه: ما أقول لذي القرنين؟ ثم نزع ثيابه يطلب السمكة فشرب من مائها واغتمس فيه ولم بقدر على السمكة، فرجعوا إلى ذي القرنين فأمر ذو القرنين بقبض السمك من أصحابه، فلما انتهوا إلى الخضر لم يجدوا معه شيئاً فدعاه وقال له: ما حال السمكة؟ فأخبره الخبر، فقال له: فصنعت ماذا؟ قال: اغتمست فيها فجعلت أغوص وأطلبها فلم أجدها، قال: فشربت من مائها؟ قال: نعم، قال: فطلب ذو القرنين العين فلم يجدها، فقال للخضر: كنت أنت صاحبها) ^(٣). تقييم السند: الرواية بالإضافة إلى إرسالها، وبالتالي سقوطها عن الاعتبار، فهي أيضاً من مرويات تفسير القمي الذي لم يثبت أن كل ما فيه هو كتابه بالفعل.

١. السجستاني: المعمرون والوصايا، ج ١، ص ١ (ترقيم الصفحات وفق النسخة الإلكترونية)

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٤.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٧٨-١٨٠.

وقال العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان: (لا خبر في القصة التي يقصها القرآن عن «عين الحياة» هذه إلا ما ورد في أقاويل بعض المفسرين والقصاصين من أهل التاريخ من غير أصل قرآني يستند إليه أو وجدان حسي لعَيْن هذه صفتها في صقع من أصقاع الأرض)^(١).

وفي مصدر آخر اختلاف في التفاصيل، إذ تقول الرواية: (أن ذا القرنين الأكبر كان له صديق من الملائكة يُقال له: رفائيل يزوره بين الحين والآخر، فبينما هما يتحادثان إذ قال ذو القرنين: يقولون: ربنا ما عبدناك حقَّ عبادتك. فبكى ذو القرنين ثم قال: يا رفائيل إني أحب أن أعمّر حتى أبلغ في طاعة ربي حق طاعته. قال: وتحبّ ذلك؟ أجابه: نعم. فقال رفائيل: فإنَّ لله عيناً من الماء تسمى عين الحياة، من شرب منها شربة طال عُمره إلى ما شاء الله ولا يموت حتى يُميتَهُ الله عز وجل). فقال ذو القرنين: فهل تعلم موضعها؟ قال: لا، غير أننا نتحدث في السماء أن لله ظلمة في الأرض لم يطأها إنس ولا جان فتحنُّ نظن إن تلك العين في تلك الظلمة)^(٢).

وهناك عدة روايات شبيهة بالروايتين السابقتين وهي روايات ضعيفة أو مرسلة وفيها تفاصيل لا يمكن تصديقها.

٣. المجلسي في بحار الأنوار عن عيون أخبار الرضا والخصال للشيخ الصدوق: أبي، عن سعد، عن ابن أبي الخطاب، عن الحكم بن مسكين الثقفي، عن صالح بن عقبة، عن جعفر بن محمد «عليهما السلام» قال في رواية حول مسائل طرحها يهودي على الخليفة عمر بن الخطاب قائلاً: (يا أمير المؤمنين إني رجل من اليهود وأنا علامتهم وقد أردت أن أسألك عن مسائل إن أجبتني فيها أسلمت. قال: ما هي؟ قال: ثلاث، وثلاث، وواحدة، فإن شئت سألتك، وإن كان في القوم أحد أعلم منك أرشدني إليه. قال: عليك بذلك الشاب -يعني علي بن أبي طالب (عليه السلام)- فأتى

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٣٨.

٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٣٤٦-٣٤٧.

علياً (عليه السلام) فسأله فقال له: لم قلت: ثلاثاً وثلاثاً وواحدة؟ ألا قلت سبعاً؟ قال: إني إذاً لجاهل، إن لم تجبني في الثلاث اكتفيت. قال: فإن أجبتك تسلم؟ قال: نعم. قال: سل. قال: أسألك عن أول حجر وضع على وجه الأرض، وأول عين نبعت، وأول شجرة نبتت. قال: يا يهودي أنتم تقولون: إن أول حجر وضع على وجه الأرض الحجر الذي في البيت المقدس وكذبتم، هو الحجر الذي نزل به آدم (عليه السلام) من الجنة. قال: صدقت والله إنه لبخط هارون وإملاء موسى. قال: وأنتم تقولون: إن أول عين نبعت على وجه الأرض العين التي ببيت المقدس وكذبتم، هي عين الحياة التي غسل فيها يوشع بن نون السمكة، وهي العين التي شرب منها الخضر، وليس يشرب منها أحد إلا حي حيي. قال: صدقت والله إنه لبخط هارون وإملاء موسى...^(١) إلى آخر الخبر حيث يعلن اليهودي إسلامه. تقييم السند: الحكم الثقي لم يوثق، وبالتالي فالرواية ضعيفة السند.

٤. الصدوق في كمال الدين عن المظفر العلوي، عن ابن العياشي، عن أبيه، عن جعفر بن أحمد، عن ابن فضال، عن الرضا (عليه السلام) قال: (إن الخضر شرب من ماء الحياة فهو حي لا يموت حتى ينفخ في الصور، وإنه ليأتينا فيسلم علينا فنسمع صوته ولا نرى شخصه، وإنه ليحضر حيث ذكر، فمن ذكره منكم فليسلم عليه، وإنه ليحضر المواسم فيقضي جميع المناسك ويقف بعرفة فيؤمن على دعاء المؤمنين، وسيؤنس الله به وحشة قائمنا في غيبته، ويصل به وحدته)^(٢). تقييم السند: المظفر بن جعفر بن المظفر العلوي ترضى عليه الصدوق ولكن لم يوثق، فالرواية ضعيفة السند.

٥. كمال الدين: عن علي بن عبد الله الوراق، عن سعد، عن أحمد بن إسحاق قال: (دخلت على أبي محمد الحسن بن علي (عليه السلام) وأنا أريد أن أسأله عن الخلف بعده فقال لي مبتدئاً: يا أحمد بن إسحاق إن الله عز وجل لم يخل الأرض

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٩-١٠.

٢. الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ج ٢، ص ٣٩٠.

منذ خلق آدم ولا تخلو إلى يوم القيامة من حجة الله على خلقه، به يدفع البلاء عن أهل الأرض، وبه ينزل الغيث، وبه يخرج بركات الأرض. قال: فقلت يا ابن رسول الله فمن الإمام والخليفة بعدك؟ فنهض «عليه السلام» فدخل البيت ثم خرج وعلى عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر، من أبناء ثلاث سنين فقال: يا أحمد بن إسحاق لولا كرامتك على الله وعلى حججه، ما عرضت عليك ابني هذا إنه سمي رسول الله «صلى الله عليه وآله» وكنيته الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يا أحمد بن إسحاق مثله في هذه الأمة مثل الخضر «عليه السلام» ومثله كمثله في القرنين، والله ليغيبن غيبة لا ينجو فيها من التهلكة إلا من يثبتته الله على القول بإمامته، ووفقه للدعاء بتعجيل فرجه. قال أحمد ابن إسحاق: فقلت له: يا مولاي هل من علامة يطمئن إليها قلبي؟ فنطق الغلام «عليه السلام» بلسان عربي فصيح، فقال: أنا بقية الله في أرضه، والمنتقم من أعدائه، فلا تطلب أثراً بعد عين يا أحمد بن إسحاق. قال أحمد بن إسحاق: فخرجت مسروراً فرحاً فلما كان من الغد عدت إليه فقلت له: يا ابن رسول الله لقد عظم سروري بما أنعمت علي فما السنة الجارية فيه، من الخضر وذو القرنين؟ فقال: طول الغيبة يا أحمد. فقلت له: يا ابن رسول الله وإن غيبته لتطول؟ قال: إي وربّي حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر القائلين به، فلا يبقى إلا من أخذ الله عهده بولايتنا وكتب في قلبه الايمان وأيده بروح منه. يا أحمد بن إسحاق! هذا أمر من أمر الله، وسر من سر الله وغيب من غيب الله، فخذ ما آتيتك واكتمه، وكن من الشاكرين، تكن غداً في عليين).

قال الصدوق معلقاً على الخبر: (لم أسمع هذا الحديث إلا من علي بن عبد الله الوراق ووجدته مثبتاً بخطه فسألته عنه فرواه لي قراءة عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن إسحاق «رحمه الله» كما ذكرته^(١)). والوراق لم تثبت وثاقته، فالرواية غير تامة سنداً. ولعل في تعليقه الصدوق ما يدل على تردده في قبول الرواية.

١. الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ج ٢، ص ٣٨٤-٣٨٥.

❖ علمه الواسع:

لما طابق كثيرون بين شخصية العبد الصالح في قصة النبي موسى وشخصية الخضر، فإنهم اعتبروا أن ما لديه من العلم يفوق ما لدى البشرية نوعاً وكمّاً، ووضعوها في ذلك قصصاً وروايات عديدة من بينها:

١. البرسي في مشارق أنوار اليقين: (روى الحسن البصري أن الخضر لما التقى موسى فكان بينهما ما كان جاء عصفور فأخذ قطرة من البحر فوضعها على يد موسى، فقال للخضر: ما هذا؟ فقال: يقول: ما علمنا وعلم سائر الأولين والآخرين في علم وصي النبي الأمي إلا كهذه القطرة في هذه البحر)^(١). تقييم السند: الكتاب ومؤلفه لا يُعْبَأُ بهما لغلو الرجل وكثرة ما في كتابه من أساطير.

قال السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة بحقه: (ويعلم مما سنقله من بعض كلماته وأسماء مؤلفاته ومضامين كتبه وما نسب إليها أنه كان مولعاً بالتسجيع، وفي طبعه شذوذ، وفي مؤلفاته خبط وخطل وشئ من المغالاة لا موجب له ولا داعي إليه، وفيه شئ من الضرر وإن أمكن أن يكون له محمل صحيح. وعلم الأعداد وأسرار الحروف لم يُعرف له أثر ممن يدعيه ولا يخرج عن الأوهام والظنون بل المخرفة والتمويه، وأي حاجة إلى استخراج أسمائهم «عليهم السلام» من الآيات الذي يتطرق إليه الشك ممن يريد التشكيك وفيما جاء في فضلهم مما لا يمكن انكاره غنى عن ذلك. واختراع صلاة عليهم وزيارة لهم لا حاجة إليه بعد ما ورد ما يغني عنه ولو سلم أنه في غاية الفصاحة كما يقوله صاحب الرياض، وأن مؤلفاته ليس فيها كثير نفع وفي بعضها ضرر ولله في خلقه شؤون سامحه الله وإيانا)^(٢).

٢. البرسي في مشارق أنوار اليقين: (وروى ابن عباس عنه أنه شرح له في ليلة واحدة من حين أقبل ظلامها حتى أسفر صباحها في شرح الباء من «بسم الله» ولم

١. البرسي: مشارق أنوار اليقين، ص ٩٦.

٢. الأمين: أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٤٦٦.

يتقدم إلى السين، وقال: لو شئت لأوقرت أربعين بعيراً من شرح «بسم الله»^(١).

٣. رياض الجنان: أخذه من أربعين السيد الحسين بن دحية بن خليفة الكلبي بإسناده عن عمار بن خالد، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الملك بن سليمان قال: (وُجِدَ في ذخيرة أحد حواربيي المسيح رُقٌّ فيه مكتوب بالقلم السرياني منقول من التوراة^(٢)): إنه لما تشاجر موسى والخضر «عليهما السلام» في قصة السفينة والغلام والجدار ورجع موسى إلى قومه سأله أخوه هارون «عليه السلام» عما استعلمه من الخضر «عليه السلام» وشاهده من عجائب البحر، قال: بينا أنا والخضر على شاطئ البحر إذ سقط بين أيدينا طائر أخذ في منقاره قطرة ورمى بها نحو المشرق، وأخذ ثانية ورمها في المغرب، وأخذ ثالثة ورمى بها نحو السماء، ورابعة رماها إلى الأرض، ثم أخذ خامسة وعاد ألقاها في البحر، فبهتتا لذلك فسألت الخضر «عليه السلام» عن ذلك فلم يجب، وإذا نحن بصياد يصطاد فتظر إلينا وقال: مالي أراكما في فكر وتعجب من الطائر؟ قلنا: هو ذلك، قال: أنا رجل صياد قد علمت، وأنتما نبيان ما تعلمان؟ قلنا: ما نعلم إلا ما علمنا الله، قال: هذا طائر في البحر يسمى مسلم، لأنه إذا صاح يقول في صياحه: مسلم، فأشار برمي الماء من منقاره إلى السماء والأرض والمغرب إلى أنه يبعث نبي بعدكما تملك أمته المشرق والمغرب، ويصعد إلى السماء، ويدفن في الأرض، وأما رمية الماء في البحر يقول: إن علم العالم عند علمه مثل هذه القطرة، وورث علمه وصيه وابن عمه، فسكن ما كنا فيه من المشاجرة، واستقل كل واحد منا علمه بعد أن كنا معجبين بأنفسنا، ثم غاب الصياد عنا فعلمنا أنه ملك بعثه الله «عز وجل» إلينا ليعرفنا حيث ادعينا الكمال^(٣). تقييم السند: الرواية مرسلة.

وفي مصادر أهل السنة رواية مشابهة لها، إذ روى الحاكم في المستدرک:

١. البرسي: مشارق أنوار اليقين، ص ٩٦.

٢. ليس في التوراة ولا في الهد القديم أي نص يتعلق بقصة موسى والعبد الصالح كما بيّنا في الفصل الثالث من الكتاب.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣١٣، نقلاً عن كتاب رياض الجنان .

(حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه ثنا أبو عمران موسى بن هارون بن عبد الله الحافظ حدثني أبي ثنا أبو داود الطيالسي ثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «رضي الله عنه» قال حدثني أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لما لقى موسى الخضر عليه السلام» جاء طير فألقى منقاره في الماء فقال الخضر لموسى: تدبر ما يقول هذا الطير. قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء»^(١).

❖ أخباره في الأمم السالفة:

نسبت للخضر قصص متنوعة في أزمنة مختلفة سبقت عهد الإسلام، وكان نصيب منها لعلاقته المدعاة بذي القرنين الذي نجهل عصره وحقيقته إلا في إطار ما حكاه القرآن الكريم، وقد استعرضت بعضاً منها عند البحث في سبب طول عمره المدعى، وإن اعتبر البعض أن ذي القرنين هو الاسكندر المقدوني، وهو ما ذكرنا بطلانه - على الأقل - بلحاظ إيمان الأول ووثنية الآخر.

والقصص هذه على كل حال أخبار آحاد ضعيفة السند أو مرسله أو غير منسوبة إلى النبي أو الإمام، وتشتمل على أمور غريبة ومنكرة ولا تعدو أن تكون من الأساطير والقصص الخرافية التي بثها القصاصون وأمثالهم من مسلمة اليهود والنصارى وأخبارهم ورهبانهم، وهي أقرب لنمط حكايات ألف ليلة وليلة، وإنما نذكرها بتفاصيلها لبيان حجم الخرافة التي تحيط بهذه الشخصية الجدلية ضمن التراث الإسلامي مما يزيد في وهن التصورات المحيطة بها، بغض النظر عن القول بأسطوريتها من حيث المبدأ.

١- بحار الأنوار نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم عن أبيه، عن يوسف بن أبي حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله، إلى السماء وجد ريحاً مثل ريح المسك الأذفر، فسأل جبرئيل عنها فأخبره أنها

١. الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین، ح ٣٣٢٠.

تخرج من بيت عذب فيه قوم في الله حتى ماتوا، ثم قال له: إن الخضر كان من أبناء الملوك فأمن بالله وتخلّى في بيت في دار أبيه يعبد الله، ولم يكن لأبيه ولد غيره، فأشاروا على أبيه أن يزوجه فلعل الله أن يرزقه ولداً فيكون الملك فيه وفي عقبه، فخطب له امرأة بكرةً وأدخلها عليه فلم يلتفت الخضر إليها، فلما كان اليوم الثاني قال لها: تكتمين عليّ أمري؟ فقالت: نعم، قال لها: إن سألك أبي هل كان مني إليك ما يكون من الرجال إلى النساء فقولني: نعم، فقالت: أفعل، فسألها الملك عن ذلك فقالت: نعم، وأشار عليه الناس أن يأمر النساء أن يفتشنها، فأمر فكانت على حالتها، فقالوا: أيها الملك زوجت الغر من الغرة، زوجه امرأة ثيباً، فزوجه، فلما أدخلت عليه سألها الخضر أن تكتم عليه أمره، فقالت: نعم، فلما أن سألها الملك قالت: أيها الملك إن ابنك امرأة فهل تلد المرأة من المرأة؟ فغضب عليه، فأمر بردم الباب عليه فردم، فلما كان اليوم الثالث حركته رقة الآباء فأمر بفتح الباب ففتح فلم يجدوه فيه، وأعطاه الله من القوة أن يتصور كيف شاء! ثم كان على مقدمة ذي القرنين، وشرب من الماء الذي من شرب منه بقي إلى الصيحة^(١)، قال: فخرج من مدينة أبيه رجلان في تجارة في البحر حتى وقعا إلى جزيرة من جزائر البحر، فوجدا فيها الخضر قائماً يصلي، فلما انفتل دعاهما فسألتهما عن خبرهما فأخبراه، فقال لهما: هل تكتمان عليّ أمري إن أنا رددتكما في يومكما هذا إلى منازلكما؟ فقالا: نعم، فتنوى أحدهما أن يكتم أمره، ونوى الآخر إن رده إلى منزله أخبر أباه بخبره، فدعا الخضر سحابة فقال لها: احملني هذين إلى منازلهما، فحملتهما السحابة حتى وضعتهما في بلدهما من يومهما، فكتم أحدهما أمره، وذهب الآخر إلى الملك فأخبره بخبره فقال له الملك: من يشهد لك بذلك؟ قال: فلان التاجر، فدل على صاحبه، فبعث الملك إليه فلما أحضره أنكره وأنكر معرفة صاحبه، فقال له الأول: أيها الملك ابعث معي خيلاً إلى هذه الجزيرة واحبس هذا حتى آتيك بابنك، فبعث معه خيلاً فلم يجدوه، فأطلق عن الرجل الذي كتم

١. أي يوم القيامة .

عليه. ثم إن القوم عملوا بالمعاصي فأهلكهم الله وجعل مدينتهم عاليها سافلها، وابتدرت الجارية التي كتمت عليه أمره والرجل الذي كتتم عليه كل واحد منهما ناحية من المدينة، فلما أصبحتا التقيا فأخبر كل واحد منهما صاحبه بخبره، فقالا: ما نجونا إلا بذلك، فأمنا برب الخضر، وحسن إيمانهما وتزوج بها الرجل، ووقعا إلى مملكة ملك آخر وتوصلت المرأة إلى بيت الملك، وكانت تزين بنت الملك فبينما هي تمشطها يوماً إذ سقط من يدها المشط فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقالت لها بنت الملك: ما هذه الكلمة؟ فقالت لها: إن لي إلهاً تجري الأمور كلها بحوله وقوته، فقالت لها: ألك إله غير أبي؟ فقالت: نعم وهو إلهك وإله أبيك، فدخلت بنت الملك إلى أبيها فأخبرت أباه بما سمعت من هذه المرأة، فدعاها الملك فسألها عن خبرها فأخبرته، فقال لها: من على دينك؟ قالت: زوجي وولدي، فدعاهم الملك وأمرهم بالرجوع عن التوحيد فأبوا عليه، فدعا بمرجل من ماء فسخنه وألقاهم فيه وأدخلهم بيتاً وهدم عليهم البيت، فقال جبرئيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: فهذه الرائحة التي تشمها من ذلك البيت^(١). تقييم السند: قد ذكرت مسبقاً أن المصدر لا يعتمد عليه لعدم ثبوت أنه كتاب علي بن إبراهيم القمي، كما أن يوسف بن أبي حماد مجهول الحال، بالإضافة إلى اشتغال الخبر على نسبة الكذب للخضر والامتناع عن الزواج بلا مبرر، والتصور بأية صورة شاء حتى أنه كان موجوداً في البيت ولم يره أبوه.. إلخ ذلك من الأمور التي لا تُعقل.

٢. في قصص الأنبياء رواية قريبة منها يرويها الراوندي عن الصدوق، عن أبيه، عن محمد العطار، عن ابن أبان، عن ابن أورمة، عن عبد الرحمن ابن حماد، عن يوسف بن حماد، عن المفضل، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله بينا هو على البراق وجبرئيل معه إذ نفخته رائحة مسك، فقال: يا جبرئيل ما هذا؟ فقال: كان في الزمان الأول ملك له أسوة حسنة في أهل مملكته، وكان له ابن رغب عما هو فيه وتخلّى في بيت يعبد الله، فلما كبر

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٩٦-٢٩٨.

سن الملك مشى إليه خيرة الناس وقالوا: أحسنت الولاية علينا، وكبرت سنك، ولا خلفك إلا ابنك وهو راغب عما أنت فيه، وإنه لم ينل من الدنيا، فلو حملته على النساء حتى يصيب لذة الدنيا لعاد، فاخطب كريمة له، فزوجه جارية لها أدب وعقل، فلما أتوا بها وحولوها إلى بيته أجلسوها وهو في صلاته، فلما فرغ قال: أيتها المرأة ليس النساء من شأني، فإن كنت تحبين أن تقيمي معي وتصنعين كما أصنع كان لك من الثواب كذا وكذا، قالت: فأنا أقيم على ما تريد، ثم إن أباه بعث إليها يسأئله هل حبلى؟ فقالت: إن ابنك ما كشف لي عن ثوب فأمر بردّها إلى أهلها وغضب على ابنه وأغلق الباب عليه ووضع عليه الحرس، فمكث ثلاثاً ثم فتح عنه فلم يوجد في البيت أحد، فهو الخضر (عليه السلام) ^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة بالفضل على الأقل.

وفي مصادر أهل السنة رواية قريبة المضمون من هذه، ففي سنن ابن ماجه حدثنا هشام بن عمار. ثنا الوليد بن مسلم. ثنا سعيد بن بشير عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أنه ليلة أسري به وجد ريحاً طيبة. فقال: يا جيريل! ما هذه الريح الطيبة؟ قال: هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها. قال: وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشرف بني إسرائيل، وكان ممره براهب في صومعته، فيطلع عليه الراهب، فيعلمه الإسلام. فلما بلغ الخضر، زوجه أبوه امرأة، فعلمها الخضر، وأخذ عليها أن لا تعلمه أحداً. وكان لا يقرب النساء، فطلقها، ثم زوجه أبوه أخرى. فعلمها وأخذ عليها أن لا تعلمه أحداً. فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأخرى. فانطلق هارباً، حتى أتى جزيرة في البحر، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه، فكتم أحدهما وأفشى الآخر، وقال: قد رأيت الخضر. فقيل: ومن رآه معك؟ قال: فلان. فسئل فكتم. وكان في دينهم أن من كذب قُتل. قال: فتزوج المرأة الكاتمة. فبينما هي تمشط ابنة فرعون، إذ سقط المشط فقالت: تعس فرعون! فأخبرت أباه. وكان للمرأة ابنان

١. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ١٦١.

وزوج. فأرسل إليهم. فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فأبيا. فقال: إني قاتلكما. فقالا: إحساناً منك إلينا إن قتلنا أن تجعلنا في بيت. ففعل. فلما أسري بالنبى (صلى الله عليه وسلم) وجد ريحاً طيبة فسأل جبريل، فأخبره^(١).

٣. بحار الأنوار نقلاً عن تفسير العياشي: عن الأصبع بن نباتة، عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: (سئل عن ذي القرنين قال: كان عبداً صالحاً واسمه عياش، اختاره الله وابتعثه إلى قرن من القرون الأولى في ناحية المغرب وذلك بعد طوفان نوح، فضربوه على قرن رأسه الأيمن فمات منها، ثم أحياه الله بعد مائة عام، ثم بعثه إلى قرن من القرون الأولى في ناحية المشرق، فكذبوه فضربوه ضربة على قرنيه الأيسر فمات منها، ثم أحياه الله بعد مائة عام وعوضه من الضربتين اللتين على رأسه قرنين في موضع الضربتين أجوفين، وجعل عز ملكه وآية نبوته في قرنيه، ثم رفعه الله إلى السماء الدنيا فكشط له عن الأرض كلها جبالها وسهولها وفجأها حتى أبصر ما بين المشرق والمغرب، وآتاه الله من كل شئ علماً يعرف به الحق والباطل، وأيده في قرنيه بكسف من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، ثم أهبطه إلى الأرض وأوحى إليه: أن سر في ناحية غرب الأرض وشرقها فقد طويت لك البلاد وذلت لك العباد فأرهبتهم منك، فسار ذو القرنين إلى ناحية المغرب فكان إذا مر بقرية زار فيها كما يزار الأسد المغضب، فيبعث من قرنيه ظلمات ورعد وبرق وصواعق تهلك من ناواه وخالفه، فلم يبلغ مغرب الشمس حتى دان له أهل المشرق والمغرب، قال: وذلك قول الله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ فسار ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ ولم يؤمن بربه ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾ في الدنيا بعذاب الدنيا ﴿ثُمَّ يَرُدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ في مرجعه ﴿فَنِعَذِّبُهُ عَذَاباً نَكْرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً^(٢) ذو القرنين من الشمس سبباً. ثم قال أمير المؤمنين:

١. ابن ماجه: السنن، ج ٢، ص ١٣٣٧ - ١٣٣٨.

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٨٦-٨٩.

إن ذا القرنين لما انتهى مع الشمس إلى العين الحامية وجد الشمس تغرب فيها ومعها سبعون ألف ملك يجرونها بسلاسل الحديد والكلاليب، يجرونها من قعر البحر في قطر الأرض الأيمن كما يجري السفينة على ظهر الماء، فلما انتهى معها إلى مطلع الشمس سبباً وجدها تطلع على قوم إلى ﴿بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾^(١) فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: إن ذا القرنين ورد على قوم قد أحرقتهم الشمس وغيرت أجسادهم وألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة، ثم أتبع ذو القرنين سبباً في ناحية الظلمة حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج خلف هذين الجبلين وهم يفسدون في الأرض إذا كان إبان زروعنا وثمارنا خرجوا علينا من هذين السدين، فرعوا في ثمارنا وزرعنا حتى لا يبقون منها شيئاً، فهل نجعل لك خرجاً نؤديه إليك في كل عام على أن تجعل بيننا وبينهم سداً إلى قوله: ﴿زُبُرَ الْحَدِيدِ﴾^(٢). قال: فاحتقر له جبل حديد فقلعوا له أمثال اللبن، فطرح بعضه على بعض فيما بين الصدفين، وكان ذو القرنين هو أول من بنى ردماً على الأرض، ثم جمع عليه الحطب وألهب فيه النار ووضع عليه المنافيخ فنفخوا عليه، فلما ذاب قال: آتوني بقطر وهو المس الأحمر، قال: فاحتقروا له جبلاً من مس فطرحوه على الحديد فذاب معه واختلط به، قال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ يعني يأجوج ومأجوج ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾^(٣) إلى ههنا رواية علي بن الحسين ورواية محمد بن نصر. وزاد جبرئيل بن أحمد في حديثه بأسانيد عن الأصبغ بن نباتة، عن علي بن أبي طالب «عليه السلام»: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾^(٤) يعني يوم القيامة، وكان ذو القرنين عبداً صالحاً وكان من الله بمكان نصح الله فتصح له، وأحب الله فأحبه، وكان قد سبب له في البلاد ومكن له فيها

١. القرآن الكريم : سورة الكهف: ٩١ .

٢. القرآن الكريم : سورة الكهف: ٩٦ .

٣. القرآن الكريم : سورة الكهف: ٩٧ - ٩٨ .

٤. القرآن الكريم : سورة الكهف: ٩٩ .

حتى ملك ما بين المشرق والمغرب، وكان له خليل من الملائكة يقال له: رقائق ينزل إليه فيحدثه ويناجيه، فبينما هو ذات يوم عنده إذ قال له ذو القرنين: يا رقائق كيف عبادة أهل السماء؟ وأين هي من عبادة أهل الأرض؟ قال رقائق: يا ذا القرنين وما عبادة أهل الأرض؟ فقال: أما عبادة أهل السماء ما في السماوات موضع قدم إلا وعليه ملك قائم لا يقعد أبداً، أو رাকع لا يسجد أبداً، أو ساجد لا يرفع رأسه أبداً، فبكى ذو القرنين بكاء شديداً فقال: يا رقائق إني أحب أن أعيش حتى أبلغ من عبادة ربي وحق طاعته ما هو أهله، قال رقائق: يا ذا القرنين إن الله في الأرض عيناً تدعى عين الحياة فيها عزيمة من الله، إنه من يشرب منها لم يمت حتى يكون هو الذي يسأل الله الموت، فإن ظفرت بها تعش ما شئت، قال: وأين ذلك العين؟ وهل تعرفها؟ قال: لا، غير أنا نتحدث في السماء أن الله في الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان، فقال ذو القرنين: وأين تلك الظلمة؟ قال رقائق: ما أدري، ثم صعد رقائق فدخل ذا القرنين حزن طويل من قول رقائق ومما أخبره عن العين والظلمة ولم يخبره بعلم ينتفع به منهما، فجمع ذو القرنين فقهاء أهل مملكته وعلماءهم وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة فلما اجتمعوا عنده قال ذو القرنين: يا معشر الفقهاء وأهل الكتب وآثار النبوة هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله وفي كتب من كان قبلكم من الملوك أن الله عيناً تدعى عين الحياة، فيها من الله عزيمة إنه من يشرب منها لم يمت حتى يكون هو الذي يسأل الله الموت؟ قالوا: لا يا أيها الملك، قال: فهل وجدتم فيما قرأتم من الكتب أن الله في الأرض ظلمة لم يطأها إنس ولا جان؟ قالوا: لا أيها الملك. فحزن عليه ذو القرنين حزناً شديداً وبكى إذ لم يخبر عن العين والظلمة بما يحب، وكان فيمن حضره غلام من الغلمان من أولاد الأوصياء: أوصياء الأنبياء، وكان ساكتاً لا يتكلم حتى إذا آيس ذو القرنين منهم قال له الغلام: أيها الملك إنك تسأل هؤلاء عن أمر ليس لهم به علم، وعلم ما تريد عندي، ففرح ذو القرنين فرحاً شديداً حتى نزل عن فراشه وقال له: ادن مني. فدنا منه، فقال: أخبرني، قال: نعم أيها الملك، إني وجدت في كتاب آدم الذي كتب يوم

سمي له ما في الأرض من عين أو شجر، فوجدت فيه أن لله عينا تدعى عين الحياة، فيها من أمر الله عزيمة، إنه من يشرب منها لم يمت حتى يكون هو الذي يسأل الله الموت بظلمة لم يطأها إنس ولا جان، ففرح ذو القرنين وقال: ادن مني يا أيها الغلام تدري أين موضعها؟ قال: نعم، وجدت في كتاب آدم أنها على قرن الشمس - يعني مطلعها - ففرح ذو القرنين وبعث إلى أهل مملكته فجمع أشrafهم وفقهاءهم وعلماءهم وأهل الحكم منهم فاجتمع إليه ألف حكيم وعالم وفقه، فلما اجتمعوا عليه تهيأ للمسير وتأهب له بأعد العدة وأقوى القوة، فسار بهم يريد مطلع الشمس يخوض البحار ويقطع الجبال والفيافي والأرضين والمفاوز فسار اثني عشر سنة حتى انتهى إلى طرف الظلمة، فإذا هي ليست بظلمة ليل ولا دخان ولكنها هواء يفور سد ما بين الأفقين، فنزل بطرفها وعسكر عليها، وجمع علماء أهل عسكره وفقهاءهم وأهل الفضل منهم، فقال: يا معشر الفقهاء والعلماء إني أريد أن أسلك هذه الظلمة، فخروا له سجداً فقالوا: أيها الملك إنك لتطلب أمراً ما طلبه ولا سلكه أحد كان قبلك من النبيين والمرسلين ولا من الملوك، قال: إنه لا بد لي من طلبها، قالوا: أيها الملك إنا لو نعلم أنك إذا سلكتها ظفرت بجانتك منها بغير عنت عليك لأمرنا، ولكننا نخاف أن يعلق بك منها أمر يكون فيه هلاك ملكك، وزوال سلطانك، وفساد من الأرض، فقال: لا بد من أن أسلكها، فخروا سجداً لله وقالوا: إنا نتبرؤ إليك مما يريد ذو القرنين. فقال ذو القرنين: يا معشر العلماء أخبروني بأبصر الدواب، قالوا: الخيل الإناث البكاره أبصر الدواب، فانتخب من عسكره فأصاب ستة آلاف فرس إناثاً أبكاراً وانتخب من أهل العلم والفضل والحكمة ستة آلاف رجل، فدفع إلى كل رجل فرساً وولى فسحر - وهو الخضر - على ألفي فرس، فجعلهم على مقدمته، وأمرهم أن يدخلوا الظلمة، وسار ذو القرنين في أربعة آلاف وأمر أهل عسكره أن يلزموا معسكره اثني عشر سنة، فإن رجع هو إليهم إلى ذلك الوقت وإلا تفرقوا في البلاد ولحقوا ببلادهم أو حيث شاؤوا، فقال الخضر: أيها الملك إنا نسلك في الظلمة لا يرى بعضنا بعضاً كيف نصنع بالضلال إذا أصابنا فأعطاه ذو

القرنين خرزة حمراء كأنها مشعلة لها ضوء، فقال: خذ هذه الخرزة فإذا أصابكم الضلال فارم بها إلى الأرض فإنها تصيح، فإذا صاحت رجع أهل الضلال إلى صوتها، فأخذها الخضر ومضى في الظلمة، وكان الخضر يرتحل وينزل ذو القرنين، فبينما الخضر يسير ذات يوم إذ عرض له واد في الظلمة فقال لأصحابه: قفوا في هذا الموضع لا يتحركن أحد منكم عن موضعه، ونزل عن فرسه فتناول الخرزة فرمى بها في الوادي فأبطأت عنه بالإجابة حتى خاف أن لا يجيبه، ثم أجابته فخرج إلى صوتها فإذا هي على جانب العين، وإذا ماؤها أشد بياضاً من اللبن، وأصفى من الياقوت، وأحلى من العسل، فشرب منه ثم خلع ثيابه فاغتسل منها، ثم لبس ثيابه ثم رمى بالخرزة نحو أصحابه فأجابته، فخرج إلى أصحابه وركب وأمرهم بالمسير فساروا، ومر ذو القرنين بعده فأخطأ الوادي فسلكوا تلك الظلمة أربعين يوماً وأربعين ليلة، ثم خرجوا بضوء ليس بضوء نهار ولا شمس ولا قمر ولكنه نور، فخرجوا إلى أرض حمراء رملة خشخاشة فركة كان حصارها اللؤلؤ، فإذا هو بقصر مبني على طول فرسخ. فجاء ذو القرنين إلى الباب فعسكر عليه، ثم توجه بوجهه وحده إلى القصر فإذا طائر وإذا حديدة طويلة قد وضع طرفها على جانبي القصر، والطير أسود معلق في تلك الحديدة بين السماء والأرض كأنه الخطاف أو صورة الخطاف أو شبيهه بالخطاف أو هو خطاف، فلما سمع الطائر خشخشة ذي القرنين قال: من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين، فقال الطائر: يا ذا القرنين أما كفاك ما وراءك حتى وصلت إلى حد بابي هذا، ففرق ذو القرنين فرقاً^(١) شديداً، فقال: يا ذا القرنين لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل كثر في الأرض بنيان الآجر والجص؟ قال: نعم، قال: فانتفض الطير وامتلأ حتى ملأ من الحديدة ثلثها، ففرق ذو القرنين فقال: لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل كثر المعازف؟ قال: نعم، قال: فانتفض الطير وامتلأ حتى ملأ من الحديدة ثلثها، ففرق ذو القرنين فقال: لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل ارتكب الناس شهادة الزور في الأرض؟ قال:

١. أي خوفاً .

نعم، فانتفض انتفاضة وانتفخ فسدّ ما بين جداري القصر، قال: فامتلاً ذو القرنين عند ذلك فرقاً منه، فقال له: لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله؟ قال: لا، فانضم ثلثه ثم قال: يا ذا القرنين لا تخف وأخبرني، قال: سل، هل ترك الناس الصلاة المفروضة؟ قال: لا، قال: فانضم ثلث آخر، ثم قال: يا ذا القرنين لا تخف وأخبرني، قال: سل، قال: هل ترك الناس الغسل من الجنابة؟ قال: لا، قال: فانضم حتى عاد إلى حاله الأول، فإذا هو بدرجة مدرجة إلى أعلى القصر. فقال الطير: يا ذا القرنين اسلك هذه الدرجة، فسلكها وهو خائف لا يدري ما يهجم عليه حتى استوى على ظهرها، فإذا هو بسطح ممدود مد البصر، وإذا رجل شاب أبيض مضئ الوجه عليه ثياب بيض حتى كأنه رجل أو في صورة رجل أو شبيه بالرجل أو هو رجل، وإذا هو رافع رأسه إلى السماء ينظر إليها واضع يده على فيه، فلما سمع خشخشة ذي القرنين قال: من هذا؟ قال: أنا ذو القرنين، قال: يا ذا القرنين أما كفاك ما وراءك حتى وصلت إلي؟ قال ذو القرنين: مالي أراك واضعاً يدك على فيك؟ قال: يا ذا القرنين أنا صاحب الصور، وإن الساعة قد اقتربت وأنا أنتظر أن أوامر بالنفخ فأنفخ، ثم ضرب بيده فتناول حجراً فرمى به إلى ذي القرنين كأنه حجر أو شبه حجر أو هو حجر، فقال: يا ذا القرنين خذها فإن جاع جعت، وإن شبع شبعت فارجع، فرجع ذو القرنين بذلك الحجر حتى خرج به إلى أصحابه فأخبرهم بالطير وما سأله عنه وما قال له وما كان من أمره، وأخبرهم بصاحب السطح وما قال له وما أعطاه، ثم قال لهم: إنه أعطاني هذا الحجر وقال لي: إن جاع جعت وإن شبع شبعت، قال: أخبروني بأمر هذا الحجر، فوضع في إحدى الكفين فوضع حجر مثله في الكفة الأخرى ثم رفع الميزان فإذا الحجر الذي جاء به أرجح بمثل الآخر فوضعوا آخر فمال به حتى وضعوا ألف حجر كلها مثله، ثم رفعوا الميزان فمال بها ولم يستمل به الألف حجر فقالوا: يا أيها الملك لا علم لنا بهذا. فقال له الخضر: أيها الملك إنك تسأل هؤلاء عما لا علم لهم به، وقد أوتيت علم هذا الحجر، فقال ذو القرنين: فأخبرنا به وبينه

لنا، فتناول الخضر الميزان فوضع الحجر الذي جاء به ذو القرنين في كفة الميزان، ثم وضع حجراً آخر في كفة أخرى، ثم وضع كفة تراب على حجر ذي القرنين يزيده ثقلاً ثم رفع الميزان فاعتدل، وعجبوا وخروا سجداً لله تعالى وقالوا: أيها الملك هذا أمر لم يبلغه علمنا وإنا لنعلم أن الخضر ليس بساحر فكيف هذا وقد وضعنا معه ألف حجر كلها مثله فمال بها وهذا قد اعتدل به وزاده تراباً؟ قال ذو القرنين: بين يا خضر لنا أمر هذا الحجر، قال الخضر: أيها الملك إن أمر الله نافذ في عبادته، وسلطانه قاهر، وحكمه فاصل وإن الله ابتلى عبادَهُ بعضهم ببعض، وابتلى العالم بالجاهل، والجاهل بالجاهل، والعالم بالجاهل، والجاهل بالجاهل، وإنه ابتلاني بك، وابتلاك بي، فقال ذو القرنين: يرحمك الله يا خضر إنما تقول: ابتلاني بك حين جعلت أعلم مني وجعلت تحت يدي أخبرني يرحمك الله عن أمر هذا الحجر، فقال الخضر: أيها الملك إن هذا الحجر مثل ضربه لك صاحب الصور، يقول: إن مثل بني آدم مثل هذا الحجر الذي وضع ووضع معه ألف حجر فمال بها، ثم إذا وضع عليه التراب شبع وعاد حجراً مثله، فيقول: كذلك مثلك أعطاك الله من الملك ما أعطاك فلم ترض به حتى طلبت أمراً لم يطلبه أبداً من كان قبلك، ودخلت مدخلاً لم يدخله إنس ولا جان، يقول: كذلك ابن آدم ولا يشبع حتى يحشى عليه التراب، قال: فبكى ذو القرنين بكاء شديداً وقال: صدقت يا خضر يضرب لي هذا المثل، لا جرم إنني لا أطلب أثراً في البلاد بعد مسلكتي هذا، ثم انصرف راجعاً في الظلمة فبينما هم يسيرون إذ سمعوا خشخشة تحت سنانك خيلهم، فقالوا: أيها الملك ما هذا؟ فقال: خذوا منه، فمن أخذ منه ندم، ومن تركه ندم، فأخذ بعض وترك بعض، فلما خرجوا من الظلمة إذا هم بالزبرجد فندم الآخذ والتارك، ورجع ذو القرنين إلى دومة الجندل وكان بها منزله، فلم يزل بها حتى قبضه الله إليه. قال: وكان صلى الله عليه وآله إذا حدث بهذا الحديث قال: رحم الله أخي ذا القرنين ما كان مخطئاً إذ سلك ما سلك وطلب ما طلب. ولو ظفر بوادي الزبرجد في مذهبه لما ترك فيه شيئاً إلا أخرجه إلى الناس لأنه كان راغباً، ولكنه ظفر به بعد ما رجع فقد

زهد^(١).

تقييم السند: النص السابق يمثل أكثر من رواية وهي بين مرسلة وضعيفة.

ثم لك عزيزي القارئ أن تحكم بنفسك على القصة لاسيما الفقرات المتنافية مع الحقائق العلمية، مع ملاحظة اشتغالها على العبارة التالية: (صدقت يا خضر يضرب لي هذا المثل، لا جرم إنني لا أطلب أثراً في البلاد بعد مسلكي هذا، ثم انصرف راجعاً في الظلمة) وكأن فتوحات ذي القرنين كانت أمراً منكراً أو طلباً للدنيا حتى أنه يعرض عنها زهداً بعد أن بين له الخضر مراد الملك، وهذا مخالف للقرآن الذي أكد على قيمة تلك الفتوحات باعتبارها من أسباب نشر التوحيد ودفع الظلم وإقامة العدل وإحقاق الحق.

٤. بحار الأنوار: روى الديلمي في كتاب أعلام الدين عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ذات يوم لأصحابه: (ألا أحدثكم عن الخضر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: بينا هو يمشي في سوق من أسواق بني إسرائيل إذ بصر به مسكين فقال: تصدق علي بارك الله فيك، قال الخضر: آمنت بالله، ما يقضي الله يكون، ما عندي من شيء أعطيته، قال المسكين: بوجه الله لما تصدقت علي إنني رأيت الخير في وجهك ورجوت الخير عندك، قال الخضر: آمنت بالله إنك سألتني بأمر عظيم ما عندي من شيء أعطيته إلا أن تأخذني فتبيعني، قال المسكين: وهل يستقيم هذا؟ قال: الحق أقول لك إنك سألتني بأمر عظيم، سألتني بوجه ربي عز وجل، أما إنني لا أخيبك في مسألتني بوجه ربي فبيعني، فقدّمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء، فقال الخضر (عليه السلام): إنما ابتعتني التماس خدمتي فمروني بعمل، قال: إنني أكره أن أشق عليك، إنك شيخ كبير، قال: لست تشق علي، قال: فقم فانقل هذه الحجارة. قال: وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم، فقام فنقل الحجارة في ساعته فقال له: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٩٨ - ٢٠٦.

يطلقه أحد. قال: ثم عرض للرجل سفر فقال: إني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة، وإني أكره أن أشق عليك، قال: لست تشق علي، قال: فاضرب من اللين شيئاً حتى أرجع إليك، قال: فخرج الرجل لسفره ورجع وقد شيد بناءه، فقال له الرجل: أسألك بوجه الله ما حسبك وما أمرك؟ قال: إنك سألتني بأمر عظيم بوجه الله «عز وجل»، ووجه الله «عز وجل» أوقعني في العبودية وسأخبرك من أنا، أنا الخضر الذي سمعت به، سألتني مسكين صدقة ولم يكن عندي شئ أعطيه، فسألتني بوجه الله «عز وجل» فأمكنته من رقبتني، فباعني فأخبرك أنه من سئل بوجه الله «عز وجل» فرد سائله وهو قادر على ذلك وقف يوم القيامة ليس لوجهه جلد ولا لحم ولا دم إلا عظم يتققع، قال الرجل: شققت عليك ولم أعرفك. قال: لا بأس أبقيت وأحسن، قال: بأبي أنت وأمي احكم في أهلي ومالي بما أراك الله «عز وجل»، أم أخيرك فأخلي سبيلك؟ قال: أحب إلي أن تخلي سبيلي فأعبد الله على سبيله، فقال الخضر (عليه السلام): الحمد لله الذي أوقعني في العبودية فأنجاني منها^(١). تقييم السند: الرواية مرسله، كما أنها غريبة المضمون، إذ لا يتصرف العاقل بأن يجعل نفسه موضع العبودية لاسيما مع وجود اختيارات كثيرة أمامه لإعانة المحتاج، كأن يعطيه ثوبه أو يؤجر نفسه وغير ذلك.

ثم إن الخبر التالي الوارد في مصادر أهل السنة قريب جداً من هذا الخبر، ففي مجمع الزوائد عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (ألا أحدثكم عن الخضر عليه السلام؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال: تصدق علي بارك الله فيك. فقال الخضر عليه السلام: آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكون ما عندي شئ أعطيكه. فقال المسكين: أسألك بوجه الله لما تصدقت علي، فإني نظرت السماحة في وجهك ورجوت البركة عندك. فقال الخضر: آمنت بالله ما عندي شئ أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني. فقال المسكين: وهل تستطيع هذا؟ قال: نعم، أقول لقد سألتني

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٢٠-٣٢١.

بأمر عظيم أما إني لا أخيبك بوجه ربي بعني. قال: فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شئ فقال له: إنك إنما اشتريتني التماس خير عندي فأوصني بعمل. قال: أكره أن أشق عليك، إنك شيخ كبير ضعيف. قال: ليس تشق علي. قال: قم فانقل هذه الحجارة. وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم. فخرج في بعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة قال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطبيقه. قال: ثم عرض للرجل سفر، قال: إني أحسبك أميناً فاخلفني في أهلي خلافة حسنة. قال: وأوصني بعمل. قال: إني أكره أن أشق عليك. قال: ليس تشق علي. قال: فاضرب من اللبن لبيتتي حتى أقدم عليك. قال فمرّ الرجل لسفره قال: فرجع الرجل وقد شيد بناؤه، قال: أسألك بوجه الله ما سببك؟ وما أمرك؟ قال: سألتني بوجه الله، ووجه الله أوقعني في العبودية. فقال الخضر: سأخبرك من أنا. أنا الخضر الذي سمعت به، سألتني مسكين صدقة فلم يكن عندي شئ أعطيه فسألتني بوجه الله فأمكنته من رقبتني فباعني، وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة جلدة لا لحم له ولا عظم يتتقعق. فقال الرجل: آمنت بالله، شققت عليك يا نبي الله، ولم أعلم. قال: لا بأس أحسنت واتقيت. فقال الرجل: بأبي أنت وأبي يا نبي الله أحكم في أهلي ومالي بما شئت أو اختر فأخلي سبيلك. قال: أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي. فخلي سبيله. فقال الخضر: الحمد لله الذي أوثقتني في العبودية ثم نجاني منها). وعلق الهيثمي على الخبر قائلاً: (رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون إلا أن فيه بقية بن الوليد وهو مدلس^(١) ولكنه ثقة^(٢)).

وكما ارتبط الخضر بقصص ذي القرنين وفرعون ورحلة النبي موسى وآخرين، فقد ارتبط عند البعض بقصتين من قصص القرآن الكريم أيضاً، فقد ذكر أنه صاحب النبي سليمان الذي أحضر عرش بلقيس!

١. التدليس كما مر بنا في الفصل الأول هو: أن يحدث الرجل عن شيخ قد لقيه وأدرك زمانه، وأخذ عنه، وسمع منه، وحدث عنه بما لم يسمع منه، بلفظ يوهم السماع ك (عن فلان) أو (قال فلان).
٢. الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٣، ص ١٠٢ - ١٠٣.

ففي بحار الأنوار: (وقيل إن الذي عنده علم من الكتاب كان رجلاً من الإنس يعلم اسم الله الأعظم اسمه بلخيا، عن مجاهد، وقيل: اسمه اسطوم، عن قتادة، وقيل: هو الخضر عليه السلام) ^(١).

والقصة الأخرى هي قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، فقد قال الطبرسي في قوله «عز وجل»: (﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾) ^(٢): وهو عزيز، عن قتادة وعكرمة والسدي، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام، وقيل: هو أرميا، عن وهب، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وقيل: هو الخضر، عن ابن إسحاق ^(٣).

❖ من شئونه وأحواله:

وردت أخبار غريبة وشاذة المضمون في شئون الخضر وأحواله وتفاصيل حياته، وفي الأسطر التالية بعضٌ منها:

١. بحار الأنوار: (في باب ما ورد من غرائب معجزاته عليه السلام) ^(٤) بالأسانيد الغريبة: وجدت في بعض الكتب: حدثنا محمد بن زكريا العلائي، قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار المعروف بابن المعافا، عن وكيع، عن زاذان، عن سلمان الفارسي «رضي الله عنه» قال: كنا مع مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، فقلت: يا أمير المؤمنين أحب أن أرى من معجزاتك شيئاً. قال عليه السلام: أفعل إن شاء الله تعالى. ثم قام ودخل منزله وخرج إلي وتحتة فرس أدهم، وعليه قباء أبيض وقلنسوة بيضاء، ثم نادى: يا قنبر أخرج إلي ذلك الفرس، فأخرج فرساً آخر أدهم، فقال عليه السلام: اركب يا أبا عبد الله، قال سلمان: فركبته فإذا له جناحان ملتصقان إلى جنبه، قال: فصاح به الإمام عليه السلام، فتعلق في الهواء، وكنت أسمع حفيف أجنحة الملائكة وتسبيحها تحت العرش، ثم خطونا على ساحل بحر عجاج مغطمط

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٢٣.

٢. القرآن الكريم: سورة البقرة: ٢٥٩.

٣. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٣٦.

٤. يقصد أمير المؤمنين علي.

الأمواج، فنظر إليه الإمام شزراً فسكن البحر من غليانه، فقلت له: يا مولاي سكن البحر من غليانه من نظرك إليه، فقال «عليه السلام»: يا سلمان خشي أن آمر فيه بأمر، ثم قبض على يدي وسار على وجه الماء والفرسان تتبعاننا لا يقودهما أحد، فوالله ما ابتلت أقدامنا ولا حوافر الخيل. قال سلمان: فعبّرنا ذلك البحر ورفعنا إلى جزيرة كثيرة الأشجار والأثمار والأطيار والأنهار، وإذا شجرة عظيمة بلا صدع ولا زهر فhezها «عليه السلام» بقضيب كان في يده فانشقت، وخرج منها ناقة طولها ثمانون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً وخلفها قلوص فقال «عليه السلام»: ادن منها واشرب من لبنها، قال سلمان: فدنوت منها وشربت حتى رويت، وكان لبنها أعذب من الشهد وألين من الزبد، وقد اكتفيت، قال «عليه السلام»: هذا حسن يا سلمان؟ فقلت: مولاي حسن، فقال «عليه السلام»: تريد أن أراك ما هو أحسن منه؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال سلمان: فنادى مولاي أمير المؤمنين «عليه السلام»: اخرجي يا حسناء. قال: فخرجت ناقة طولها عشرون ومائة ذراع وعرضها ستون ذراعاً، ورأسها من الياقوت الأحمر، وصدرها من العنبر الأشهب، وقوائمها من الزبرجد الأخضر، وزمامها من الياقوت الأصفر، وجنبها الأيمن من الذهب، وجنبها الأيسر من الفضة، وعرضها من اللؤلؤ الرطب، فقال «عليه السلام»: يا سلمان اشرب من لبنها، قال سلمان: فالتقمت الضرع فإذا هي تحلب عسلاً صافياً مخلصاً فقلت يا سيدي: هذه لمن؟ قال «عليه السلام»: هذه لك ولسائر الشيعة من أوليائي. ثم قال «عليه السلام» لها: ارجعي إلى الصخرة، ورجعت من الوقت، و سار بي في تلك الجزيرة حتى ورد بي إلى شجرة عظيمة عليها طعام يفوح منه رائحة المسك، فإذا بطائر في صورة النسر العظيم، قال سلمان «رضي الله عنه»: فوثب ذلك الطائر فسلم عليه «عليه السلام» ورجع إلى موضعه، فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذه المائدة؟ فقال «عليه السلام»: هذه منصوبة في هذا المكان للشيعة من موالي إلى يوم القيامة، فقلت: ما هذا الطائر؟ قال «عليه السلام»: ملك موكل بها إلى يوم القيامة، فقلت: وحده يا سيدي؟ فقال «عليه السلام»: يجتاز به الخضر «عليه السلام» في كل يوم مرة. ثم قبض

«عليه السلام» على يدي وسار إلى بحر ثان، فعبرنا وإذا جزيرة عظيمة فيها قصر لبنة من ذهب ولبنة من فضة بيضاء، وشرفها من عقيق أصفر، وعلى كل ركن من القصر سبعون صفاً من الملائكة، فأتوا وسلموا، ثم أذن لهم فرجعوا إلى مواضعهم، قال سلمان «رضي الله عنه»: ثم دخل أمير المؤمنين «عليه السلام» القصر فإذا أشجار وأثمار وأنهار وأطيار وألوان النبات: فجعل الإمام «عليه السلام» يمشي فيه حتى وصل إلى آخره، فوقف «عليه السلام» على بركة كانت في البستان، ثم صعد على قصر فإذا كرسي من الذهب الأحمر، فجلس عليه «عليه السلام»، وأشرفنا على القصر فإذا بحر أسود يغطمط أمواجه كالجبال الراسيات، فنظر «عليه السلام» شزراً فسكن من غليانه حتى كان كالمذنب، فقلت: يا سيدي سكن البحر من غليانه إلى نظره إليه فقال «عليه السلام»: خشي أن أمر فيه بأمر، أتدري يا سلمان أي بحر هذا؟ فقلت: لا يا سيدي، فقال: هذا الذي غرق فيه فرعون وملؤه المذنب، حملها جناح جبرئيل «عليه السلام» ثم زجها في هذا البحر، فهو يهوي لا يبلغ قراره إلى يوم القيامة^(١).
تقييم السند: الرواية مجهولة المصدر، بالإضافة إلى قول المجلسي بأنها غريبة المضمون والسند.

٢. الفروع من الكافي: العدة عن أحمد بن محمد، عن أحمد بن أبي داود، عن عبد الله بن أبان، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (مسجد السهلة مناخ الراكب، قيل: ومن الراكب؟ قال: الخضر «عليه السلام»)^(٢). تقييم السند: الرواية ضعيفة على الأقل بعبد الله بن أبان فهو مجهول الحال.

٣. الفروع من الكافي: عن محمد بن يحيى، عن عمرو بن عثمان، عن حسين بن بكر، عن عبد الرحمن بن سعيد الخزاز، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (مسجد السهلة مناخ الراكب)^(٣). تقييم السند: الرواية ضعيفة لجهالة حال حسين

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٥٠-٥٢.

٢. الكليني: الكافي، الفروع، ج ١، ص ١٣٩.

٣. الكليني: الكافي، الفروع، ج ١، ص ١٣٩.

«الحسين» بن بكر الذي لم ترد له رواية سوى هذه، وكذلك لجهالة عبدالرحمن بن سعيد.

٤. بحار الأنوار عن تفسير الكلبي: (إن الخضر واليسع يجتمعان كل ليلة على ذلك السد^(١) يحجبان يأجوج ومأجوج عن الخروج ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾^(٢) أي وتركنا يأجوج ومأجوج يوم انقضاء أمر السد يمجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم ويكون حالهم كحال الماء الذي يتموج باضطراب أمواجه، وقيل: إنه أراد سائر الخلق الجن والإنس، أي تركنا الناس يوم خروج يأجوج ومأجوج يختلط بعضهم ببعض لأن ذلك عَلمٌ للساعة^(٣)). تقييم السند: الرواية مرسلّة.

٥. بحار الأنوار: قال المجلسي: (وأقول: وجدت في كتاب مزار لبعض قدماء أصحابنا أنه روي عن علي بن إبراهيم عن أبيه قال: حججت إلى بيت الله الحرام فوردنا عند نزولنا الكوفة، فدخلنا مسجد السهلة فإذا نحن بشخص راعع ساجد، فلما فرغ دعا بهذا الدعاء: أنت الله لا إله إلا أنت، إلى آخر الدعاء، ثم نهض إلى زاوية المسجد فوقف هناك وصلى ركعتين ونحن معه، فلما انقضى من الصلاة سبج ثم دعا فقال: اللهم، إلى آخر الدعاء، ثم نهض فسألناه عن المكان فقال: إن هذا الموضع بيت إبراهيم الخليل الذي كان يخرج منه إلى العمالقة. ثم مضى إلى الزاوية الغربية فصلى ركعتين ثم رفع يديه وقال: اللهم، إلى آخر الدعاء، ثم قام ومضى إلى الزاوية الشرقية فصلى ركعتين ثم بسط كفيه وقال: اللهم، إلى آخر الدعاء، وعفر خديه على الأرض وقام فخرج فسألناه بم يعرف هذا المكان؟ فقال: إنه مقام الصالحين والأنبياء والمرسلين، قال: فاتّبّعناه وإذا به قد دخل إلى مسجد صغير بين يدي السهلة فصلى فيه ركعتين بسكينة ووقار كما صلى أول مرة ثم بسط كفيه وقال: إلهي، إلى آخر الدعاء، ثم بكى وعفر خديه وقال: ارحم من

١. أي سد يأجوج ومأجوج .

٢. القرآن الكريم: سورة الكهف: ٩٩ .

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٩٩ .

أساء واقتترف واستكان واعترف. ثم قلب خده الأيسر ودعا ثم خرج، فاتبعته وقلت له: يا سيدي بم يُعرف هذا المسجد؟ فقال: إنه مسجد زيد بن صوحان صاحب علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ثم غاب عنا ولم نره. فقال لي صاحبي: إنه الخضر (عليه السلام)^(١). تقييم السند: الخبر كما ترى غير مسند، ولا يعرف مصدره، وذكر الخضر في القصة مجرد استنتاج من صاحب إبراهيم بن هاشم، ولا ندري ما مدركه، ولم لا يكون أي شخص آخر متدين وله معرفة بتاريخ هذه الأماكن؟

٦. بحار الأنوار: قال المجلسي: (روي في كتاب مزار لبعض قدماء أصحابنا، عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال لي: يا أبا محمد كأي نزل أرى نزل القائم (عليه السلام) في مسجد السهلة بأهله وعياله. قلت: يكون منزله جعلت فداك؟ قال: نعم، كان فيه منزل إدريس، وكان منزل إبراهيم خليل الرحمن، وما بعث الله نبياً إلا وقد صلى فيه. وفيه مسكن الخضر، والمقيم فيه كالمقيم في فسطاط رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وما من مؤمن ولا مؤمنة إلا وقلبه يحن إليه)^(٢). تقييم السند: المصدر مجهول والرواية مرسلّة. نعم قال المجلسي في الخبر برقم ١٩١: (أقول: روى مؤلف المزار الكبير بإسناده، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال:....) وساق خبراً قريباً من السابق. والمؤلف محمد بن جعفر المشهدي، والرواية مرسلّة.

٧. بحار الأنوار نقلاً عن تاريخ قم: (تأليف الشيخ الفاضل الحسن بن محمد بن الحسن القمي من كتاب مؤنس الحزين في معرفة الحق واليقين، من مصنفات أبي جعفر محمد بن بابويه القمي)^(٣) ما لفظه بالعربية: باب ذكر بناء مسجد جمكران، بأمر الإمام المهدي عليه صلوات الله الرحمن وعلى آبائه المغفرة، سبب بناء المسجد المقدس في جمكران بأمر الإمام (عليه السلام) على ما أخبر به الشيخ العفيف الصالح

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٤٤٥.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٧٦.

٣. أي الشيخ الصدوق.

حسن بن مثله الجمكراني قال: كنت ليلة الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة نائماً في بيتي فلما مضى نصف من الليل فإذا بجماعة من الناس على باب بيتي فأيقظوني، وقالوا: قم وأجب الإمام المهدي صاحب الزمان فإنه يدعوك. قال: فقممت وتعبأت وتهيأت، فقلت: دعوني حتى ألبس قميصي، فإذا بنداء من جانب الباب: هو ما كان قميصك. فتركته وأخذت سراويلي، فنودي: ليس ذلك منك، فخذ سراويلك. فألقيته وأخذت سراويلي ولبسته، فقممت إلى مفتاح الباب أطلبه فنودي: الباب مفتوح. فلما جئت إلى الباب رأيت قوماً من الأكابر، فسلمت عليهم، فردوا ورحبوا بي، وذهبوا بي إلى موضع هو المسجد الآن، فلما أمعنت النظر رأيت أريكة فرشت عليها فراش حسان، وعليها وسائد حسان، ورأيت فتى في زي ابن ثلاثين متكئاً عليها، وبين يديه شيخ، وبيده كتاب يقرؤه عليه، وحوله أكثر من ستين رجلاً يصلون في تلك البقعة، وعلى بعضهم ثياب بيض، وعلى بعضهم ثياب خضر. وكان ذلك الشيخ هو الخضر (عليه السلام)، فأجلسني ذلك الشيخ (عليه السلام)، ودعاني الإمام (عليه السلام) باسمي، وقال: اذهب إلى حسن بن مسلم، وقل له: إنك تعمّر هذه الأرض منذ سنين وتزرعها، ونحن نخربها، زرعت خمس سنين، والعام أيضاً أنت على حالك من الزراعة والعمارة؟ ولا رخصة لك في العود إليها وعليك رد ما انتفعت به من غلات هذه الأرض ليعني فيها مسجد وقل لحسن بن مسلم إن هذه أرض شريفة قد اختارها الله تعالى، من غيرها من الأراضي وشرفها، وأنت قد أضفتها إلى أرضك. وقد جزاك الله بموت ولدين لك شابين، فلم تنتبه من غفلتك، فإن لم تفعل ذلك لأصابك من نقمة الله من حيث لا تشعر. قال حسن بن مثله: قلت يا سيدي لا بد لي في ذلك من علامة، فإن القوم لا يقبلون ما لا علامة ولا حجة عليه، ولا يصدقون قلبي، قال: إنا سنعلم هناك فاذهب وبلغ رسالتنا، واذهب إلى السيد أبي الحسن وقل له: يجيئ ويحضره ويطالبه بما أخذ من منافع تلك السنين، ويعطيه الناس حتى يبنوا المسجد، ويتم ما نقص منه من غلة رهق ملكنا بناحية أردھال ويتم المسجد، وقد وقفنا نصف رهق

على هذا المسجد، ليجلب غلته كل عام، ويصرف إلى عمارته. وقل للناس: ليرغبوا إلى هذا الموضع ويعزروه ويصلوا هنا أربع ركعات للتحية في كل ركعة يقرأ سورة الحمد مرة، وسورة الإخلاص سبع مرات ويسبح في الركوع والسجود سبع مرات، وركعتان للإمام صاحب الزمان (عليه السلام) هكذا: يقرأ الفاتحة فإذا وصل إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) كرره مائة مرة ثم يقرأها إلى آخرها وهكذا يصنع في الركعة الثانية، ويسبح في الركوع والسجود سبع مرات، فإذا أتم الصلاة يهلل ويسبح تسبيح فاطمة الزهراء (عليها السلام) فإذا فرغ من التسبيح يسجد ويصلي على النبي وآله مائة مرة، ثم قال (عليه السلام): ما هذه حكاية لفظه: فمن صلاها فكأنما في البيت العتيق. قال حسن بن مثله: قلت في نفسي كأن هذا موضع أنت تزعم أنما هذا المسجد للإمام صاحب الزمان مشيراً إلى ذلك الفتى المتكى على الوسائد فأشار ذلك الفتى إلي أن اذهب. فرجعت فلما سرت بعض الطريق دعاني ثانية، وقال: إن في قطيع جعفر الكاشاني الراعي معزاً يجب أن تشتريه فإن أعطاك أهل القرية الثمن تشتريه وإلا فتعطي من مالك، وتجنّ به إلى هذا الموضع، وتذبحه الليلة الآتية ثم تنفق يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر رمضان المبارك لحم ذلك المعز على المرضى، ومن به علة شديدة، فإن الله يشفي جميعهم، وذلك المعز أبلق، كثير الشعر، وعليه سبع علامات سود وبيض: ثلاث على جانب وأربع على جانب، سود وبيض كالدرهم. فذهبت فأرجعوني ثالثة، وقال عليه السلام: تقيم بهذا المكان سبعين يوماً أو سبعاً، فإن حملت على السبع انطبق على ليلة القدر، وهو الثالث والعشرون وإن حملت على السبعين انطبق على الخامس والعشرين من ذي القعدة، وكلاهما يوم مبارك. قال حسن بن مثله: فعدت حتى وصلت إلى داري ولم أزل الليل متفكراً حتى أسفر الصبح، فأديت الفريضة، وجئت إلى علي بن المنذر، فقصصت عليه الحال، فجاء معي حتى بلغت المكان الذي ذهبوا بي إليه البارحة، فقال: والله إن العلامة التي قال لي الإمام واحد منها أن هذه السلاسل والأوتاد

١. القرآن الكريم: سورة الفاتحة: ٥.

ههنا. فذهبنا إلى السيد الشريف أبي الحسن الرضا فلما وصلنا إلى باب داره رأينا خدامه وغلمانه يقولون إن السيد أبا الحسن الرضا ينتظرك من سحر، أنت من جمكران؟ قلت: نعم، فدخلت عليه الساعة، وسلمت عليه وخضعت فأحسن في الجواب وأكرمني ومكّن لي في مجلسه، وسبقني قبل أن أحدثه وقال: يا حسن بن مثلة إني كنت نائماً فرأيت شخصاً يقول لي: إن رجلاً من جمكران يقال له: حسن بن مثلة يأتيك بالغدو، ولتصدقن ما يقول، واعتمد على قوله، فإن قوله قولنا، فلا تردن عليه قوله فانتبهت من رقدتي، وكنت أنتظرك الآن. فقص عليه الحسن بن مثلة القصص مشروحاً فأمر بالخيول لتسرج، وتخرجوا فركبوا فلما قربوا من القرية رأوا جعفر الراعي وله قطع على جانب الطريق فدخل حسن بن مثلة بين القطيع، وكان ذلك المعز خلف القطيع فأقبل المعز عادياً إلى الحسن بن مثلة فأخذه الحسن ليعطي ثمنه الراعي ويأتي به فأقسم جعفر الراعي أنني ما رأيت هذا المعز قط، ولم يكن في قطيعي إلا أنني رأيته وكلما أريد أن أخذه لا يمكنني، والآن جاء إليكم، فأتوا بالمعز كما أمر به السيد إلى ذلك الموضع وذبحوه. وجاء السيد أبو الحسن الرضا «عليه السلام» إلى ذلك الموضع، وأحضروا الحسن بن مسلم واستردوا منه الغلات وجاءوا بغلات رهق، وسقفوا المسجد بالجزوع وذهب السيد أبو الحسن الرضا «عليه السلام» بالسلاسل والأوتاد وأودعها في بيته فكان يأتي المرضى والأعلاء ويمسون أبدانهم بالسلاسل فيشفاهم الله «تعالى» عاجلاً ويصحون. قال أبو الحسن محمد بن حيدر: سمعت بالاستفاضة أن السيد أبا الحسن الرضا في المحلة المدعوة بموسويان من بلدة قم، فمرض بعد وفاته ولد له، فدخل بيته وفتح الصندوق الذي فيه السلاسل والأوتاد، فلم يجدها^(١). تقييم السند: الرواية مرسلة، وأصل الكتاب مفقود، فقد قال العلامة المجلسي: (إنه كتاب معتبر، ولكن لم يتيسر لنا أصله، وما بأيدينا إنما هو ترجمته)^(٢).

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٢٣٠-٢٣٥.

٢. الحائري: إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب، ج ٢، ص ٥٣.

٨. بحار الأنوار: (وقال الشيخ الكفعمي «رحمه الله» في هامش جنته عند ذكر دعاء أم داود: قيل: إن الأرض لا يخلو من القطب، وأربعة أوتاد، وأربعين أبدأً وسبعين نجيباً وثلاثمائة وستين صالحاً، فالقطب هو المهدي «عليه السلام»، ولا يكون الأوتاد أقل من أربعة لأن الدنيا كالخيمة والمهدي كالعمود وتلك الأربعة أطناؤها، وقد يكون الأوتاد أكثر من أربعة، والأبدال أكثر من أربعين، والنجباء أكثر من سبعين والصلحاء أكثر من ثلاث مائة وستين، والظاهر أن الخضر وإلياس، من الأوتاد فهما ملاصقان لدائرة القطب. وأما صفة الأوتاد فهم قوم لا يغفلون عن ربهم طرفة عين، ولا يجمعون من الدنيا إلا البلاغ، ولا تصدر منهم هفوات الشر ولا يشترط فيهم العصمة من السهو والنسيان، بل من فعل القبيح، ويشترط ذلك في القطب. وأما الأبدال فدون هؤلاء في المراقبة، وقد تصدر منهم الغفلة فيتداركونها بالتذكر، ولا يتعمدون ذنباً. وأما النجباء فهم دون الأبدال. وأما الصلحاء، فهم المتقون الموفون بالعدالة، وقد يصدر منهم الذنب فيتداركونه بالاستغفار والندم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١) جعلنا الله من قسم الأخير لأننا لسنا من الأقسام الأول لكن ندين الله بحبهم وولايتهم ومن أحب قوماً حشر معهم. وقيل: إذا نقص أحد من الأوتاد الأربعة وضع بدله من الأربعين، وإذا نقص أحد من الأربعين وضع بدله من السبعين، وإذا نقص أحد من السبعين، وضع بدله من الثلاثمائة وستين، وإذا نقص أحد من الثلاثمائة وستين، وضع بدله من سائر الناس^(٢). تعليق: هذه التقسيمات من متبنيات الصوفية ووضعهم، ولا دليل صحيح عليها، ولا تتبع من أصل إسلامي.

٩. مكارم الأخلاق: عن سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي «عليه السلام» قال: (قال النبي صلى الله عليه وآله، لعلي «عليه السلام» في أشياء وصاه بها: كل الكرفس، فإنه بقلة إلياس ويوشع بن نون «عليه السلام». وقال رسول الله صلى الله عليه وآله، الكرفس

١. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ٢٠١.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٣٠١-٣٠٢.

بقلة الأنبياء. ويذكر أن طعام الخضر وإلياس الكرفس والكمأة^(١). تقييم السند: يبدو أن الجملة الأخيرة ليست من الخبر المروي عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وعلى كل حال فالروايتان السابقتان مرسلتان.

١٠. صحيح مسلم: (حديث مرفوع: حدثني عمرو الناقد، والحسن الحلواني، وعبد بن حميد وألفاظهم متقاربة، والسياق لعبد، قال: حدثني، وقال الآخرون: حدثنا يعقوب وهو ابن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن أبا سعيد الخدري، قال: حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال، فكان فيما حدثنا، قال: يأتي وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) حديثه. فيقول الدجال: رأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟، فيقولون: لا، قال: فيقتله ثم يحييه، فيقول: حين يحييه والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن، قال: فيريد الدجال أن يقتله، فلا يسلط عليه، قال أبو إسحاق: يقال إن هذا الرجل هو الخضر (عليه السلام)^(٢).

بغض النظر عن سند الخبر، لاحظ أن العبارة الأخيرة إنما هي نقل قول ولا يُعلم مصدره، وليس جزءاً من الخبر نفسه. وقال النووي في شرح صحيح مسلم: (قوله: قال أبو إسحاق يقال إن هذا الرجل هو الخضر (عليه السلام): أبو إسحاق هذا هو إبراهيم بن سفيان راوي الكتاب عن مسلم)^(٣).

١١. كمال الدين عن محمد بن علي بن حاتم، عن أحمد بن عيسى الوشاء البغدادي، عن أحمد بن طاهر، عن محمد بن يحيى بن سهل، عن علي بن

١. الطبرسي: مكارم الأخلاق: ٢٠٥.

٢. مسلم: صحيح مسلم، ح ٥٢٣٣.

٣. النووي: شرح صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٢٢.

الحارث، عن سعد بن منصور الجواشني، عن أحمد بن علي البديلي، عن أبيه، عن سدير الصيرفي قال: (دخلت أنا والمفضل بن عمر وأبو بصير وأبان بن تغلب، على مولانا أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام، فرأيناه جالسا على التراب وعليه مسح خيبري مطوق بلا جيب مقصر الكمين وهو يبكي بكاء الواله الثكلي، ذات الكبد الحرى، قد نال الحزن من وجنتيه وشاع التغير في عارضيه وأبلى الدموع محجريه، وهو يقول: سيدي، غيبتك نفت رقادي وضيق علي مهادي وأسرت مني راحة فؤادي، سيدي غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد يفني الجمع والعدد، فما أحس بدمعة ترقى من عيني، وأنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوائف البلايا إلا مثل لعيني عن عواير^(١) أعظمها وأفضعها وتراقى أشدها وأنكرها ونوايب مخلوطة بغضبك، ونوازل معجونة بسخطك. قال سدير: فاستطارت عقولنا ولها وتصدعت قلوبنا جزعا من ذلك الخطب الهائل والحادث الغائل، وظننا أنه سمة لمكروهة قارعة أو حلت به من الدهر بآثقة فقلنا: لا أبكى الله يا بن خير الورى عينيك، من أي حادثة تستنزف دمعتك، و تستمطر عبرتك، وأية حالة حتمت عليك هذا المأتم. قال: فزفر الصادق عليه السلام، زفرة انتفخ منها جوفه، واشتد منها خوفه، وقال: ويحكم إني نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الذي خص الله «تقدس اسمه به» محمداً والأئمة من بعده عليهم السلام، وتأملت فيه مولد قائمنا وغيبته وإبطاؤه وطول عمره وبلوى المؤمنين به من بعده في ذلك الزمان وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته، وارتداد أكثرهم عن دينهم، وخلعهم ربة الإسلام من أعناقهم، التي قال الله «تقدس ذكره»: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(٢) يعني الولاية، فأخذتني الرقة، واستولت علي الأحزان. فقلنا: يا بن

١. أي المصائب التي تعور العين لكثرتها .

٢. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ١٣ .

رسول الله كرمنا وشرفنا بإشراكك إيانا في بعض ما أنت تعلمه من علم قال: إن الله تعالى، أدار في القائم منا ثلاثة أدارها في ثلاثة من الرسل قدر مولده تقدير مولد موسى عليه السلام، وقدر غيبته غيبة عيسى عليه السلام، وقدر إبطاؤه تقدير إبطاء نوح عليه السلام، وجعل من بعد ذلك عمر العبد الصالح أعني الخضر دليلاً على عمره فقلت: اكشف لنا يا بن رسول الله عن وجوه هذه المعاني. قال: أما مولد موسى فإن فرعون لما وقف على أن زوال ملكه على يده أمر باحضار الكهنة، فدلوه على نسبه وأنه يكون من بني إسرائيل ولم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيافاً وعشرين ألف مولود وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ الله تعالى إياه ... «إلى قوله»: وأما العبد الصالح الخضر عليه السلام، فإن الله تعالى ما طوّل عمره لنبوة قدرها له ولا لكتاب ينزله عليه، ولا لشريعة ينسخ بها شريعة من كان قبلها من الأنبياء، ولا لإمامة يلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعة يفرضها له، بلى إن الله تبارك وتعالى لما كان في سابق علمه أن يقدر من عمر القائم عليه السلام في أيام غيبته ما يقدر وعلم ما يكون من إنكاره عباده بمقدار ذلك العمر في الطول، طوّل عمر العبد الصالح من غير سبب أوجب ذلك إلا لعله الاستدلال به على عمر القائم عليه السلام، وليقطع بذلك حجة المعاندين لتلا يكون للناس على الله حجة^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بعدة من رواتها. ورواها الشيخ الطوسي في الغيبة عن جماعة، عن أبي الفضل، عن محمد بن بحر الشيباني، عن علي بن الحارث مثله. والشيباني ضعيف ومن الغلاة.

وفي مقابل ذلك فقد اعتبر آخرون أن الله قدّر طول عمر الخضر لهدف مختلف، لا يبتعد كثيراً عن قضية المهدي عليه السلام، إذ يرتبط ذلك بالدجال، فقد روى الدارقطني عن مجاهد أنه قال: (مد للخضر في أجله حتى يكذب الدجال)^(٢).

١. الصدوق: كمال الدين، ج ٢، ٣٥٢-٣٥٧.

٢. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٣٤.

❖ لقاءاته بالنبي والأئمة:

تبين لنا من خلال هذا الفصل أن عدة من الروايات الضعيفة تحدثت عن لقاءات جرت بين الخضر من جهة، وبين النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) من جهة أخرى.

ونستعرض هنا مجموعة أخرى من الروايات الواردة في هذا الباب:

١. عيون أخبار الرضا للصدوق عن الطالقاني، عن أبي سعيد النسوي، عن إبراهيم بن محمد بن هارون، عن أحمد بن الفضل البلخي، عن خاله يحيى بن سعيد، عن الرضا، عن آبائه، عن علي (عليه السلام) قال: (بينما أنا أمشي مع النبي (صلى الله عليه وآله) في بعض طرقات المدينة إذ لقينا شيخ طوال كث اللحية بعيد ما بين المنكبين، فسلم على النبي (صلى الله عليه وآله) ورحّب به، ثم التفت إلي وقال: السلام عليك يا رابع الخلفاء ورحمة الله وبركاته، أليس كذلك هو يا رسول الله؟ فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): بلى، ثم مضى فقلت: يا رسول الله ما هذا الذي قال لي هذا الشيخ وتصديقك له؟ قال: أنت كذلك والحمد لله، إن الله تعالى قال في كتابه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) وال خليفة المجعل فيها آدم (عليه السلام)، وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٢) فهو الثاني، وقال تعالى: حكاية عن موسى (عليه السلام) حين قال لهارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾^(٣) فهو هارون إذ استخلفه موسى (عليه السلام) في قومه، وهو الثالث، وقال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾^(٤) فكنت أنت المبلغ عن الله وعن رسوله، وأنت وصيي ووزيرني وقاضي ديني والمؤدي عني، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فأنت رابع الخلفاء كما سلم

١. القرآن الكريم: سورة البقرة: ٣٠ .

٢. القرآن الكريم: سورة ص: ٢٦ .

٣. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ١٤٢ .

٤. القرآن الكريم: سورة التوبة: ٣ .

عليك الشيخ، أو لا تدري من هو؟ قلت: لا، قال: ذاك أخوك الخضر (عليه السلام، فاعلم)^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بأكثر من راو.

٢. مجمع الزوائد للهيثمي: عن أنس بن مالك قال: (خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض الليالي أحمل له الطهور^(٢))، إذ سمع منادياً فقال: يا أنس، صه. فقال: اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني منه. فقال النبي صلى الله عليه وآله: لو قال أختها. فكأن الرجل لقن ما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: وارزقتي شوق الصادقين إلى ما شوقتهم إليه. فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا أنس ضع الطهور واث هذا المنادي فقل له أن يدعو لرسول الله صلى الله عليه وآله، أن يعينه على ما ابتعثه به وادع لأمته أن يأخذوا ما أتاهم به نبيهم بالحق. فأتيته فقلت: ادع لرسول الله صلى الله عليه وآله، أن يعينه الله على ما ابتعثه به وادع لأمته أن يأخذوا ما أتاهم به نبيهم بالحق. فقال: ومن أرسلك؟ فكرهت أن أعلمه ولم أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: وما عليك رحمك الله بما سألتك؟ فقال: أو لا تخبرني من أرسلك؟ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته بما قال فقال: قل له: أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لي: مرحباً برسول الله ومرحباً برسوله، أنا أحق أن آتية. أقرئ رسول الله السلام وقل له: الخضر يقرئك السلام ويقول لك إن الله قد فضلك على النبيين كما فضل شهر رمضان على سائر الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام. فلما وليت عنه سمعته يقول: اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المرشدة المتاب عليها). قال الهيثمي معلقاً: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوضاح بن عباد الكوفي تكلم فيه أبو الحسين بن المنادي، وشيخ الطبراني بشر بن علي بن بشر العمي لم أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات)^(٣).

١. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ١٢.

٢. أي الماء الذي يتظهر به بعد قضاء الحاجة.

٣. الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٨، ص ٢١١.

٣. كتاب الهواتف: عن علي بن أبي طالب «عليه السلام»: (لما توفي النبي صلى الله عليه وآله، وسجي بثوب، هتف هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم أهل البيت، كل نفس ذائقة الموت، إن في الله خلفاً من كل هالك، وعوضاً من كل فائت، وعزاء من كل مصيبة، فبالله ثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حُرم الثواب. فكان الصحابة يرون أنه الخضر «عليه السلام»^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بأكثر من راو.

٤. كمال الدين للصدوق عن المظفر العلوي، عن ابن العياشي، عن أبيه عن جعفر بن أحمد، عن ابن فضال، عن الرضا «عليه السلام» قال: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، جاء الخضر فوقف على باب البيت وفيه علي وفاطمة والحسن والحسين «عليهم السلام»، ورسول الله صلى الله عليه وآله، قد سجي بثوب فقال: السلام عليكم يا أهل البيت كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، إن في الله خلفاً من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة، ودركاً من كل فائت فتوكلوا عليه وثقوا به، واستغفروا الله لي ولكم. فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: هذا أخي الخضر جاء يعزيكم بنبيكم)^(٢). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بالمظفر وابن العياشي. وفي البين بعض الروايات الأخرى، وهي قريبة المضمون منها وتشترك معها في ضعف السند.

٥. المستدرک للحاكم النيسابوري: (أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد ابن بالويه ثنا محمد بن بشر بن مطر ثنا كامل بن طلحة ثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك «رحمه الله» قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، أحرق به أصحابه فبكوا حوله واجتمعوا فدخل رجل أصهب اللحية جسيم صبيح فتخطأ رقابهم فبكى ثم التفت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال إن في الله عزاء

١. ابن أبي الدنيا: الهواتف، ص ٢٢ .

٢. كمال الدين: الصدوق، ص ٢١٩ .

من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله فأنبيوا وإليه فارغبوا ونظرة إليكم في البلاء فانظروا، فإنما المصاب من لم يجبر، وانصرف فقال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟ فقال أبو بكر وعلي: نعم هذا أخو رسول الله صلى الله عليه وآله، الخضر عليه السلام^(١).

٦. مجمع الزوائد عن أنس رضي الله عنه قال: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، قعد أصحابه حزان يبيكون حوله، فجاء رجل طويل صبيح فصيح في إزار ورداء أشعر المنكبين والصدر فتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أخذ بعضادي الباب فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ساعة ثم قال: إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك وعوضاً من كل ما فات فإلى الله فأنبيوا وإليه فارغبوا فإنما المصاب من لم يجبره الثواب. فقال القوم: تعرفون الرجل؟ فنظروا يميناً وشمالاً فلم يروا أحداً. فقال أبو بكر: هذا الخضر أخو النبي صلى الله عليه وسلم). ثم علق الهيثمي بقوله: (رواه الطبراني في الأوسط وفيه عباد بن عبد الصمد أبو معمر ضعفه البخاري)^(٢).

٧. أمالي الصدوق: عن الطالقاني عن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عيسى، عن علي بن سعيد بن بشير، عن ابن كاسب، عن عبد الله بن ميمون المكي قال: حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين عليه السلام: (أنه دخل عليه رجلان من قریش فقال: ألا أحدثكما عن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقالا: بلى حدثنا عن أبي القاسم. قال: سمعت أبي عليه السلام يقول: لما كان قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، بثلاثة أيام هبط عليه جبرئيل فقال: يا أحمد إن الله أرسلني إليك إكراماً وتقضياً لك وخاصة يسألك عما هو أعلم به منك. يقول: كيف تجدك يا محمد؟ قال النبي صلى الله عليه وآله: أجدني يا جبرئيل مغموماً وأجدني يا جبرئيل مكروباً، فلما كان اليوم الثالث هبط جبرئيل وملك الموت ومعهما ملك يقال

١. الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ٥٨.

٢. الهيثمي: مجمع الزوائد، ج ٣، ص ٣.

له: إسماعيل في الهواء على سبعين ألف ملك فسبقهم جبرئيل (عليه السلام) فقال: يا أحمد إن الله (تعالى) أرسلني إليك إكراماً لك وتقضياً لك وخاصة يسألك عما هو أعلم به منك، فقال: كيف تجدك يا محمد؟ قال: أجدني يا جبرئيل مغموماً، وأجدني يا جبرئيل مكروباً، فاستأذن ملك الموت فقال جبرئيل: يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك، لم يستأذن على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك، قال: ائذن له، فأذن له جبرئيل (عليه السلام)، فأقبل حتى وقف بين يديه فقال: يا أحمد إن الله أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك فيما تأمرني إن أمرتني بقبض نفسك قبضتها، وإن كرهت تركتها فقال النبي (صلى الله عليه وآله): أتفعل ذلك يا ملك الموت؟ قال: نعم بذلك أمرت أن أطيعك فيما تأمرني، فقال له جبرئيل: يا أحمد إن الله (تعالى) قد اشتاق إلى لقاءك. فقال رسول الله: يا ملك الموت امض لما أمرت به، فقال جبرئيل (عليه السلام): هذا آخر وطني الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا. فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله على روحه الطيب وعلى آله الطاهرين جاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال: السلام عليكم ورحمة الله، كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل ما فات، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله. قال علي بن أبي طالب (عليه السلام): هل تدرون من هذا؟ هذا الخضر (عليه السلام)^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة بعلي بن سعيد بن بشير وبابن كاسب.

وفي دلائل النبوة رواية مطابقة لها ولكنها تنتهي قبل قول الإمام علي (عليه السلام): (هل تدرون من هذا؟...)، وبالتالي فلا ذكر فيها للخضر^(٢).

٨. تنزيه الشريعة المرفوعة: (أثر علي بن أبي طالب: بينا أنا أطوف بالبيت إذا رجل معلق بأستار الكعبة وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع، يا من لا

١. الصدوق: الأمالي، ص ٥٠.

٢. البيهقي: دلائل النبوة: ح ٣١٤٥.

تغلطه المسائل، يا من لا يتبرم بإلحاح الملحين، أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك، فقلت: يا عبد الله، أعد الكلام، قال: وسمعتك؟ قلت: نعم، قال: والذي نفس الخضر بيده، وكان هو الخضر، لا يقولهن عبد دُبر الصلاة المكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر). وعلق المؤلف بقوله: (ولا يصح، فيه محمد بن الهروي مجهول وعبد الله بن محمد متروك - تعقب - بأن ابن عساكر رواه من طريق آخر. قلت: هو من طريق الدينوري صاحب المجالسة وقد مر أن الدارقطني كان يتهمه بالوضع إلا أن ابن أبي الدنيا تابعه فزالته تهمة لكن في السند مجاهيل والله أعلم^(١)).

وقد روى المفيد في مجالسه خبراً قريباً جداً منه، قال: محمد بن الحسين، عن أحمد بن محمد الصولي، عن الجلودي، عن الحسين بن حميد، عن مخول بن إبراهيم، عن صالح بن أبي الأسود، عن محفوظ بن عبيد الله، عن شيخ من أهل حضرموت، عن محمد بن الحنفية عليه الرحمة قال: (بيننا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) يطوف بالبيت إذا رجل متعلق بالأسطار وهو يقول: يا من لا يشغله سمع عن سمع يا من لا يغلطه السائلون يا من لا يبرمه إلحاح الملحين، أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هذا دعاؤك؟ قال له الرجل: وقد سمعته؟ قال: نعم، قال: فادعُ به في دبر كل صلاة فوالله ما يدعو به أحد من المؤمنين في أدبار الصلاة إلا غفر الله له ذنوبه ولو كانت عدد نجوم السماء وقطرها وحصباء الأرض وثرأها، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: عِلِّمْ ذلك عندي، والله واسع كريم، فقال له الرجل - وهو الخضر - : صدقت والله يا أمير المؤمنين وفوق كل ذي علم عليم^(٢). تقييم السند: الرواية ضعيفة لما فيها من مجاهيل.

٩ - التوحيد للصدوق: بإسناده عن وهب القرشي عن الصادق عن آبائه، عن

١. علي بن محمد الشافعي: تنزيه الشريعة المرفوعة، ح ٢٤٦ .

٢. المفيد: الأمالي، ص ٦٢ .

أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: (رأيت الخضر «عليه السلام» في المنام قبل بدر ليلة فقلت له: علمني شيئاً أنصر به على الأعداء، فقال: قل: يا هويّا من لا هو إلا هو. فلما أصبحت قصصتها على رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال لي: يا علي علمت الاسم الأعظم، وكان على لساني يوم بدر)^(١). تقييم السند: الرواية ضعيفة بوهب بن وهب بن عبد الله القرشي على الأقل.

١٠. مناقب آل أبي طالب: (روى حبيب بن حسن العتكي عن جابر الأنصاري قال: صلى بنا أمير المؤمنين «عليه السلام» صلاة الصبح، ثم أقبل علينا فقال: معاشر الناس أعظم الله أجركم في أخيكم سلمان، فقالوا في ذلك، فلبس عمامة رسول الله «ودراعتة» وأخذ قضيبه وسيفه، وركب على العضباء وقال لقنبر: عد عشراً، قال: ففعلت فإذا نحن على باب سلمان، قال زاذان: فلما أدركت سلمان الوفاة قلت له: من المغسل لك؟ قال: من غسل رسول الله، فقلت: إنك بالمدائن وهو بالمدينة، فقال: يا زاذان إذا شددت لحيي تسمع الوجبة^(٢)، فلما شددت لحييه سمعت الوجبة وأدركت الباب فإذا أنا بأمير المؤمنين «عليه السلام» فقال: يا زاذان قضى أبو عبد الله سلمان؟ قلت: نعم يا سيدي، فدخل وكشف الرداء عن وجهه فتبسم سلمان إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» فقال له: مرحباً يا أبا عبد الله إذا لقيت رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقل له ما مر على أخيك من قومك؟ ثم أخذ في تجهيزه فلما صلى عليه كنا نسمع من أمير المؤمنين «عليه السلام» تكبيراً شديداً وكنت رأيت معه رجلين، فقال: أحدهما جعفر أخي، والآخر الخضر «عليه السلام»، ومع كل واحد منهما سبعون صفاً من الملائكة، في كل صف ألف ملك)^(٣). تقييم السند: الرواية مرسلة، وحبيب بن حسن مجهول، والرواية تشتمل على تبسم سلمان بعد موته، وهو غريب.

١. الصدوق: التوحيد، ج ١، ص ٨٩.

٢. أي السقطة مع الهدية، أو صوت الساقط.

٣. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٢، ص ١٣١.

١١ - بحار الأنوار: (قال الشيخ حسن بن سليمان «رحمه الله» في كتاب المحتضر: روى بعض علماء الإمامية في كتاب منهج التحقيق إلى سواء الطريق بإسناده عن سلمان الفارسي قال: كنت أنا والحسن والحسين «عليهما السلام» ومحمد بن الحنفية ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود الكندي «رضي الله عنهم» فقال له ابنه الحسن: يا أمير المؤمنين إن سليمان بن داود «عليه السلام» سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه ذلك. فهل ملكت مما ملك سليمان بن داود شيئاً؟ فقال «عليه السلام»: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إن سليمان بن داود سأل الله «تعالى» الملك فأعطاه، وإن أباك ملك ما لم يملكه بعد جدك رسول الله «صلى الله عليه وآله» أحد قبله ولا يملكه أحد بعده. فقال الحسن: نريد تريانا مما فضلك الله «تعالى» به من الكرامة، فقال «عليه السلام»: أفعل إن شاء الله، فقام أمير المؤمنين «عليه السلام» وتوضاً وصلى ركعتين ودعا الله «تعالى» بدعوات لم نفهمها ثم أومأ بيده إلى جهة المغرب فما كان بأسرع من أن جاءت سحابة فوقفت على الدار وإلى جانبها سحابة أخرى. فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: أيتها السحابة اهبطي بإذن الله عز وجل فهبطت و هي تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وأنت خليفة ووصيه، من شك فيك فقد هلك، ومن تمسك بك سلك سبيل النجاة. قال: ثم انبسطت السحابة إلى الأرض حتى كأنها بساط موضوع. فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: اجلسوا على الغمامة، فجلسنا وأخذنا مواضعنا، فأشار إلى السحابة الأخرى فهبطت وهي تقول كمقالة الأولى، وجلس أمير المؤمنين «عليه السلام» عليها بمفرده ثم تكلم بكلام وأشار إليها بالمسير نحو المغرب، وإذا بالريح قد دخلت تحت السحابتين فرفعتهما رفعاً رفيقاً. فتأملت نحو أمير المؤمنين «عليه السلام» وإذا به على كرسي والنور يسطع من وجهه يكاد يخطف الأبصار، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين إن سليمان بن داود كان مطاعاً بخاتمه، وأمير المؤمنين بماذا يطاع؟ فقال «عليه السلام»: أنا عين الله في أرضه أنا لسان الله الناطق في خلقه، أنا نور الله الذي لا يطفأ، أنا باب الله الذي يؤتى منه وحجته على عباده. ثم قال: أتحبون أن أريكم خاتم سليمان بن داود قلنا:

نعم فأدخل يده إلى جيبه فأخرج خاتماً من ذهب فصه من ياقوتة حمراء عليه مكتوب: «محمد وعلي». قال سلمان: فتعجبنا من ذلك، فقال: من أي شئ تعجبون؟ وما العجب من مثلي؟ أنا أريكم اليوم ما لم تروه أبداً. فقال الحسن: أريد تريني بأجوج ومأجوج والسد الذي بيننا وبينهم، فسارت الريح تحت السحابة فسمعنا لها دويّاً كدوي الرعد وعلت في الهواء، وأمير المؤمنين «عليه السلام» يقدمنا حتى انتهينا إلى جبل شامخ في العلو، وإذا شجرة جافة قد تساقطت أوراقها وجفت أغصانها. فقال الحسن: ما بال هذه الشجرة قد يبست؟ فقال «عليه السلام»: سلها فإنها تجيبك. فقال الحسن: أيتها الشجرة ما بالك قد حدث بك ما نراه من الجفاف؟ فلم تجبه، فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: بحقي عليك إلا ما أحبتيه. قال الراوي: واللّه لقد سمعتها وهي تقول: لبيك لبيك يا وصي رسول الله وخليفته، ثم قالت: يا أبا محمد إن أمير المؤمنين «عليه السلام» كان يجيئني في كل ليلة وقت السحر، ويصلي عندي ركعتين ويكثر من التسبيح فإذا فرغ من دعائه جاءته غمامة بيضاء ينفخ منها ريح المسك وعليها كرسي، فيجلس فتسير به، وكنت أعيش ببركته فانقطع عني منذ أربعين يوماً، فهذا سبب ما تراه مني. فقام أمير المؤمنين «عليه السلام» وصلى ركعتين ومسح بكفه عليها فاخضرت وعادت إلى حالها، وأمر الريح فسارت بنا، وإذا نحن بملك يده في المغرب والأخرى بالشرق، فلما نظر الملك إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأشهد أنك وصيه وخليفته حقاً وصدقاً. فقلنا: يا أمير المؤمنين من هذا الذي يده في المغرب والأخرى بالشرق؟ فقال «عليه السلام»: هذا الملك الذي وكله الله «تعالى» بظلمة الليل والنهار، لا يزول إلى يوم القيامة. وإن الله عز وجل جعل أمر الدنيا إلي وإن أعمال الخلق تعرض في كل يوم علي ثم ترفع إلى الله «تعالى». ثم سرنا حتى وقفنا على سد يأجوج ومأجوج فقال أمير المؤمنين عليه السلام للريح: اهبطي بنا مما يلي هذا الجبل، وأشار بيده إلى جبل شامخ في العلو وهو جبل الخضر «عليه السلام»،

فنظرنا إلى السد وإذا ارتفاعة مد البصر وهو أسود كقطعة ليل دامس، يخرج من أرجائه الدخان فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: يا أبا محمد أنا صاحب هذا الأمر على هؤلاء العبيد. قال سلمان: فرأيت أصنافاً ثلاثة: طول أحدهم مائة وعشرون ذراعاً، و الثاني طول كل واحد سبعون ذراعاً، والثالث يفرش أحد أذنيه تحته والأخرى يلتحف به. ثم إن أمير المؤمنين «عليه السلام» أمر الريح فسارت بنا إلى جبل قاف فانتهيت إليه، وإذا هو من زمردة خضراء وعليها ملك على صورة النسر، فلما نظر إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» قال الملك: السلام عليك يا وصي رسول الله وخليفته، أتأذن لي في الكلام؟ فردّ «عليه السلام» وقال له: إن شئت تكلم وإن شئت أخبرتك عما تسألني عنه. فقال الملك: بل تقول أنت يا أمير المؤمنين، قال: تريد أن أذن لك أن تزور الخضر «عليه السلام»، قال: نعم، فقال: قد أذنت لك، فأسرع الملك بعد أن قال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم تمشينا على الجبل هنيئة فإذا بالملك قد عاد إلى مكانه بعد زيارة الخضر «عليه السلام»، فقال سلمان: يا أمير المؤمنين رأيت الملك ما زار الخضر إلا حين أخذ إذنك. فقال «عليه السلام»: والذي رفع السماء بغير عمد، لو أن أحدهم رام أن يزول من مكانه بقدر نفس واحد لما زال حتى أذن له، وكذلك يصير حال ولدي الحسن وبعده الحسين وتسعة من ولد الحسين تاسعهم قائمهم، فقلنا: ما اسم الملك الموكل بقاف؟ فقال «عليه السلام»: ترجائيل، فقلنا: يا أمير المؤمنين كيف تأتي كل ليلة إلى هذا الموضع وتعود؟ فقال: كما أتيت بكم. والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إني لأملك من ملكوت السماوات والأرض ما لو علمتم ببعضه لما احتمله جنانكم، إن اسم الله الأعظم على اثنين وسبعين حرفاً وكان عند آصف بن برخيا حرف واحد فتكلم به فخسف الله «تعالى» الأرض ما بينه وبين عرش بلقيس، حتى تناول السرير، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرف النظر، وعندنا نحن والله اثنتان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله «تعالى» استأثر به في علم الغيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عرفنا من عرفنا وأنكرنا من أنكرنا، ثم قام «عليه السلام» وقمنا فإذا نحن بشاب في الجبل

يصلي بين قبرين. فقلنا: يا أمير المؤمنين من هذا الشاب؟ فقال «عليه السلام»: صالح النبي. فقال «عليه السلام»: وهذا القبران لأمه وأبيه وإنه يعبد الله بينهما، فلما نظر إليه صالح لم يتمالك نفسه حتى بكى، وأوماً بيده إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» ثم أعادها إلى صدره وهو يبكي فوقف أمير المؤمنين «عليه السلام» عنده حتى فرغ من صلاته، فقلنا له: ما بكاؤك؟ قال صالح: إن أمير المؤمنين «عليه السلام» كان يمر بي عند كل غداة فيجلس فتزداد عبادتي بنظري إليه فقطع ذلك مذ عشرة أيام فأقلقني ذلك، فتعجبنا من ذلك. فقال «عليه السلام»: تريدون أن أريكم سليمان بن داود؟ قلنا: نعم، فقام ونحن معه حتى دخل بستاناً ما رأينا أحسن منه، وفيه من جميع الفواكه والأعشاب وأنهاره تجري والأطيار يتجاوبن على الأشجار فحين رآته الأطيار أتت ترفرف حوله حتى توسطنا البستان، وإذا سرير عليه شاب ملقى على ظهره واضع يده على صدره. فأخرج أمير المؤمنين «عليه السلام» الخاتم من جيبه، وجعله في إصبع سليمان بن داود فنهض قائماً وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ووصي رسول العالمين، أنت والله الصديق الأكبر والفاروق الأعظم، قد أفلح من تمسك بك وقد خاب وخسر من تخلف عنك، وإني سألت الله تعالى، بكم أهل البيت فأعطيت ذلك الملك. قال سلمان: فلما سمعنا كلام سليمان بن داود لم أتمالك نفسي حتى وقعت على أقدام أمير المؤمنين «عليه السلام» اقبلها، وحمدت الله على جزيل عطائه بهدايته إلى ولاية أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وفعل أصحابي كما فعلت، ثم سألت أمير المؤمنين ما وراء قاف، قال «عليه السلام»: وراؤه ما لا يصل إليكم علمه، فقلنا: تعلم ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال «عليه السلام»: علمي بما وراء كعلمي بحال هذه الدنيا وما فيها، وإني الحفيظ الشهيد عليها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك الأوصياء من ولدي بعدي^(١).
تقييم السند: الرواية مرسلة وتتضمن أموراً غير مقبولة.

١٢. أمالي الطوسي: حدثنا محمد بن محمد، قال: أخبرني أبو الحسن علي

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٣٣-٣٨.

بن محمد الكاتب، قال: أخبرني الحسن بن علي بن عبد الكريم، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد الثقفي، قال: حدثنا إبراهيم بن ميمون، قال: حدثنا مصعب بن سلام، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ ابن نباتة، قال: (كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» يصلي عند الأسطوانة السابعة من باب الفيل، إذ أقبل عليه رجل عليه بُردان أخضران وله عقيصتان سوداوان، أبيض اللحية، فلما سلّم أمير المؤمنين «عليه السلام» من صلاته أكب عليه، فقبل رأسه، ثم أخذ بيده فأخرجه من باب كندة. قال: فخرجنا مسرعين خلفهما ولم نأمن عليه، فاستقبلنا «عليه السلام» في جارسوج كندة^(١) قد أقبل راجعا، فقال: ما لكم؟ قلنا: لم نأمن عليك هذا الفارس. فقال: هذا أخي الخضر، ألم تروا حيث أكب علي. قلنا: بلى. فقال: إنه قد قال لي: إنك في مدرة لا يريد لها جبار بسوء إلا قصمه الله، واحذر الناس، فخرجت معه لأشيّعه لأنه أراد الظهر^(٢)). تقييم السند: في سند الرواية مجاهيل كمصعب بن سلام، وبالتالي فهي ضعيفة.

١٢. قصص الأنبياء: عن الصدوق، عن ماجيلويه، عن عمه، عن علي الكوفي، عن إبراهيم بن أبي البلاد، عن أبيه، عن الحارث الأعور الهمداني قال: (رأيت مع أمير المؤمنين «عليه السلام» شيخاً بالنخيلة، فقلت: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: هذا أخي الخضر، جاءني يسألني عما بقي من الدنيا، وسألته عما مضى من الدنيا، فأخبرني وأنا أعلم بما سألته منه، قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: فأتينا بطبق رطب من السماء، فأما الخضر فرمى بالنوى وأما أنا فجمعتة في كفي، قال الحارث: وقلت فهبه لي يا أمير المؤمنين، فوهبه ففرسته، فخرج مشاناً^(٣) جيداً بالغاً عجباً لم أر مثله قط^(٤)). تقييم السند: الرواية ضعيفة بماجيلويه وعلي الكوفي.

١. في حاشية النسخة: الجارسوج، معناه المربع، ولربما الكلمة في الأصل فارسية وتعني السوق ذو المخرج أو المحال الأربعة.

٢. الطوسي: الأمالي: ص ٥١.

٣. من أطيب أنواع الرطب.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ١٣١، نقلاً عن كتاب قصص الأنبياء للصدوق.

١٤ - بحار الأنوار: عن عبد الله بن الحسن بن الحسن، عن أبيه، عن جده، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (كان^(١) في مسجد الكوفة يوماً، فلما جنَّ الليل أقبل رجل من باب الفيل عليه ثياب بيض، فجاء الحرس وشرطة الخميس، فقال لهم أمير المؤمنين (عليه السلام): ما تريدون؟ فقالوا: رأينا هذا الرجل أقبل إلينا فخشينا أن يغتالك، فقال: كلا، فانصرفوا رحمكم الله، أتحفظوني من أهل الأرض؟ فمن يحفظني من أهل السماء؟ ومكث الرجل عنده ملياً يسأله، فقال: يا أمير المؤمنين لقد ألبست الخلافة بهاء وزينة وكمالاً ولم تلبسك، ولقد افتقرت إليك أمة محمد وما افتقرت إليها، ولقد تقدمك قوم وجلسوا مجلسك فعذابهم على الله، وإنك لزاهد في الدنيا وعظيم في السماوات والأرض، وإن لك في الآخرة مواقف كثيرة تقرر بها عيون شيعتك، وإنك لسيد الأوصياء وأخوك سيد الأنبياء، ثم ذكر الأئمة الإثني عشر وانصرف. وأقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) على الحسن والحسين (عليهما السلام) فقال: تعرفانه؟ قالوا: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أخي الخضر (عليه السلام). وأسفل الرواية كتب المجلسي: (وفي الخبر أن خضراً وعلياً (عليهما السلام) قد اجتمعا، فقال له علي (عليه السلام): قل كلمة حكمة، فقال: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء قربة إلى الله، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): وأحسن من ذلك تيه الفقراء^(٢) على الأغنياء ثقة بالله، فقال الخضر: ليكتب هذا بالذهب^(٣)). تقييم السند: الروايتان مرسلتان.

١٥ - البحار: (في أمالي المفيد النيسابوري وتاريخ بغداد قال الفتح بن شخرف^(٤): رأى أمير المؤمنين الخضر (عليه السلام) في المنام فسأله نصيحة، قال: فأراني كفه فإذا فيها مكتوب بالخضرة^(٥):

١. كذا في المصدر، والظاهر: (عن أبيه عند جده أن أمير المؤمنين s كان في مسجد الكوفة...).

٢. أي تجنبهم .

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ١٣١ - ١٣٢ .

٤. في الهامش: شنجرف .

٥. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ١٣٣ .

قد كنت ميتاً فصرت حياً وعن قليل تعود ميتاً
فابن لدار البقاء بيتاً ودع لدار الفناء بيتاً).

تقييم السند: الرواية مرسلة.

١٦. بحار الأنوار نقلاً عن التوحيد للصدوق وفي أماليه عن الدقاق، والقطان، والسناني جميعاً، عن أحمد بن زكريا القطان، عن محمد بن العباس، عن محمد بن أبي السري، عن أحمد بن عبد الله بن يونس، عن سعد بن طريف الكناني، عن الأصبغ بن نباتة قال: (لما جلس علي «عليه السلام» في الخلافة وبإيعه الناس خرج إلى المسجد متعمماً بعمامة رسول الله، لباساً برودة رسول الله، متنعلاً نعل رسول الله، متقلداً سيف رسول الله، فصعد المنبر فجلس عليه متمكناً ثم شبك بين أصابعه فوضعها أسفل بطنه ثم قال: يا معاشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سبط العلم، هذا لعاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»، هذا ما زقتي رسول الله «صلى الله عليه وآله» زقاً زقاً، سلوني فإن عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثبت لي وسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم حتى تنطق التوراة فتقول: صدق علي، ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله في، وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم حتى ينطق الإنجيل فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله في، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتى ينطق القرآن فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله في. وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه؟ ولولا آية في كتاب الله «تعالى» لأخبرتكم بما كان وبما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١). ثم قال: سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتُموني عن آية آية في ليل أنزلت أو في نهار أنزلت، مكبها ومدنيها، سفيها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم. فقام إليه رجل يقال

١. القرآن الكريم: سورة الرعد: ٣٩.

له ذعلب، وكان ذرب اللسان، بليغاً في الخطب، شجاع القلب فقال: لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقاة صعبة لأخجلنه اليوم لكم في مسألتي إياه، فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟ فقال: ويحك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد رباً لم أره. قال: فكيف رأيته؟ صفة لنا. قال «عليه السلام»: ويحك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويحك يا ذعلب إن ربي لا يوصف بالبُعد ولا بالحركة ولا بالسكون، ولا بقيام قيام انتصاب، ولا بجيئة ولا بذهاب، لطيف اللطافة لا يوصف باللفظ، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالركة، مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمجسة، قائل لا بلفظ، هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كل شئ ولا يقال شئ فوقه، أمام كل شئ ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشئ في شئ داخل، وخارج منها لا كشئ من شئ خارج. فخر ذعلب مغشياً عليه فقال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب، والله لا عدت إلى مثله. ثم قال «عليه السلام»: سلوني قبل أن تفقدوني، فقام إليه الأشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين كيف تؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبي؟ فقال: بلى يا أشعث قد أنزل الله تعالى عليهم كتاباً وبعث إليهم نبياً، وكان لهم ملك سكر ذات ليلة فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبتها، فلما أصبح تسامع به قومه فاجتمعوا إلى بابه فقالوا: أيها الملك دنست علينا ديننا فأهلكته، فاخرج نطهرك ونقم عليك الحد. فقال لهم: اجتمعوا واسمعوا كلامي فإن يكن لي مخرج مما ارتكبت وإلا فشأنكم، فاجتمعوا فقال لهم: هل علمتم أن الله تعالى لم يخلق خلقاً أكرم عليه من أبنينا آدم وأمنا حواء؟ قالوا: صدقت أيها الملك. قال: أفليس قد زوج بنيه بناته وبناته ومن بنيته؟ قالوا: صدقت هذا هو الدين. فتعاقدوا على ذلك، فمحا الله ما في صدورهم من العلم، ورفع عنهم الكتاب، فهم الكفرة يدخلون النار بلا حساب، والمنافقون أشد حالاً منهم. فقال الأشعث: والله ما سمعت بمثل هذا الجواب، والله لا عدت إلى مثله أبداً. ثم قال: سلوني قبل أن تفقدوني. فقام إليه

رجل من أقصى المسجد متوكياً على عكازة، فلم يزل يتخطى الناس حتى دنا منه فقال: يا أمير المؤمنين دلني على عمل إذا أنا عملته نجاني الله من النار. فقال له: اسمع يا هذا ثم افهم ثم استيقن، قامت الدنيا بثلاثة: بعالم ناطق مستعمل لعلمه، وبغني لا يبخل بماله على أهل دين الله «تعالى»، وبفقير صابر. فإذا كتم العالم علمه وبخل الغني ولم يصبر الفقير فعندها الويل والثبور، وعندها يعرف العارفون الله، إن الدار قد رجعت إلى بدئها - أي إلى الكفر بعد الإيمان - أيها السائل فلا تغترن بكثرة المساجد وجماعة أقوام أجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتى، أيها الناس إنما الناس ثلاثة: زاهد، وراغب، وصابر، فأما الزاهد فلا يفرح بشئ من الدنيا أتاه ولا يحزن على شئ منها فاته، وأما الصابر فيتمناها بقلبه فإن أدرك منها شيئاً صرف عنها نفسه لما يعلم من سوء عاقبتها، وأما الراغب فلا يبالي من حل أصابها أم من حرام. قال: يا أمير المؤمنين فما علامة المؤمن في ذلك الزمان؟ قال: ينظر إلى ما أوجب الله عليه من حق فيتولاه، وينظر إلى ما خالفه فيتبرء منه وإن كان حبيباً قريباً. قال: صدقت والله يا أمير المؤمنين. ثم غاب الرجل فلم نره فطلبه الناس فلم يجدوه، فتبسم علي «عليه السلام» على المنبر ثم قال: مالكم؟ هذا أخي الخضر «عليه السلام». ثم قال «عليه السلام»: سلوني قبل أن تفقدوني، فلم يقم إليه أحد، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه «صلى الله عليه وآله»، ثم قال للحسن «عليه السلام»: يا حسن قم فاصعد المنبر فتكلم بكلام لا يجهلك قريش من بعدي فيقولون: الحسن لا يحسن شيئاً. قال الحسن «عليه السلام»: يا أبة كيف أصعد وأتكلم وأنت في الناس تسمع وترى؟ قال له: بأبي وأمي أوادي نفسي عنك وأسمع وأرى ولا تراني^(١).

تعليق: رواية سلوني قبل أن تفقدوني من الروايات المشهورة، ولها أكثر من نص، وهذا النص بخصوصه ضعيف السند بالمجاهيل: أحمد بن زكريا القطان، محمد بن أبي السري، أحمد بن عبد الله بن يونس، سعد بن طريف الكناني.

١٧ - بحار الأنوار: عن أمالي الصدوق عن السناني، عن ابن زكريا، عن ابن

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١١٧-١٢٠.

حبيب، عن ابن بهلول، عن علي بن عاصم، عن الحصين بن عبد الرحمن، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: (كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام) في خرجته إلى صفين فلما نزل بنينوى وهو بشط الفرات قال بأعلى صوته: يا ابن عباس أتعرف هذا الموضع؟ قلت له: ما أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام: لو عرفته كمعرفتي لم تكن تجوزه حتى تبكي بكائي. قال: فبكي طويلاً حتى اخضلت لحيته، وسالت الدموع على صدره، وبكىنا معاً وهو يقول: أوه أوه مالي ولآل أبي سفيان؟ مالي ولآل حرب حزب الشيطان؟ وأولياء الكفر؟ صبراً يا أبا عبد الله فقد لقي أبوك مثل الذي تلقى منهم. ثم دعا بماء فتوضأ وضوء الصلاة ف صلى ما شاء الله أن يصلي ثم ذكر نحو كلامه الأول إلا أنه نعى عند انقضاء صلاته وكلامه ساعة ثم انتبه فقال: يا ابن عباس، فقلت: ها أنا ذا، فقال: ألا أحدثك بما رأيت في منامي آنفاً عند رقتي؟ فقلت: نامت عينك ورأيت خيراً يا أمير المؤمنين. قال: رأيت كأني برجال قد نزلوا من السماء معهم أعلام بيض قد تقلدوا سيوفهم وهي بيض تلمع، وقد خطوا حول هذه الأرض خطة ثم رأيت كأن هذه النخيل قد ضربت بأغصانها الأرض تضطرب بدم عبيط وكأني بالحسين سخلي وفرخي ومضغتي ومخي قد غرق فيه يستغيث فيه فلا يغاث، وكأن الرجال البيض قد نزلوا من السماء ينادونه ويقولون: صبراً آل الرسول، فإنكم تقتلون على أيدي شرار الناس، وهذه الجنة يا أبا عبد الله إليك مشتاقة، ثم يعزوني ويقولون: يا أبا الحسن أبشر، فقد أقر الله به عينك يوم يقوم الناس لرب العالمين. ثم انتبهت هكذا، والذي نفس علي بيده، لقد حدثني الصادق المصدق أبو القاسم صلى الله عليه وآله أنني سأراها في خروجي إلى أهل البغي علينا، وهذه أرض كرب وبلاء، يدفن فيها الحسين عليه السلام، وسبعة عشر رجلاً من ولدي وولد فاطمة وإنها لفي السماوات معروفة، تذكر أرض كرب وبلاء، كما تذكر بقعة الحرمين، وبقعة بيت المقدس. ثم قال لي: يا ابن عباس اطلب في حولها بعز الأطباء فوالله ما كذبت ولا كذبت وهي مصفرة لونها لون الزعفران، قال ابن عباس فطلبتها فوجدتها مجتمعة فناديته: يا أمير المؤمنين

قد أصبتها على الصفة التي وصفتها لي، فقال علي (عليه السلام): صدق الله ورسوله. ثم قام (عليه السلام) يهرول إليها فحملها وشمها، وقال: هي هي بعينها، أتعلم يا ابن عباس ما هذه الأبعاد؟ هذه قد شمها عيسى بن مريم، وذلك أنه مر بها ومعه الحواريون فرأى ههنا الأطباء مجتمعة وهي تبكي فجلس عيسى، وجلس الحواريون معه، فبكى وبكى الحواريون، وهم لا يدرون لم جلس ولم بكى. فقالوا: يا روح الله وكلمته ما يبكيك؟ قال: أتعلمون أي أرض هذه؟ قالوا: لا، قال: هذه أرض يقتل فيها فرخ الرسول أحمد وفرخ الحرة الطاهرة البتول، شبيهة أُمي، ويلحد فيها طينة أطيب من المسك لأنها طينة الفرخ المستشهد، وهكذا يكون طينة الأنبياء وأولاد الأنبياء، فهذه الأطباء تكلمني و تقول: إنها ترعى في هذه الأرض شوقاً إلى تربة الفرخ المبارك وزعمت أنها آمنة في هذه الأرض. ثم ضرب بيده إلى هذه الصيران فشمها وقال: هذه بعر الأطباء على هذه الطيب لمكان حشيشها اللهم فأبقها أبداً حتى يشمها أبوه فيكون له عزاء وسلوة، قال: فبقت إلى يوم الناس هذا وقد اصفرت لطول زمنها وهذه أرض كرب وبلاء. ثم قال بأعلى صوته: يا رب عيسى بن مريم! لا تبارك في قتلته، والمعين عليه والخاذل له. ثم بكى بكاء طويلاً وبكىنا معه حتى سقط لوجهه وغشي عليه طويلاً ثم أفاق فأخذ البعر فصره في ردائه وأمرني أن أصرها كذلك ثم قال: يا ابن عباس إذا رأيته تنفجر دماً عبيطاً، ويسيل منها دم عبيط، فاعلم أن أبا عبد الله قد قتل بها، ودفن. قال ابن عباس: فوالله لقد كنت أحفظها أشد من حفظي لبعض ما افترض الله عز وجل علي وأنا لا أحلها من طرف كمي فبينما أنا نائم في البيت إذا انتهت فإذا هي تسيل دماً عبيطاً، وكان كمي قد امتلأ دماً عبيطاً، فجلست وأنا باك وقلت: قد قُتل والله الحسين، والله ما كذبني علي قط في حديث حدثني ولا أخبرني بشئ قط أنه يكون إلا كان كذلك لأن رسول الله كان يخبره بأشياء لا يخبر بها غيره، ففرغت وخرجت وذلك عند الفجر فرأيت والله المدينة كأنها ضباب لا يستبين منها أثر عين ثم طلعت الشمس ورأيت كأنها منكسفة، ورأيت كأن حيطان المدينة عليها دم عبيط، فجلست وأنا باك فقلت:

قد قُتل والله الحسين، وسمعت صوتاً من ناحية البيت وهو يقول:
 اصبروا آل الرسول قتل الفرخ النحول
 نزل الروح الأمين بيكاء وعويل

ثم بكى بأعلى صوته وبكى فأنثت عندي تلك الساعة وكان شهر المحرم يوم عاشورا لعشر مضين منه، فوجدته قتل يوم ورد علينا خبره وتاريخه كذلك فحدثت هذا الحديث أولئك الذين كانوا معه، فقالوا: والله لقد سمعنا ما سمعت ونحن في المعركة ولا ندري ما هو، فكنا نرى أنه الخضر (عليه السلام)^(١). تقيم السند: الخبر ضعيف، ويشتمل على أمور غريبة، وفي نهايته تخمين بكون صاحب الصوت هو الخضر دون دليل أو قرينة.

١٨. بحار الأنوار: عن حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، وفضائل أبي السعادات: روى أبو حمزة الثمالي، ومندر الثوري، عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: (خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكيت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا علي ابن الحسين! ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا حزنك؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر، قلت: ما على هذا حزني وإنه لكما تقول، قال: فعلى الآخرة؟ فهو وعد صادق يحكم فيه ملك قاهر فعلام حزنك؟ قال: قلت: أتخوف من فتنة ابن الزبير، قال: فضحك ثم قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا، قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً خاف الله فلم ينجه؟ قلت: لا، فقال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا، ثم نظرت فإذا ليس قدامي أحد، وكان الخضر (عليه السلام)^(٢). تقيم السند: الرواية مرسلة.

ثم لاحظ ما رواه الشيخ الصدوق: حدثنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٢٥٢-٢٥٥.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٧.

بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «عليهم السلام»، قال: حدثني جدي يحيى بن الحسن، قال: حدثنا يعقوب بن يزيد، قال: حدثني ابن أبي عمير و عبد الله بن المغيرة، عن أبي حفص الأعشى، عن أبي حمزة، عن علي بن الحسين «عليهما السلام»، قال: (خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكيت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في وجهي، ثم قال لي: يا علي بن الحسين ما لي أراك كئيباً حزيناً، أعلى الدنيا حزنك؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر، فقلت: ما على هذا أحزن وإنه لكما تقول، قال: أفعلى الآخرة حزنك؟ فهو وعد صادق يحكم فيه ملك قاهر، قلت: ما على هذا أحزن وإنه لكما تقول. قال: فعلى ما حزنك؟ فقلت: أنا أتخوف من فتنة ابن الزبير. فضحك، ثم قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً خاف الله تعالى فلم يُنجه. قلت: لا، قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً سأل الله «تعالى» فلم يعطه؟ قلت: لا، قال «عليه السلام»: ثم نظرت فإذا ليس قدامي أحد^(١). لاحظ أن عبارة (وكان الخضر «عليه السلام») غير موجودة في هذا النص.

١٩. مناقب آل أبي طالب: عن إبراهيم بن أدهم وفتح الموصلي قال كل واحد منهما: (كنت أسير في البادية مع القافلة، فعرضت لي حاجة فتنحيت عن القافلة، فإذا أنا بصبي يمشي فقلت: سبحان الله بادية بيداء وصبي يمشي، فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام فقلت له: إلى أين؟ قال: أريد بيت ربي، فقلت: حبيبي إنك صغير ليس عليك فرض ولا سنة، فقال: يا شيخ ما رأيت من هو أصغر سنّاً مني مات؟ فقلت: أين الزاد والراحلة، فقال: زادي تقواي، وراحلي رجلاي، وقصدي مولاي، فقلت: ما أرى شيئاً من الطعام معك؟ فقال: يا شيخ هل يستحسن أن يدعوك إنسان إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام؟ قلت: لا، قال: الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقيني، فقلت: ارفع رجلك حتى تدرك. فقال: علي الجهاد وعليه الإبلاغ، أما سمعت قوله «تعالى»: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ

اللَّهُ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ^(١). قال: فبينما نحن كذلك إذ أقبل شاب حسن الوجه عليه ثياب بيض حسنة فعانق الصبي وسلم عليه، فأقبلت على الشاب وقلت له: أسألك بالذي حسن خلقك من هذا الصبي؟ فقال: أما تعرفه؟ هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فتركت الشاب وأقبلت على الصبي، وقلت: أسألك بأبائك من هذا الشاب؟ فقال: أما تعرفه؟ هذا أخي الخضر يأتينا كل يوم فيسلم علينا، فقلت: أسألك بحق آبائك لما أخبرتني بما تجوز المفاوز بلا زاد؟ قال: بل أجوز بزاد، وزادي فيها أربعة أشياء. قلت: وما هي؟ قال: أرى الدنيا كلها بحذافيرها مملكة الله، وأرى الخلق كلهم عبيد الله وإماءه وعياله، وأرى الأسباب والأرزاق بيد الله، وأرى قضاء الله نافذاً في كل أرض الله، فقلت: نعم الزاد زادك يا زين العابدين، وأنت تجوز بها مفاوز الآخرة فكيف مفاوز الدنيا^(٢). تقيم السند: الرواية مرسلة، وهي تتضمن وصف الخضر بأنه شاب، على خلاف ما في الروايات السابقة التي تبين أنه شيخ كبير.

٢٠. بحار الأنوار نقلاً عن الخرائج: (روي أن أبا جعفر «عليه السلام» كان في الحج ومعه ابنه جعفر «عليه السلام» فأتاه رجل فسلم عليه وجلس بين يديه ثم قال: إني أريد أن أسألك، قال: سل ابني جعفر، قال: فتحول الرجل فجلس إليه ثم قال: أسألك؟ قال: سل عما بدا لك، قال: أسألك عن رجل أذنب ذنباً عظيماً، قال: أفطر يوماً في شهر رمضان متعمداً؟ قال: أعظم من ذلك، قال: زنى في شهر رمضان؟ قال: أعظم من ذلك، قال: قتل النفس؟ قال: أعظم من ذلك، قال: إن كان من شيعة علي «عليه السلام» مشى إلى بيت الله الحرام وحلف أن لا يعود، وإن لم يكن من شيعة فلا بأس، فقال له الرجل: رحمكم الله يا ولد فاطمة - ثلاثاً - هكذا سمعته من رسول الله «صلى الله عليه وآله». ثم إن الرجل ذهب فالتفت أبو جعفر فقال: عرفت الرجل؟

١. القرآن الكريم: سورة العنكبوت: ٦٩.

٢. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ٢٨٠.

قال: لا، قال: ذلك الخضر إنما أردت أن أعرفكه^(١). تقييم السند: الرواية مرسلّة كما ترى وهي بالتالي ساقطة عن الاعتبار السندي، وفي النص غموض من حين قوله: (إن كان من شيعة....) ولذا علق المجلسي قائلاً: (لعل في الخبر سقطاً وإنما أوردته كما وجدته، ويحتمل أن يكون السائل غرضه السؤال عن حال من جمع بين تلك الأعمال، ويكون سؤاله «عليه السلام» على الإعجاز، لعلمه بالمراد، ويكون المراد بالجواب أن المقتول إن كان من الشيعة فليمش إلى البيت لكمال قبول التوبة وإلا فلا بأس، ولو كان الضمير راجعاً إلى القاتل فلا بد من ارتكاب تكلف في قوله «عليه السلام»؛ فلا بأس به)^(٢). ولكن محاولة المجلسي لا تجدي نفعاً حتى لو فرضنا أن الإمام يتحدث عن القاتل، لأنه ما من أحد يقول بأن كفارة تلك المأثم هي المشي إلى البيت الحرام مع الحلف بعدم العودة. ثم كيف يعلم الإمام السؤال المراد إعجازاً ولا يستطيع اكتشاف شخصية السائل؟

٢١. بحار الأنوار نقلاً عن كتاب مناقب ابن شهر آشوب (وجاء رجل من أهل الشام وسأله عن بدء خلق البيت، فقال «عليه السلام»: إن الله «تعالى» لما قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فردوا عليه بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ وساق الكلام إلى قوله «تعالى»: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٣) فعلموا أنهم وقعوا في الخطيئة فعاذوا بالعرش فطافوا حوله سبعة أشواط، يسترضون ربهم «تعالى» فرضي عنهم، وقال لهم: اهبطوا إلى الأرض فابنوا لي بيتاً يعوذ به من أذن من عبادي ويطوف حوله كما طفتم أنتم حول عرشي فأرضى عنه كما رضيت عنكم. فبنوا هذا البيت، فقال له الرجل: صدقت يا أبا جعفر، فما بدء هذا الحجر؟ قال: إن الله «تعالى» لما أخذ ميثاق بني آدم أجرى نهراً أحلى من العسل وألين من الزبد، ثم أمر القلم استمد من ذلك وكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم ألقم ذلك الكتاب هذا

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣٠-٣١.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦، ص ٣١.

٣. القرآن الكريم: سورة البقرة: ٣٠-٣٣.

الحجر، فهذا الاستلام الذي ترى إنما هوبيعة على إقرارهم، وكان أبي إذا استلم الركن قال: اللهم أمانتي أديتها، وميثاقي تعاهدته ليشهد لي عندك بالوفاء. فقال الرجل: صدقت يا أبا جعفر، ثم قام. فلما ولى قال الباقر (عليه السلام) لابنه الصادق (عليه السلام): اردده علي. فتبعه إلى الصفا فلم يره، فقال الباقر (عليه السلام): أراه الخضر (عليه السلام)^(١). تقييم السند هذه الرواية بالإضافة إلى أنها مرسلة، فإنها متعارضة مع السابقة، فالإمام الباقر (عليه السلام) لم يكن متأكداً من شخصية السائل فقال: (أراه الخضر). ولو فرضنا أنه كان متيقناً وحصل اللقاء بحضور الصادق (عليه السلام)، فكيف لم يعرفه الصادق في اللقاء التالي منهما؟

٢٢ - كمال الدين للصدوق: عن ابن البرقي، عن أبيه، عن جده أحمد، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن حمزة بن حمران وغيره عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: (خرج أبو جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) بالمدينة فتصحر وأتكا على جدار من جدرانها مفكراً، إذ أقبل إليه رجل فقال: يا أبا جعفر على مَ حزنك؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر يشترك فيه البر والفاجر، أم على الآخرة؟ فوعد صادق، يحكم فيه ملك قادر قال أبو جعفر (عليه السلام): ما على هذا أحزن أما حزني على فتنة ابن الزبير. فقال له الرجل: فهل رأيت أحداً خاف الله فلم ينجه؟ أم هل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ وهل رأيت أحداً استخار الله فلم يخر له؟ قال أبو جعفر (عليه السلام): فولى الرجل وقال: هو ذاك، فقال أبو جعفر (عليه السلام): هذا هو الخضر (عليه السلام). قال الصدوق: (جاء هذا الحديث هكذا، وقد روي في حديث آخر أن ذلك كان مع علي بن الحسين (عليه السلام))^(٢). تقييم السند: الرواية ضعيفة السند بحمزة بن حمران على الأقل.

٢٣ - بحار الأنوار: داود الرقي قال: (خرج أخوان لي يريدان المزار فعطش أحدهما عطشاً شديداً، حتى سقط من الحمار، وسقط الآخر في يده، فقال فصلي

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٥٨-١٥٩.

٢. الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة، ص ٣٨٦-٣٨٧.

ودعا الله ومحمداً وأمير المؤمنين والأئمة «عليهم السلام» كان يدعو واحداً بعد واحد حتى بلغ إلى آخرهم جعفر بن محمد «عليهما السلام»، فلم يزل يدعو ويلوذ به، فإذا هو برجل قد قام عليه وهو يقول: يا هذا ما قصتك؟ فذكر له حاله، فناولته قطعة عود وقال: ضع هذا بين شفتيه، ففعل ذلك فإذا هو قد فتح عينيه واستوى جالساً، ولا عطش به، فمضى حتى زار القبر فلما انصرفا إلى الكوفة أتى صاحب الدعاء المدينة فدخل على الصادق «عليه السلام» فقال له: اجلس ما حال أخيك؟ أين العود؟ فقال: يا سيدي إني لما أصبت بأخي اغتممت غماً شديداً فلما رد الله عليه روحه نسيت العود من الفرح، فقال الصادق «عليه السلام»: أما إنه ساعة صرت إلى غم أخيك أتاني أخي الخضر، فبعثت إليك على يديه قطعة عود من شجرة طوبى، ثم التفت إلى خادم له فقال: علي بالسفط فأتى به، ففتحه وأخرج منه قطعة العود بعينها، ثم أراها إياه حتى عرفها، ثم ردها إلى السفط^(١). تقييم السند: الرواية مرسله.

٢٤. صفوة الأخبار: روى الأعمش قال: (رأيت جارية سوداء تسقي الماء وهي تقول: اشربوا حباً لعلي بن أبي طالب «عليه السلام» وكانت عمياء، قال: ثم أتيتها بمكة بصيرة تسقي الماء وهي تقول: اشربوا حباً لمن رد الله علي بصري به، فقلت: يا جارية رأيتك في المدينة ضريرة تقولين: اشربوا حباً لمولاي علي بن أبي طالب «عليه السلام» وأنت اليوم بصيرة فما شأنك؟ قالت: بأبي أنت، إني رأيت رجلاً قال: يا جارية أنت مولاة لعلي بن أبي طالب «عليه السلام» ومحبتة؟ فقلت: نعم، فقال: اللهم إن كانت صادقة فرد عليها بصرها، فوالله لقد رد الله علي بصري فقلت: من أنت؟ قال: أنا الخضر وأنا من شيعة علي بن أبي طالب «عليه السلام»^(٢). تقييم السند: الرواية مرسله.

٢٥. كمال الدين: أخبرني أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٣٨-١٣٩.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٩ نقلاً عن كتاب صفوة الأخبار.

جعفر بن عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) فيما أجازه لي مما صح عندي من حديثه وصح عندي هذا الحديث برواية الشريف أبي عبد الله محمد بن الحسن بن إسحاق بن الحسين بن إسحاق بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) عنه أنه قال: (حججت في سنة ثلاث عشر وثلاث مائة وفيها حج نصر القشوري صاحب المقتدر بالله ومعه عبد الرحمن بن عمران المكنى بأبي الهيجاء فدخلت مدينة الرسول في ذي القعدة فأصبت قافلة المصريين وبها أبو بكر محمد بن علي المادرائي ومعه رجل من أهل المغرب وذكر أنه رأى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاجتمع عليه الناس وازدحموا وجعلوا يمسحون به وكادوا يأتون على نفسه فأمر عمي أبو القاسم طاهر بن يحيى فتيانه وغلماناه فقال: أفرجوا عنه الناس ففعلوا وأخذوه وأدخلوه دار أبي سهل الطفي وكان عمي نازلها فأدخل وأذن للناس فدخلوا وكان معه خمسة نفر ذكر أنهم أولاد أولاده فيهم شيخ له نيف وثمانون سنة فسألناه عنه فقال: هذا ابن ابني وآخر له سبعون سنة فقال: هذا ابن ابني واثنان لهما ستون سنة أو خمسون أو نحوها وآخر له سبعة عشر سنة فقال: هذا ابن ابني ولم يكن معه فيهم أصغر منه وكان إذا رأيته قلت: ابن ثلاثين أو أربعين سنة. أسود الرأس واللحية ضعيف الجسم آدم ريع من الرجال خفيف العارضين إلى قصر أقرب. قال أبو محمد العلوي: فحدثنا هذا الرجل واسمه علي بن عثمان بن الخطاب بن مرة بن مؤيد بجميع ما كتبناه عنه وسمعناه من لفظه وما رأينا من بياض عنفقه^(١) بعد اسودادها ورجوع سوادها بعد بياضها عند شبعه من الطعام. قال أبو محمد العلوي (عليهم السلام): ومن عجيب ما رأيت من هذا الشيخ علي بن عثمان وهو في دار عمي طاهر بن يحيى (عليهم السلام) وهو يحدث بهذه الأعاجيب وبدو خروجه فنظرت إلى عنفقه وقد احمرت ثم ابيضت فجعلت أنظر إلى ذلك لأنه لم يكن في لحيته ولا في رأسه ولا في عنفقه بياض البتة. قال: فنظر إلى نظري إلى لحيته وعنفقه

١. العَنَفَقَةُ: شُعيراتٌ بين الشَّعَةِ السفلى والدَّقَنِ.

فقال : ما ترون ؟ إن هذا يصيبني إذا جعت فإذا شبعتم رجعت إلى سوادها فدعا عمي بطعام وأخرج من داره ثلاث موائد فوضعت واحدة بين يدي الشيخ وكنت أنا أحد من جلس عليها فأكلت معه ووضعت المائدتان في وسط الدار وقال عمي للجماعة: بحقي عليكم إلا أكلتم و تحرمتهم بطعامنا فأكل قوم وامتنع قوم وجلس عمي على يمين الشيخ يأكل و يلقي بين يديه فأكل أكل شاب وعمي يخلف عليه وأنا أنظر إلى عنفقتة وهي تسود حتى إذا عادت إلى سوادها حين شبع. قال أبو محمد العلوي: ولولا أنه حدث جماعة من أهل المدينة من الأشراف والحاج من أهل مدينة السلام وغيرهم من جميع الآفاق ما حدثت عنه بما سمعت، وسماعي منه بالمدينة ومكة في دار السهميين في الدار المعروفة بالمكتوبة وهي دار علي بن عيسى الجراح وسمعت منه في مضرب القشوري ومضرب المدارائي ومضرب أبي الهيجاء، وسمعت منه بمنى وبعد منصرفه من الحج بمكة في دار المدارائي عند باب الصفا. وأراد القشوري حمله وولده إلى بغداد إلى المقتدر فجاءه فقهاء أهل مكة فقالوا: أيد الله الأستاذ، إنا رويناه في الأخبار المأثورة عن السلف أن المعمر المغربي إذا دخل مدينة السلام افتتنت وخربت وزال الملك فلا تحمله وردة إلى المغرب فسألنا مشايخ أهل المغرب ومصر فقالوا: لم نزل نسمع من آبائنا ومشايخنا يذكرون اسم هذا الرجل واسم البلد الذي هو مقيم فيه طنجة وذكروا أنه كان يحدثهم بأحاديث قد ذكرنا بعضها في كتابنا هذا. قال أبو محمد العلوي: فحدثنا هذا الشيخ أعني علي بن عثمان المغربي بدو خروجه من بلده من حضرموت وذكر أن أباه خرج هو وعمه وأخرجاه به معهما يريدون الحج وزيارة النبي (صلى الله عليه وآله) فخرجوا من بلادهم من حضرموت وساروا أياماً ثم أخطأوا الطريق وتاهوا عن المحجة فأقاموا تائهين ثلاثة أيام وثلاثة ليال على غير محجة فبينما هم كذلك إذ وقعوا في جبال رمل يقال له: رمل عالج يتصل برمل إرم ذات العماد فبينما نحن كذلك إذ نظرنا إلى أثر قدم طويل فجعلنا نسير على أثرها فأشرفنا على واد وإذا برجلين قاعدين على بئر أو على عين. قال: فلما نظر إلينا قام أحدهما فأخذ دلوً فأدلاه فاستقى فيه

من تلك العين أو البئر واستقبلنا فجاء إلى أبي فناولوه الدلو، فقال أبي: قد أمسينا ننيخ على هذا الماء ونفطر إنشاء الله فصار إلى عمي فقال: اشرب، فرد عليه كما رد عليه أبي، فناولني فقال لي: اشرب فشربت، فقال لي: هنيئاً لك فإنك ستلقى علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فأخبره أيها الغلام بخبرنا وقل له الخضر والياس يقرئانك السلام وستعمر حتى تلقى المهدي وعيسى بن مريم (عليهما السلام)، فإذا لقيتهما فاقرئهما السلام. ثم قال: ما يكون هذا منك؟ فقلت: أبي وعمي. فقالا: أما عمك فلا يبلغ مكة، وأما أنت وأبوك فستبلغان ويموت أبوك فتعمر أنت، ولستم تلحقون النبي (صلى الله عليه وآله)، لأنه قد قرب أجله ثم مثلاً. فوالله ما أدري أين مرّا في السماء أو في الأرض فتظننا وإذا لا أثر ولا عين ولا ماء، فسرنا متعجبين من ذلك إلى أن رجعنا إلى نجران فاعتل عمي ومات بها وأتممت أنا وأبي حجتنا ووصلنا إلى المدينة فاعتل بها أبي ومات وأوصى إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فأخذني وكنت معه أيام أبي بكر وعمر وعثمان وخلافته حتى قتله ابن ملجم «لعنه الله». وذكر أنه لما حوَّصر عثمان بن عفان في داره دعاني فدفع إلي كتاباً ونجيباً وأمرني بالخروج إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وكان غائباً بينبع في ماله وضياعه فأخذت الكتاب وصرت إلى موضع يقال له جدار أبي عباية. سمعت قرأناً فإذا علي بن أبي طالب (عليه السلام)، يسير مقبلاً من ينبع وهو يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١). فلما نظر إلي قال: أبا الدنيا ما وراك؟ قلت: هذا كتاب أمير المؤمنين. فأخذه فقرأه فإذا فيه:

فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق

فلما قرأه قال: سر، فدخل إلى المدينة ساعة قتل عثمان بن عفان فمال إلى حديقة بني النجار وعلم الناس بمكانه فجاءوا إليه ركضاً وقد كانوا عازمين على أن يبايعوا طلحة بن عبيد الله فلما نظروا إليه ارفضوا إليه ارفضاض الغنم شد عليها السبع فبايعه طلحة ثم الزبير ثم بايع المهاجرون والأنصار. فأقامت معه أخدمه

١. القرآن الكريم: سورة المؤمنون: ١١٥.

فحضرت معه الجمل وصفين وكنت بين الصفين واقفاً عن يمينه إذ سقط سوطه من يده فأكبت أخذه وأرفعه إليه وكان لجام دابته حديداً مزججاً فرفع الفرس رأسه فشجنني هذه الشجة التي في صدغي فدعاني أمير المؤمنين فتقل فيها وأخذ حفنة من تراب فتركه عليها فوالله ما وجدت لها الماء ولا وجعاً ثم أقمت معه حتى قتل (عليه السلام) وصحبت الحسن بن علي (عليه السلام) حتى ضرب بساباط المدائن، ثم بقيت معه بالمدينة أخدمه وأخدم الحسين (عليه السلام) حتى مات الحسن (عليه السلام) مسموماً سمته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي «لعنها الله» دساً من معاوية ثم خرجت مع الحسين بن علي (عليه السلام) حتى حضر كربلاء وقتل (عليه السلام) وخرجت هارباً من بني أمية وأنا مقيم بالمغرب أنتظر خروج المهدي وعيسى ابن مريم (عليهما السلام)^(١). تقييم السند: ابن عثمان مجهول، والقصة لا تعدو أن تكون بمضمونها الغريب. أسطورة من الأساطير.

❖ قولٌ فصل:

وهكذا يبدو من كل ما سبق أن مخيلة البعض سمحت بإقحام هذه الشخصية في القصص القرآنية وغير القرآنية وفي أخبار آخر الزمان والفتن والمحن، لاسيما تلك التي فيها تفاصيل غريبة أو ذات أبعاد غيبية دون دليل، مع عدم التقيد بالزمن، إذ سمحت فكرة طول عمره القياسي وقدراته غير الطبيعية وعلاقته بالغيب. بحسب المدعى. بأن يكون له حضور متكرر وواسع في تلك الأحداث، لتمتزج تلك القصص بالكثير من الخرافات والأساطير والتفاصيل غير العقلانية لمجرد زيادة الإثارة والتشويق بحسب ثقافة الشعوب في زمن افتعال تلك النصوص ووضوعها على لسان النبي (صلى الله عليه وآله) تارة، وعلى لسان أهل البيت (عليهم السلام) أو الصحابة أو التابعين تارة أخرى.

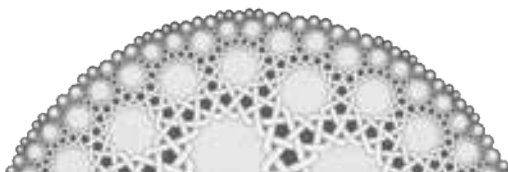
والمشترك في هذه النصوص أنها لا تصمد أمام النقد السندي، كما أنها لا

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٢٢٩-٢٣٢.

تصمد أمام نقد المتن والمضمون، مما يجعل من كثرة النصوص التي تتحدث عن قصص الخضر وشخصيته وأحواله كثرة غير مفيدة للاطمئنان، فمجرد استفاضة النصوص، بل حتى تواترها، غير كاف في قبولها، بل لابد من أن تكون تلك الكثرة بحيث يتحصّل منها العلم أو الاطمئنان بصدورها عن النبي (صلى الله عليه وآله) أو عن أهل بيته (عليهم السلام).

قال الشيخ المظفر: (مما ينبغي ذكره هنا أنّ الخبر قد يكون له وسائط كثيرة في النقل، كالأخبار التي تصلنا عن الحوادث القديمة، فإنّه يجب - ليكون الخبر متواتراً موجباً للعلم - أن تتحقق شروط التواتر في كلّ طبقة طبقة من وسائط الخبر، وإلا فلا يكون الخبر متواتراً في الوسائط المتأخّرة، لأنّ النتيجة تتبع أحسن المقدمات. والسّرّ في ذلك واضح، لأنّ الخبر ذو الوسائط يتضمّن في الحقيقة عدّة أخبار متتابعة، إذ أنّ كلّ طبقة تخبر عن خبر الطبقة السابقة عليها، فحينما يقول جماعة: «حدّثنا جماعة عن كذا» بواسطة واحدة مثلاً، فإنّ خبر الطبقة الأولى الناقلة لنا يكون في الحقيقة خبرها ليس عن نفس الحادثة، بل عن خبر الطبقة الثانية عن الحادثة. وكذلك إذا تعدّدت الوسائط إلى أكثر من واحدة، فهذه الوسائط هي خبر عن خبر حتّى تنتهي إلى الواسطة الأخيرة التي تنقل عن نفس الحادثة، فلا بدّ أن تكون الجماعة الأولى خبرها متواتراً عن خبر متواتر عن متواتر وهكذا، إذ كلّ خبر من هذه الأخبار له حكمة في نفسه. ومتى اختلّ شرط التواتر في طبقة واحدة خرج الخبر جملة عن كونه متواتراً وصار من أخبار الآحاد)^(١).

١. المظفر: أصول الفقه، ج ٢، ص ٦٧-٦٨.



الفصل الخامس



الخضر عند الصوفية

❖ تعريف التصوف:

التصوف رؤية فكرية ومنهج سلوكي، عرفته البشرية قبل العهد الإسلامي بألاف السنين، وإن اختلف الباحثون في تحديد الزمن الدقيق ل بدايات التصوف. وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية: (التصوف مذهب دخل في الإسلام مأخوذ إما من رهبانية الشام وهو رأي مَرِكْس Merx وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة، وإما من زرادشتية الفرس، وإما من «فيدا» الهنود، وهو رأي جونز Jones. وهكذا استطاع الباحثون المحدثون أن يلمسوا في التصوف الإسلامي كثيراً من خصائص التصوف عند رهبان النصارى وطائفة كبيرة من المصطلحات الفلسفية اليونانية المنقولة عن السريانية... أما من حيث الخصائص السنسكريتية^(١) في التصوف الإسلامي وهو قول هورتن Horten فقد ذهب البيروني و «داراشكوه»^(٢) إلى أن هناك تشابهاً بين «الأبنشاد» أو «اليوجاسوترا»^(٣) وأنظار المتصوفة الأول. ونجد من ناحية أخرى أن بحث المراحل التي أدت إلى إدخال الذكر في طرق الصوفية المحدثين تدلنا على تسرب

١. السنسكريتية هي لغة قديمة في الهند وهي لغة طقوسية للهندوسية، والبوذية .

٢. من علماء ورجال الدولة البابرية الهندية (ت ١٦٥٩) .

٣. من الكتب الهندية القديمة .

بعض طرائق الهند إلى التصوف الإسلامي^(١).

وتساعد مجموعة من الدلائل على اعتبار العقيدة الهندوسية ثم البوذية المنشأ الأساس للتصوف عموماً، والتصوف الإسلامي على وجه الخصوص، وإن كان العنوان «تصوّف» باشتقاقته - بحسب بعض الباحثين - مأخوذاً في الأصل عن اليونانية.

قال الدكتور علي سامي النشار: (وقد ذهب أكبر عالم إسلامي نقدي هو أبو الريحان البيروني - المتوفى عام ٤٤٠ هـ - إلى هذا الرأي، يقول البيروني إن الصوفية وهم الحكماء، فإن «سوف» باليونانية هي الحكمة، وبها سمي الفيلسوف «بيلاسوبا» أي محب الحكمة، ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم، سمّوا باسمهم... ثم يعرض لنا البيروني آراء الهند، ويرى أن الصوفية يتفقون معهم في كثير من آرائهم. وقد دعا هذا «فون هامر» - كما قلت من قبل - إلى القول بأن الكلمة «تصوف» وصوفية منسوبة إلى الحكماء الهند القدامى المعروفين باسم «جيمنوصوفيا» وهو اسم يوناني أطلقه اليونان على هؤلاء الهند العراة الذين كانوا يقضون حياتهم في السياحة، متأملين في الله.. ونتج عن هذا أن التصوف يرتبط بالبوذية خاصة وبالأديان الهندية عامة)^(٢).

ومن المناسب أن ننوّه هنا إلى رأي بعض الباحثين حول ما يُعتبر إقحاماً للمصطلحات اليونانية في لغتنا العربية، إذ يميلون إلى أن مجموعة من تلك المصطلحات هي في الواقع عربية الأصل، ولكنها انتقلت في العهد القديم إلى اليونان، وعند المقارنة اللغوية تم تصوير الأمر معكوساً، وكأن الأصل يوناني، والعرب هم الذين استعاروها وأقحموها في لغتهم مع شيء من التغيير الشكلي.

قال أحمد بن مبارك النوفلي: (ورأى بعض المستشرقين أن كلمة «أسطورة»

١. دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، ص ٢٧٤ .

٢. النشار: نشأة الفلسفة الإسلامية، ج ٣، ص ٤٢-٤٥ .

قريبة الصلة بكلمة «إيستوريا» Historia اليونانية واللاتينية، التي تعني الأخبار المأثورة عن الماضين بمعنى «تاريخ»، لكن الصحيح أن الكلمة عربية في أصلها «عبرت إلى شبه الجزيرة اليونانية مع حركة القدماء العرب وهجرتهم، وبالتحديد على يد الفينيقيين الذي استوطنوا سواحل البحر المتوسط وانتقلوا مع لغتهم وتراثهم وكنوزهم إليها، وهذه الكلمة كغيرها من الكلمات العربية شكّلت جذور اللغة اليونانية التي نُسب إليها واضعو التاريخ في عصرنا الحديث كل الأصول العريقة للمصطلحات والألفاظ، وغضوا الطرف عن أصولها العربية، وهو ما أفقدهم في كثير من الأحيان الموضوعية والمقدرة على إدراك الحقيقة والصواب»^(١).

ويعود النشار بعد كلامه السابق للتأكيد على دور البيروني في كشف هذه الحقيقة الخاصة بأصول التصوف وانتقاله من الهند إلى المسيحيين، فقال: (وقد كان البيروني - من الأقدمين - أول من تنبه إلى أثر التراث الهندي في التصوف أو تشابه الأمر بين الهند والنصرانية والتصوف. يرى البيروني أن المسيحية والتصوف أخذت كلتاهما فكرة الحلول والاتحاد من الهند، ولا ينكر أحد أبداً أن فكرة الحلول والاتحاد منشؤها الهند. واثبت البحث العلمي الأوربي الحديث أن جانباً كبيراً من تعاليم المسيحية في الحلول إنما منشؤه هندي. ولا جدال أيضاً في أن يكون دخول فكرة الحلول والاتحاد إلى التصوف^(٢) عن طريق الهند. فالفكرة غير إسلامية)^(٣).

وهكذا يمكننا تصور كيف انتقل التصوف من الهندوسية إلى البوذية والأفلاطونية المحدثّة والمسيحية والإسلام، حيث امتاز التصوف بقدرته على التكيف مع كل الأديان، السماوية منها والوضعية، باعتباره يملك أدوات التوافق مع طبيعة كل دين ومذهب على حدة، إذ لا يلغي العقائد والمتبنيات الفكرية لذلك

١. النوفلي: أقانيم اللامعقول، ج ١، ص ١٦٠-١٦١، وما بين القوسين ينقله المؤلف عن كتاب (الأسطورة توثيق حضاري) لجمعية التجديد الثقافية العربية ص ١٦-١٧.

٢. أي التصوف الإسلامي .

٣. النشار: نشأة الفلسفة الإسلامية، ج ٣، ص ٤٦ .

الدين أو المذهب، ولا يتصادم معها، بل يقدم مجموعة من التفسيرات والإضافات بحيث يحافظ على السمة العامة الخاصة بالدين أو المذهب، ويضفي صبغته الخاصة فكرياً وسلوكياً، فيقدم مزيجاً مقبولاً بحسب الظاهر، وإن كان في واقعه وبالذقة العلمية متصادماً معه في أصوله، ومؤثراً بشكل سلبي على منهجه العملي والأخلاقي.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: (لم يجد الصوفية بُدأً من الرجوع إلى الألفاظ التي استعملها الفقهاء لعهدهم، استعاروا منها في شتى المواطن مصطلحات حوَّروها بعض الشيء دون أن يحددوا لها معنى. ومن قبيل ذلك أن «شقيقاً»^(١) استعمل لفظ «التوكل»، والمصري وابن كرام لفظ «المعرفة» والمصري والبسطامي لفظ «الفناء» وهو ضد البقاء: «انظر سورة الرحمن الآيتين ٢٦، ٢٧»^(٢) والخراساني لفظ «عين الجميع»^(٣) والترمذي لفظ «الولاية» إلخ)^(٤).

بل إن التصوف في مضمونه الفكري على مدار التاريخ - وحتى في العهد الإسلامي - دعا إلى الاعتراف بكل الأديان، باعتبار أن الإنسان مهما عبد وبأي شيء تدين، فإنه إنما يعبد الخالق الأعظم، إذ لا شيء في الوجود حقيقة سوى هذا الخالق الأعظم، الذي قد يحمل اسم «الله» أو غير ذلك من المسميات^(٥).

وقد ذكرت الدكتورة سارة الجويني الحفيظ في كتابها «صورة المسيح في التراث الصوفي الإسلامي» وهي تتحدث عن رؤية ابن عربي لهذا الموضوع: (ولعل هذه النظرية استهوت ابن عربي بعد بضعة قرون الذي اعتبر أن الإنسان يدين بما يراه، لأن الإله في كل كائن من الكائنات كما في قوله:

١. أي شقيق البلخي من مشايخ الصوفية ورؤسائهم .

٢. {كُلُّ مَنْ عَلَيْهِ فَإِنْ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}.

٣. هكذا في المصدر ، ولعل الصحيح : (عين اليقين) .

٤. دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، ص ٢٧٠ .

٥. سنذكر في الصفحات التالية تحت عنوان الحلول والاتحاد ما يبين العلاقة بين الأمرين.

وما الكلب والخنزير إلا إلها وما الرب إلا راهب في كنيسة^(١)

كما يدعو إلى عدم التقيد بدين معين، لأن ذلك يجعله يكفر الأديان الأخرى
كما صرّح بذلك:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه^(٢)

وطالما أن عقيدته تلك جامعة لمعتقدات جميع الناس، فهي تشتمل ديانات السماء وعقائد الأرض كلها بحيث لا يفرّق بين وثنية قديمة أو إلحادية جديدة، ولا بين إسلام ونصرانية أو يهودية، بل هو في آن معاً مؤمن وثنّي، يؤدّي عباداته لأي رب يختار، سواء تصوّره في وثن أو حيوان أو رآه راهباً في كنيسة. فالمعبود هو الجوهر الأزلي القديم المقوم لجميع صور الوجود، أما العابد فهو الصور المتقوم بهذا الجوهر. فكل صورة من الصور ناطقة بالوهية الحق، مسبّحة بحمده، وكل معبود من المعبودات وجهه من وجوهه وأرقى أنواع العبادة هو التحقق بالوحدة الذاتية بأنك أنت هو، وهو أنت، بحيث يكون القلب هيكلاً لجميع المعتقدات، والعبارات مرآة تنعكس عليها صور الوجود الحق. إن نظرية وحدة الأديان لدى ابن عربي جعلت منه رجلاً منفتح القلب على جميع الديانات. فالعارف الكامل في نظره هو الذي يدرك أن العبادة الصحيحة هي التي ينظر العبد من خلالها إلى جميع الصور على أنها محال لحقيقة واحدة، هي الله، كما يستشف من هذه الأبيات:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح تورا ومصحف قرآن

١. الشيخ عاطف الزين: الصوفية في نظر الإسلام، ص ٤٧١ . وهذا البيت على الرغم من مضمونه المستهجن إلا أنه بناء على عقيدة وحدة الوجود التي سنعرض لها في الصفحات التالية يصبح أمراً مقبولاً لدى المتصوفة .

٢. الشيخ عاطف الزين: الصوفية في نظر الإسلام، ص ٤٧١ .

أدين بدين الحب أنى توجَّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

لقد حذر ابن عربي من خلال هذه الأبيات وغيرها من الإيمان بدين خاص والكفر بما سواه، حيث قال: «فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص، وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه. فكن في نفسك هيولى^(١) لصورة المعتقدات كلها، فإن الله تعالى، أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فالكل مصيب، وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه»^(٢)(٣).

ومن هنا أيضاً قال الملا صدرا الشيرازي: (عبدة الأصنام إنما يعبدون أصنامهم لظنهم الألوهية فيها، فهم أيضاً يعبدون الله بوجه، إلا أن كفرهم لأجل غلطهم في المصدق، وإسنادهم التجسم والنقص إلى المعبود، فلا فرق يُعتدُّ به بينهم وبين كثير من الإسلاميين. قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٤)(٥).

وأوضح منه قول ابن عربي في «الفص النوحى»: (إن قوم نوح في عبادتهم للأصنام كانوا محقين؛ لكونها مظاهر الحق، كما أن العابدين لها كذلك؛ لأنهم أيضاً كانوا مظهر الحق وكان الحق معهم بل هو عينهم، وكان نوح أيضاً يعلم أنهم على الحق إلا أنه أراد على وجه المكر والخديعة أن يصرفهم عن عبادتها إلى عبادته، وإنما كان هذا مكرأ منه «عليه السلام»؛ لأنه كان يقول لهم ما لم يكن معتقداً به، ويموّه خلاف ما أضمره واعتقده؛ إذ كان عالماً وعلى بصيرة من ربه

١. (الهيولى أو الهيولا (Hyle) كلمة يونانية تعنى الأصل أو المادة، وفي الاصطلاح الفلسفي هي ما به الشيء بالقوة، أو هي جوهر في الجسم القابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال. وقد استعملها ابن عربي هنا بمعنى القابل الذي تنطبق فيه صورة المعتقدات كلها وينفعل بها وتصدر عنه أفعاله طبقاً لمعتقداته المتنوعة). انظر: محمد العدلوني الإدريسي: مدرسة ابن عربي الصوفية، ص ٣٦.

٢. ابن عربي: فصوص الحكم، ص ١١٣.

٣. الجويني حفيز: صورة المسيح في التراث الصوفي الإسلامي، ص ١١٨-١١٩.

٤. القرآن الكريم: سورة الإسراء: ٢٣.

٥. الملا صدرا: مجموعة رسائل فلسفية، ص ٣٤٣.

بأن الأصنام مظاهر الحق وعبادتها عبادته، إلا أنه «عليه السلام» أراد أن يخلصهم من القيود حتى لا يُقصرُوا عبادتهم فيها فقط بل يعبدوه في كل معنى وصورة. ولما شاهد القوم منه ذلك المكر أنكروا عليه وأجابوه بما هو أعظم مكرًا وأكبر من مكره، فقالوا: لا تتركوا آلهتكم إلى غيرها؛ لأن في تركها ترك عبادة الحق بقدر ما ظهر فيها، وقصر عبادته في سائر المجالي، وهو جهل وغفلة؛ لأن للحق في كل معبود وجهاً يعرفها العارفون سواء أكان ذلك المعبود في صورة صنم أو حجر أو بقر أو جن أو ملك أو غيرها^(١).

وقال: (إن الأصنام جميعاً مجالي الحق ومظاهره، بل هي عين الحق، بل الأشياء جميعاً مظاهره ومجاليه، وعبداء الأوثان والأصنام وكذلك العابدون للشمس والقمر والكواكب والشجر والحجر والنار والعجل وكذلك عبادة المدّعين للألوهية من فرعون وشداد... كلهم جميعاً عابدون لله «تعالى»، لأن هذه المعبودات كلها هي الحق الذي ظهر في هذه المظاهر وتصور بهذه الصور المختلفة، فهي على كثرتها ليست في الحقيقة إلا واحداً، ومنع الأنبياء والأولياء من عبادة الأصنام لم يكن من حيث إنها عبادة باطلة مبغوضة لله «تعالى»، بل من أجل بطلان حصر العابد معبوده بالصنم أو الشجر أو الحجر)^(٢).

والتصوف يحافظ على مجموعة من المتبنيات والسلوكيات أينما حل، وبأي دين أو مذهب ارتبط، وإن تفرّعت وتخالفت تلك الأفكار والسلوكيات في تفاصيلها ومفرداتها الكثيرة. ولذا نجد عقائد من قبيل «وحدة الوجود» و«الحلول والاتحاد» و«الكشف» و«الفناء في الله» وأمثالها حاضرة في التصوف الهندي واليوناني والمسيحي والإسلامي، وإن كانت بمسميات مختلفة، وبتفسيرات متفاوتة عند الوقوف على التفاصيل. وهذا ما بيّنه البيروني وهو في سبيله لتأكيد فكرته حول منشأ التصوف في الإسلام وارتباطه بعقائد الهند كمبتدأ، حيث قدّم مجموعة

١. القيصري: شرح فصوص الحكم، ص ١٣٦.

٢. القيصري: شرح فصوص الحكم، ص ٤٤٢.

من النماذج، نلخصها كالتالي:

١. الحلول والاتحاد: فأصل الفكرة - بحسب البيروني - هندي المنشأ، واستطاعت أن تتغلغل إلى المسيحية كما انتشرت لدى الصوفية المسلمين، وهي تعتبر أن الوجود بأسره شيء واحد فقط، وأن الوجود الحقيقي لليلة الأولى فقط، لاستغنائها بذاتها فيه، وحاجة غيرها إليه، وأن ما هو مفقود في وجوده إلى غيره، فوجوده كالخيال، غير حق^(١).

ثم تنقسم آراؤهم بشدة في تفسير هذه الوحدة وفي فهم حقيقة الحلول وتأويلها وكيفية تحققها بما لا مجال لذكره في هذا المختصر.

٢. قديم الأرواح والنفوس والتناسخ: فالهنود واليونان ذهبوا إلى أن الأرواح والنفوس كانت قائمة بذواتها قبل التجسد بالأبدان وأنها معدودة تتعارف وتذاكر، كل هذا أثر في بعض صوفية الإسلام، فتبنوا مجموعة من الأفكار المتأثرة بما سبق.

٣. الخلاص من الدنيا والطريق إليه: حيث ذهب الهنود إلى أنه إذا كانت النفوس مقيدة في هذا العالم ولرباطها سبب، فإن خلاصها من الوثاق يكون بضد ذلك السبب، أما سبب الوثاق فهو الجهل، فطريق الخلاص إذن هو العلم.

والعلم هنا كلي أي أن تحيط النفس بالأشياء إحاطة تحديد كلي مميز بدون أن تستند على الاستقراء، وأن يكون علمها يقينياً من غير شك. وإلى مثل هذا ذهب الصوفية حيث اعتقدوا أن من مقامات السالك - إذا وصل إلى مقام المعرفة - أن تتحقق له روحان، قديمة لا يجري عليها تغير واختلاف، بها يعلم الغيب ويفعل المعجز، وأخرى بشرية للتغير والتكوين.

٤. نظرية العشق الصوفية: فالمنبع هندي ويتلخص في كون العشق بحسبهم:

١. ويلاحظ هنا تركيز الصوفية في أدبياتهم كثيراً على اسم (الحق) عند ذكرهم لله D دون سائر أسمائه وصفاته.

الاشتغال بالحق عن الخلق، وهي ذات الفكرة التي يطرحها المتصوفة حول العشق الإلهي الذي قدموه كقراءة فكرية وسلوكية ومعرفية عميقة لحب الله الذي نص عليه القرآن الكريم.

٥. نظرية الفناء في الله: حول تأثير صوفية الإسلام بالفكر الهندي المتعلق بمسألة الفناء في «العلة الأولى»^(١)، قال البيروني مستشهداً بما جاء في كتاب «ياتنجل»^(٢): (وإلى طريق ياتنجل ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق فقالوا: ما دمت تشير، فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإفنائها عنك، فلا يبقى مشير ولا إشارة)^(٣).

أي يجب على السالك أن يصل إلى مقام لا يرى عنده موجوداً سوى الله، بما في ذلك نفس السالك، وبالتالي لا يؤشر إلى الأعلى مثلاً أو إلى أية جهة للدلالة على الله، بحيث يفهم منه أنه شيء والله شيء آخر، وأنه موجود والله موجود آخر. جل الله أن يحاط بمكان ولكنه أسلوب رمزي. بل يمكنه حينها أن يؤشر على نفسه عند الحديث عن الله، الأمر الذي أدى ببعضهم إلى القول بالاتحاد!

قال الشيخ الصوفي أبوبكر الشبلي: (اخلع الكل تصل إلينا بالكلية، فتكون ولا تكون، إخبارك عنا، وفعلك فعلنا)^(٤)، وقول الحلاج: (ما في جُبتِي إلا الله)، وقول البسطامي: (إني انسلخت من نفسي كما تتسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت إلى ذاتي، فإذا أنا هو)^(٥)^(٦).

وقال السيد هاشم الموسوي الحداد تلميذ السيد علي القاضي الطباطبائي التبريزي: (ولقد قال المرحوم السيد القاضي لي يوماً: أيها السيد هاشم، لا تُفسِر ١. أي الله أو الخالق الأعظم .

٢. كتاب هندي قديم يشتمل على طرق تخلص النفس من رباط البدن .

٣. البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ج ١، ص ٦٢-٦٣ .

٤. أي فعل الله .

٥. أي أنا الله .

٦. النشار: نشأة الفلسفة الإسلامية، ج ٣، ص ٥٠-٥١.

السر فُتبتلى، سيأتي يوم يقصدونك فيه من الأطراف والأكناف فيُقبّلون عتبة بابك.. إن أساس مطالب منصور الحلاج هي نفس مطالب سائر العرفاء، وليس لديه شيء آخر دونهم، لكنه كان مُفشيّاً للأسرار الإلهية، فأوقع جمعاً من الناس في الفتنة والفساد، فرُقي برأسه إلى المشنقة^(١).

وقال حسن زاده آملي في كتابه «السير إلى الله»: (الفناء في الذات، والعارف ففي هذا المقام يرى جميع أنواع الكائنات المختلفة متحدة، كما أن الجاهل يحسبها متكررة! إذ تعين كل واحد منها كالمملك والفلك والإنسان والحيوان والأشجار والمعادن أوهمه إلى الكثرة، فظن أنها متبددة متعددة، ولكن العارف في ذلك المشهد العظيم يشاهد من عرش التجرد الأعلى إلى مركز التراب بصورة «نجارستان»^(٢) انتقش بقلم التجلي على جدرانه وسقفه، وعلى جميع ما في ذلك النجارستان عكوس علمه تعالى وقدرته وحياته ورحمته، ونقوش لطفه وقهره، وأشعة جماله وجلاله، ويشاهد جمسع ما في دار الوجود من برّها وبحرها وعاليها ودانيها ومجردها ومادّيها متّصلاً بعضها ببعض، ومرتبّطاً أحدها بآخر ومنضمّاً هذا إلى ذاك كهيكل إنسان واحد مثلاً، يخبر الجميع بنعمة موزونه واحدة عن عظمة العالم الربوبي، وفي هذا المقام يتحقق بحقيقة التوحيد وكلمة لا إله إلا الله الطيبة، قائلاً بلسان الحقيقة: «يا هو يا من ليس إلا هو» فإذن لا يبقى له ولا للمكنات الأخرى هوية، بل هوية الكل مضمحل ومتلاش في تجلّي حقيقة الحق «تعالى» ﴿لَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٣) (٤).

وأما عن بدايات وصول التصوف إلى الإسلام فيحدثنا الدكتور النشار معتبراً أن البيروني هو أول من نبهنا إلى أن الأديان الهندية القديمة والسمنية والبراهمية

١. الحداد: الروح المجرد، ص ٤٤٤.

٢. كلمة فارسية تعني المعرض أو الرواق.

٣. القرآن الكريم: سورة غافر: الآية ١٦.

٤. آملي: السير إلى الله، ص ١٦٤-١٦٥.

بخاصة كانت مزدهرة في خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام، وأن نيكلسون قرر أن البوذية قد سادت خراسان وفارس الشرقية قبل الفتح الإسلامي بألف عام، وأنه كان يرى أنه لا بد إذن أن تؤثر في نمو الصوفية في هذه الأرجاء.

وأضاف أن صوامع بوذية كانت مزدهرة في مدينة بلخ، ومدينة بلخ كانت موطناً كبيراً وهاماً من مواطن التصوف الإسلامي. ويعني هذا أن الدين الزرادشتي حين قيامه وفي سيره الظاهر في فارس وفي كثير من أجزاء الهند لم يستطع القضاء تماماً على الروح الهندي والبودي على الخصوص.

أضاف الدكتور النشار أن البيروني نفسه تنبّه إلى أنه حين نجم زرادشت من أذربيجان ودعا ببلخ إلى المجوسية، وراجت دعوته عند الملك كشتاسب وقام بنشرها ابنه اسفنديار في بلاد المشرق والمغرب قهراً وصلحاً، وأقام بيوت النار من الصين إلى الروم، وفعل الملوك بعده نفس الأمر في فارس والعراق، انجلت السمنية دين الهند القديم عنها إلى مشارق بلخ، فكأن البوذية والأديان الهندية الأخرى بقيت متاثرة في بعض أجزاء فارس وأثرت الأفكار البوذية والهندية في خفية، وسرت في بطن بعض عناصر التصوف، هذا بالرغم من أن المسلمين أنكروا البوذية واعتبروا معتقيها وثنيين لا يجوز مخالطتهم^(١).

وقد استطاع التصوف بجذوره ومتبنياته وسلوكياته غير الإسلامية أن يتغلغل في العالم الإسلامي بكل هدوء منذ القرن الهجري الأول، دون أن يثير مشكلات وقضايا فكرية ذات تعارض أو تفسير خاص للمفاهيم والعقائد الإسلامية كالتوحيد والنبوة والولاية والوحي وأمثال ذلك، بل على العكس، فإنه وجد في عناوين من قبيل الزهد والإخلاص لله وذم الدنيا وأمثال ذلك المدخل المناسب للوصول إلى قلوب طلاب العلم وعامة الناس لينجح في توسيع مدياته شيئاً فشيئاً إلى أن استطاع أن يطرح نفسه كبديل قوي عن «إسلام الفقهاء» ووعاظ السلاطين والمذاهب

١. النشار: نشأة الفلسفة الإسلامية، ج ٣، ص ٤٢-٤٦.

التقليدية، لاسيما مع انحطاط الحضارة الإسلامية وتخليها عن المنهج العقلي وتقدير البحث العلمي، ونزوعها إلى الجانب الروحي بشكل متطرف كردة فعل على الوضع السياسي والأمني المتردي الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية وهي تعاني من التفكك والتشرذم والحروب الداخلية وتواجه الغزو الخارجي والهزائم المتتالية، وفي رغبة منها للبحث عن الخلاص من مآسيها من خلال العودة إلى الله، فلم تجد أمامها في كثير من الأحيان إلا هؤلاء المتصوفة الذين تركوا الدنيا وزهدوا في ملذاتها، فاتخذوهم قادة روحانيين وهداة في رحلة البحث عن الأمجاد الضائعة، وهو ما لم يتحقق لهم أبداً، بل قادهم إلى مصير أشدّ بؤساً، وإلى أوضاع أشدّ مأساوية، وأدخلوهم في متاهات الخرافة والأساطير والمنامات والالتكالية والروحانية الانهزامية^(١).

❖ الصوفية والقصّ:

كما بيّنت في الفصل الأول، كان للقصاصين دور واضح في الإخلال بالتراث الإسلامي الأصل، مما له علاقة بالقرآن الكريم وتفسيره، والسنة النبوية الشريفة، والسيرة والعقيدة وغير ذلك من مفردات التراث الإسلامي وأسس الفكرية والثقافية والروحية والأخلاقية.

وخاض المتصوفة عالم القصّ منذ المراحل الأولى لظهور التصوف بصورته البدائية البسيطة التي تأخذ عنوان «الزهد» أحياناً، واستمروا على ذلك مع تطوّر التصوف في مناحيه السلوكية والفلسفية، حتى كان القصّ سمة من سماتهم عبر التاريخ.

كما أنهم تأثروا كثيراً بالإسرائيليات والمسيحيات، وبدا عليهم الحرص على نقل النصوص بلسان أنبياء بني إسرائيل «عليهم السلام» ومن كتب العهدين القديم

١. لابد من التنويه هنا إلى أن بعضاً من الاتجاهات الصوفية تغلبت على ذلك وكان لهذا آثاره على مستوى الإنتاج الفكري، والآثار العملية، حيث نجد بعضهم إيجابيين ويسجلون حضوراً لافتاً في قيادة الثورات أو المشاركة فيها أو في مشاريع الإصلاح الكبرى في الأمة

والجديد، لاسيما وأن أسماء بارزة من مؤسسي التصوف كانوا في الأصل من النصارى أو منحدرين من أصول نصرانية، كالحسن البصري «ت ١١٠ هـ» وفرقد السبخي «ت ١٢١ هـ»، والأول منهما يُعد عند الصوفية مرحلة اتصال مبكرة في سلاسلهم التي وُضع فيها بين رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصحابته من جهة، وبين أجيال المسلمين من جهة أخرى. وقد تتبّع د. إحسان عباس السلاسل الصوفية التي احتل الحسن البصري مكانة فيها، فتوصل إلى نتيجة مدهشة! فللرجل ثلاثة فروع على الأقل - في شجرة التصوف:

الفرع الأول: سلسلة النبي، فحذيفة بن اليمان، فالحسن البصري، فالمحاسبي.. وهذه السلسلة سرت في الطرق الصوفية المنتشرة شمال أفريقيا.

الفرع الثاني: سلسلة النبي، فالإمام علي، فالحسن البصري، فحبيب العجمي، فداود الطائي، ثم معروف الكرخي. ويرى د. إحسان عباس أن وصل الصوفية الحسن البصري بالإمام علي يُلاحظ منه محاولة الصوفية نسبة مذهبهم إلى باب مدينة العلم.

الفرع الثالث: سلسلة النبي، فأنس بن مالك، فالحسن البصري، ثم فرقد السبخي، فمعروف الكرخي، ثم السري السقطي، فالجنيد، فالخلدي^(١).

ولو عدنا إلى السيرة الشخصية للحسن البصري فسنجد أنه ولد عام «٢١ هـ» في المدينة المنورة من أب فارسي - على الأرجح - أسر في «ميسان» في العراق، وكان والده نصرانياً، ثم أسلم، وتسمّى باسم يسار، وتزوَّج من أمة بالمدينة. ولما ولد لهما الحسن أعتقا. وكانت الأم «واسمها خيرية» من القصّاص! وقد أثرت في ابنها - بحسب بعض الأخبار - أكبر تأثير. وفي نهاية المطاف انتقلت الأسرة إلى البصرة، وبدأ الحسن البصري يبرز في تلك الأجواء الملتهبة من العصر الإسلامي الأول كرجل علم وعبادة نأى بنفسه عن الأحداث وتفرّغ للجانبين الروحي والعلمي،

١. إحسان عباس: الحسن البصري: ١٠ - ١١.

كما جذبه عالم القصّ، لاسيما القصص الإسرائيلية التي تعنى بأخبار الأمم السابقين، فانتقلت من أصحابها إلى تراثه وكلامه.

وكان لتتلمذه على يد عدد من كبار العبّاد والزهادّ في البصرة كعامر بن عبد القيس و صلة بن أشيم وصفوان بن محرز الأبرز في بلوغه تلك المرتبة التي عُرف بها لدى الصوفية.

وكما نقل هؤلاء الإسرائيليات والمسيحيات، فإن بعضهم لم يجد غضاضة في اختلاق نصوص على لسان أولئك الأنبياء أو في تلك الكتب.. وليس هذا بالمستغرب بعد أن نعرف أن من الزهادّ والعبّاد والمتصوفة من كان يضع الحديث على لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ترغيباً وترهيباً ابتغاء الخير وهداية الناس! وهذا ما أكّده عدة من الباحثين قديماً وحديثاً، ونقلت جانباً منه في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وحول علاقة الصوفية بالقصّ نقل إلينا د. النشار مشاهد وشواهد متنوعة تحاكي واقع هذه الحركة وتأثيرها البالغ على المجتمع الإسلامي وما وصل إلينا عبر الكتب والموسوعات الحديثية. قال في ضمن حديثه عن «أبي العالية الرياحي» الذي يُعد من أوائل مؤسسي التصوف بصورته البدائية في البصرة: (ثم عُرف قصص الأنبياء السابقين، وهو من التراث الذي كان ينتشر في أعقاب عهد عمر بن الخطاب، وكان يعمل على نشره المستسلمة من اليهود ككعب الأحبار وغيره، وكوّن هذا التراث طائفة القصّاص. وكذلك نرى أبالعالية يذكر قولاً ينسبه لموسى وهو: «قدّسوا الله تعالى» بأصوات حسنة، فإنه أسمع لها» ويذكر عن عيسى أنه: «ما ترك حين رُفِع إلا مدرعة صوف، وخفي راع، وقدّافة يقذف بها الطير»^(١).

ثم يشير إلى تأثير طائفة القصّاصين في البصرة وهو يتحدث عن امتداد مدرسة الحسن البصري فيها، وهو الذي يُعد أحد أهم الآباء المؤسسين للتصوف

١. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١١٧.

في صورته الأولى، فقال: (كانت البصرة تعجّ بالأفكار الروحية التي قذف بها الحسن في أعماقها وتمتليء بالأشخاص الذين حملوا - عن الحسن - هذه الأفكار، وكلُّ يَلُونها بمزاجه الخاص. كان هناك القُصّاص، كما كان هناك معبّرو الرؤيا والأحلام، كما كان هناك القراء والوعاظ)^(١).

ومن أهم تلامذة هذه المدرسة «فرقد بن يعقوب السبخي الأرمني الأصل»، الذي أدرك الصوفية - فيما بعد - العظمة الروحية لهذا الأرمني الغريب^(٢).

وقد كان لأصله المسيحي أثرٌ واضح في ثقافته وفي تكوين شخصيته وسلوكه، حتى أنه كان يصرّ على ارتداء الصوف تشبّهاً برهبان النصارى على الرغم من معارضة شيخه الحسن البصري لذلك وتأنيبه عليه: (كان فرقد السبخي يلبس الصوف غير آبه لكل نقد وبخاصة نقد أستاذه الحسن، نائياً عن الفقه والمعاملات، هاجراً للمأكل الهني وللمشرب البارد، مطأطي الرأس للإرادة الإلهية وحدها مستهلكاً في الله، ممثلاً للبهاء الصوفي في البصرة، متسامياً في حياة الروح عن شيخه الكبير المتعدد النواحي)^(٣).

وهكذا تنعكس خلفيته الدينية والثقافية على نشاطه الثقافي والديني: (ويذهب بعض المؤرخين إلى أن فرقدًا كان حائكاً ومن نصارى أرمينية، ولا نعرف الكثير عن سبب وصوله إلى الكوفة ولا عن أسرته. وانتقل فرقد إلى سبخة البصرة، ثم علم بمقام الحسن، فذهب إليه... وكان فرقد على علم بالتوراة والإنجيل، يستعير منهما، ويضمّن أحاديثه الكثير من آياتهما، ولعل مرّد هذا إلى مسيحيته الأولى، وقد وضع فرقد السبخي آراءه إما في صورة أحاديث إسرائيلية أو مسيحية. والسبب في هذا انتشار القصّاص في ذلك العهد، وتضمينهم للإسرائيليات في قصصهم ومواعظهم، واستخدامهم لهذه الإسرائيليات لتدعيم الأحاديث النبوية... ثم نراه

١. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٥٤..

٢. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٥٠.

٣. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٥٤-١٥٥.

يكره الغنى ومجالسة الأغنياء، وقد أعلن هذا من قبلُ أمام شيخه الحسن البصري حين ذكر كراهيته للطعام الدسم، وينسب كراهيته للطعام لآية من التوراة «قرأت في التوراة: مَنْ أصبح حزيناً على الدنيا، أصبح ساخطاً على ربه، ومن جالس غنياً فتضعضع له، ذهب له ثلثا دينه، ومن أصابته مصيبة فشكاها إلى الناس، فكأنما يشكوربه تعالى»^(١).

ونبه د. النشار إلى قلة الأحاديث النبوية التي رواها السبخي، ولكن على رغم قلتها فإن أغلبها على لسان الأنبياء: (كأنَّ الرجل قد شُغل فعلاً بتراث ما قبل الإسلام، ومن الأمثلة على هذا الحديثان الآتيان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوحى الله تعالى، إلى نبي من الأنبياء: ...) ^(٢).

ومثله مثل التلميذ الآخر للحسن البصري، مالك بن دينار «ت ١٣١هـ» وكان من الموالي، وقد خاض مجال القصّ ثم الوعظ: (وقد أقبل على الحسن البصري، وفنى بين يديه، وكان يمثل في كثير من نواحيه شيخه الكبير، كما كان يمثل ثقافة عصره كلها من معرفة بالإسرائيليات وتضمينها مواعظه)، كما أنه كان: (يُكثر من التكلم عن الصديقين ويورد من الكتب السماوية الأخرى سماتهم وأوصافهم). ومن أمثلة ما كان ينقله - أو يدعي نقله - عن التوراة قوله: (قرأت في التوراة: أيها الصديقون، تنعموا بذكر الله في الدنيا فإنه لكم في الدنيا نعيم وفي الآخرة جزاء عظيم) ثم ينقل عن النبي داود عليه السلام، قوله: (عين الله إلى الصديقين وهو يسمع لهم، وسبحوا الله أيها الصديقون بأصوات حزينة). ثم يعود لينقل عن التوراة قائلاً: (قرأت في التوراة يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً، فإني أنا الذي اقتربت لقلبك، وبالغيب رأيت نوري) ^(٣).

١. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٥٢.

٢. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٥٣.

٣. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٦٤.

ومن لبسه الصوف حاول د. النشار أن يبحث عن علاقة ما تربط الرجل برهبان المسيحيين: (كان يلبس لباس صوف وعباءة خفيفة، ويدعوننا هذا إلى البحث عن صلته برهبان المسيحية. إننا نلاحظ أن الرجل أكثر من الاستشهاد بالتوراة، فيذكر أنه قرأ فيها كذا وكذا من الأحاديث، كما أنه يورد أيضاً أقوالاً لموسى ولدادو وللمسيح عليهم السلام) وكانت كلها بلا استثناء تدور حول الذكر والزهد في الدنيا والخوف من النار. غير أنه تميّز بذكر قصص الخاطئين من اليهود وكان يريد أن ينذر الخاطئين في البصرة، أن خطاياهم محمولة على أعناقهم، فلم يجد وسيلة من القرآن ومن الكتب السابقة ومن الحكمة كما كان يدعوها، إلا واستخدمها لإنذار الناس وتذكيرهم. ولا شك أن مالك بن دينار درس الإسرائيليات المشهورة التي انتشرت في عصره كما درس التوراة، وليس هناك إشارة إلى دراسته للأناجيل مباشرة، غير أن نصاً هاماً حفظه لنا أبونعيم^(١) يثبت تماماً أن الرجل قرأ بعض كتب الزهد المسيحية، فقد كان مالك بن دينار يتردد على الأديرة، وهو يقول نفسه: كنت مولعاً بالكتب أنظر فيها فدخلت ديراً من الأديرة ليالي الحجيج، فأخرجوا كتاباً من كتبهم فنظرت فيه، فإذا فيه: يا ابن آدم لم تطلب علم ما لم تعلم و أنت لا تعمل بما تعلم؟ ولا شك أن هذه الكتب كانت من كتب الزهد المنتشرة في أديرة الرهبان، ونحن نعلم أن القديسين أفراسيم وباسيل تركا كتباً كثيرة احتفظ بها في هذه الأديرة.. ويذكر مالك نفسه مرة أخرى بها قابل راهباً على جبل من الجبال فناداه قائلاً: يا راهب، أفدني شيئاً مما تزهدني به في الدنيا، فقال: أو لست صاحب قرآن وفرقان؟ قلت: بلى ولكني أحب أن تفيديني من عندك شيئاً أزهد به في الدنيا. فقال: إن استطعت أن تجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد فافعل^(٢).

وفعلًا لم يجد مالك بن دينار وأسلاف التصوف في القرآن الكريم وفي السنة

١. أي أبونعيم الأصفهاني في كتابه حلية الأولياء.

٢. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٦٣ - ١٦٥.

الصحيحة وفي ما جاء به ورثة علم النبي من أهل بيته ما يكفي لبناء الجانب الروحي والأخلاقي في النفس، معتبرين أن طموحهم يرقى على المنهج الإسلامي، ولذا فهم بحاجة إلى روافد أخرى من قبيل ما جاء في العهدين القديم والجديد، وفي قصص «الصدّيقين» في الأمم الماضية، علاوة على ما أسموه «الحكمة» ولعلمهم يقصدون بذلك ما بلغهم من نصوص أسلافهم من صوفية الهند وفارس واليونان واليهود والمسيحيين، وبذا أدخلوا في التراث الإسلامي ما لا يعلمه إلا الله، إذ قبل منهم كثير من الناس ما نشره، ووثقوا به.. وهل يتصوّر عامّة الناس أن يكون مثل هذا الزاهد المعرض عن الدنيا والمذكر بالله قد آتاهم ما ليس بأصيل في منابعه الإسلامية الموروثة عن سيد الأنبياء وخاتم الرسل محمد (صلى الله عليه وآله) فيكون سبباً من أسباب ضلالهم بدلاً عن هدايتهم؟

وقد يعتبر البعض أنني أبالغ بمثل هذه الكلمات وأتجاهل على هذه الشخصيات، ولكن للقارئ أن يحكم على سلوك هؤلاء القوم من خلال الشواهد الكثيرة التي تبين كيف أنهم حادوا عن جادة الصواب، دون محاكمة منا لنواياهم، حتى أننا نجد أن علماً من أعلامهم كمالك بن دينار زهد الناس: (فلجأ إلى مصاحبة الكلاب، فكانت تتبعه، وكان يجالسها، وكان يقول: هذا خير من جليس السوء. هذا لا يؤذي. وعاف الناس جميعاً ولجأ إلى المقابر!)^(١).

وهكذا كان «رياح بن عمرو القيسي» «ت ١٧٧هـ» الذي يُعتبر من الطبقة الثانية في مدرسة الحسن البصري، إذ كان يُعتبر أن الحلال إثم، ويشبه الطعام بشجرة الزقوم، وإنه طعام الآثمين.. يعذبهم الله به في هذه الدنيا كما يعذبهم به في الآخرة! وهو بذلك يخالف صراحة قول الله (تعالى): ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وتعاليم النبي (صلى الله عليه وآله) الذي

١. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٦٧ - ١٦٨.

٢. القرآن الكريم: سورة الأعراف: ٣٢.

أخبر أصحابه أنه يأكل ويشرب وينام وينكح، كما أنه يؤدّي العبادات المفروضة والمندوبة، وأن هذه هي سنته، ومن رغب عنها فقد اختار الضلالة وحاد عن الهداية.

لقد كان القيسي يردّد قول مالك بن دينار أن الرجل لا يبلغ منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأرملة! وهي مخالفة أخرى لسنة رسول الله الذي أوصى بالمرأة وحسن معاملتها، معتبراً أن خير الناس خيرهم لأهله، وأنه (صلى الله عليه وآله) خير الناس لأهله.. فهل يتوافق هذا مع هجرانها بحيث تكون كالمتروجة برجل ميت؟

ولا يكفي القيسي بهذا، بل يضيف أن مقام الصديقين يتطلّب شرطاً آخر، وهو اللجوء إلى مزايل الكلاب^(١)!

ويتطوّر الأمر إلى شطحات تبرز في كلمات تلامذة هذه المدرسة، حيث نجد رابعة العدوية «ت ١٨٥ هـ»، تلميذة مالك بن دينار، تعدو مسرعة في شوارع البصرة أمام جماعة من الفتيان، وفي إحدى يديها نار، وفي الأخرى ماء، وسألها الفتيان عن ذلك فقالت: (أنا ذاهبة إلى السماء، حتى ألقى بالنار في الجنة، وأصيب الماء في الجحيم، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى)^(٢).. إنها لا تريد الخوف ولا الرجاء، بل تريد أن يبقى الله ومحبه، ثم تأسف لأهل الجنة أن يكون شغلهم بغير الله، وأنهم يريدون فقط نعيمها المادي!

بالطبع لا اعتراض على أن للعبادة مقامات ومراتب بناءً على مدى إخلاص العبد في نيته وعمله، وأن أرقى تلك المراتب أن يكون الإقبال على الله طلباً لرضاه ونابغاً من الحب، لا طمعاً في جنة أو خوفاً من نار، إلا أن هذا شيء وما فاهت به العدوية في شطحاتها تلك أمر آخر، إذ أن القرآن الكريم على الرغم من حقيقة رقي مرتبة العبادة الخالصة لوجهه «تعالى» إلا أنه لم يكفّ عن الترغيب بالجنة ولذائذها ونعيمها، والتخويف من النار وعذابه وآلامه، دفعاً للناس نحو الإيمان

١. أبونعيم: حلية الأولياء، ج ٦، ص ١٩٤.

٢. بدوي: رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي، ص ١١٢.

والتقوى والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، فهذه هي الطبيعة الإنسانية التي يعلمها الله وهو خالقها، ولو كانت الإرادة الإلهية على خلاف ذلك، لما وجدنا كل هذا التأكيد في القرآن على الخوف والرجاء.

إن كلمات وتصوّرات رابعة العدوية ليست مؤطّرة في شخصها، بل هي تابعة لمدرسة امتدّت على مدى قرون، وما زالت تقدّم هذه الأفكار بصورة أو بأخرى: (كان أثر رابعة كبيراً فيما بعد في مجرى التصوف الإسلامي، التصوف التقليدي السُّنِّي، والتصوف البحت، والتصوف الفلسفي، أما في الدوائر الصوفية التقليدية السُّنِّيّة، فقد اعتبر هؤلاء الصوفية رابعة في قمة المنازل الصوفية... كانت رابعة وزملاؤها من أصحاب نظريات المحبة والخلة، الرواد الأوائل لهذه النظريات التي سادت الحياة الصوفية فيما بعد)^(١).

إن هذا التوهان يُعدّ نتيجة طبيعية لمن يتخلّى عن وصية النبي (صلى الله عليه وآله) التي حدّدت ضماناً الهداية من بعده حيث قال: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي)^(٢)، ليلجأ باحثاً عن مصادر أخرى للمعرفة والهداية يشوبها التحريف والابتداع، وقد بيّن القرآن الكريم بصورة جليّة أن الرهبانية عند النصارى أمر مبتدع، وإن كانت الحركة في بدايتها تبتغي رضوان الله.

إنّ من حق الباحث أن يتساءل عن العلاقة بين تلك التصورات والسلوكيات الشاذة كمصاحبة الكلاب بدلاً عن البشر والعيش في المقابر، وبين تعاليم الإسلام، وهل كان أحد أجدر بأن يعاف الناس ويهجرهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي ذاق من أهله وعشيرته الأمرين؟

ولكنه لم يكن يجد أبداً أنّ مسؤوليته توقفت عند هذا الحد، ليشعر بالاشمئزاز

١. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ٢١٣. ٢١٤.

٢. حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة سنداً، ورواه عدد من أصحاب الصلح والمسانيد والسنن.

من كل ممارسات الشرك والفسق والباطل الذي كانت تعجّ في المجتمع المكي، ثم يختار الانعزال عن الناس طلباً للطهارة الروحية والصفاء في العلاقة مع الله، بل إنه لم يربّ أصحابه على ذلك، كما منعهم من صور الرهينة والعزلة، ودفعهم إلى الجهاد بالنفس، وجهاد النفس، والاعتكاف المؤقت بأيام الصيام والحج وأمثال ذلك من الشعائر والعبادات التي كانت محطات تنمية روحية حقيقية تكوّن شخصية قوية خالية من العقد، ذات قوة في مواجهة الباطل.

ويبقى أن نتساءل عن سرّ اختصاص البصرة بعدد كبير من آباء التصوّف ممن تعرّضنا لذكرهم - وغيرهم كثير - رجالاً ونساءً. لقد حاول عدد من الباحثين المسلمين والمستشرقين الإجابة على هذا التساؤل، وتوصّل بعضهم أن للرهبان المسيحيين الذين عاشوا في العراق قديماً بالقرب من البصرة قبل تأسيسها في العهد الإسلامي أكبر الأثر في بروز مدرسة التصوّف فيها.

واستشهدوا على ذلك بشواهد عديدة للقاءات ومجالسات ومجالس تعليم جرت بين آباء التصوف من البصريين وبين الرهبان المسيحيين، علاوة على تلمّس بعض التشابهات المظهرية والسلوكية وبين الطرفين، وإن اختلفت كثرة وقلة من شخصية إلى أخرى. ويضاف إلى ذلك المفاهيم الروحية المستسخة لديهم عن تعاليم الرهينة المسيحية المثبتة في كتبهم.

قال د. سامي النشار: (تجاوروا في مصر وفي الشام، كما تجاوروا في ما بين النهرين، وحين أنشئت البصرة والكوفة أتى المسيحيون، كما أتى اليهود إليهما، بل كان المسيحيون في مدينة رسول الله. ونرى واحداً منهم مملوكاً لعمر بن الخطاب هو: وثيق ابن الرومي. وقد طلب منه عمر بن الخطاب أن يُسلم حتى يستعين به على أمانة المسلمين، لأنه لا ينبغي أن يستعين على أمانة المسلمين بمن ليس منهم، ولكن وثيقاً أبى. وتركه عمر وقال: لا إركاه في الدين. فلما حضرت عمر الوفاة أعتقه وقال له: اذهب حيث شئت. كان المسيحيون هنا

وهناك، بل نرى واحداً من هؤلاء العُباد يُدعى بعمّار الراهب، وتذكر المصادر عنه أنه كان من العاملين لله في دار الدنيا، وكان يتردد دائماً على مجلس عيسى بن زاذان بالأبلة^(١) وكان يقابل هناك «مسكنة الطفافية»، وكانت مسكنة أيضاً من تلميذات حلقة ذكر ابن زاذان... وكما رأينا وسنرى أيضاً زيارات العُباد للأديرة... وقد رأينا أيضاً صوراً من لبس الصوف، والصوف لباس الرهبان، فهل أخذه هؤلاء العُباد من الرهبان المسيحيين، أم أن الصوف كان لباس عامة العرب الفقراء، وقد لبسه هؤلاء العُباد حين تقمّش الأمويون طغاة أهل الشام بالطيلسانات والديباج والخز. لقد رأينا وسنرى كيف ينهى كبار العُباد ويزجرون من يلبس الصوف من أتباعهم، فالحسن البصري يسخر من فرقد السبخي، وكذلك حمّاد بن سلمة. كما رأينا أيضاً من ينهى عبدالكريم أبا أمية عن لبسه، ولكن هذا يعني أن اتصالاً قد تم بين بعض العُباد وبعض الرهبان. وأخيراً إن بعض هؤلاء العُباد كانوا من أصول مسيحية.. فهل كان هناك أثر من آثار الدين القديم فيهما؟ أو بمعنى آخر، هل ثمة تعاطف حضاري داخلي وراثي بين عبادتهما الجديدة ودينتهما القديم؟ بل إننا نجد اسم «راهبة» بين أسماء المسلمين في ذلك الحين، فيذكر ابن الجوزي أن أم عثمان بن سودة الطفاوي كانت من العابدات ويقال لها راهبة. ويبدو أن هذا كان اسمها الحقيقي، ولم يكن وصفاً أطلق عليها^(٢).

ثم تحدث د. النشار عن بعض أحوالها ويقول: (ومع أننا لانجد - كما قلت - في هذا تراثاً مسيحياً، إلا أن مجرد تسميتها براهبة يدل على ما كان في قلوب المسلمين من احترام ومودة للرهبان والراهبات. كما يُذكر أيضاً أنه كانت لرابعة بنت إسماعيل الزاهدة الشامية أخت سُميت أيضاً براهبة)^(٣).

١. ابن زاذان كان من العباد، وقد ذكرنا من قبل أن الأبلة ميناء قديم يقع بالقرب من البصرة.

٢. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٤٢.١٤١.

٣. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣، ص ١٤٢.

❖ الخضر في الفكر الصوفي:

وعلى أية حال، فإن من بين ما تأثر به التراث الإسلامي من خلال المدارس الصوفية ما له علاقة بشخصية الخضر. ويمكن من خلال القراءة المتأنية والمقارنة لقصص الخضر والنصوص المتعلقة به في التراث الإسلامي مع ما عند الثقافات الهندية واليونانية والفارسية القديمة من قصص وشخصيات وأحداث أن نجد تشابهات عديدة وملفتة بينها، الأمر الذي لا نستبعد معه أن يكون لمتصوفة الإسلام الدور الكبير والمميز في نقله من تلك الثقافات إلى التراث الإسلامي بعنوان حديث مروي أو قصة مأثورة، وهو ما أشرنا ونشير إليه تدريجياً في هذا الكتاب.

ويمكن اعتبار النموذج التالي مثلاً من الأمثلة، ففي سريلانكا، يطلق المسلمون على الخضر اسم «كيلور، كالير، هالير» ويبدو أن كلها مشتقة من الاسم العربي لهذه الشخصية «الخضر»^(١) كما نصّ على ذلك بعض الباحثين.

ويعتقد هناك بأنه قد شرب من نبع الخلود في سريلانكا والمعروفة باسم «كاتاراجاما/خضرجاما»^(٢) والتي تعني بيت الخضر بحسب التقليد الشعبي الموروث حتى هذا اليوم^(٣). وللخضر مقام في جنوب شرق جزيرة سريلانكا يشترك في تقديسه المسلمون والهندوس من قبلهم، ويعرف عند الهندوس بمقام الإله «كاديرا»^(٤). وسنشير إلى هذه المفردة في الصفحات التالية مع مزيد من الإيضاح.

بعد هذه المقدمة عن التصوف، نعرض للحديث حول ما للخضر في ثقافة الطرق الصوفية الإسلامية المختلفة ومعتقداتها من حضور قوي ومهم جداً، وما له من موقع متقدم بين الشخصيات التي يعتبرون أنها رفيعة الشأن عند الله تعالى،

1. Asiff Hussein: The Green one. An article published on: www.spiritandflesh.com

2. Kataragama / Khidirgama

3. khidr.org/gaffar.htm

4. The Ceylon Shrine of God Kadira // لاحظ التشابه بين الكلمة وبين كلمة خضر

وتحظى بالمقامات الخاصة التي لا يبلغها سواهم، وقد قيل فيه: (الخضر شيخ المتصوفة، قادهم في رحلتهم الطويلة، فكان لهم نعم المعلم والسمير والرفيق، وهو شيخ الشيوخ، يرشد، ويهدي، ويقود المرید خطوة خطوة.. قال إبراهيم التيمي: رأيت النبي في المنام فقال: كل ما يحكى عن الخضر حق، وهو عالم أهل الأرض ورأس الأبدال، وهو من جنود الله تعالى) ^(١).

ووفق التراث الصوفي فإن الخضر يأخذ تعاليمه من خلال الإشراف والكشف ومن دون وساطة بشرية أو وحي. وهو الإمام الخفي لبعض سالكي الطريقة، كبعض أتباع الطريقة الأويسية، الذين يسلكون المسلك الصوفي دون اتخاذ مرشد على قيد الحياة. وهم يقتدون بنور تعاليم مرشديهم السابقين أو يُقادون من قبل الخضر.

أما الصوفي السيريلانكي الأصل «باوا محيي الدين» فقد قدّم صورة عن الخضر تتلخص في أنه كان باحثاً عن الله لمدة طويلة، فبعث الله إليه جبريل «عليه السلام» لهدايته، فيظهر له الملك في هيئة إنسان حكيم، ويقبل الخضر أن يكون جبريل معلماً له. ويقوم جبريل بتعليمه بذات الطريقة التي سيعلم فيها الخضر موسى، وذلك من خلال تصرفات تجانب العدالة في ظاهرها. ويقوم الخضر بكسر ميثاقه الذي أعطاه لجبريل وهو يجهل حقيقة هذا المعلم. وفي النهاية يكشف له جبريل الحقائق، كما يكشف له عن شخصيته الحقيقية، ليقر بها الخضر وينال منه لقب «النبي الخالد».

❖ الخضر عند الشيخ الأكبر:

في الوقت الذي اعتبر فيه عبد الكريم الجيلي في كتاباته أن الخضر حاكم على رجال الغيب، وهم الأولياء والملائكة، قرّر ابن عربي الملقب بالشيخ الأكبر أن مقام الخضر هو مقام «ختم الأولياء»، وهذا المقام خاص بمن يشترك بالأخذ من شريعتين: (وأما أسرار الاشتراك بين الشريعتين، فمثل قوله ٥: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

١. محمد الكسنزان الجيلاني: موسوعة الكسنزان في ما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، ج ٧.

لِذِكْرِي ﴿^(١) وهذا مقام ختم الأولياء، ومن رجاله اليوم: خضر وإلياس).

ثم تحدث ابن عربي عن مرتبة «الوتدية» التي نالها الخضر: (اعلم - أيها الولي الحميم أيدك الله - أن هذا الوتد هو خضر، صاحب موسى «عليه السلام» أطال الله عمره إلى الآن، وقد رأينا من رآه، واتفق لنا من شأنه أمر عجيب).

ولم يكتف ابن عربي بهذا في شأن الخضر، بل واعتبر أنه قد حاز مقام الانتساب إلى أهل البيت «عليهم السلام» كما حازها سلمان الفارسي، وهو مقام له أسرار ومزاياه: (ولما بينت لك أقطاب هذا المقام مقام الوراثة وأنهم عبيد الله المصطفون الأخيار، فاعلم أن أسرارهم الأقطاب السليمانيين التي اطلعنا عليها، تجهلها العامة، بل أكثر الخاصة التي ليس لها هذا المقام. والخضر منهم، وهو من أكبرهم، أي من أكبر الورثة لمقام أهل البيت. وقد شهد الله له، أنه آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً. اتبعه فيه كليم الله موسى «عليه السلام» الذي قال فيه ^(٢): لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني. والمعنى: أن موسى «عليه السلام» ما تبع الخضر إلا لأنه من أكابر أقطاب الوراث المحمديين، ولا يهم في هذه الأمور تقدم الزمان أو تأخره) ^(٣).

واعتبر ابن عربي أيضاً أن لهذه القطبية أسراراً كثيرة شارك أصحابها فيها أهل البيت، وقد أشار إلى بعض تلك الأسرار وهي: (ومن أسرارهم: علم المكر الذي مكر الله بعباده في بغضهم. سر علم المكر.. وهو علم اختص به تعالى آل البيت، وحقيقته: أنه يمكر بمن يبغضهم. وقد ورث الخضر ذلك، فيمكر بكل من يبغضه «عليه السلام». ومن أسرار آل البيت: الاطلاع على صحة الشرع من غير طريق النظر، وهذا علم لا يخفى ما للخضر فيه من باع طويل قد ورثه منهم.. ومن أسرار الاطلاع على صحة ما شرع الله لهم في هذه الشريعة من حيث لا تعلم العلماء بها.

١. القرآن الكريم: سورة طه: ١٤ .

٢. أي قاله النبي محمد ~ في شأن موسى «عليه السلام» .

٣. محمد الكسنزان الجيلاني: موسوعة الكسنزان في ما اصطلاح عليه أهل التصوف والعرفان، ج ٧.

ومن أسرارهم أيضاً: إصابة أهل العقائد فيما اعتقدوه في الجنب الإلهي، وما تجلى لهم حتى اعتقدوا ذلك^(١).

❖ مراتب الخضر:

وحول مقام القطبية الخاص بالخضر بحسب الطرق الصوفية المختلفة، كتب أحمد صبحي منصور: (القطب عند صوفية العصر المملوكي هو الذي عليه مدار الكون ولأجله وُجد الكون وعليه مدار كونية الدارين. ولكل عصر قطب، وقطب الأقطاب هو الذي لم يكن قبله ولا بعده مثله، والأوتاد أربعة على أربع جهات العالم، والأبدال سبعة على حكم أيام الأسبوع، وللقطب رجلان عن يمين وشمال^(٢)، ثم هناك «أبدال»... ونُسب إلى على ابن أبي طالب قوله: البداء بالشام، والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر سيد القوم. ورووا أن الخضر قال: ثلاثمائة هم الأولياء، وسبعون من النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، واحد منهم القطب الغوث^(٣))^(٤).

ثم تحدث الكاتب عن صفات القطب لدى الصوفية واختلاف طرقهم في ذلك، إلا أنه ذكر من بينها أنه: (عند الدسوقية لا يصير القطب قطباً إلا إذا شرب من نهر الحياة عند جبل قاف سبع مرات. ولا يكون غوثاً إلا إذا شرب منه ألف مرة. ومن هذا النهر شرب الدسوقي والرفاعي والبدوي والجيلي^(٥))^(٦).

١. محمد الكسنزان الجيلاني: موسوعة الكسنزان في ما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، ج ٧.

٢. النويري: الإمام، ج ١، لوحة ١٧٨. الشعراني: اليواقيت والجواهر، ج ٢، ص ٨٤.

٣. اليافعي: باب الرياحين، ص ٨.

٤. من مقال بعنوان: (أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم: القطب والخضر) للباحث أحمد صبحي منصور، المنشور على موقع www.ahl-alquran.com

٥. الشرنوبلي: الطبقات، مخطوط، ص ٥٠٤.

٦. من مقال بعنوان: (أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم: القطب والخضر) للباحث أحمد صبحي منصور، المنشور على موقع www.ahl-alquran.com

وأما الخضر فبحسب منصور: (السائد أن الخضر هو صاحب موسى المذكور في سورة الكهف «٦١ : ٨٢»). وليس هذا صحيحاً، فهو نبي مرسل، قابل موسى بأمر إلهي ليتعلم موسى منه عدم التعجل، وأن يترث. ذلك أن نشأة موسى في قصر فرعون جعله يعيش في خوف دائم، ويتوقع الشر متحفزاً لرد الفعل. ويتردد في القصص القرآني عنه مصطلح الخوف، ولذا كان سريع الانفعال يندفع في رد الفعل، وكان في حاجة إلى تعلم التريث. فكان هذا اللقاء مع ذلك النبي الذي لم يذكر رب العزة اسمه، والله تعالى لم يذكر كل الأنبياء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١)، وقد يذكر بعضهم دون ذكر أسمائهم مثل ثلاثة منهم أرسلهم الله تعالى لقرية لم يذكر اسمها: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾^(٢). ومن هؤلاء الأنبياء المرسلين كان صاحب موسى الذي أعلمه الله تعالى ببعض الغيب. فالله تعالى لا يعطي العلم ببعض الغيب إلا لبعض الأنبياء «آل عمران: ١٧٩، الجن: ٢٦-٢٧». وقد كان صاحب موسى رسولاً نبياً مأموراً بالوحي الإلهي أن يقابل موسى، وقد أفضى في النهاية لموسى بالغيب الذي علمه تفسيراً لتصرفاته، وأنه مأمور بمقابلته^(٣).

واعتبر الباحث أن الخضر ليس سوى أكذوبة وشخصية مختلفة لا علاقة لها بقصة موسى والعبد الصالح: (ثم صار معلماً أساساً في دين التصوف، جعله الغزالي في «الإحياء»^(٤) مصدراً للتشريع الصوفي ينسب إليه ما يشاء من أقوال وأذكار. وافتن الصوفية بجعل الخضر ولياً صوفياً حتى يحقق أمنيته في أن يكون الولي خيراً من

١. القرآن الكريم: سورة النساء: ١٦٤ .

٢. القرآن الكريم: سورة يس: ١٣ - ١٤ . والكاتب في وجهة نظره هذه يتفق تماماً مع ما ذكرت في بيان علة الأمر الإلهي للنبي موسى بلقاء العبد الصالح .

٣. من مقال بعنوان: (أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم : القطب والخضر) للباحث أحمد صبحي منصور، المنشور على موقع www.ahl-alquran.com

٤. يشير إلى كتاب أبي حامد الغزالي: إحياء علوم الدين .

النبي ويقوم بتعليم النبي من العلم اللدني الذي هو حكر للأولياء دون الأنبياء.. وتضخمت شخصية الخضر في العصر المملوكي بتسيّد دين التصوف، حتى إن فقيهاً سُنياً مشهوراً ومن علماء الحديث السّني هو ابن حجر العسقلاني «٧٧٣-٨٥٢هـ» وضع كتاب «الزَّهْرُ النَّضْرُ فِي أَخْبَارِ الْخَضِرِ»، وهو كما يدل عليه عنوانه يؤمن بوجود الخضر، والشعراني أشهر مَنْ كَتَبَ في حياة الخضر الأزلية: «الميزان الخضرية»، وزعم فيه أنه قابله وسأله وسمع منه.. وقد وضع ابن إمام الكاملية «ت٨٧٤» رسالة في حياة الخضر، ونجد اليافعي يحاول إثبات حياته الأزلية.. ويقول الشعراني في رسالته عن الخضر: «أجمع أهل الكشف أي العلم اللدني قاطبة على حياة الخضر وقت اجتماعنا به، وقد اجتمع بعمر بن عبد العزيز، وأبي عبد الله اليسري، والشيخ عبد الراز، وإبراهيم الخواص، وأبي يزيد البسطامي، وابن عربي، وأبي عبد الله القرشي، والشاذلي، والمرسي، وياقوت العرشي.. وحسب علمنا، لم نجد عالماً في العصر المملوكي أنكر حياة الخضر بل اعتقدوا صدق بعض من ادعى رؤيته في المنام، يقول ابن الحاج الفقيه الذي كان ينتقد عصره من رؤية سنية صوفية: «ومنهم من يدعي رؤية الخضر ويؤكد ذلك باليمين.. وذلك كله تقوّل وافتهال.. مع أن هذا لا ينكر إذا وقع من أهله في محله»، أي إن ابن الحاج العبدري في القرن الثامن كان يؤمن بحياة الخضر الأزلية، وأن بعضهم يراه ويقابله.. والاعتقاد في وجود الخضر مستمر حتى عصرنا الحالي كأثر من العصر المملوكي، يقول أحمد أمين: «يعتقد بعضهم أنهم رأوا الخضر يقظة وخاطبوه وخاطبهم، ويزعمون أنه شرب من عين الحياة فلم يمت من عهد موسى إلى اليوم، وأن الأولياء الصالحين يرونه جهاًراً ويخبرهم بالمغيبات، وإذا ذكروه قالوا عليكم السلام إيهاما بأنه مر عليهم وسلم عليهم»، أي نجح التصوف في التأكيد على وجود الخضر حياً لا يموت، مع أن الله تعالى يقول للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ، أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ «الأنبياء: ٢٤-٢٥»^(١).

١. من مقال بعنوان: (أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم: القطب والخضر) للباحث أحمد صبحي منصور، المنشور على موقع www.ahl-alquran.com

ثم تحوّل اللقاء بالخضر إلى هوس عند الصوفية، وتنافست شخصياتهم على ادعاء اللقاء به، بل وتنافسوا على عدد تلك المرات، وما تلقوه من علم على يديه وأمثال ذلك. قال ابن عطاء الله السكندري: (واعلم أن بقاء الخضر قد أجمع عليه هذه الطائفة، وتواتر عن أولياء كل عصر لقاءؤه، والأخذ عنه، واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر حد التواتر الذي لا يمكن جحده، والحكايات في ذلك كثيرة)^(١).

وقال الياضي عن هذه اللقاءات: (لأن الصديقين لم يزلوا في كل مكان يخبرون أنهم اجتمعوا به، وذلك مشهور مستفيض عنهم ومروي عنهم في الكتب المشهورة التي دواها العلماء والثقات)^(٢).

وقال منصور: (وقد وضع الشعراني شروطاً لمن يريد الاجتماع بالخضر، وقد تنافس الصوفية في دعوى الاجتماع بالخضر واشتهر منهم على النبتيتي «ت ٩١٧» في عصر الشعراني، فنقل الكثير عنه ادعاءاته، وسبق النبتيتي في هذه الشهرة ابن الكباش بنحو قرن، فكان يجتمع بالخضر في غالب الأوقات، وقبله أيضاً سليمان البسطامي «ت ٧٨٦» «وله في ذلك أخبار كثيرة يستنكر بعضها»^(٣)، وذكرت لقاءات للشاذلي مع الخضر، وكان الخضر يحضر مجلس شمس الدين الحنفي، ويشيعه للخلوة، وممن اجتمع بهم أيضاً عبد المحسن الواردي وأبو السعود بن أبي العشائر.. وللخضر دور في الحكايات الصوفية عن الأولياء المجهولين. وكان الإيمان بالخضر عاماً في العصر من القضاة والعوام، فادعى شيخ الإسلام سراج الدين العبادي «ت ٨٧٧» أنه كان يجتمع بالخضر، وكان قاضي القضاة البساطي يدعي ذلك، وكانت جنازة ابن حجر هائلة حتى قيل إن الخضر حضرها، وهكذا أرغموا الخضر على المشاركة حتى في الجنازات الهامة)^(٤).

١. السكندري: لطائف المنن، ص ١٥١.

٢. الياضي: روض الرياحين، ص ٤٧٩.

٣. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٩٠..

٤. من مقال بعنوان: (أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم: القطب والخضر) للباحث أحمد صبحي منصور، المنشور على موقع www.ahl-alquran.com

ثم تحدث الكاتب عن تحول شخصية الخضر إلى عنوان أيضاً لمقام ومرتبة من مراتب التصوف، فالقطب بمكة المكرمة يرتقي ليصبح غوثاً، فإذا مات مَنْ كان في مرتبة الخضر، ارتقى هذا الغوث ليصبح هو الخضر الجديد. وأعتقد أن هذا يخص طريقة من طرق الصوفية وليس بأجمعها: (ذلك، إنه سرعان ما أصبحت شخصية الخضر المزعومة ضمن مملكة التصوف الوهمية في العصر المملوكي. عدّه بعض الصوفية رتبة عليا في مملكتهم يتفوّق بها على القطب: «فإذا مات «القطب الغوث» ولّى الخضر مَنْ يكون «قطباً» بمكة «غوثاً»، وجعل «بدل» مكة «قطباً»^(١)، وهكذا أبداً، فإن مات الخضر صلى الغوث في حجر إسماعيل، فتسقط عليه ورقة باسمه فيصير خضراً ويصير قطب مكة غوثاً^(٢)»^(٣).

وأعطى بعض أولياء الصوفية معنى فلسفياً وباطنياً لاسم الخضر ولحقيقة هذه الشخصية، فقد جاء في موسوعة الكنسزان الصوفية: (الشيخ الأكبر ابن عربي يقول: «الخضر: عبارة عن البسط، وهذه العطايا من بحر الزوائد». الشيخ كمال القاشاني يقول: «الخضر (عليه السلام) هو صورة اسم الله الباطن، ومقامه مقام الروح، وله الولاية والغيب وأسرار القدرية، وعلوم الهوية والآنية والعلوم الدنية. أما موسى (عليه السلام) فهو صورة اسم الله الظاهر، وله علوم الرسالة والنبوة والتشريع. فإذا فالحوار الدائر بين موسى والخضر (عليهما السلام) ليس قصراً عليهما، ولكنه موازنة بين مطلق رسول ومطلق ولي». الشريف الجرجاني يقول: الخضر (عليه السلام) يُعبّر به عن البسط، فإن قواه المزاجية مبسّطة إلى عالم الشهادة والغيب، وكذلك قواه الروحانية. الباحث محمد غازي عرابي يقول: الخضر: من الخضرة، والأخضر سر الحياة، فالخضر سر الحياة المنحصر في

١. أي أن الخضر بمقامه السيادي على الأقطاب يعين من يكون في موقع القطب المتواجد في مكة ليصبح غوثاً، ثم يختار أحد الأبدال وهو المتواجد في مكة ليكون في موقع القطبية فيها محل القطب السابق.

٢. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٨٣-٤٨٤.

٣. من مقال بعنوان: (أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم: القطب والخضر) للباحث أحمد صبحي منصور، المنشور على موقع www.ahl-alquran.com

قوله «تعالى»: ﴿فَتَفَخَّنَا فِيهِ مِنْ رَوْحِنَا﴾^(١) (٢).

بل إن الصوفية أعطوا بُعداً باطنياً لامتداد الحياة بالخضر معتبرين أن ذلك إنما تحقق له انطلاقاً من اطلاعه الغيبي، قبل قرون من ولادة النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) على شأن ومقام الأولياء في العهد الإسلامي، فأحب أن يلاقيهم ويختلط بهم ويعايشهم ويفيض عليهم من علومه.

وقد نقل الجيلاني في سبب بقائه حياً من الناحية الروحية كلاماً عن الشيخ الحكيم الترمذي حيث قال: للخضر (عليه السلام) قصة عجيبة في شأنهم الأولياء وقد كان عاين شأنهم في البدء، ومن وقت المقادير فأحب أن يدركهم. فأعطي الحياة حتى بلغ من شأنه أنه يحشر مع هذه الأمة وفي زميرتهم، حتى يكون تبعاً لمحمد، وهو رجل من قرن إبراهيم الخليل، وذي القرنين، وكان على مقدمة جنده، حيث طلب ذو القرنين عين الحياة ففاته وأصابها الخضر، في قصة طويلة.

وأضاف أن الشيخ عبد الكريم الجيلاني كان يرى أن في كل ذات مخلوقة عين الحياة لروح ذلك المخلوق، فيقول: اعلم أن عين الحياة مظهر الحقيقة الذاتية من هذا الوجود فافهم هذه الإشارات، وفك رموز هذه العبارات، ولا تطلب الأمر إلا من عينك بعد خروجك من إنيتك، لعلك تفوز بدرجة: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾^(٣) ويسمح لك الوقت بأن تصير من حزبهم، فتكون المراد بموسى وخضره، والإسكندر، والظلمات ونهره. وأن الشيخ كان يرى أن ماء البرزخ بين «البحران»^(٤)، هو ماء الحياة الأبدية، فيقول: فلما مرج البحرين يلتقيان جعل الله بينهما ماء الحياة برزخاً لا يبغيان، وهذا الماء في مجمع البحرين وملتقى الحكيمين والأميرين.. أن من شرب منه لا يموت.

١. القرآن الكريم: سورة الأنبياء: ٩١ .

٢. محمد الكسنزان الجيلاني: موسوعة الكسنزان في ما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، ج ٧.

٣. القرآن الكريم: سورة آل عمران: ١٦٩ .

٤. هكذا في المصدر، والصحيح (البحرين).

قال بعد ذلك أن الذي يراه أن كسبب حقيقي وراء بقائه حياً: هو حصوله على مرتبة ولاية خاصة أهلته أن يكون من «رجال الغيب» الفانين عن المأكول والمشروب والخلق وبالتالي الخلود. وهذا الرأي هو ما ذهب إليه حضرة السيد الشيخ الغوث الأعظم عبدالقادر الكيلاني حيث قال: ومنهم الأولياء مَنْ يفنى عن المأكول والمشروب وينعزل عن الخلق ويحجب عنهم ويعمر في الأرض بلا موت.. كالخضر (عليه السلام) ولله (تعالى) عدد كثير منهم محجوبون في الأرض يرون الناس وهم لا يرونهم، الأولياء فيهم كثرة، والأعيان فيهم قلة، آحاد أفراد مفردون، والكل يأتونهم يتقربون إليهم، هم الذين بهم تُتَبَّ الأرض وتمطر السماء ويرفع البلاء عن الخلق. وهذا الانتقال والتحول نتيجة للإرادة الإلهية حيث قال (تعالى): ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

❖ الخضر عند الأتراك:

بحسب بعض القراءات التحليلية للموروث الشعبي والديني للأتراك، تعد شخصية الخضر Hizir أكثر الشخصيات «الإسلامية» توقيراً واعتناء بها بعد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) والإمام علي (عليه السلام)، ويقدم عادة في صورة «درويش» بلحية بيضاء طويلة، ولربما يكون معتماً بعمامة بيضاء كبيرة، يجوب الأرض على الدوام - منذ أن كُتِبَ له الخلود - لقضاء حوائج الناس وتحقيق بعض الغايات النبيلة وليكون المنقذ من الكوارث في اللحظات العصيبة التي يفقد فيها الناس الأمل، وليحامي المسافرين ويخلصهم من الأخطار المحدقة بهم أثناء قطع المسافات في الأماكن المقفرة والموحشة.

وللأتراك قصص وحكايات كثيرة توارثوها وما زالوا يروونها عن الخدمات الإنسانية الغيبية التي قدمها الخضر إلى الناس الذين توسلوا به أو فقدوا الأمل فكان هو الأمل المتجدد تماماً كمدلول اللون الأخضر المختزن في اسمه دلالة على

١. القرآن الكريم: سورة يس: ٨٢ .

٢. محمد الكسنزان الجيلاني: موسوعة الكسنزان في ما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، ج ٧.

الحياة والخلود^(١). ويعد اليوم السادس من شهر مايو من كل عام اليوم الأول من الأيام الثلاثة التي يحتفل فيها الأتراك بحلول الربيع، ويطلقون عليه اسم عيد الخضر Hidirellez حيث يقيمون في اليوم السابق لهذا العيد - وخلال - مراسم مختلفة يغلب عليها الطابع الفولكلوري والعادات والتقاليد والمعتقدات الموروثة عبر القرون، ويعود بعضها إلى عهد ما قبل دخول الترك في الإسلام.

وإذ يتميز فصل الربيع بانتشار الخضرة في الطبيعة، فقد ارتبط هذا العيد بشخصية الخضر من جهة وبشخصية النبي إلياس من جهة أخرى، باعتبارهما - بحسب المعتقد السائد - خالدين عبر الزمن حين شربا من ماء الحياة في قصة يرويها الأتراك وتتلخص في أن الإسكندر المقدوني بمعية الخضر وإلياس ارتحلا بحثا عن هذا الأكسير، وتفرقوا حيث ضاعوا في غابة مظلمة، واستطاع الخضر وإلياس الحصول على مبتغاهما بينما عجز ذو القرنين عن ذلك. ومنذ ذلك الوقت الذي يسبق عهد النبي نوح (عليه السلام) أصبح الخضر رجل البراري الخالد، بينما أصبح إلياس رجل البحار، بل إن الأتراك يروون في قصصهم الفولكلورية أن الذين كانوا مع نوح في سفينته استجدوا بالخضر لإنقاذهم من الطوفان!

وبخلودهما، مثل الخضر وإلياس رمز الحياة والطبيعة المتجددة، وبالتقاءهما المتجدد سنوياً في هذا العيد، تلتقي اليابسة بالماء في مدلول رمزي إلى الحياة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بهما. كما مثل الخضر من خلال مدلول اسمه اللون الأخضر الذي هو لون الربيع والحياة والطبيعة والخضرة المتجددة.

ومن هنا امتزج الاحتفال بهذا العيد عند الأتراك بذكر هاتين الشخصيتين والاعتقاد بأنهما يزوران المحتفلين بالمناسبة ليلبوا لهم حوائجهم. ومن هنا يعمد المحتفلون بهذه المناسبة السنوية إلى كتابة حوائجهم في أوراق يربطونها بشجرة

1. Journal of American Folklore 86, 1973 By Warren S. Walker and Ahmet E. Uysal Texas Tech University, Lubbock, Texas

ورد، حيث يأتي إليها الخضر والياس لاحقاً للاطلاع عليها وتلبية حوائج أصحابها. وقد يعتمد بعضهم إلى دفن شيء يرمز إلى حاجته عند تلك شجرة ورد (كالدبلة عندما يكون الأمر مرتبطاً بالرغبة في الزواج) مصحوباً بالغناء الترحيبي بالخضر صبيحة يوم السادس من مايو ليستخرجها الخضر لاحقاً فيكون ذلك وسيلة تحقيق المراد^(١)! ولا يكتفي المحتفلون بإقامة هذه المراسيم، بل إنهم يعتنون بشدة بتنظيف بيوتهم وتهيتها في أحسن صورة مع إعداد الطعام الفاخر استعداداً لاحتمال زيارة الخضر لبيوتهم في تلك المناسبة.

والملفت في الأمر أن اليهود الأتراك يشاركون المسلمين ذات المراسيم في ذلك العيد ويطلقون على الشخصية اسم Hudr مما يثير احتمالاً قوياً أن يكون أصل هذا الموروث قومياً أصطبغ لاحقاً في الأديان السماوية التي تبناها الأتراك عبر الزمن بطابع خاص واستعار بعض الشخصيات والمسميات والتفاصيل منها وأضافها إلى أصل العيد القومي. ولربما امتزجت شخصية الرمز المحتفى به قبل الإسلام - وقد يكون إلهاً من آلهة الوثنيين أو شخصية بطولية - بشخصية الخضر لتوفر بعض عناصر التشابه أو الاشتراك في الخصائص من خلال ما عرضته روايات القصصين وأمثالهم مما عرضناه مسبقاً خلال الكتاب لنصل في نهاية المطاف إلى إقحام شخصية الخضر ضمن مراسيم هذا العيد وبهذه الصورة الأسطورية التي تدعي أنه يأتي إلى المحتفلين ليقضي حوائجهم في تلك المناسبة.

ويقوّي هذا الاحتمال بعض تفاصيل المراسيم المقامة في هذا العيد حيث يقفز المحتفلون فوق النار طوال اليوم السابق ليوم العيد، وهو ما لا نجد له جذوراً في الإسلام وتشريعاته، بل نجده في احتفالات النوروز عند الفرس والأكراد وغيرهم من الأمم التي تحتفل بهذا العيد السنوي المرتبط أيضاً بحلول فصل الربيع.

1. www.theguideistanbul.com/article/may5-what-is-hidirellez-where-to-celebrate-it

ومما يزيد الأمر تأكيداً أن اليونان ودول البلقان تحتفل في الثالث والعشرين من شهر إبريل - وهو ذات التاريخ الذي كان يحتفل فيه الأتراك بعيد الخضر قبل تحويله في التقويم إلى السادس من مايو بفعل تغيير التاريخ اليولياني^(١) - بيوم «القديس جورج الأخضر»^(٢)! وقد تحدثت في فصل سابق عن الارتباط والتمازج بين شخصيتي الخضر والقديس جورج في العالم الإسلامي. ولا نستطيع أن نستبعد دور المدرسة الصوفية في تحقيق هذا التمازج أو الخلط بين الشخصيات والقصص لاسيما بلحاظ ما للأتراك - في التاريخ الإسلامي - من تعلق خاص بالتصوف، ومن يطالع التاريخ العثماني في الأناضول على سبيل المثال يجد هذا الارتباط متجلياً بوضوح في المفاهيم والأشعار والكتابات والأسماء والمباني التي تعود إلى تلك الحقبة الزمنية. ويبدو أن هذا كان من العوامل المهمة لارتباطهم الشديد بشخصية الخضر.

ولا يختص الاحتفال بهذا العيد على الأتراك من ساكني تركيا، بل إن الأتراك في مدينة تلعفر العراقية يحتفلون بهذا العيد أيضاً ولمدة ثلاث أيام، ويطبقون المراسيم الخاصة به على تلة خضراء تسمى «تل خضر إلياس» ويعتبرونه عيداً للمحبة والتسامح.

❖ قراءة في الرؤية الصوفية:

ويبدو من خلال العرض السابق أن الصوفية قد وجدوا في القصة القرآنية

١. منذ القرن السادس عشر استعيض عن التقويم اليولياني - لعدم دقته - بالتقويم الغريغوري. الفرق بين التقويمين أن التقويم اليولياني يعتبر السنة ٣٦٥,٢٥ يوماً أما التقويم الغريغوري فهو أدق ويعتبر السنة ٣٦٥,٢٤٢٥ يوماً، وهذا الفرق يشكل مقدار ٠,٠٠٢٪. منذ عام ١٩٠٠ وحتى عام ٢٠٩٩ ينشأ بين التقويمين فارقاً قدره ١٣ يوماً، يتأخر بها التقويم اليولياني عن التقويم الغريغوري. أي عندما يكون ٧ يناير طبقاً للتقويم الغريغوري (التقويم الميلادي الساري حالياً)، يكون بالنسبة إلى التقويم اليولياني ٢٥ ديسمبر.

2. Sabine Baring-Gould, Curious Myths of the Middle Ages, New Hyde Park, New York, 196), 276-277; this work was first published, serially, 1866-1868. See also Frazer, 126-130; Hasluck, 321-322, 334-355.

الخاصة بموسى والعبد الصالح، وفي بعض الروايات الضعيفة الخاصة بالحديث عن الخضر، وفي مجموعة من الموروثات الدينية غير الإسلامية والشعبية والأساطير، منطلقاً مناسباً لتكوين كل هذا الكم والحجم من الأهمية والرمزية لهذه الشخصية، وأضفوا عليها ما شاءوا من تأويلات باطنية وتفسيرات فلسفية وقصص وهمية ولقاءات مزعومة ومراتب مدعاة ومقامات وأماكن منسوبة إليه تتوزع في أنحاء واسعة من المنطقة الإسلامية، وتستغل أحياناً مواقع ذات قدسية موروثية لدى الشعوب المحلية، أو ذات علاقة بشخصية حقيقية تشترك في بعض سيرتها أو خصوصياتها بما نسب إلى شخصية الخضر^(١)، وبصورة تتناسب مع طبيعة التصوف ومنحاه الفكري والمسلكي، لتتراكم كل هذه النقولات والتفاسير والموروثات الشعبية عبر مئات السنين وتشكل رصيذاً هائلاً من الأوهام التي يصعب الفكك عنها، وتتحول إلى حقيقة لازمة وأصيلة في ثقافات تلك الشعوب.

وقد كان للهالة القدسية التي تحيط بأولياء التصوف عموماً، لاسيما بلحاظ الطبيعة الزاهدة التي يحرصون عليها، واعتبارهم المعين الصافي الذي تُهَلّ منه تعاليم الدين الإسلامي، مقارنةً بوعاظ السلاطين وأمثالهم الذين انكبوا على الدنيا في الوقت الذين يتزعمون فيه الخطاب الإسلامي والوعظ والإرشاد، كان لكل هذا أن أصبحت الإلقاءات والرؤى الصوفية حقائق إسلامية أصيلة لها أبعادها الغيبية التي يصعب في أكثر الأحوال فهمها وتصديقها.. ومع هذا ينبغي الإيمان بها والتسليم لها دون أدنى تردد، بل استطاع بعضهم أن يقدم ديناً بصياغة جديدة للبشرية انطلاقاً من هالة القداسة التي أحيط بها من خلال التصوف، ففي القرن الخامس الهجري انتقل الصوفي «عدي بن مسافر» من بعلبك إلى شمال الموصل، وقد قال فيه عبد القادر الجيلاني أحد أئمة الصوفية: (لو كانت النبوة تُنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر).

وما أن استقر في تلك المنطقة حتى أنشأ مزيجاً من الإسلام والتصوف

١. من قبيل الرجل الأخضر عند المسيحيين (القدّيس مار جرجس).

ومعتقدهم القديم، فكان دين «اليزيدية»، ذلك المعتقد الذي يقدّس المؤمنون به إبليس المطرود من رحمة الله ويقدمون له القرابين!

❖ ماء الحياة والكأس المقدسة:

والمدّش أن بعض الباحثين الغربيين اعتبر أن تأثير هذه الرؤى الصوفية حول الخضر وعمره الطويل وما له علاقة بماء الحياة والخلود قد انتقلت إلى أوروبا عبر الصليبيين الذين غادروا منطقة الشرق ليعودوا إلى ديارهم محمّلين بالكثير من القصص والأساطير والأفكار الباطنية والفلسفات، ليعكسوها في تراثهم وبعض الطقوس والممارسات العامة والخاصة.

وممن كتب في هذا الإطار «مارك أمارو بنكهام» في كتابه (حماة الكأس المقدسة: فرسان الهيكل، يوحنا المعمدان، وماء الحياة)^(١) حيث ذكر أنه في عام ١١١٨ صدر الأمر بتشكيل فرسان الهيكل، لحماية الحجاج المسيحيين من وإلى الأراضي المقدسة، ووصلت الدفعة الأولى المكونة من تسعة فرسان فرنسيين إلى الأراضي الفلسطينية ضمن الحملة الصليبية الأولى، واتحد معهم لاحقاً فرسان القديس جون، تلك القوة العسكرية التي تم تشكيلها قبل الحملة الصليبية الأولى. وبحلول العام ١١٨٠ بلغ عدد الفرسان ومساعدتهم المنتشرين في آسيا الصغرى تركيا الحالية - وبلاد الشام ٢٦٠٠ فارس.

وبمزج خلفيتهم العقائدية مع ما أخذوه من الحكمة الصوفية وتوجيهات مشايخ التصوف في الشرق، ظهرت بدايات الأخوة الأوروبية للفرسان حماة الكأس المقدسة^(٢) التي تمنح الخلود لمن يشرب منها. لقد تم اكتساب الحكمة المتعلقة

1. Mark Amaru Pinkham: Guardians of the holy grail :The Knights Templar; John The Baptist; And The Water Of Life

٢. في التصور المسيحي فإن الكأس المقدسة هي الكأس التي شرب منها المسيح في العشاء الأخير، وتلك التي استخدمها يوسف الرامي ليجمع دمه أثناء دفنه ثم أخذها إلى بريطانيا حيث أوجد سلسلة من الحراس لحمايتها، وتعتبر للكأس قدرة إعجازيّة. البحث عن الكأس المقدسة كان أهم مغامرات فرسان الملك

بالكأس المقدسة من المتصوفة المسلمين الذين انتشروا في مناطق شاسعة من أراضي آسيا الوسطى، وملؤوا آفاقها بحكمتهم الإشرافية. وقد تحولت كل القلاع التي أسسها فرسان الهيكل في آسيا الصغرى والشام إلى معابد خاصة بأسرار الكأس المقدسة.

وبإتقانهم اللغة العربية قام هؤلاء الفرسان بترجمة النصوص العربية الخاصة بأسرار الكأس المقدسة والتي أخذوها عن المتصوفة.

وبحسب «بنكهام» فقد تمكن فرسان الهيكل من خلال ما تلقوه من مشايخ الصوفية أن يهضموا التراث الروحي لكل العقائد والأديان الرئيسة في العالم كالمسيحية والإسلام والتصوف القبطي والثوية الفارسية والخيما والغنوصية والفلسفة اليونانية، لاسيما بلحاظ أن المتصوفة قد ساعدوا في تكوين الدرزية واليزيدية والحشاشين والإسماعيلية.

وقد أخذ فرسان الهيكل عن كل هؤلاء الكثير من الحكم والتعاليم والرؤى الصوفية ونقلوها إلى أوروبا، واستفادت منها حتى الماسونية وغيرها من التشكيلات السرية.

ويمكن تقديم جماعة إخوان الصفا التي تم تأسيسها عام ٩٥٩م في سورية كنموذج لما قام به المتصوفة من دمج للتعاليم الصوفية العربية والإسلامية واليونانية والقبطية والفارسية واليهودية والصينية والهندية.

وقد كان للدروز من بين كل الكيانات المتفرعة عن الإسلام التأثير الأكبر في فرسان الهيكل، وقد تم تأسيس المذهب الدرزي في دار الحكمة في القاهرة خلال القرن الميلادي العاشر، وذلك بمساعدة من مشايخ الصوفية فيها^(١).

آرثر وكان هناك مقعد مخصص لمن يعثر على الكأس يدعى المقعد الأخير.

١. نتذكر هنا ما قلناه سابقاً في الفصل الثالث حول الرؤية الدرزية للخضر، وهي تقترب كثيراً من الرؤية الصوفية التي تضخم الشخصية.

ويضيف بنكهام أنه أثناء قيام الكولونيل الماسوني «تشرشل» مؤلف كتاب «عشر سنوات في جبل لبنان»^(١) بدراسة الدروز في القرن التاسع عشر، لاحظ أن طقوسهم تماثل الطقوس الخاصة بالماسونيين الأوربيين، وهي المنظمة التي تم تأسيسها من قبل فرسان الهيكل، والمعتمدة أساساً على طقوس فرسان الهيكل وأسرار الكأس المقدسة.

وهذا يعني أن الماسونية صاغت طقوسها أو بعضاً منها وفق ما تم نقله من طقوس كانت عند الدروز الذين بدورهم كانوا متأثرين بما لدى الصوفية من طقوس ومفاهيم، وتم هذا كله من خلال ما نقله فرسان الهيكل من الشرق بعد عودتهم إلى أوروبا.

ولليزيدية أيضاً - بحسب بنكهام - تأثير كبير على فرسان الهيكل، واليزيدية فرقة دينية كردية تم تأسيسها على يد الشيخ عدي الصوفي في القرن الميلادي الحادي عشر، وعلى الرغم من محدودية تواجد اليزيدية حالياً في شمال العراق، إلا أنهم في ما مضى انتشروا في مناطق شاسعة من آسيا الصغرى، سورية، ولبنان، وهي ذات المناطق المسكونة من قبل فرسان الهيكل.

أصول هذا الدين يجمع مفردات من اليهودية والزرادشية والإسلام، ومعبوده الرئيسي «ملك طاووس»^(٢). وبحسب كهنة اليزيدية فإن ملك طاووس كان أهم الملائكة في جنة عدن، إلا أنه لما رفض السجود لآدم، سقط من عليائه، وتحول إلى شيطان. وتعد هذه القصة أساس أسطورة الملك الصياد الموجودة في أسرار الكأس المقدسة، حيث يسقط الملك من عليائه ليقبع في قصره الزجاجي مرتدياً قبة مصنوعة من ريش الطاووس.

1. Churchill: Ten Years Resedence on Mt Lebanon

2. Mark Amaru Pinkham: Guardians of the holy grail :The Knights Templar; John The Baptist; And The Water Of Life; p10

ويحتمل بنكهام أن يكون لليزيديّة تأثير آخر على فرسان الهيكل، يتمثل في قصة السيف المثبت في الصخر، والذي تحول لاحقاً إلى أسطورة الملك آرثر والسيف المسحور المثبت في الصخر «سيف إكسكاليبر»^(١). بل ولربما كان احتفال اليزيدية بالعيد السنوي للكأس «جام» تأثير في تبني فرسان الهيكل لعقيدة أسرار الكأس المقدسة ذات التأثير الخارق. هذا اليوم الفارسي المقدس الذي يُحتفل به لتخليد ذكرى العصر الذهبي للخالدين الذين حكمهم الملك الأسطوري جمشيد، لربما ألهم فرسان الهيكل حول الطبيعة الخارقة للكأس المقدسة والتي ينال من شرب منها الخلود.

وفي تصويره لاستمرار تأثير الشرق - والتصوف الشرقي على وجه الخصوص - يستمر بنكهام في تقديم الشواهد على ذلك، حيث اعتبر أن للصابئة المندائيين تأثيراً أيضاً على فرسان الهيكل وتبنيهم لأسرار الكأس المقدسة. وهي فرقة تتواجد حالياً في جنوب العراق، ولكنها كانت فيما مضى تتوزع في أراض شاسعة في الشرق الأوسط بما في ذلك فلسطين. وقد وقع الصابئة المندائيين تحت تأثير التعاليم الصوفية، وهم يعتقدون بوجود ما ذكرته كتاباتهم المقدسة باسم «ملكا طاووسا»^(٢) وأنه كان يسكن جزيرة سيريلانكا التي هي جنة عدن بالنسبة إلى العرب^(٣)، حيث تكون دينهم فيها، ويعرفون ملك طاووس باسم «موروغان» و«سانات كومارا». ويعتقدون أنه بعصيانه تحول إلى شيطان، وأن ملك طاووس هذا هو آدم في نفس الوقت، والذي يعدونه أول أنبيائهم وصاحب الحكمة الغنوصية^(٤).

1. The Sword in the Stone

٢. الملفت للنظر فعلاً أن مقام الإله كاديرا في سريلانكا والذي يعتقد المسلمون أيضاً قدسيته ونسبته إلى الخضر، مع ملاحظة تقارب الكلمتين، يُنسب إلى إله يحمل صورة طاووس!

3. Mark Amaru Pinkham: Guardians of the holy grail :The Knights Templar; John The Baptist; And The Water Of Life; 7

٤. أي الباطنية .

ومن التراث المندائي ظهر يوحنا المعمدان^(١) أبو الغنوصية في الغرب، والذي يُعد مؤسس الكنيسة الغنوصية المعروفة باسم كنيسة جون «يوحنا / يحيى»، هي ذات دور كبير في تأسيس أسرار الكأس المقدسة.

ومن بين كل الفرق الصوفية الشرق الأوسطية الأكثر تأثيراً في فرسان الهيكل - بحسب بنكهام - الحشاشون، وهم الفرقة المنبثقة من الإسماعيلية النزارية، التي تم تأسيسها من قبل متصوفة دار الحكمة في القاهرة. والحشاشون أقدم عهداً من فرسان الهيكل بكثير، وقد قَدِمُوا من بلاد فارس حيث أسَّس جماعتهم حسن الصَّبَّاح، المتأثر بالتراث الفارسي القديم والذي يحتوي على قصة كسرى «كيخسرو» وفرسانه فيما قد يكون الملهم لأسطورة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة. وتقول الأسطورة أنه كانت لهذا الملك كأس ذات قدرات خارقة وتُعرف باسم «جام جم» شبيهة بالكأس المقدسة.

ويؤكد بنكهام فكرته من خلال ما كان للحشاشين وفرسان الهيكل من أعداء مشتركين كصلاح الدين و«أتابك» حاكم الموصل، وهذا ما جعلهما يتعاونان في تبادل المعلومات الاستخباراتية التي كانت تجمعها عيونهم المبنوثة في الشرق الأوسط. ويمكن اعتبار الطرفين صورة عاكسة لبعضهما البعض، فقد تماثل الطرفان في ارتداء اللباس الأبيض والرباط الأحمر لدرجة يصعب معها تمييزهما من بعيد. كما أن للحشاشين ثلاث رتب: فادي، رفيق، داعي^(٢).. كذلك فإن لفرسان الهيكل ثلاث رتب: Knight - Professed - Nvoice.

وقد وجد المؤرخ جودفري هيجينز Godfrey Higgins تشابهات كثيرة بين الطرفين مما دفعه إلى القول باتحادهما دون تردد، وذلك لوحدة معتقدهما وفلسفتهم. ويصنفهما تحت عنوان «الصوفية» Sophees والذي يشير إلى مزيج

١. أي النبي يحيى بن زكريا . ر

2. Mark Amaru Pinkham: Guardians of the holy grail :The Knights Templar; John The Baptist; And The Water Of Life; p9

من التصوف والباطنية والخيماء^(١) التي كانت تُعرف بالفن الصوفي. وقد كان حسن الصبّاح زعيم الحشاشين يُعرّف في بلاد فارس في وقته بالخيمائي العظيم. وبمساعدة الخيمااء بحث الحشاشون عن الخلود الذي ناله الخضر بحسب زعمهم. وذلك من خلال معاملهم الكيميائية وتناول الأعشاب الخاصة وممارسة اليوغا والتأمل.

وقد كانت الحشيشة هي النبتة الأبرز بين ذلك كله، وقد عرفت هذه النبتة بين فرق وطوائف صوفية عديدة باسم «لحم/جسد الخضر»!

وقد قام فرسان الهيكل باحتضان وتبجيل الخضر من خلال تبجيلهم واحتضانهم لمعبودهم ومحبوبهم القديس جورج - الرجل الأخضر - الذي نال الخلود. كما ويعتبر الحشاشون أن تناول عشبة «لحم الخضر» ينقلهم إلى جنة عدن التي عاش فيها الرجل الأخضر، بعد أن أقتنهم حسن الصبّاح بأن دخولهم تلك الجنة مرهون بطاعته وأتباعه. وقد كان لقائد الحشاشين «رشيد الدين سنان» السوري الأصل النصيب الأوفر في عقد اللقاءات مع فرسان الهيكل.

ويحتمل بنكهام أنه بعودة فرسان الهيكل إلى أوروبا جلبوا معهم نبتة الحشيش، وانتشرت زراعتها في أسكتلندا بالقرب من خليج سينكلير وفي مناطق أخرى، وقاموا بتعريف طقوس التحشيش هناك. وحتى لو لم يقوموا بذلك في أسكتلندا فإنهم شاركوا الوثنيين الإنجليز في طقوس احتفالاتهم بالرجل الأخضر معتبرين أنه جورج الأخضر الخاص بهم.

هنا يعود بنا بنكهام إلى معتقد وثني عند البريطانيين يرتبط بشخصية الرجل الأخضر الذي يهب الحياة ليربطه بشخصية الرجل الأخضر وفق التصور الشرقي الذي جاء به الصليبيون وفرسان الهيكل، ففي الأساطير البريطانية يعتبر الفلاح

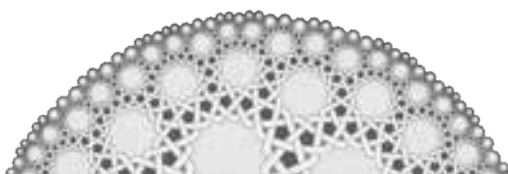
١. ممارسة قديمة ترتبط بعلوم الكيمياء والفيزياء والفن وعلم الرموز وعلم المعادن والطب والتحليل الفلسفي. من أشهر الأهداف التي عرفت عن عمل الخيميائيين: تحويل مختلف المعادن إلى ذهب أو فضة، تخليق الباناكيا أو إكسير الحياة، الذي يمنح الحياة الأبدية الخالية من الأمراض.

الوثني أن فلاحته في الأرض هي فلاحه في لحم جورج الأخضر. أما الطبقات العليا في بريطانيا فكانت تحتفل بالقدّيس جورج حامي حمى مملكة بريطانيا العظمى. وقد تحول الصليب الأحمر الخاص بالقدّيس جورج إلى أساس تشكيل العلم البريطاني.

ويعتقد الصوفي «إدريس شاو» أن طريقة عمل الوسام البريطاني كان أساسها طريقة «حضرة الخضر» والتي تُرجمت إلى الإنجليزية بعنوان طريقة القدّيس جورج Order of St. George. وأن طريقة حضرة الخضر كانت طريقة الكأس المقدسة لحاملي الكؤوس من الصوفية حيث يتم فيها تقسيم الأتباع إلى حلقات من ١٢ شخص.

وقد استلهمت الطريقة البريطانية ذلك بتقسيمها إلى مجموعتين مكونة من ١٢، كما ارتدت ذات الثياب التي يرتديها أتباع طريقة حضرة الخضر.

إن الشواهد التي قدّمها بنكهام وباحثون آخرون عن العلاقة الوطيدة بين التصوف الشرقي. وفي العالم الإسلامي على وجه الخصوص. وبين فرسان الهيكل تعد كثيرة، وهي تستتبع. كما اتضح لنا. الحديث عن العلاقة بين الخضر والقدّيس جورج والرجل الأخضر وفق التصور الوثني القديم، مما يعكس تمازجاً - وخطأً - في التصورات والمعتقدات والحكايا والأساطير، تماماً كما حصل في تراثنا الإسلامي.



الفصل السادس



نتائج مستخلصة

بعد هذا العرض التفصيلي الذي تناولناه في فصول الكتاب، يمكن تلخيص نتيجة هذه الدراسة المستفيضة من خلال النقاط التالية:

١. العبد الصالح الذي تحدث عنه الآيات «٦٠ - ٨٢» من سورة الكهف هي شخصية حقيقية عاشت في زمن النبي موسى «عليه السلام» ولم تتجاوز - بحسب العادة - في امتدادها الزمني العمر الطبيعي للإنسان.

٢. الخضر شخصية حقيقية عاشت في زمن الفترة بين عهدي النبي عيسى ابن مريم «عليهما السلام» والنبي محمد بن عبد الله «صلى الله عليه وآله»، ومات مقتولاً وهو المعروف لدى المسيحيين باسم القديس مار جرجس «سانت جورج».

٣. في العهد الإسلامي تم دمج الشخصيتين السابقتين في شخصية واحدة وقُدِّمت باسم الخضر، ونُسب إليه طول العمر ولقاءات مدعاة بالنبي وآله وأقطاب التصوف وشخصيات أخرى، علاوة على دور مساند - في آخر الزمان - يقوم من خلاله بإعانة الإمام المهدي المنتظر «عليه السلام» لإقامة دولته. بالإضافة إلى الكثير من الأساطير الموروثة في الثقافات والديانات الهندية والعربية واليونانية والفارسية، فتضخمت صورته وأحاطت به هالة من القدسية الفريدة.

❖ المسار التاريخي:

ومن الصعب تقديم صورة دقيقة وأكيدة عن المسار التاريخي لبدء وكيفية طرء هذه المتغيرات ضمن التراث الإسلامي، ولكن لربما يكون السيناريو التالي متناغماً مع مجموعة من الشواهد التي عرضناها خلال الفصول السابقة من الكتاب:

عرف العرب - في العهد القريب من عصر البعثة - أساطير العديد من الشعوب والثقافات والديانات الشرقية والغربية، وكانوا يتشوّقون - بل ويدفعون من أموالهم - لسماع حكايا القصّاصين الذين كانوا يمتنون ذلك كسباً للرزق، ويدورون بين المدن والقرى العربية لهذا الغرض. كما مثّل بعض أهل الكتاب - ولاسيما الأقباط والرهبان - الرافد الثاني للقصص الممتزجة بالعديد من الأساطير والخرافات نتيجة التحريف الذي أصاب كتبهم المقدّسة، سواء على مستوى النص أو التفسير أو الكتب الأخرى التي دوّنها كبار أقباطهم ورهبانهم كنصوص مساندة للكتب المقدسة.

ومع بعثة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) قدّم القرآن الكريم قصصاً واقعية لأنبياء وأمم وشخصيات اشتركت بعضها مع ما كان يسمعه العرب الجاهليون من قبل، واختلفت في موارد أخرى، وصحّحت الأخطاء ورفعت الأوهام، وأكّدت على أنها تمثّل الحقيقة القادمة من عند الله «تعالى» فهو علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية.

وبذا هجر العربي المسلم القصّاصين، ووجد مصدراً موثقاً به بديلاً عن مصادر أهل الكتاب، لفترة وجيزة، حيث سرعان ما تبدّل الأمر بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعاد القصّاصون ومَن أسلم من أقباط ورهبان أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليمارسوا دورهم السابق، وبغطاء رسمي في بعض الأحيان، الأمر الذي فتح المجال لهؤلاء للاستفادة من القصص القرآنية كمنطلق لتقديم مادتهم الحكواتية المستغرقة في الخيال، والمتلعبة في تقديم التفاصيل، من حيث التحديد

الزمني والمكاني وتسمية الشخصيات ورسم معالمها وغير ذلك من أمور تشويقية ومُعنونة باسم «القصة القرآنية» ومدعومة ببعض الآيات، بل وبإدعاء صدور هذا النص التفصيلي عن النبي أو الصحابي أو الإمام، لإيهام الناس بصحة محتواها وكسب ثقتهم.

وكان من بين تلك القصص المثيرة وذات الأبعاد الغيبية والخارقة: قصة النبي موسى (عليه السلام)، والعبد الصالح الذي لم يُسمَّه القرآن الكريم ولا تحدَّث عن التحديد الزمني - بالنسبة إلى المراحل التي مرَّ بها النبي موسى في حياته - ولا التحديد المكاني الخاص بأحداثها. وأمامنا عند هذه النقطة احتمالان:

الأول: أن تكون مخيَّلة مَسْلُمة أهل الكتاب قد انطلقت باستغلال اسم «الخضر» الذي مثَّل صياغةً معرَّبة لاسم «جرجس» الذي عرفه المسيحيون من قبل كشخصية مقدسة، لتقديمه اسماً لشخصية العبد الصالح في القصة القرآنية.

الثاني: قيام القصاصين باستغلال شخصية «الرجل الأخضر» الباحث عن الخلود وصاحب العمر الطويل ضمن الأساطير الشرقية القديمة، والذي امتلك قدرات خارقة بل وتحوَّل إلى إله - بحسب بعض التصورات - ليكون عنواناً واسماً لصاحب النبي موسى، ذلك الرجل الغريب صاحب العلم الغيبي والعلاقة الخاصة برب العالمين.

وعلى كل حال، سواء استقربنا الاحتمال الأول أو الثاني، فقد أفتح هذا الاسم ضمن التراث الإسلامي، وأحيطت الشخصية بالعديد من الأساطير، ثم استساغ القصاصون والوضَّاعون الكيفية التي قدِّمت بها هذه الشخصية للناس وتفاعلم معها، فراكموا عليها الكثير من الأساطير والحكايات التي نسجوها من وحي خيالاتهم حول الخضر وتاريخه في الأمم السالفة وفي عهد النبي وما بعده من العهد القريب، بل وفي المستقبل البعيد المرتبط بنهاية العالم وآخر الزمان.

وبدأت تلك القصص - التي أخذت مسمًى أحاديث - تغزو المصنفات عبر

القرون من خلال بعض النفعيين والغلاة والضعفاء، وعن طريق الكتب والمصنّفات المجهولة المصدر أو المؤلّف، أو تلك التي نسبت إلى مصنّفين معروفين إلا أن نسبة تلك النسخ إليهم لم تثبت، لاسيما بلحاظ التسامح بشأن النصوص ذات الطابع التاريخي والتي لا علاقة لها بالتشريع أو الجانب العقدي.

وبدخول التصوّف على الخط، دخلت موروّثاتهم القصصية التي جاءوا بها من الهند وبلاد فارس واليونان وغيرها، لتتشكّل رافداً آخر لتضخيم صورة هذه الشخصية وإضفاء الكثير من الطابع الإسطوري عليها من خلال التفاصيل تارة، ومن خلال القصص الخيالية تارة ثانية، ومن خلال ادعاء الرؤى والمنامات واللقاءات الخاصة المنعقدة مع هذه الشخصية التي تُعتبر عندهم من أهم أولياء التصوف، لاسيما بلحاظ طول عمره المدّعى، وعلمه الخاص الذي يفرض به على من يشاء.

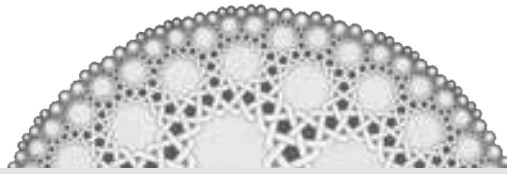
كما عمل المتصوفة على تأكيد وزيادة حالة التداخل في الشخصية الأسطورية للرجل الأخضر، مع شخصية النبي إيليا وقصته الغريبة في سفره مع يوشع النبي كما هي مروية عند اليهود، ثم النهاية الغريبة للقصة والتي أخذت عنوان البقاء على قيد الحياة إلى آخر الزمان ثم العودة المرتقبة مع المسيح المخلص، ثم مع شخصية القديس مار جرجس الذي يشترك مع الرجل الأخضر - الخضر - في العنوان والاسم فقط دون سائر الخصوصيات، لاسيما بلحاظ سعي التصوف إلى المزج بين الديانات وأتباعها من خلال ادعاء أن الاعتقاد بالإله عند كل الديانات، السماوية منها والأرضية، هو اعتقاد واحد، سواء أكان بصورة صنم أم كائن حي أم موجود غيبي أم غير ذلك، ومحاولة تقديم رؤى تصالحية - إن صح التعبير - وإن على حساب بعض المبادئ والأسس الإيمانية، بل وإن أدّى ذلك إلى تقديم دين جديد كما هو الأمر بالنسبة إلى دين اليزيدية.

وهكذا أضحت الصورة النهائية لكل هذا التداخل هي وحدة شخص الرجل

الأخضر «الخضر» وعنوانه، وكذلك تداخل القصص والمزارات والمقامات والتصور العام في ذهنية المسلمين والمسيحيين وحتى اليهود الذين تمازجوا في بيئة واحدة في المنطقة، كما امتدت في بعض مناطق الشرق - مثل سيريلانكا - لتتشرك شخصيته مع شخصية أسطورية أو إله مزعوم عرفه السكان المحليون وارتبطوا به ارتباطاً مقدساً.

وبذا تنتهي رحلتنا مع شخصية الخضر عبر الثقافات والأديان والرسالات لتكشف لنا حقيقة مهمة تتمثل في حجم التلاعب الموجود في التراث الإسلامي على مستوى الوضع والتحريف والإضافة والادعاء على الرواة والمؤلفين والعلماء، واختلاط الحقيقة بالأسطورة بشكل يصعب معه التمييز بينهما.. وتغدو الخرافة من المقدسات، وعقائد الهندوس ومبادئ البوذية من أصول الإسلام العميقة التي لا يفهمها إلا المقربون!

إن هذه الحقيقة المرة التي نبه إلى خطورتها جملة من العلماء والمحققين والمفكرين، السابقين والمعاصرين، تستدعي الإصرار على بذل الجهود التحقيقية الدقيقة للتراث الإسلامي الذي نعتز به ونريد أن نخلصه مما علق به من شوائب. وللأسف فإن أكثر المؤسسات التحقيقية المعاصرة تُعنى بتحقيق مصادر الكتاب ومضمونه والمقارنة بين النسخ والخطوط، ونادراً ما تخطو خطوة أخرى تعتمد فيها على الأسلوب التحليلي العلمي لدراسة الموضوعات المختلفة التي قد تكشف عن شخصيات أسطورية طالما اعتبرناها ولدت وعاشت وتركت أثراً، وليس ذاك إلا في مخيلةٍ مختلفيها، أو أحداثٍ وهميةٍ اعتبرناها من صور البطولة أو الخيانة، وهي ليست سوى حكاية من حكايات القصاصين، أو منام من منامات الحالمين.



ملحق الصور

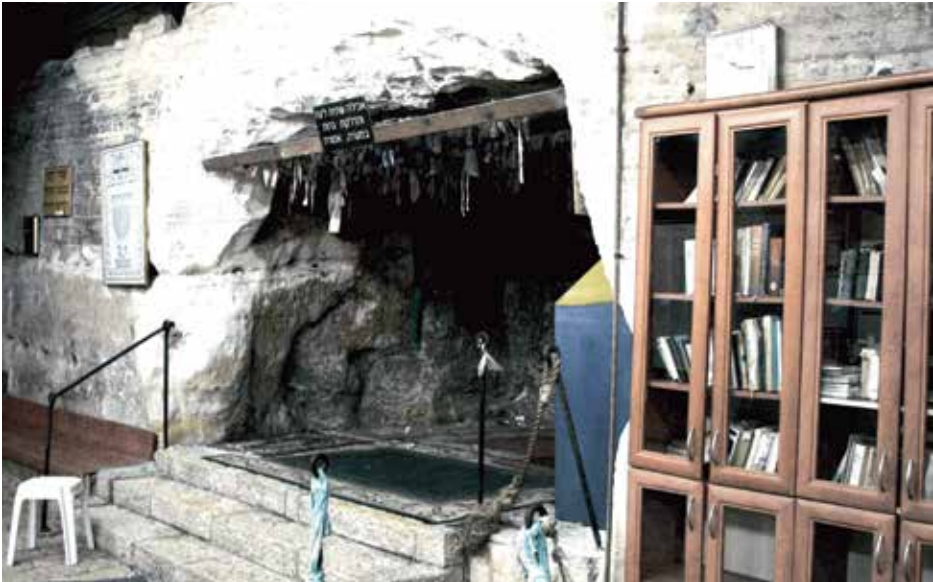




رسم يعود إلى القرن الثالث عشر - في روسيا - يصوّر صعود النبي إيليا إلى السماء في عربة، والنبي إيلشع في الأسفل



صعود النبي إيليا في عربة نارية، والنبي إيليا يناديه متوسلاً



كهف النبي إيليا من الأماكن المقدسة لدى اليهود - فلسطين



لوحة فنية تمثل ظهور النبي إيليا بحسب نص العهد الجديد
عند رفع السيد المسيح إلى السماء



كنيسة ومنام مار جرجس في اللد - فلسطين



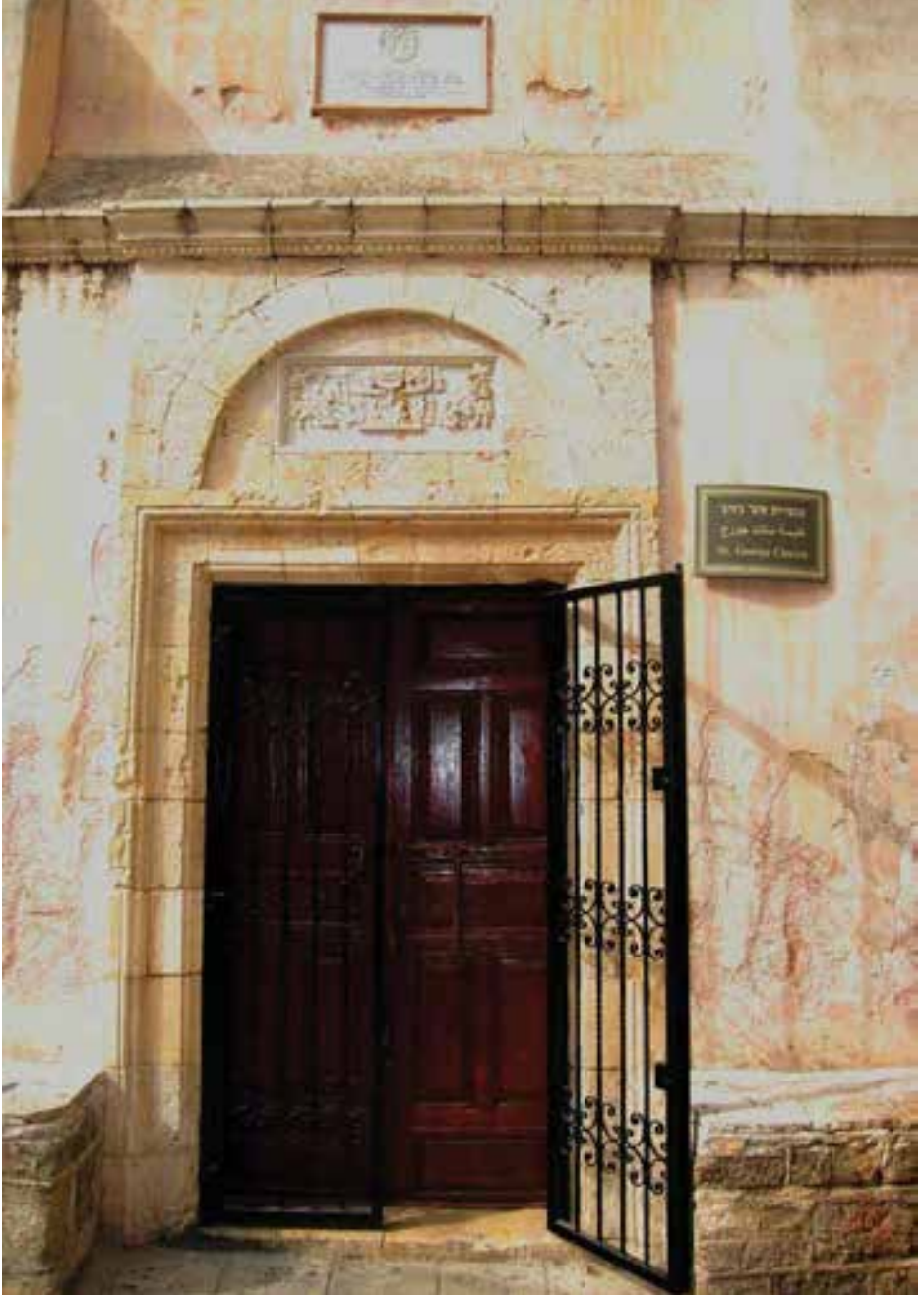
الاحتفال بعيد مار جرجس داخل الكنيسة - اللد - فلسطين



قبر الشهيد مار جرجس - اللد - فلسطين



قبر الشهيد مار جرجس - اللد - فلسطين



كنيسة مار جرجس في عكا - فلسطين



دير مار جرجس في وادي القلط - بين القدس وأريحا - فلسطين



دير مار جرجس في وادي القلط - بين القدس وأريحا - فلسطين



مقام مار جرجس في صافيتا - سورية



دير مار جرجس في محافظة حمص - سورية



كنيسة مار جرجس في قسرين - سورية



كنيسة مار جرجس في البترون - لبنان



كنيسة القديس الشهيد مار جرجس - مصر القديمة



كنيسة القديس جرجس - أثيوبيا



منظر علوي لكنيسة القديس جرجس - أثيوبيا
ويظهر التصميم الغريب لهذا البناء التاريخي



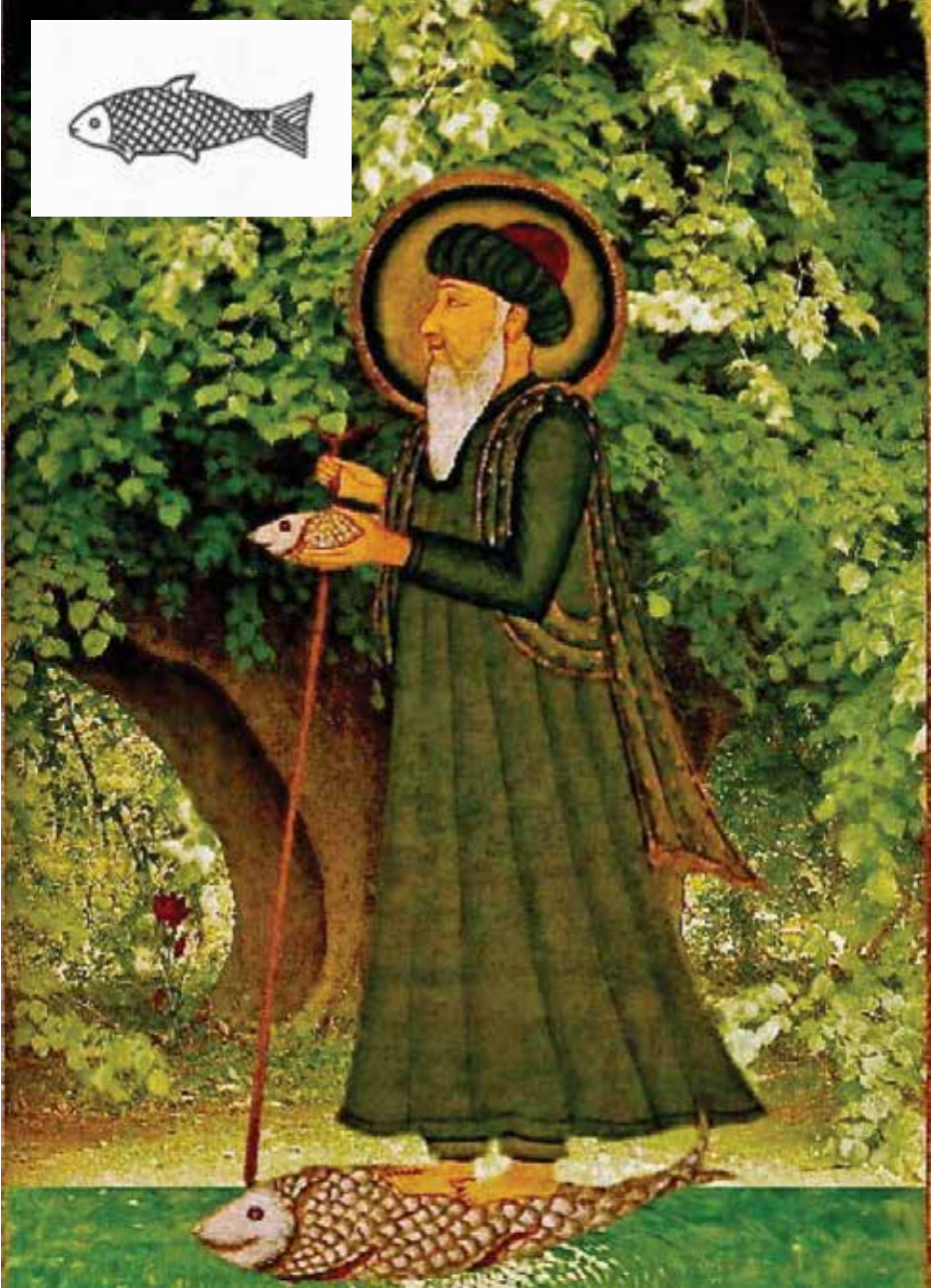
لوحة فنية تمثل القديس جورج وهو يقتل التنين لإنقاذ الأميرة



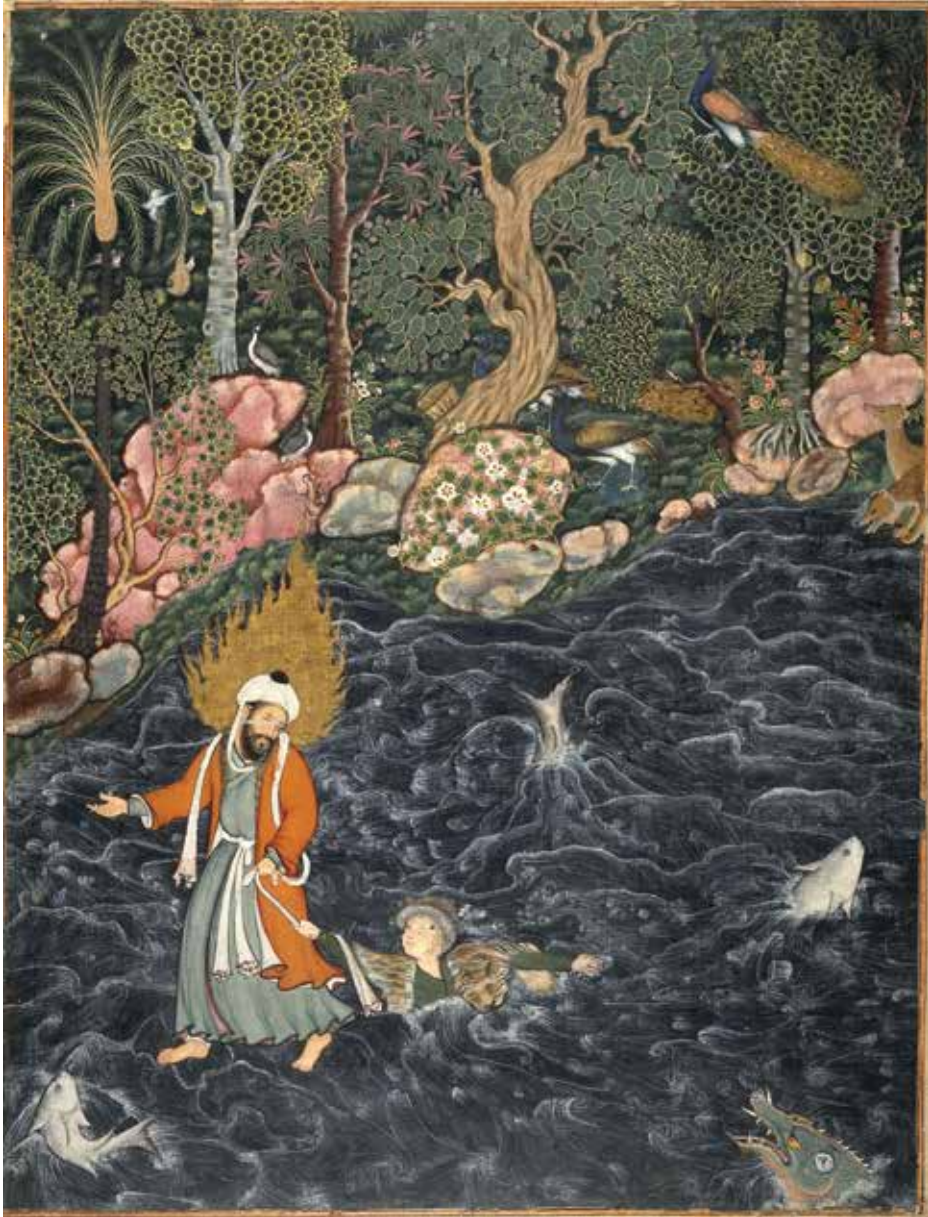
احتفال سنوي یقام فی بریطانیا إحياء
لذكری وبطولات سانت جورج



تمثال القدیس جورج وهو یقتل التین فوق مبنی - بریطانیا



الخضر ونبيع الخلود وفق التصور الفني في العهد الإسلامي
وفي الإطار رمز الإلهة (نانشه/نانسي) كما صوّرها السومريون



النبي إيليا ينقذ نور الدهر كما جاء في «حمزة نامه». - من الأدب
الفارسي. - يعود إلى العهد المغولي في الهند



الخضر والنبي إلياس عند نبع الحياة حيث يجدهما الإسكندر
«الإسكندر نامه» من الفن الفارسي
القرن الخامس عشر - شیراز



لوحة فنية فارسية تصوّر الخضر والنبي إلياس يؤديان الصلاة



صورة قديمة لمقام الخضر في فيلكا قبل هدمه . الكويت



صورة أحدث لمقام الخضر في فيلكا قبل هدمه . الكويت



ختم عُثْر عليه في موقع مقام الخضر بفيلكا



ختم آخر عُثْر عليه في موقع مقام الخضر بفيلكا



مقام خضر إلياس في بغداد حيث تُقدِّم النساء النذور



مقام الخضر في لواء الإسكندرون



مقام الخضر فی بھر - الباكستان



مقام الخضر فی سمرقند - أوزباكستان



رسم للرجل الأخضر وفق التصور الوثني في إنجلترا قديماً



منحوت خشبي قديم للرجل الأخضر
وفق التصور الوثني في إنجلترا



ملك طاووس كما يظهر في التصوير الميزيدي - العراق



الطاووس المقدس كما يظهر في اللوحة الفنية الهندية مع
مجموعة من الآلهة وفق الأساطير الهندوسية



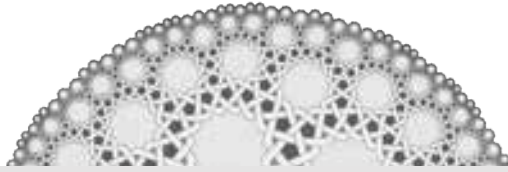
تصوير للإله «كاديرا» ويلاحظ رسم الطاووس
وفي الأسفل رسم لمعبد كاتراجاما Kataragama
في سيريلانكا



معبد قرية كاتراجاما - سري لانكا
ونلاحظ عدداً من الطواويس فوق وحول البوابة



مسجد الخضر في قرية كاتراجاما - سري لانكا



مصادر الكتاب



المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مفلح الراميني المقدسي
٤. الإصابة في معرفة الصحابة: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
٥. أصول الفقه: محمد رضا المظفر
٦. أضواء على السنة المحمدية: محمود أبورية
٧. الأعلام: خير الدين الزركلي
٨. أعيان الشيعة: محسن الأمين
٩. أقانيم اللامعقول: أحمد بن مبارك النوفلي
١٠. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: أحمد بن تيمية
١١. إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب: علي اليزدي الحائري
١٢. ألف ليلة وليلة
١٣. الإمام بالأعلام: محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندراني
١٤. الأمالي: محمد بن الحسن الطوسي
١٥. الأمالي: محمد بن علي الصدوق
١٦. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ناصر مكارم الشيرازي
١٧. باب الرياحين: عبدالله بن أسعد اليافعي
١٨. بحار الأنوار لدرر أخبار العترة الأطهار: محمد باقر المجلسي
١٩. البحث عن دلمون: جيفري بيبلي
٢٠. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير
٢١. بصائر الدرجات: محمد بن الحسن الصفار
٢٢. بغية الطلب في تاريخ حلب: عمر بن أحمد المعروف بابن العديم.
٢٣. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
٢٤. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري
٢٥. تاريخ حضارة وادي الرافدين: أحمد سوسة
٢٦. تاريخ دمشق: علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي
٢٧. تاريخ نصارى العراق: سهيل قاشا
٢٨. تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: محمد بن بطوطة
٢٩. تحقيق ما للهند من مقولة: محمد بن أحمد البيروني
٣٠. تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي

٣١. تفسير العسكري: الإمام الحسن بن علي العسكري
٣٢. تفسير العياشي: محمد بن مسعود العياشي
٣٣. تفسير القرآن: مقاتل بن سليمان
٣٤. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير
٣٥. تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي
٣٦. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): محمد بن عمر بن الحسن الرازي
٣٧. التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي
٣٨. تنزيه الأنبياء: علي بن الحسين الموسوي الشريف المرتضى
٣٩. تنزيه الشريعة المرفوعة: علي بن محمد الشافعي
٤٠. تهذيب الكمال في أسماء الرجال: جمال الدين يوسف المزي
٤١. التوحيد: محمد بن علي الصدوق
٤٢. الجامع المسند الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل البخاري
٤٣. الحسن البصري: إحسان عباس.
٤٤. حلية الأولياء: أبونعيم الأصفهاني
٤٥. الحيوان: الجاحظ
٤٦. الخصال: محمد بن علي الصدوق
٤٧. الخصائص الكبرى: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
٤٨. دائرة المعارف الإسلامية: مجموعة من الباحثين
٤٩. الدر المنثور في التفسير بالماثور: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
٥٠. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني
٥١. دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي
٥٢. دليل أختام فيلكا- موقع الخضر: هيلين ديفيد وكوني جوهان أزييتيا
٥٣. ديارات العراق، الأب ألبير أبونا
٥٤. رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي: عبد الرحمن بدوي
٥٥. الروح المجرد: هاشم الموسوي الحداد
٥٦. روض الرياحين في حكايات الصالحين: عبد الله بن أسعد اليافعي
٥٧. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي
٥٨. السنن: سليمان بن الأشعث السجستاني
٥٩. سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
٦٠. السير إلى الله: حسن زاده آملی
٦١. شذرات الذهب: عبد الحي بن أحمد بن محمد عماد الحنبلي
٦٢. شرح صحيح مسلم: حسن أبو الأشبال الزهيري
٦٣. شرح فصوص الحكم: داود بن محمود القيصري

٦٤. صورة المسيح في التراث الصوفي الإسلامي: سارة الجويني حفيز
٦٥. الصوفية في نظر الإسلام: الشيخ عاطف الزين
٦٦. ضحى الإسلام: أحمد أمين
٦٧. طبقات الحنابلة: محمد بن محمد بن أبي يعلى
٦٨. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع البصري
٦٩. علل الشرائع: محمد بن علي الصدوق
٧٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
٧١. الفتن: حنبل بن إسحاق الشيباني
٧٢. الفتن: نعيم بن حماد المروزي
٧٣. فصوص الحكم: محمد بن علي بن محمد بن العربي
٧٤. قرب الإسناد: محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري
٧٥. القصص والمذكرين: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
٧٦. قصص الأنبياء: سعيد بن هبة الله الراوندي
٧٧. الكافي: محمد بن يعقوب الكليني
٧٨. الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي
٧٩. كمال الدين وتمام النعمة: محمد بن علي الصدوق
٨٠. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي المتقي بن حسام الدين الهندي
٨١. لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن: ابن عطاء الله السكندري
٨٢. المثلوجيا السومرية: خزل الماجدي
٨٣. المجالسة وجواهر العلم: أحمد بن مروان بن محمد الدينوري
٨٤. مجلة المنار
٨٥. مجلة نصوص معاصرة
٨٦. مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسين الطبرسي
٨٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي
٨٨. مجموعة رسائل فلسفية: صدر الدين الشيرازي (الملا صدرا)
٨٩. محاضرات في الإلهيات: جعفر السبحاني
٩٠. المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم: بولس الفغالي
٩١. مدرسة ابن عربي الصوفية: محمد العدلوني الإدريسي
٩٢. مرتفعات الجزيرة العربية: جون فيلبي
٩٣. المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري
٩٤. المسند: أحمد بن حنبل
٩٥. المسند الصحيح المختصر من السنن: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري
٩٦. مشارق أنوار اليقين: رجب البرسي

٩٧. معالم الفتن: سعيد أيوب
٩٨. المعمرون والوصايا: سهل بن عثمان السجستاني
٩٩. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي
١٠٠. المقدمة: عبدالرحمن بن محمد بن خلدون
١٠١. مكارم الأخلاق: الحسن بن الفضل الطبرسي
١٠٢. ملحمة كلكاش: طه باقر
١٠٣. من ألواح سومر: صمويل كريم
١٠٤. من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله
١٠٥. مناقب آل أبي طالب: محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني
١٠٦. المنهاج، شرح صحيح بن مسلم بن الحجاج: يحيى بن شرف النووي
١٠٧. موسوعة الكسنزان في ما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان: محمد الكسنزان
١٠٨. الموضوعات الكبرى: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
١٠٩. الموضوعات في الآثار والأخبار: هاشم معروف الحسني
١١٠. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي
١١١. نجران: محمد أبو ساق
١١٢. نشأة الفلسفة الإسلامية: علي سامي النشار
١١٣. النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية: رزق الله شيخو
١١٤. نهج البلاغة: محمد بن الحسين بن موسى الشريف الرضي
- هواتف الجنان: ابن أبي الدنيا عبد الله محمد عبيد البغدادي
- اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: عبدالوهاب الشعراني

المصادر الأجنبية

- 1- Curious Myths of the Middle Ages: Sabine Baring-Gould
- 2- Evergreen Elijah, Ritual Scenes from Jewish Life in the Middle East: E. S. Drower
- 3- Guardians of the holy grail; The Knights Templar: Mark Amaru Pinkham
- 4- Journal of American Folklore
- 5- Re-Appropriating Sacred Space: Medieval Jews and Muslims Seeking Elijah and Al-Khadir: Josef W. Meri
- 6- St George: Hero; Martyr; and Myth: Riches; Samantha
- 7- The Book of Legends; Sefer Ha-Aggadah: Bialik, H. N. and Y. H Ravnitzky
- 8- The Plain of Saints and Prophets, The Nusayri-Alawi Community of Cilicia (Southern Turkey) and its Sacred Places: Gisela Prochazka-Eisel and Stephan Prochazka
- 9- The Religions of Modern Syria and Palestine: Frederick Jones Bliss

مواقع الإنترنت

- 1- georgesaghbini.blogspot.com
- 2- greekorthodox-beitsahour.blogspot.com
- 3- khidr.org
- 4- st-takla.org
- 5- www.ahl-alquran.com
- 6- www.alhaydari.com
- 7- www.al-khechin.com
- 8- www.almaany.com
- 9- www.almustashar-iq.net
- 10- www.alwahamag.com
- 11- www.ankawa.com
- 12- www.arab-ency.com
- 13- www.arabicbible.com
- 14- www.ava-kyrillos.net
- 15- www.chabadworld.net
- 16- www.echristian.ae
- 17- www.el-kalima.com
- 18- www.elmessiri.com
- 19- www.jesus-nazareth.com
- 20- www.kuwaitheritage.com
- 21- www.mahabatzaidal.com
- 22- www.marefa.org
- 23- www.marmar.co.il
- 24- www.newadvent.org
- 25- www.ou.org
- 26- www.sacred-texts.com
- 27- www.sintgeorgius.nl
- 28- www.spiritandflesh.com
- 29- www.theguideistanbul.com